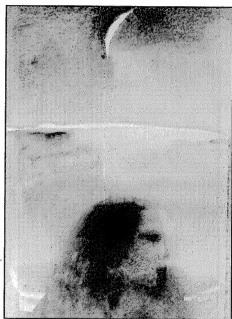


توني موريسون

فركوس

رواية



ترجمة: عيسى باش
راجعه عن الأصل: حماد عبود



Bibliotheca Alexandrina

فردوس

* توني موريسون

* فردوس

* ترجمة: علي باشا

* راجعه عن الأصل: حقاً عبود

* جميع الحقوق محفوظة للدار

* الطبعة الأولى 1999

* الناشر : ورد للطباعة والنشر والتوزيع

سورية - دمشق 3321053

* الاستشارة الأدبية : حيدر حيدر

* لوحة الغلاف : د. أحمد معل

* الإشراف الفني : د. مجد حيدر

* الإخراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع

* التوزيع : دار ورد 3321053 ص.ب 4490

توني موريسون

فردوس

رواية

ترجمة: علي باشا

راجعته عن الأصل: حنا عبود

عنوان الكتاب الأصلي:
Paradise

الفردوس

وأوهام الأرض الموعودة

لا يبدو الأمر على كثير من التعقيد، بل يبدو بسيطاً جداً؛ إنها كاتبة حازت جائزة نوبل للآداب في العام 1993 . أضف إلى ذلك، إن هذه المرأة ذات شعر أشبه بكثة فهد أسود. إنها تمثل سلطة أخلاقية لامثيل لها. تبلغ اليوم السابعة والستين من العمر. في جعبتها سبع روايات فقط لاغير. وهي كتب تصدح - قبل أي شيء آخر - باناشيد البلوز. اسمها؟ توني موريسون، هل يمكن إضافة صفات أخرى؟ بالتأكيد، إنها اليوم سيدة الآداب الأميركية الكبيرة. تقبع خلفها كل الإذلالات التي تعرض لها العبيد السود. أما أمامها، فنجد جميع الوعود بالأخوة التي حاول أدبها أن يعيد إبداعها من جديد. وعود، لم تتأت إلا حين أدارت عنقها لجميع الأحكام المسبقة، فهي تكتب، حسب ما قالت ذات يوم، كي «أبدع النظام والجمال والحياة انطلاقاً مما يحيطني، على الرغم من أن محيطي هذا ليس سوى سديم وبؤس وموت».

هل من أمور أخرى نستطيع ذكرها؟ اسمها الحقيقي كلوي انطوني ووفورد، ابنة مزارعين هاجرا من جورجيا في ألاباما كي يقيما في أوهايو. مطلقة ولها ولدان. عملت ناشرة كتب في «دار راندوم»، وهي حالياً أستاذة في جامعة برنستون.

ماذا أيضاً؟ إذا ما أخفي تاريخ السود في الولايات المتحدة، مطولاً، وبشكل حزين، فإن توني موريسون، حاولت أن تعيد إليه غناه، كما أن تعيد إليه نصيبه في المرات والدموع. فمنذ رواية «صولا» وحتى «بيلوفد» (محبوبة)، ومن «العين الأكثر زرقة» حتى «جاز»، لم تقم موريسون، في رواياتها هذه، إلا بنبش ذاكرة الأفرو - أميركيين المرفوضة، كما بنبش ماضيهم المظلم. ماض نجد فيه جميع النساء وهن يلعبن أتعس الأدوار، لأنهن ضحايا مزدوجات: ضحايا الجنس وضحايا العرق.

تعرضت موريسون لجميع هذه الأفكار في أدبها، بيد أنها لم تسقط في الأدب «الملترزم». إذ عرفت هذه «الديفا السوداء» كيف تضيف إلى آلام شعبها وإلى صرخات المنبوذين فيه، موسيقاها الخاصة وإحساسها المتوحش ورعبها من الأشياء. ثمة زنجية واضحة في كتاباتها، لكنها زنجية مليئة بالجاز. فكتاباتها ترتعش كما لو أننا في حفل. كتابة تبدو أحياناً، كأنها تخرج من «مسلخ فلوبيير» لتتراقص على أنغام طبول ماكس روش. أو تقلد أحياناً صوت ماهاليا جاكسون العذب. كتابة، ليست سوى العيد. فنثرها يهتز ويترنح حتى الثمالة.

مؤخراً، تحولت روايتها «محبوبة» (وهي أكثر كتبها مبيعاً) إلى فيلم سينمائي، قام باقتباسه جوناثان ديم (مخرج فيلم «صمت الحملان»)، وفي الوقت عينه، عادت موريسون إلى الساحة الأدبية عبر رواية جديدة بعنوان «فردوس». فمنذ العام 1993، أي منذ نوبل، لم تكتب شيئاً. لذلك استقبلت الرواية «بالطبل والزمير» في الولايات المتحدة. حتى أن دار النشر لم تتورع عن إصدار الطبعة الأولى من الكتاب في 400 ألف نسخة. «النويورك تايمز»، ولأول مرة في تاريخها، نشرت ثلاث مقالات متتابعة حول الكتاب. أما الكاتبة فقد تصدرت غلاف مجلة «تايم»، في حين فاقت المبيعات كل تصور. أمور رفعت توني موريسون إلى السماء رغم أن «فردوسها» لا يملك في الواقع ألوان جنة عدن.

«منذ أيام همنغواي، لم نجد كاتباً أميركياً حاز نوبل، وهو ما يزال يرسو داخل الثقافة الشعبية». هكذا قالت «واشنطن بوست». ومع ذلك فقد انقسم النقاد حول الرواية، فمن جهة هناك من اعتبر أن الرواية رائعة أدبية، ومن جهة أخرى، هناك من اعتبر أن الرواية رواية نسوية، رمزية جداً، وصعبة على القراءة.

صحيح أن صفحات الرواية البالغ عددها 365 صفحة، تُشتتنا قليلاً، إذ بعد الافتتاحية الرائعة التي تكتبها موريسون، تغوص الكاتبة في الرمال المتحركة، تدرج إحصاراً من الشخصيات، تحرق المراحل، قبل أن تعود لتطير من جديد. لكن، إذا ما وصل القارئ إلى هذه المرحلة، فهو سيقلع معها مجدداً. سيشعر بالبهجة، إذ سيجد عيداً عظيماً تُشعل فيه الروائية نيران هواجسها أي تُشعل مآسي الزنوج، مع العلم بأنها تتحدث فيها أيضاً عن مآزقها وأوهامها ومتاهاتها.

فيما مضى، أعطى المخرج أرنست لوبيتش، لإحدى أروع مسرحياته الكوميديّة، عنوان «متاعب في الجنة». ولو لم تكن هنا، بعيدين عن هذه الكوميديا، لصح العنوان مدخلاً لقراءة كتاب موريسون الأخير، إذ نحن أمام قصة الخروج من الفردوس. والسبب؟ هل هو عنف الرجل الأبيض؟ فساد؟ أم أن المكان الفاضل، ليس سوى وهم لن يستمر؟

نحن في أقصى أقاصي أوكلاهوما، «في وسط اللامكان»، في مدينة صغيرة تدعى روبي. إنها «الدورادو» أخرى، تأسست في الخمسينيات من قِبَل السود كي ينسوا «كيف بصقهم البيض»، كما لينسوا احتقارهم وبغضهم. في البداية، كانت جميع الشوارع تحمل أسماء الإنجلييين لذلك بدت روبي كجنة، حيث «جميع الرجال جميلون وسود مثل الفحم». لقد بنوا مدينتهم بأيديهم حجراً فوق حجر. بنوا أيضاً فرنهم الكبير (الرمز الديني للسعادة التي حصلوا عليها) كما مدرسة لتعليم الثقافة السوداء. وأين هو الشر؟ غير موجود في روبي، إذ لا نجد فيها سجنًا ولا قبراً. فخلال عشرين سنة، وفر الموت السكان الذين يجهلون التلفزيون والشرطة والسينما

والموسيقا المقرفة والكوكلوكس كلان «والشراب على الغداء والمخدرات على العشاء».

بيد أن حيطان بابل هذه، المثالية، انتهت بها الأمر لكي تتحطم. لقد فرض الرجال قانون القلَز (نظرية اقتصادية تقول بأن أجر العامل لا يمكن أبداً أن يتجاوز الحد الحيوي الأدنى) فالطهرانية بدأت تعصف عصفاً، والرجال أصبحوا ينظرون بعين غير نظيفة إلى «الخلاسية»، أي إلى الذين لا يملكون بشرة سوداء صافية... ومن ثم هناك أيضاً، تلك اللعنات الغريبة التي ترفرف فوق المدينة والتي تمارس ضغطها عليها. فتسوء الأمور تدريجاً، تصبح أكثر قلقاً. لذلك تطلب الأمر إيجاد مسؤولين عن ذلك. فلم يتأخر الأمر في اتهام خمس نساء، خمس ساحرات، ناشطات، إلا أنهن مسالمات، ساحرات يضعن أيديهن على دير يبعد 25 كيلومتراً عن روبي.

هناك، في الدير، يجتمعن حول العجوز كونسولاتا، تلك المرأة المدمنة على الخمر، المتوحدة في الكهف. فتؤسس هذه الفتيات - الهاربات اللواتي جمعهن القدر في هذا المكان - نوعاً من «المشرك» (تجمع إنتاجي دعا إلى إقامته الفيلسوف الاشتراكي فورييه وفيه يعيش العمال عيشة مشتركة). بيد أن الحياة لم توفرهن، إذ يُشاهدن أطفالهن وهم يموتون، حبهن وهو يتدهور. لقد تركن كل شيء. ولكي يطردن شياطينهن، بيدأن بالشراب والاحتفال وإقامة الشعائر الغامضة. أما في روبي، فينهمك الجميع في جعلهن من الشياطين. وذات صباح، يهاجم أحد رجال «الكوماندو»، وكان مسلحاً بالبنادق والقنابل، الكهف. فتقع المجزرة. تسقط النساء، وسرعان ماتت في أجسادهن المضرجة بالدماء. هل متن حقاً؟ ثمة نهاية مفتوحة، تترك موريسون الشك ليطوف فوقها. كذلك تضاعف الكاتبة سخريتها كي تسوط أحلام روبي السوداء، المجنونة، «هذا السجن الذي أعطى لنفسه اسم مدينة».

حين صدرت «فردوس» في ترجمتها الفرنسية، سألت صحيفة «ليبراسيون» الكاتبة التالي: «بالنسبة إلى سود مدينة روبي، كانت الجنة في الهرب من البيض والإقامة في أعماق أوكلاهوما كي

يعيشوا فيما بينهم، بيد أن ثمة واقعة تاريخية تفيد أن مجموعات السود قد شُكِّت مدناً في هذه المنطقة مع بداية القرن، إلا أن روايتك تذهب إلى أبعد من ذلك. إنها استعارة حول أوهام الأرض الموعودة».

وتجيب موريسون: «أجل، فأمركا هي البلد الذي جاءه الناس كي يجدوا فيه الجنة، أكانوا من «الكويكرز» أو «الأميش» أو «المورمون» أو الحجاج الآخرين... جميع هذه الطوائف وصلت إلى هنا، وقالت: وجدت المكان الذي بحثت عنه. والسبب في ذلك طبيعة المكان...».

من هنا تيدو هذه اللوحة عن عدن التي تحولت إلى جهنم - والتي ترسمها موريسون - كأنها سخريّة فذة وفجّة من الطوباويات المنقّذة. إنها اتهام للاندماج العرقي فهذه الرواية ليست سوى ألعاب نارية للسحر والعنف. عنف الشغف المتعصب. وسحر النساء والطبيعية، إذ نحن أمام «هكتارات من خب الهال والبرتقال المحروق... وديان من زرقّة الليل، مع سماوات من الليل الليلي الذي يشقّ الروح».

أين الفردوس في كل ذلك؟ إنه غير موجود إلا في الكلمات، فكلمات موريسون ترقص بشكل رائع. تشتعل مثل الشموس السوداء. إنها نشيد خلاسي، متقاطع، يرن فيه صدى اللحم والدماء والفتيات المغتصابات، المضرجات بالعرق والدم. من هنا، ثمة سؤال لا بد من أن يطرح نفسه، هل تشكل رواية «فردوس»، الجزء الأخير من ثلاثية بدأت مع «بيلوفد» وتتابع مع «جان» وانتهت بهذا الكتاب الأخير.

ثمة أمور مشتركة كثيرة بين هذه الكتب. فقط عن الرغبات والحب المحرم وأشباح الماضي، واكتشاف البؤس والتاريخ، هناك أمر واحد لا نستطيع تجاوزه... فموريسون هي ملكة الآداب الأميركية. بالأحرى، إنها الحاكمة بأمر...

اسكندر حبش

Lois

لأنها كثيرة أشكال الملذات التي توجد
في الخطايا العديدة،
والشهوات الجنسية،
والأهواء الدنيئة،
والمُلذَّات العابرة،
التي يتعاطاها (الرجال)
قبل أن يصبحوا حكماء
ويرتفعوا إلى مكان راحتهم الأبدية
وهناك سوف يجدونني
وسوف يعيشون،
ولن يموتوا أبداً.

روبي

أطلقوا النار على الفتاة البيضاء أولاً. وبالنسبة للبقية، فإنهم يستطيعون أخذ وقتهم، ولا حاجة للعجلة فهم على بعد سبعة عشر ميلاً عن مدينة تقع على مسافة تسعين ميلاً عن أي مدينة أخرى. وستكون المخابئ عديدة في الدير، ولكن مازال هناك وقت فالنهار قد بدأ للتو.

إنهم تسعة، أكثر بمرتين من عدد النساء اللواتي كان عليهم أن يجعلوهن يهربن أو أن يقتلوهن، ومعهم كل مايلزم للقيام بهذه المهمة: حبال، صليب من سعف النخيل، أصفاد، قضيب شوكي^(٥)، نظارات سوداء، وكذلك بنادق جميلة ونظيفة جداً.

لم يسبق لهم أبداً أن دخلوا إلى هذا العمق في الدير. سبق لبعضهم أن ركنوا سيارات الشفروليه قرب المدخل لكي يأخذوا مشكاة فليفلّة أو أنهم دخلوا إلى المطبخ من أجل إناء مرق التوابل، لكنّ قلة منهم فقط شاهدوا القاعات، والمصلّى، وغرفة الدرس والغرف الأخرى. والآن جميعهم سيفعل. وسيذهبون أخيراً لمشاهدة القبو ليعرضوا قذاراته في الضوء الذي سيجلو عما قريب سماء أو كلاهما. وبانتظار ذلك، كانت الملابس التي يرتدونها تقلقهم - فقد أدركوا فجأة أنها غير مناسبة. فكيف يمكن أن يتصوروا البرد

(٥) قضيب كان يستخدم للتعذيب في العصور الوسطى.

الذي يسود داخل الدير في فجر يوم من أيام شهر تموز؟ لقد كانت قمصان الـ«تي شيرت» وقمصان العمل والداشيكي^(*) التي يرتدونها تمتص البرد مثل الحمى. وأولئك الذين ينتعلون أحذية العمل كانوا يخشون جلبة وقع أقدامهم التي تدوي على أرضيات الرخام، والذين ينتعلون الـ«برو- كيدز»، يشعرون بالخوف من الصمت. ثم هناك المهابة. الرجلان اللذان كانا يضعان ربطات عنق، ظهرا كأنهما في منزلهما، وكل منهما يذكر بدوره أنَّ هذا البيت، قبل أن يكون ديراً، كان جنون أحد المختلسين. وهو بيت أرضيات رخامه الوردي والأبيض تعقب الأرضيات المغطاة بخشب الساج. صفائح من حجر السيكال الذي يحتفظ بضوء من الزمن القديم، وجدران مزينة، قُشِرت، وجرى تبييضها بالكلس منذ خمسين عاماً. اكسسورات الحمام غير المالوفة والتي كانت تثير اشمئزاز الراهبات، استبدلت بحنفيات بسيطة وعادية، أما المغاطس والمغاسل الفخمة التي لم يكن استبدالها ممكناً دون نفقات باهظة، فقد ظلت تالفة بكل هدوء. أزيل ما أمكن إزالته من مظاهر مباهاج حياة ذلك المختلس، بشكل رئيسي في غرفة الطعام التي حوّلتها الراهبات إلى غرفة للتدريس جلست فيها سابقاً، فتيات عاقلات من الآرأباهو وتعلمن النسيان.

والآن هنالك رجال مسلحون يفتشون الغرف التي تتأرجح فيها سلال مكراميه^(**) إلى جانب الشمعدانات القلامندية، وحيث يشع المسيح وأمه في مشكاة زينت بالعناقيد. وقد نزع «أخوات الصليب المقدس» جميع الحوريات بالإزميل ولكن استطالات شعرهن للرخامي المنحنية مازال تحصر أوراق الكرمة وتندس بين عناقيد العنب. كان البرد يشتد مع انتشار الرجال في أعماق الدير، كانوا متمهلين في سيرهم، يصغون وينظرون، متيقظين، بسبب مكر النساء المختبئات هنا في كل مكان ورائحة الخميرة والزبدة والعجين الذي يختمر.

(*) قميص أفريقي فضفاض يرتديه الرجال فقط.

(**) مكراميه: كلمة تركية تعني كل عمل مشغول بأشرطة الزينة. والسلال المكراميه هي المشغولة من سيور وأشرطة وأربطة، تعلق في الحائط أو تعلق في السقف للزينة.

التفت أحدهم، وهو الأصغر سنًا، مرغماً نفسه على رؤية كيف يمكن للحلم الذي يعيشه أن يستمر. المرأة القتيلة، المستقلية على الأرض الرخامية في وضعية غير مريحة، تشير له بأصابعها - أو أن هذا مابدا له. حلمه كان يجري إذن كما ينبغي، عدا ما يتعلق باللون. فلم يسبق له أبداً أن حلّم بالألوان كهذه: أسود قائم تمتد فيه سحابة عنيفة من الأحمر، ثم أصفر كثيف ومحموم، كملايس امرأة تم افتراعها بسهولة. توقف القائد ورفع يده اليسرى لكي يوقف الأشخاص الذين يتبعونه، فتوقفوا، التقطوا أنفاسهم وبصورة ودية أعادوا أيديهم التي كانت تشدّ على بنادق أو مسدسات إلى أماكنها. التفت القائد، وبإشارة فصل بين رجاله: أنتما الاثنان، اذهبا من هنا نحو المطبخ، اثنان آخران إلى فوق، اثنان إلى المصلى. واستبقى للقبو نفسه هو وأخوه وذلك الذي يعتقد أنه يحلم.

انفصلوا بكل مودة، دون عجلة ودون أن ينبسوا ببنت شفة. وقبل قليل، عندما اقتحموا باب الدير، كانت طبيعة مهمتهم تسبب لهم الدوار. ولكن هدفهم، على أية حال، عبارة عن حطام: أناس منبوذون يعودون أحياناً إلى الغرفة بعد كنسهم خارج الباب. وهكذا بات السم مسيطراً عليه الآن. فقتل المرأة الأولى (البيضاء) جعلهم رائقين كالزبدة: زيت الكراهية النقي في الأعلى، والجزء القاسي مستقر في الأسفل.

في الخارج، بلغ ارتفاع الضباب طول القامة، وعمًا قليل سيصبح فضياً ويجعل أقواس قزح الحشائش منخفضة كفاية كي يلعب عليها الأطفال، قبل أن تبزدها حرارة الشمس، فتتكشف مساحات من الأعشاب وربما آثار امرأة ساحرة أيضاً.

المطبخ أكبر من البيت الذي ولد فيه أي واحد من هؤلاء الرجال. والسقف يعلوه مخزن حبوب خشبي. وفيه من الخزائن الجدارية أكثر مما في بقالية إيس. ويبلغ طول المائدة أربعة عشرة

قدماً، يمكن أن تنقص بوصة، ومن السهل أن يلاحظ المرء أنَّ النساء اللواتي يطاردونهنَّ قد أخذن على حين غرة: ففي أحد أطرافها إبريق مليء بالحليب وضع بجانب أربعة أو إن طفحت بالحبوب المجففة. وفي الجانب الآخر، حدث التوقف عن تقطيع بعض الخضار: البقلة المفرومة كحفنة من الأوراق الخضراء المقصوصة إلى قطع صغيرة، تتلألأ بينها حلقات الجزر، ولكن البطاطا التي فُشّرت وبقيت كاملة على حالها، بدت بيضاء بلون العظام رطبة وذات قوام متماسك، والحساء يغلي على موقد بحجم موقد أحد المطاعم الكبيرة، إذ أنَّ له ثمانية رؤوس، وعلى أحد الرفوف، تحت السقيفة المعدنية الكبيرة، أُسندت نحو اثني عشر قرص خبز تختمر. وهناك كرسي مقلوب. ولا توجد أية نوافذ.

أشار أحد الرجال إلى آخر أن يفتح غرفة المون بينما يذهب هو نحو الباب الخلفي الذي كان مغلقاً ولكنه ليس مقفلاً. ألقى نظرة إلى الخارج فرأى دجاجة مسنة، مؤخرتها مننفخة وحمراء بلون الدم، افترض أنها توشك أن تبيض - بيضات ضخمة: فيها صفاران أو ثلاثة ضمن أغلفة كبيرة الحجم ومشوّهة. أصوات الدواجن المكتومة تأتي من القرن الكائن خلف البناء. دجاجات تنقر الحبوب هناك بكل هدوء واطمئنان في الضباب، حيث تختفي تارة، ثم تظهر، لتختفي بعد ذلك من جديد، عيونها فارغة لاتعير اهتماماً إلا لطعامها. ليس هناك آثار أقدام تعكّر الطين حول درجات السلم الحجري. أغلق الرجل الباب وتبع رفيقه إلى غرفة المون. أخذاً يفتشان معاً «جرار مايسون»^(٥) التي يعلوها الغبار وما بقي من مغليات العام السابق: بندورة، فاصولياء خضراء، دراق. قالوا لنفسيهما: نساء خاملات، فهما شهر آب على الأبواب وهن حتى لم يفرزن الجرار، فضلاً عن غسلها.

أطلقا الموقد تحت قبر الحساء. كانت أمه تغسله في قدر ليس أكبر من هذا. وهذا يُعتبر ترفاً في الكوخ الذي ولدَتْ فيه. أما البيت

(٥) أوعية زجاجية منزلية محكمة الإغلاق تمنع تسرب الهواء.

الذي يسكنه اليوم فهو واسع، مريح، وهذه المدينة رائعة إذا قورنت بتلك التي ولد فيها والتي خلال خمسين سنة سقطت على بطنها بعد أن كانت واقفة على رجليها. من هافن مدينة حالمة في منطقة أوكلاهوما، إلى هافن مدينة الأشباح في ولاية أوكلاهوما. والمحزرون، الذين كانوا يقفون منتصبين على أقدامهم عام 1889، سقطوا راكعين سنة 1934، ثم أخذوا يزحفون على بطونهم في عام 1948. من أجل ذلك هم موجودون الآن هنا، في هذا الدير: لكي يتأكدوا من أن هذا لن يتكرر ثانية أبداً. فلا شيء في الداخل أو الخارج يفسد المدينة الوحيدة السوداء بكاملها، يستحق الألم. فكل المدن الأخرى التي عرفها أو سمع عنها، كانت قد خضعت أو انصهرت وتحولت إلى مدن بيضاء، وإلا فإنها مثلها في ذلك مثل هافن قد انكشفت فلم تعد سوى فتيلة معدنية تنمو: حدود الأساسات الواضحة من الطريقة التي تنمو الأعشاب حولها، وورق الجدران الذي تنعكس ألوانه خلف النوافذ التي تحطم زجاجها، وأرضيات المدرسة التي باعدت بينها أشجار البيلسان وقد نبتت عالياً باتجاه المكان الذي يستقر فيه الجرس. عام 1905 بلغ عدد السكان نحو ألف، تقلص إلى 500 عام 1934، ثم 200، وأصبح 80 عندما انهار القطن أو عندما أخذت شركات الخطوط الحديدية تمد خطوطها في مناطق أخرى. وزراعة المواد الغذائية وهي الكرم الوحيد الذي كانت تحتاجه الأسرة الكبيرة العدد فيما مضى، أصبحت زراعة فائضة عن الحاجة كلما تزوج أحد أبناء الأسرة واستولى على حصته من الأرض، التي عليه أن يقسمها أيضاً بين أولاده، إلى أن يرحب أصحاب تلك الحصص الصغيرة، الذين لم يقرقروا ويغادروا المنطقة، بأي سعر يعرضه عليهم مساوم أبيض. لأنهم متلهفون للمغادرة لكي يجربوا مكاناً آخر. هذه المرة مدينة كبيرة، أو قرية صغيرة - أو أي مكان تم إعمارها.

لكنه هو والآخرون، وجميعهم من المحاربين القدماء، لديهم فكرة مختلفة. ولأنهم يحبون ماكانت عليه هافن - الفكرة التي كونوها عنها، وحجمها - فقد نقلوا هذا الإخلاص، رعوه وغذوه،

من باتان إلى غوام ومن أيوجيما إلى شتوتغارت، وقرروا أن يبدؤوا من جديد. لمس الموقد وأعجب ببناؤه وقوته. إنه بطول القرن المبني من الآجر الذي كان ينتصب فيما مضى وسط المدينة التي ولد فيها. والذي بعد عودتهم إلى الولايات المتحدة، فكّكه ونقلوا قرميداته، وبلاطة موقده والصفحة الحديدية إلى مسافة مئتين وأربعين ميلاً باتجاه الغرب - بعيداً، وبعيداً جداً عن شعب «كريك» القديم - في منطقة أسمتها إحدى الحكومات الظرفية ذات مرة «الأرض غير المخصصة». وهو يتذكر الاحتفال الذي أقاموه عندما ثبتوا اللوحة المعدنية وصلقوا وجلوا الحروف البالية لكي يراها الجميع. وهو نفسه قد ساعد على إزالة اثنتين وستين سنة من الدخان والدهن الحيواني لكي تلمع الكلمات وتبدو بالبريق نفسه الذي كانت عليه عام 1890 عندما كانت جديدة. وإذا كان هذا أمراً مؤلماً - أن يفكّكوا ما جمّعه أجدادهم - فإنّ هذا ليس شيئاً يذكر إذا ما قورن بما تحملوه وبما يمكن أن يصبحوا عليه لو لم يبدؤوا من جديد. وباعتبارهم آباء مازالوا في سن الشباب، ناضلوا ضد العالم أجمع، فإنهم لا يستطيعون (ولا يرغبون) أن يكونوا أقل شأناً من «الآباء القدامى» الذين احتالوا على ذلك العالم. والذين لم يسمحوا للخطر أو لأذى الطبيعة أن يمنعه من إخراج هافن من الوحل، والذين كانوا على درجة كافية من المكر، بحيث جعلوا انتصارهم يتوقف عند تحقيق هذه الأولوية. قرن مكور كالرأس، عميق كالرغبة. الآباء القدامى الذين كانوا يعيشون في عرباتهم أو بقريها، ويطبخون طعامهم في الهواء الطلق، ويقطعون الأعشاب و«المسكيت»^(٥) ليصنعوا لأنفسهم ملجأ يأوون إليه، قاموا أولاً بهذا: ركزوا الجانب الأساسي من قواهم في بناء الفرن الضخم الذي وضعوا تصوراً تاماً له، فكان يطعمهم ويجسد في الوقت نفسه ما أنجزوه. وعندما أنجز - بعد أن ثبتت كل قرميدة زاهية بعناية، المدخنة واسعة وعالية، والأوتاد والمشواة آمنة، وجرى تأمين عمل السحب المنتظم بواسطة الأنبوب الخلفي، وركّب الباب بشكل متوازن - عند ذلك قام عامل الحدادة

(٥) المسكيت: نبات شائك.

بعمله. فصنع من إطارات برميل وجسور عربات مكسورة ومرجل ومسامير معوّجة، صفيحة حديدية طولها خمسة أقدام وعرضها قدما، ثبّتها تحت فتحة القرن. مازال غير معروف تماماً من أين أتت الكلمات. شيء ما سبق أن سمعه، ابتدعه، أم شيء ما هُمس له أثناء نومه، وهو ملتبس حول أدواته على مرقد إحدى العربات. كان يدعى مورغان، وهو يستطيع القول فيما إذا كان قد ابتدع أو سرق نصف دزينة الكلمات التي نحتها. كلمات، بدت في بداية الأمر، أنها تجلب لهم السعادة، وتحيرهم فيما بعد، وفي النهاية تخبرهم بأنهم قد خسروا.

أخذ الرجل ينظر إلى حوض المطبخ. اقترب من المائدة الطويلة رفع إبريق الحليب، شمّه في البداية، وبما أنه يمسك المسدس بيده اليمنى، استخدم يده اليسرى لرفع الإبريق إلى فمه وشرب جرعات طويلة بحيث اختفت نصف كمية الحليب، وعند ذلك شمّ رائحة عطر شجيرة الغلطيرة^(٥).

في الطابق العلوي، يتقدم رجلان في الممر ويتفحصان الغرف الأربع التي ثبت على باب كل منها بطاقة إسمية. كان الاسم الأول، سينيك، مكتوباً بأحمر الشفاه. الثاني هو ديثاين مكتوب بالحبر وبأحرف كبيرة. تبادل الرجلان نظرة تفاهم عندما تبين لهما أن كل امرأة منهن لاتنام في سرير. كما يفعل الناس العاديون، بل في أرجوحة. لم يكن هنالك قطع أثاث أخرى سوى مكتب ضيق أو منضدة صغيرة. وبالطبع لا يوجد ملابس في الخزائن الجدارية، لأن هؤلاء النسوة يلبسن فساتين واسعة ووسخة وأشياء للأمانة لا يمكن أن تسمى أخصية، ولكن هناك أشياء غريبة معلقة على الجدران، أو مسنودة في زوايا الغرف. تقويم لعام 1968 ، وإشارات «X» تحمل

(٥) شجيرة في شمال أمريكا، والكلمة مترجمة عن الألمانية.

تواريخ مختلفة (4 نيسان، 19 تموز)؛ ورسالة مكتوبة بالدم تعلقها بقع كثيرة بحيث لا يمكن فك رموز مضمونها الشيطاني، لائحة تنجيمية، قبعة مخملية وضعت بشكل مائل على عنق تمثال نسائي نصفى مصنوع من البلاستيك. وفي بيت كان يؤوي في السابق بعض المسيحيين - وأيضاً كانوا من الكاثوليك - لا يوجد أي صليب للمسيح. لكن الأمر الذي أقلق الرجلين كثيراً هو وجود مجموعة كبيرة من أحذية وصنادل الأطفال والرضع، مربوطة بشريطة إلى سرير طفل في آخر غرفة دخلا إليها. تتأرجح بين الأحذية الصغيرة حلقة يحك الأطفال أسنانهم بها قاسية ومشققة. وبمنظرة منه أرسل أحد الرجلين رفيقه نحو الغرف الأربع الأخرى الكائنة في الجانب الآخر من الممر. اقترب من حزمة أحذية الأطفال. عمّ يبحث؟ أعن دليل آخر؟ إنه لا يعرف. أعن دم؟ ربما عن إصبع قدم طفل، صغير جداً، تُركت في حذاء أبيض صنّع من جلد البقرة زُلق مفتاح الأمان في بندقيته وذهب هو أيضاً ليفتش عبر القاعة.

هذه الغرف عادية، قذرة، تعلق أرضها الأوساخ وقد غطت أرض إحداها الصحنون التي تعلقها طبقة يابسة من الطعام وبعض الكؤوس والفناجين الوسخة، والسرير لا يمكن رؤيته لأنه مدفون تحت جبل من الملابس. وفي غرفة أخرى ينتصب كرسيان هزازان تغطيهما اللّمي، ولعب الأطفال، وفي الغرفة الثالثة وجد الرجلان بقايا شراب وطعام رائحة إحدى كبرى السكّيرات - ولكن الغرف كانت عادية على الأقل.

رضابهُ مر المذاق، ومع أنه يعلم أن هذا المكان غير صحي، فقد ألقاه سوط الشفقة الذي يضرب صدره وأخذ يتساءل: ماذا يمكن أن تفعل حقاً هؤلاء النسوة؟ وكيف استطاع دماغهن البسيط جداً تخيل مثل هذه الأشياء: نشاطات جنسية مقرّزة، وخداع وتعذيب مكر للطفال؟ هنا، في هذا المجال الرحب، وقد خُبسن في هذا المسكن - وليس هناك من يزعجهنّ ولا من يشتمهن - وقد نجحن في جعل قيمة كل امرأة عرفها تقريباً، موضع جدل. وثنّ المعطف الشتوي الذي وفّر أبوه، سراً، خلال موسمين، والبريق في عيني أمه

عندما داعبت ياقته المصنوعة من جلد الفقمة. والحفلة الراقصة غير المتوقعة التي أقامها هو وأخوته بمناسبة عيد ميلاد إحدى أخواتهم السادس عشر. ومع ذلك فهنا، على مسافة تقل عن عشرين ميلاً عن جماعة هادئة ومقبولة، تعيش كما ينبغي، يوجد نساء لايشبهن أي امرأة عرفها أو سمع عنها. وبالضبط هنا. وحيدة ومنعزلة كانت مدينته، وراضية بصورة مشروعة بما هي عليه، لم يكن فيها سجن، ولا حاجة لها به. فلم يولد أي مجرم في مدينته أبداً. وكانوا يتحملون مسؤولية الاثنين أو الثلاثة الذين يرتكبون الحماقات ويهينون عائلاتهم أو يشوهون الفكرة التي كونتها المدينة عن نفسها. لكن من المؤكد أنه لا يوجد في المدينة أي شخص سافل قذر ولا أية امرأة كسولة خاملة، وقد تبادر إلى ذهنه أن أسباب ذلك واضحة: فمنذ البداية كان ذوهه أحراراً، يتمتعون بالحماية. وعندما كانت إحدى النساء لا تستطيع النوم، يمكنها أن تغادر سريرها في أي وقت، فتلقي وشاحاً على كتفها وتجلس على إحدى درجات السلم في ضوء القمر. وإذا رغبت بالخروج، فإنها تستطيع أن تخرج من الباحة وتنزل إلى الشارع، بلا مصباح وبلا خوف. فلا يخيفها أبداً أي صوت أو صفيح يأتي من جانب الطريق، أياً كان مصدره، ولا شيء هناك يمكن أن يحاول مهاجمتها على حين غرة. وعلى مسافة تسعين ميلاً في الاتجاهات كافة، لا شيء يعتبرها فريسة. فهي تستطيع أن تمشي بالبطء الذي تريده، وتتذكر وصفات الطبخ، وتستعيد ذكريات الحرب، والقصص العائلية، أو أن توجه نظرها نحو النجوم دون أن تفكر أبداً بأي شيء. وهكذا يمكنها متابعة طريقها عبر الظلام دون أن يعترضها أي خوف. وإذا لفت انتباهها ضوء مصباح يسطع في بيت بعيدٍ بعض الشيء وبكاء طفل يعاني من المغص، ينبعث من هناك، فإنها تستطيع الذهاب إلى ذلك البيت وتنادي بهدوء المرأة التي تهدئه في الداخل. وبإمكانهما بعد ذلك تدليك بطن الطفل كل واحدة بدورها، وأن تهزا له السرير وتحاولا إعطائه قليلاً من ماء الصودا. وعندما يهدأ الطفل ويرقد، يمكنهما أن تجلسا جنباً إلى جنب لبعض الوقت لكي تضحكا وتتبادلا الأحاديث بصوت منخفض كيلا توقظا أحداً.

بعد ذلك تستطيع المرأة أن تقرر العودة إلى منزلها، وقد استرخت وأصبحت مستعدة للنوم، أو أن تتابع السير في الاتجاه نفسه، فتتزل إلى الطريق وتمر أمام بيوت أخرى، أمام الكنائس الثلاث، أمام المراعي. ثم تخرج فتجتاز حدود المدينة فلا شيء هناك يمكن أن يعتبرها قريسة.

في كل طرف من الممر يوجد حمام. وكل من الرجلين دخل واحداً منها وهو ما يزال يصير على أسنانه، لأنهما كانا يتوقعان كل شيء. في أحد الحمامات، وهو أكبرها، بدت الحنفيات صغيرة جداً، لانتناسب مع المغسلة الضخمة. المغطس يركز على ظهر أربع حوريات - أذنانها مشقوقة شقاً واسعاً لكي تسند المغطس بشكل أفضل وصدورها مقوسة من أجل المزيد من الثبات. الأجر تحت الأقدام مخضر مثل زجاجة خضراء. علبة «مودكس» على خزان السيفون، وبجانبها سطل مملوء بأشياء وسخة. لا يوجد ورق تواليت. هناك مرآة فقط لم تُطل بالكس، وقد تجاهلها الرجل: فهو لا يريد أن يرى نفسه وهو يبحث عن النساء أو سوائهن. شعر بالارتياح، فخرج وهو يسير إلى الخلف، وأغلق الباب. هدا روعه، فوجه فوهة بندقيته نحو الأرض.

وفي الأسفل، كان هناك رجلان، أب وابنه، لا يتسمان، وإن كانا يرغبان بذلك عندما دخلا إلى المصلى لأن ذلك بدا صحيحاً: كانت تُعبد فيه أصنام منحوتة. رجال ونساء بأجساد صغيرة، يرتدون فساتين بيضاء وأردية ذهبية وزرقاء، وضعوا على رقوف صغيرة نحتت داخل كوى في الجدار. يضمون طفلاً رضيعاً أو يرفعون أيديهم. ووجوههم الخالية من الإحساس تصطنع البراءة. وقد أشعلت الشموع عند أقدامهم، تماماً كما قال المحترم بوليام: لاشك أنهم قد قدموا لهم الطعام أيضاً لأن هناك أوان صغيرة على جانبي المدخل. وعندما سينتهي كل شيء، سيقولون للمحترم بوليام بأنه كان مصيباً فيما قاله، وسيضحكون في وجه المحترم ميسيز.

ثمة فروق متعارضة بين الجماعات المذهبية في المدينة ولكن أعضاء من كل منها اتحدوا بقوة حيال ضرورة هذا العمل: افعلوا مايجب عليكم أن تفعلوه. لايمكن أن يستمر هذا، لا الدير ولا النساء اللواتي فيه.

بالأسف. فيما مضى، كان الدير جاراً حقيقياً، وإن بدا بعيداً بعض الشيء، محاطاً بحقول القمح، بالعشب والنفل الذي يريعه البوفالو، يؤدي إليه درب ترابي يكاد لا يرى من الطريق العام. والمسكن الذي أصبح ديراً كان موجوداً هناك قبل وجود المدينة بكثير، وآخر المقيّمات فيه من الأرباب هو كن قد غادرته حين وصلت العائلات الخمس عشرة. حدث ذلك قبل خمسة وعشرين عاماً، عندما كانت جميع الأحلام تسمو بالرجال الذين يحلمون بها. كانوا قد شقوا طريقاً مستقيماً كالقالب يخترق مركز المدينة وأقاموا على أحد جانبيه رصيفاً مبلطاً. سبع عائلات كانت تملك أكثر من خمسمئة أكر، وثلاث عائلات مايقرب من ألف. وشيئاً فشيئاً، عندما أصبح الطريق شارعاً يحمل اسماً، نظم رجل يدعى أوسي سباقاً للخيل، احتفالاً بالحدث. والناس الذين كانوا يسكنون في خيام عسكرية، وفي بيوت نصف منتهية، على أراضٍ قد استصلحوها لتقوهم، أتوا على ظهور خيولهم وجلبوا ما عندهم، أخرجوا أشياء كانوا يحتفظون بها على سبيل الاحتياط إلى وقت الحاجة، وأشياء أخرى ظهرت بشكل مفاجئ: غيتارات، بطيخ متأخر النمو، بندق، فطائر الراوند والأرغن الذي يعزف بالفم، حوض غسيل، وحمل مشوي، أرز بالفلفل، «ليل غرين»، «في الظلام»، «لويس جوردان» و«طبلة الأذن الخامسة»، بيعة منزلية، لحم المرموط^(هـ) المقلي والمطهو على مهل بالصلصة. وقد ربطت النساء شعورهن بالشرائط ذات الألوان الزاهية، وصنع الأطفال لأنفسهم قبعات من الخشخاش البرّي وكريمة النهر. كان أوسي يملك فرساً في الثانية من عمرها وأخرى في الرابعة من عمرها، سريعتان وأنيقتان كأنهما عروسان.

(هـ) المرموط: حيوان لبون قارض ينام طوال الشتاء.

أما الخيول الأخرى فكانت مجموعة بسيطة: كحصان إيس المرقط، وحصان الآنسة إستير المسنّ، وأحصنة الفلاحة الأربعة التي يملكها ناثنان بالإضافة إلى فرسه، وكذلك حصان صغير نصف مروّض لا يملكه أحد ظل يرمى بحريّة على ضفة الجدول.

اختلف الخيالة مطوّلاً ليعرفوا فيما إذا كانوا سيمتطون الجياد بسرج أو بدون سرج، واستغرق ذلك وقتاً طويلاً، مما دفع بعض النساء اللواتي كنّ يُرضعن أطفالهن إلى أن يطلبن منهم إما امتطاء جيادهم أو ترك المجال لآخرين كي يقوموا بذلك. فاتفق الرجال على شروط سباق العدل^(٥). وراهنوا مرشحين بأرباع دولارات، وعندما دوى الطلق الناري، ثلاثة أحصنة فقط انطلقت إلى الأمام. أما الخيول الأخرى فقد سارت بصورة جانبية أو أنها قفزت فوق الأخشاب المقدّسة بقرب البيوت التي لم ينجز بناؤها بعد. وعندما حدث السباق أخيراً زغردت النساء من المرج، بينما أطفالهن يصرخون ويرقصون بين الحشائش التي تصل إلى أكتافهم. ووصل الحصان الصغير في الطليعة، لكن باعتباره أسقط خياله بعد ربع ميل، فقد أصبح الفائز فرس ناثنان السمراء. ثم اختيرت الفتاة الصغيرة التي على رأسها أكبر كمية من الخشخاش لكي تُقدّم لخيال تلك الفرس شريط الفوز الذي غلّق عليه وسام أوسي «القلب الأرجواني»، أما الفائز فكان في السابعة من العمر، وقد بدا مبتسماً، وكأنه فاز في سباق «كنتاكي ديربي»^(٥٥). واليوم تراه في مكان ما في قبو الخمرة لأحد الأديرة، يبحث عن نساء فظيعات لم يكنّ أبداً، عندما وصلن الواحدة بعد الأخرى، راهبات حقيقيات، أو مدعيات الرهبنة، بل كنّ، على ما يُظن، من أتباع عبادة ما. لم يكن أحد يعرف ذلك. لكن ليس لذلك أية أهمية، لأن كل واحدة منهنّ استمرت بدورها، مثلما فعلت الأم الرئيسة وخدامتها، في بيع بعض المنتجات، صلصة الشواء، الخبز الجيد، والفليفلة الأشدّ لذعاً في العالم. وبسر مرتفع

(٥) سباق العدل: سباق يُتساهل فيه مع الضعيف أو يُفرض على القوي عبء إضافي بحيث تصبح فرص الكسب متكافئة.

(٥٥) أهم سباق للخيول في الولايات المتحدة.

كان يمكن شراء مشكاك من الفليفة أو البهارات المصنوعة منه. كل منها يتفوق حسب قوة اللذع التي يحتويها. أما البهارات فكانت تبقى لسنوات إذا لقيت العناية. ورغم المحاولات العديدة التي قام بها كثير من الزبائن، الذين زرعوا البذور، فإن تلك الأنواع من الفليفة لم تكن تنبت في أي مكان خارج حديقة الدير.

كان أكثر الناس يقولون إنهن جارات غريبات الأطوار، ولكنهن مسالمات، بل أكثر من مسالمات، إنهن خدومات في المناسبات، فهن يستقبلن الناس - التائهين أو المحتاجين للراحة. وقد تحدث التقارير الأولى عن طبيعتهن وطعامهن الجيد جداً. أما الآن، فالجميع يعلمون أن كل ذلك لم يكن سوى أكاذيب، واجهة ومظاهر رُتبت بعناية كي تخفي ما كان يحدث في حقيقة الأمر. وعندما أصبحت الخطورة واضحة، التقى ممثلون عن الكنائس الثلاث قرب الفرن، لأنهم لم يتوصلوا إلى الاتفاق على معرفة أية كنيسة يجب أن تضم الاجتماع الذي سيقرر فيه ماذا يجب عمله، لأن النساء تجاهلن جميع التحذيرات.

عُقد الاجتماع بصورة سرّية، ولكن الإشاعات تحدثت عنه منذ أكثر من سنة. فالإساءات التي تراكمت طيلة ذلك الوقت أصبحت تشكل أدلة. أم صرعتها ابنتها القاسية تحت الدرج. أربعة أطفال ولدوا مشوهين في أسرة واحدة. وبعض الفتيات كنّ يرفضن مغادرة السرير. وعدة عرائس اختفين أثناء شهر عسلهن. أخوان تبادلوا إطلاق النار على بعضهما من مسدسيهما مساء عيد رأس السنة. وباتت الرحلات إلى دمبي من أجل الحصول على حقنة ضد الأمراض الزهرية، عملة رائجة، وما كان يحدث في الفرن في تلك الفترة، يفوق إدراك ما يُسمع عنه. ولذلك فعندما قرر تسعة رجال أن يلتقوا فيه، كان عليهم أولاً أن يطردوا أولئك الموجودين فيه تحت تهديد بنادقهم، قبل أن يتمكنوا من الجلوس في ضوء مصابيحهم اليدوية لكي يحملوا مسؤولية الأمور على عاتقهم. فالأدلة التي حصلوا عليها منذ الاكتشاف الرهيب الذي حصل في فصل الربيع، لا يمكن نكرانها:

أن مايربط بين جميع هذه الكوارث موجود في الدير. وأولئك النسوة كن في الدير.

سار الأب في ممر المصلّى وهو يتفقد ويفتش المقاعد، يميناً ويساراً، بينما مصباحه اليدوي ماركة «بلاك آند ديكر» يلقي حزمة ضوء تحت كل مقعد. قلّب المراكيع، وتوقف أمام المذبح. تأرجحت فوقه نافذة ذات لون أصفر باهت في العتمة. بدت الأشياء غير نظيفة. اقترب من صينية عليها أقذاح صغيرة ووضعت على الجدار الصغير، ليرى إذا كان فيها بقايا من طعام القربان. وفيما عدا اللوسخ ونسيج عنكبوت كانت الأقذاح الحمراء فارغة. ربما لم تكن مخصصة لتقديم الطعام بل لتلقي النقود. أم لتلقي الأوساخ؟ وهناك علكة ملفوفة بأوسخ غلاف. إنها من التناع الحاد.

هز رأسه ولحق بابنه خلف المذبح. بسط الابن ذراعه. أضاء الأب الجدار، عند أسفل النافذة الصفراء التي بالكاد تبدو منها أشعة الشمس. بدت لهما جوانب صليب ضخم وبدا المكان الذي اعتاد أن يكون فيه المسيح نظيفاً كما لو أنه طلي حديثاً.

الشقيقان اللذان أخذاً يقتربان من القبو كانا فيما مضى متماثلين تماماً. ومع أنهما توأمان، فإن زوجتيهما تتشابهان أكثر منهما. أحدهما ظريف ورشيق ويدخن سيجار «تي أمو»، أما الآخر فأكثر قسوة وأكثر بخلًا، ولكنه يخبئ وجهه عندما يصلي. ومع ذلك فإنّ للثنتين كليهما عينين كبيرتين بريئتين وليس ليهما سوى فكرة واحدة حيال ذلك الباب المغلق، كما كان الأمر في عام 1942 عندما بدأ العمل. كانا في السابق يفتشان عن مخرج - عن قطعة، بعيداً عن حياة يكون فيها المرء مدينًا لا مالكا. أما اليوم فيريدان أن يكونا مالكين. فيما مضى، في سنوات الأربعين، لم يكن ليهما ما يخسرانه. واليوم، كل شيء يحتاج إلى حمايتهما. فمنذ البداية، منذ تأسيس المدينة، أدركا أنّ العزلة لاتضمن أي أمن. فالأمر يحتاج

إلى رجال أقوىاء ذوي عزم حين يصل الأمر إلى حد أن الغرباء من التائهين والباحسين يَمرون دون إلقاء حتى نظرة على هذه المدينة المستسلمة للنوم والتي فيها ثلاث كنائس لاتبعد الواحدة عن الأخرى ميلاً واحداً، ولكن ليس فيها شيء لخدمة المسافرين: لامطعم، لامخفر للشرطة، لامحطة محروقات ولاهاتف عمومي ولا دار للسینما ولامشفى. وفي بعض الأحيان، إذا كان الغرباء شباناً وشمليين، أو مسنين وجائعين يمكنهم أن يترصدوا ثلاث أو أربع فتيات من الملونات اللواتي يتسكنن بجانب الطريق، فيمشون بضعة ياردات، متوقفين حسب متطلبات الحديث، ويتسكعون متوقفين للضحك أو لطم ذراع الآخر كمزاح. ويمكن أن يهتم الغرباء بهنّ. فعلى سبيل المثال كان هناك ثلاث سيارات، إحداها ماركة بيل إير موديل 53 خضراء اللون وسكرية من الداخل، رقمها B 085 ست أسطوانات، وقد ضوعفت حوافها الخلفية، ذات سرعتين تعملان بصورة آلية من نوع «باورغلايد»، وأخرى ماركة دودج ويفيرر موديل 49 ، سوداء، زجاجها الخلفي محطم، جوانبها مجنّحة، نصف آلية. والثالثة ماركة أولدنموبيل موديل 53 تحمل لوحيتين من ولاية أركنساس. تباطأ السائقون في سيرهم، ومدّوا رؤوسهم من النوافذ وأخذوا يزعقون، وأعينهم متغصّنة من الشر. يدورون حول الفتيات، يتوقفون ثم يستديرون بشكل حرفي «U» و«K». يتلفون العشب المزروع أمام المنازل ويطردون الهرة أمام بقالية إيس، ويرسمون دوائر. بهت عيون الفتيات فأخذن يتدافعن وهنّ يتراجعن. عند ذلك خرج رجال المدينة الواحد تلو الآخر من المنازل، من الباحات، من مخزن الأغذية، ونزل آخرون من سقالة المصرف. فتح أحد المسافرين في إحدى السيارات بنطاله وانحنى على النافذة كي يخيف الفتيات. فانتفضت القلوب الصغيرة في صدور الفتيات ولكنهنّ لم يستطعن إغلاق أجنانهنّ بسرعة، ولذلك دفعن برؤوسهن جانباً بشكل مفاجئ. لكنّ رجال المدينة كانوا ينظرون إليهن، وتبيّنوا الرغبة في تلك الحركة العدوانية فابتسموا. وقد ابتسموا على مضض ورغماً عنهم

لأنهم يعرفون أنه منذ تلك اللحظة، إن لم يكن قبل ذلك، فإن هذا الرجل، حتى لو جازف بروحه، فإنه سيلحق أكبر ضرر ممكن بالناس الملونين.

خرج رجال آخرون، وخرج غيرهم أيضاً. لم تكن مسدساتهم مصوبة نحو أي شيء، فهم يحملونها بترأخ ملتصقة بأفخاذهم. عشرون رجلاً. أصبحوا الآن خمسة وعشرين. أحاطوا بالسيارات التي تسير بشكل دائري. تسعون ميلاً تفصلهم عن مركز الهاتف وتسعون عن أقرب مخفر للشرطة. لو كان الجو جافاً في ذلك النهار، لكان الغبار المتصاعد خلف العجلات قد أزال لونهم جميعاً. ولكن تلك العجلات لم تدفع وراءها سوى بعض الحصى الصغيرة.

كان التوأمان يتمتعان بذاكرة قوية. فالاثنتان يتذكran معاً تفاصيل كل ما حدث - ماشهده. وما لم يشهده. يتذكran درجة الحرارة بكل دقة في اليوم الذي دارت فيه السيارات حول الفتيات مثلما يتذكran تماماً منتوج كل مزرعة في المنطقة. ولم ينسيا أبداً مغزى أو تفاصيل أية قصة، وبخاصة تلك القصة الهامة التي رواها لهما جدهما - الرجل الذي كتب كلمات فوهة القرن السوداء. القصة التي أوضحت لماذا لن يستطيع لامؤسسو هافن ولا ذريتهم أن يتحملوا أحداً سوى أنفسهم. أثناء الرحلة، من ولاية المسيسيبي وأبرشيتي لويزيانا حتى أوكلاهوما، استقبل المحررون المئة والثمانية وخمسون بصورة سيئة على كل شبر من الأرض، من يازو حتى فورسميث. كان الشاكتاو الأغنياء يطردونهم والبيض الصغار يطاردونهم وكلاب الحراسة تلاحقهم، تسخر منهم عاهرات المخيمات وأبناؤهن، ومع ذلك فإن كل هذا لم يهينهم للصّد الجاف والإهانات العدوانية التي تلقوها في المدن السوداء التي كانت قيد الإنشاء. وعنوان المقالة التي نُشرت في صحيفة «هيراالد»: «فلتاتوا مستعدين أو لاتأتوا أبداً»، لا يمكن أن يعينهم، أليس كذلك؟ ولأنهم ماهرون، أقوياء، مثقفون إلى العمل في أرضهم الخاصة، فقد كانوا يعتقدون أنهم أكثر من مستعدين - بل هم مصممون. لم

يصدقوا آذانهم عندما علموا بأنهم لا يملكون ما يكفي من المال الذي يتفق مع الشروط التي يضعها السود الذين يتبعون أسلوب الاكتفاء الذاتي. وباختصار، فقد كانوا أكثر فقراً وأكثر عرياً من أن يدخلوا إلى التجمعات التي تطلب مزارعين سوداً فضلاً عن الإقامة فيها. إن سوء الاستقبال الزرّي الذي قابلهم به من كانوا أوفر حظاً منهم، غَيَّرَ درجة حرارة دمهم مرتين: ففي بداية الأمر بدأ بالغليان عندما وصفوهم بأنهم «أناس يفضلون المقاهي ولعب الورق، على البيوت والكنايس والمدارس» ثم برد دمهم عندما تذكروا تاريخهم المذهل. وما بدأ في حرارة التفاوض أصبح هاجساً بارداً. قال أحد الرجال: «إنهم لا يعرفون أحداً منا أو شيئاً عنا»، «نحن أحرار مثلهم، كنا عبيداً مثلهم. فلماذا تكون هذه الفروق؟».

وعندما تعرضوا للإنكار والرفض، غَيَّرُوا طريقهم واتجهوا إلى الغرب نحو الأراضي غير المفروزة، إلى جنوب مقاطعة لوغان، وإلى ما بعد النهر الكندي في منطقة آراباهو. وكل حادثة مزعجة كانت تجعلهم أكثر تصميماً وفخراً، فتظل التفاصيل محفورة في ذاكرة التوأمين القوية. قصص كثيرة مازال تروى وتروى على علاتها ودون رتوش، في الأهراء المظلمة، قرب الفرن عند الغروب، بعد ظهر أيام الأحد عندما يتلاقى المصلّون. سروج اللصوص الأربعة ذوي البشرة السوداء الذين أطعموهم لحم البوفالو المجفف قبل أن يسرقوا بنادقهم. صمت الزوبعة التي اجتاحت مخيمهم وطوقته. الأطفال النائمون الذين استيقظوا وهم يتطايرون في الهواء. روعة الخيول التي كانت جماعة من الشاكتاوا تمتطيها وهي تراقبهم. وفي وقت العشاء، عندما يسود الظلام الذي لا يمكن معه القيام بشيء سوى ما يمكن عمله في ضوء النار، يروي الآباء القدامى قصص تلك الرحلة: الإشارات التي كان الله يعطيها لهم لكي يرشدتهم - إلى مصادر المياه، إلى «الكريك» حيث يقايضون عملهم بالعربات والخيول والمراعي، بعيداً عن أوجار مستعمرات الكلاب البرية التي تغطي خمسين ميلاً - وشرور الشيطان: نساء مهجورات بلا شيء، إشاعات عن الذهب المخبأ في قاع الأنهار.

يعتقد التوأمان أن جدهما قد اختار الكلمات للفرن عندما اكتشف كم كان طريق الفضيلة ضيقاً. كانت قطع الأثاث تجمع بواسطة أوتاد خشبية لأن المسامير غالية جداً، ولكنه ضحى بكنزه من المسامير التي طولها ثلاث أو أربع بوصات، المعوجة أو المستقيمة، لكي يقول شيئاً هاماً يمكن أن يدوم أثره طويلاً.

عندما وُضعت الحروف في مكانها، وقبل أن يتاح الوقت للتفكير بالكلمات التي تكونها تلك الحروف، أقاموا سقفاً قرب الفرن تدلّت واسوّدت جوانبه. اجتمع سكان هافن، وجلسوا على صناديق ومقاعد استُحدثت للتو، لكي يتحدثوا، ويكونوا معاً ليتذوّقوا متعة لحم الطرائد التي اصطادوها، بعد أن شوي بصورة جيدة. وفيما بعد، عندما حُلّت محلّ عشب البوقالو مدينة صغيرة جميلة، فيها شارع مركزي، وبيوت خشبية وكنيسة، ومدرسة ومخزن، ظل مواطنو المدينة يجتمعون هناك. كانوا يضعون أيتلاً بكامله وبعض الطيور التي يصطادونها على السقود ويشوونها، يقبلون الضلوع ويفركون بالملح أضلاع العجل الذي يبرد. كان الاعتماد في تلك الفترة على طريقة الشواء البطيء، فيجعلون اللهب خفيفاً بحيث يظل الديك الرومي الذي يزن 20 باونداً ليلة بكاملها، ويظل نصف عجل يومين بطولهما إلى أن ينضج لحمه حتى العظم. وكلما قتلوا حيواناً أو اشتبهوا لحم طرائد الصيد الطازج غير المدخن، يجلب سكان هافن الحيوان إلى الفرن ويظّلون أحياناً هناك ليتبادلوا رواية القصص والحكايات. يتنازعون مع عائلة مورغان حول مسألة إضافة البهارات والتوابل إلى الطعام، أو حول أفضل طريقة لمعرفة متى يكون الشواء قد نضج. ويظّلون هناك يثرثرون، يتبادلون الشكاوى، يصرخون ضاحكين ويشربون القهوة في ظل الحواجز الواقية من الرياح وأشعة الشمس. وأي طفل قريب، يصل إليه صوت أحدهم كان يتلقى الأمر بطرد الذباب وجلب الحطب، وتنظيف منضدة العمل أو تكويم التراب بمذكرة.

في العام 1910 كان في هافن كنيسةتان وفرع لمصرف «أول سيتيزن» «كل المواطنين»، وأربعة صفوف في المدرسة، وخمسة

مخازن تباع السلع الجافة، والعلف والمواد الغذائية، لكن الرواح والمجيء حول القرن كان أكبر منه في جميع هذه الأماكن. ولم تكن أية عائلة تحتاج لأي شيء، باستثناء موقد صغير، طالما أن القرن يعمل، وقد ظل يعمل على الدوام. وحتى في عام 1934، عندما أخذ كل شيء في المدينة يتدهور، وأصبح واضحاً كضوء النهار أن المناقشات بشأن الكهرباء ستظل مجرد مناقشات، وأن الغاز والمجاريير أعجوبتان صالحتان لـ تولسا^(هـ)، فقد ظل القرن حياً. وحتى فترة الجفاف الكبير، لم ينقص الماء الجاري في المدينة لأن النبع كان عميقاً، وعندما كان التوأمان حديثي السن لطالما تارجحا على أغصان أشجار الحور والصفصاف التي تتدلى، وخاطرا معلقين فوق المياه الصافية كي يتأملوا انعكاس قدميهما فيها. كانا يسمعان القصص التي تروى عن الفساتين والقبعات الزرق التي اشتراها الرجال للنساء بالنقود التي حصلوا عليها من أول موسم أو من ثمن الحيوانات الأولى التي نبحوها. وعن الوصول المدهش لبيانو سان لويس الذي أوصي عليه منذ أن صنعت الأرضية الخشبية لكنيسة «صهيون». راحا يتخيلان أهمهما وهي في العاشرة من عمرها بين فتيات صغيرات أخريات تجمعن حول البيانو، وأخذن يضغطن خلسة على أحد مفاتيحه، قبل أن تبعد الشَّماسة أيديهن بضربة كف خفيفة، وأصواتهن السوبرانو الصافية وهن ينشدن أثناء التمارين: «سبحرسك ويسهر على سلامتك...» ويمكن القول، إن هذا ماقام به إلى أن كف عن ذلك.

ولد التوأمان سنة 1924 وظلَّ الناس يحدثنهما طيلة عشرين عاماً عن الأربعين سنة السابقة. كانا يصغيان، يتخيلان ويتذكران أبسط الأمور، لأن أقل التفاصيل شأناً كان يثيرهما ويحدث لديهما مايشبه الصدمة التي تفرحهما وتتيح لهما متعة مثيرة كالحلم، وأكثر حضوراً من الحرب التي قاتلوا فيها.

(هـ) تولسا: مدينة في ولاية أوكلاهوما في الولايات المتحدة، سكانها نصف مليون، وهي مركز نفطي هام.

سنة 1949 ، وهما شابان تزوجا حديثاً، لم يكونا غيبين. قبل الحرب بكثير، أخذ سكان هاغن يغادرونها ومن لم يكن قد حزم حوائثه كان يستعد للقيام بذلك. نظر التوأمان إلى مستقبلهما وقد بدا مغلقاً في تلك الفترة التي تلت الحرب ولم يكن من الصعب إقناع شبان آخرين من المدينة أن يكرروا ما فعله الآباء القدامى عام 1890 . عشرة أجيال كانت قد عرفت ماذا ينتظرها «هناك»: حيز، كان فيما مضى جذاباً وحرّاً، تُرك لتعبد به المشاكل والاضطرابات، واستعصى على أية سيطرة، فراغ يبرز فيه الشر الطارئ والمنظم، في الزمان والمكان المختارين - خلف أية شجرة، وراء باب أي بيت، متواضعاً كان أو فخماً. «هناك» حيث كان أولادك لعباً ونساؤك غنائم وشخصك بذاته يمكن أن يُدمر ويُقضى عليه، إذ يذهب المؤمنون إلى الكنيسة حاملين أسلحتهم، والحيال ملفوفة ومعلقة على سروج خيولهم. «هناك» حيث تشبه كل مجموعة من البيض أعضاء مجلس المدينة، وأن تكون وحدك فذلك يعني أنك ميت. ولكن على مدى الأجيال الثلاثة الأخيرة، كانوا قد تعلموا مرة تلو الأخرى الدروس عن طريقة حماية مدينة. وهكذا، كالعبيد القدماء الذين كانوا يعرفون ما الذي يجب عمله قبل كل شيء، هدم الجنودُ القدماءُ القرنَ، وحملوا قِطْعَةً في شاحنتين، حتى قبل أن يفكّكوا أسرّتهم الخاصة. وفي منتصف شهر آب والشمس لم تكن قد بزغت بعد، غادرت هاغن خمس عشرة عائلة، لم تتوجه نحو موسكو، أو كاليفورنيا كما فعلت عائلات أخرى، أو نحو سان لويس أو هيوستون أو لنغستون أو شيكاغو، بل توغّلت أكثر عمقاً في أو كلاهما إلى أبعد ما استطاعت التسلق، هرباً من الأذنياء المتعلّقين الذين دنسوا المدينة التي بناها أجدادهم.

سأل الأطفال وهم جالسون على المقاعد الخلفية في السيارات:
«كم بقي لنا؟» «كم سيطول الطريق؟»

أجاب الآباء: «سريعاً» وساعة بعد أخرى ظل الجواب هو نفسه «سريعاً. سريعاً جداً». وعندما رأوا نهر بيفر كريك يندفع في فوهة الولاية التي كان لها شكل البندقية ويجتاز القدايين المكسوة

بالحشائش (التي لم يعد لها قيمة منذ الاعصارات التي عصفت بها سنة 1949) التي اشتروها بالمبلغ الذي جمعه من أجورهم الأخيرة، كان ذلك جميلاً وفي الوقت المناسب.

وماتخلوا عنه كان مدينة تفخر بأن شوارعها مغطاة بالعشب، وقد أصبحت الآن مغطاة بالأعشاب البرية، يسيطر عليها ثمانية عشر شخصاً عنيدون يتساءلون كيف يذهبون إلى مكتب البريد فربما تنتظرهم إحدى الرسائل التي بعث بها أحفاداً لهم غادروا منذ زمن طويل. هناك حيث أقيم القرن، كانت بعض الأفاعي الصغيرة الخضراء ترقد في الشمس. ومن كان يستطيع التصوّر أنه بعد خمس وعشرين سنة، وفي مدينة جديدة تماماً، يستطيع ديز أن يتفوق على القوة التخريبية للأفاعي والكساد الاقتصادي وجابي الضرائب والسكة الحديدية؟

والآن، أحد الأخوين، وهو زعيم في كل مجال، خلع باب القبو بأخمص بندقيته. والآخر وقف ينتظر، مع ابن أختهما، على بُعد بضعة أقدام إلى الخلف. ثم نزل الثلاثة على الدرج وهم في غاية اليقظة، متشوقين للاستطلاع. ولم يخب ظنهم، فما رأوه كان غرفة نوم الشيطان وحمامه وحظيرته النقال الكريهة والمقرزة التي يلعب فيها.

ظلّ ابن الأخت يعرف على الدوام أنّ أمه قد عملت كل ماوسعها كي تصمد. وقد صمدت حتى رأتها يمتطي الحصان الفائز، لكن لم تعد لديها القوة لأكثر من ذلك، حتى ولا القوة على الاهتمام بالمناقشات التي دارت حول اختيار اسم لذلك المكان الذي أتت إليه مع أخويها وطفلها الصغير. وطيلة ثلاث سنوات، ظلّ اسم نيوهاغن مقبولاً من قِبَل العدد الأكبر من الناس، حتى وإن كان بعضهم لا يتحرّجون من اقتراح أسماء أخرى، أسماء كانوا يقولون بأنها لا تُذكر بأي إخفاق أو فشل، جديداً كان أو مكرراً. بعض الذين اشتركوا سابقاً في حرب

المحيط الهادئ، أحبوا اسم: غوام وآخرون فضلوا: أنشون. وأولئك الذين حاربوا في أوروبا لم يكتفوا عن اقتراح أسماء، أحب الأطفال وحدهم أن يلفظوها. أما النساء فلم يكن لهن رأي محدد تماماً إلى أن ماتت والدة ابن الأخت. وَضَع دُفْنُهَا - وهو الأول في المدينة - حداً للنقاش ولضرورته. فأعطت النساء للمدينة اسم واحدة من بينهن، ولم يجد الرجال مايقولونه للاعتراض على ذلك. حسن جداً. موافقون: روبي. روبي الشابة.

وقد راق هذا لخالي الطفل اللذين استطاعا بذلك، في آن واحد، أن يبكيا الأخت وأن يكرما الصديق والصهر، الذي لم يرجع مطلقاً من الحرب. لكن ابن الأخت، الذي فاز بوسام «القلب الأرجواني» من أوسي، وورث بطاقات كلب أبيه، ورأى بقية حياته اسم أمه مسجلاً على اللوحات ومكتوباً على المغلفات، أخذت له هذا التكريم بعض التشويش والاضطراب: القلب والبطاقات وتسمية مكتب البريد، كانت تبدو كأنها كثيرة عليه وتتجاوزه قليلاً. والنساء، اللواتي عرفن أمه واعتنن بها وعالجنها، أخذن فيما بعد يدلكن ابن روبي. الرجال الذين سبق لهم أن تعاونوا مع أبيه فضلوا ابن زوج روبي. استهان الخالان به. وعندما اتخذ القرار، بالقرب من الفرن، كان موجوداً هناك. لكن قبل ذلك بساعتين عندما بلعوا آخر لقمة من اللحم الأحمر، ربت أحد الخالين ببساطة على كتفه وقال له: «لدينا قهوة في الشاحنة. اذهب وأحضر بندقيتك». فنقذ ماطلب منه ولكنه أخذ أيضاً الصليب المصنوع من سعف النخيل.

كانت الساعة الرابعة صباحاً عندما انطلقوا، والخامسة تقريباً عندما وصلوا، فنظراً لأنهم لا يريدون أن يفسد هدير المحركات أو نور المصابيح حمايةً للظلام لهم، قطعوا الأميال الأخيرة سيراً على الأقدام. أوقفوا الشاحنات في بقعة قطعت أشجارها، لأن الضوء في تلك البلاد يمكن أن يرى من بعيد. وإذا كانت أغطية السيارات لا تثرى من على بعد خمسين ميلاً، فإن شمعات قوالب حلوى في حفلة أحد الأعياد تبدو من بعيد حالماً يُشعل عود الكبريت. على مسافة نصف ميل من الموقع الذي يقصدونه، اكتنفهم ضباب كثيف وصل إلى

أوراكهم. ووصلوا إلى الدير قبل الشروق ببضعة ثوان، فأنثحت لهم برهة لكي يروا ويسجلوا كيف كان المسكن يعوم قائماً منفصلاً عن أرض الله..

في غرفة الدرس التي سبق أن استُخدمت كغرفة للطعام والتي لم تعد تُستعمل اليوم إلا لتجميع المقاعد وحشرها قرب الجدران، كان كل شيء بادياً للعيان. هاهم رجال روبي يزحمون على النوافذ. وبما أنهم لم يجدوا في الدير إلا أدلة قاطعة، فقد تجمعوا هنا. فهم آباء روبي الجدد في أوكلاهوما. وقد زال البرد الذي استقبلهم في البداية، وتبدد الضباب أيضاً. إنهم متحمسون - دفء وتعرق والرائحة الليلية للاستقامة. كان المشهد واضحاً.

أثر. لا يستطيع ابن الأخت التفكير بشيء آخر. متسابقات سريعة لمسافة أربعمئة ياردة أو حتى عدّاءات الأميال الثلاثة. اثنتان منهن دفعتا رأسيهما إلى الخلف بقدر ماسمح لهما عنقاهما، وشدتا على قبضتيهما، بينما أخذت سواعدهما تتأرجح وتمتد إلى الأمام. أحنت إحداهما رأسها المغطى بالزغب ودفعت جبينها إلى الأمام لكي تشق الهواء والزمن، يدها مبسوطة لكي تقطع شريط الوصول الذي لا وجود له في مستقبلها. فتحن أفواههن واستنشقن الهواء دون أن يطردن منه شيئاً. لم تكن سيقانهن تلمس الأرض كانت متباعدة عن بعضها فوق نباتات النفل.

بنات حواء السوداءات المتميزات اللواتي لم تخلصهن مريم العذراء، يشبهن ظبيات نافرات من شدة الخوف، رحن يقفزن نحو الشمس التي توصلت في نهاية الأمر إلى تبديد الضباب والتي أخذت تسكب الآن زيتها المقدس على جلد الطرائد.

الله إلى جانب الرجال، فقد حددوا هدفهم. من أجل روبي.

مافيس

بدا الجيران راضين عندما اختنق الأطفال الصغار. وذلك دون شك لأن سيارة الكاديلاك ذات اللون الأخضر النعناعي التي ماتوا فيها أزعجتهم لبعض الوقت. ومن المؤكد أنهم عملوا كل ماكان ينبغي عمله: فقد جلبوا بعض الطعام، واتصلوا هاتفياً للتعبير عن حزنهم، وقاموا بالبحث عن أسباب الحادث، ولكن بريق الفضول بدا واضحاً في أعينهم.

وعندما وصلت الصحافية، جلست مافيس في زاوية الأريكة دون أن تعرف تماماً إذا كان عليها أن تزيل قُتات الشيبس المحصورة تحت حاشية غطاء الأريكة البلاستيكي أو أن تدفعها إلى الداخل. ولكن الصحافية أرادت أن تؤخذ الصور أولاً. فأجلس المصور مافيس وسط الأريكة، وأجلس الأطفال الباقين على قيد الحياة إلى جانبي أمهم، الذاهلة الحزينة. وطلبت أن يأتي الأب أيضاً، بالتأكيد. جيم؟ هل هو جيم أولبرايت؟ لكن مافيس قالت بأنه ليس على مايرام، ولايستطيع الحضور وعليهم أن يستغنوا عنه. فتبادل المصور والصحافية النظرات، ولكن مافيس قالت في سرها إنهما، على كل حال، يعلمان، دون شك أن فرانك - وليس جيم - كان جالساً على حافة حوض الحمام وأنه كان يشرب السيغرام دون كأس.

اقتربت مافيس من وسط الأريكة ونزعت غبار الشيبس من تحت أظافرها وانتظرت أن يلحق بها الأطفال الآخرون. «الأطفال الآخرون» هكذا سيمّونهم الآن. وضعت سال ذراعها حول خصر أمها. بينما وقف قرانكي وبيلي جيمس جنباً إلى جنب، في الجهة اليمنى. قرصتها سال بقوة. فعرفت مافيس في الحال أن ابنتها لم تكن قلقة بسبب آلة التصوير والآخرين، لأن القرصة طال أمدها، وكانت حادة جداً، ولأن أظافر سال غاصت حتى الدم.

«لابد أن ذلك كان مرغياً بالنسبة لكم». هي تقول بأنها تدعى جون^(٥).

«نعم، يا سيدتي. هذا الأمر مرعب بالنسبة لنا، جميعنا».

«هل هناك ما تريدين قوله؟ شيء، ربما تريدين أن تعرفه بقية الأمهات؟»

«ماذا ياسيديتي؟»

وضعت جون إحدى ساقها على الأخرى، فلاحظت مافيس أنها لأول مرة تتنعل حذاءها الأبيض ذا الكعب العالي. فنعله لم يكده يصيبه الوسخ. «كما تعلمين، يمكنك أن تقولي شيئاً لتوعيتهن، وتحذيرهن من مغبة الإهمال».

«حسن». أخذت مافيس نفساً طويلاً. «لا يحضرني شيء. أعتقد أنا».

جلس المصور القرفصاء وأحنى رأسه وأخذ يدرس الإمكانات.

«لكي ينجم شيء حسن من هذه المأساة الرهيبة». كانت جون تبتسم ابتسامة حزينة.

انتصبت مافيس واقفة بسبب أظافر سال. أحدثت آلة التصوير صوتاً خافتاً: كليك! وضعت جون قلمها الحبر في مكانه. إنه قلم جميل. لم تر مافيس شيئاً كهذا قط - كان يكتب على الورق بالحبر،

(٥) June: وتعني حزيران.

ولكنه حبر جاف لا يحدث البقع أبداً. «ليس لديّ ما أقوله الآن لأنّ الناس لا أعرفهم».

للمرة الثانية، أرخى المصور ستار النافذة الأمامية وعاد نحو الأريكة ممسكاً بعلبة سوداء أمام وجهه مائس.

قالت جون: «أفهم ذلك!» رقت نظرة عينيها ولكنّ بريقهما كان كبريق عيون الجيران. «إنني أكره حقاً أن أجعلك تتعرضين لهذه التجربة، ولكن ربما تستطيعين أن تقولي لي ماذا حدث وحسب؟ فقراؤنا أصيبوا بالذعر تماماً. التوأمان، وكل شيء. أوه، ويريدون أن تعلمي أنهم يذكرونك في صلواتهم كل يوم». وألقت نظرة على الطفلين وعلى سال: «وأنتم أيضاً. إنهم يصلّون من أجل كل واحد منكم».

أطرق فرانكي وبيلي جيمس ووجّها أنظارهما نحو أرجلهما الخافية. وألقت سال رأسها على كتف أمها وقرصتها بمزيد من القوة في خصرها.

«إذن هيا، أيمكن أن تحكي لنا؟» وابتسمت جون ابتسامة تعني: «اعلمي معي هذا المعروف».

«حسناً...» قطبت مافيس حاجبها. إنها هذه المرة تريد أن تفعل ذلك. «لم يكن يريد فطيرة السبام المحشوة بلحم الخنزير، أعني أنّ الأطفال يحبونها ولكن هو لا يحبها. وهذا الجو الحار، لا يسمح بالاحتفاظ بكثير من اللحم. وفي إحدى المرات كان عندي قطعة أضلاع كبيرة فسدت، فذهبت بالسيارة لأجلب بعض النقانق وقلت لاباس، ميرل وبيرل. كنت ضد تلك الفكرة في بداية الأمر ولكنه قال...»

«م.ي. ر.ل.؟»

«نعم ياسيديتي».

«تابعي».

«لم يكونا بيكيان، لاشيء، ولكنه قال إنه يشعر بالأم في رأسه. ففهمت. واصطحبتُ الطفلين. لايمكنك أن تتوقعي أن يعود رجل من ذلك النوع من العمل وأن يقوم بعد هذا بحراسة الأطفال أثناء ذهابي لأجلب طعاماً شهياً أضعه في صحنه. أعرف أن هذا غير صحيح.»

«اصطحبتُ، التوأمين إذن. لماذا لم تصطحبي الأطفال الآخرين أيضاً؟»

«إنه نمس البراري» قال فرانك.

«الغدير» قال بيلى جيمس.

فقلت لهما سال «أغلغا فمكما!». وانحنت على بطن مافيس ومدت إصبعها نحو أخويها.

ابتسمت جون وتابعت: «ألم يكن هذا أكثر مدعاة للأمن، مع وجود الأطفال الآخرين في السيارة؟ أعني أنهم أكبر سناً».

دست مافيس إبهامها تحت حمالة نهديها لكي ترفعها فوق كتفها. «لم أكن أتوقع أي خطر. فهناك يختلط الحابل بالنابل. كان يمكنني أيضاً الذهاب إلى كونفنينيس ولكنني أجد أن بضاعتهم غير طازجة».

«وتركت الطفلين الرضيعين في السيارة أثناء ذهابك لشراء لحمه الأضلاع....»

«كلا، ياسيديتي، لشراء نقائق».

«صحيح. نقائق» وأخذت جون تكتب بسرعة ولكنها لم تكن تشطب شيئاً (كتبت wieners بدلاً من weenies). «ومع ذلك، فإن ما أريد أن أسألك عنه هو: لماذا استغرق شراؤك مادة واحدة هذا الوقت الطويل؟».

«آه، كلا. لم يستغرق ذلك وقتاً طويلاً، لم أبق داخل المحل أكثر من خمس دقائق، بالضبط».

«سيدة أولبرايت إن طفلك توقيا مختنقين، في سيارة نوافذها مغلقة والحرارة فيها مُحرقَة، وقد حُبس فيها الهواء. ومع ذلك يصعب التصديق بأن هذا قد حدث خلال خمس دقائق».

ربما كان هذا عرقاً، ولكنّ الألم الذي شعرث به بدا من الشدة لدرجة أنه يمكن أن يكون دماً. لم تجرؤ على دفع يدٍ سال بضربة خفيفة ولأن تعترف بالألم. وبدلاً من ذلك حكّت زاوية فمها وقالت: «لقد نلت عقاباً كافياً هكذا، ولكن من المؤكد أنّ هذا لم يستغرق أكثر من ذلك الوقت. فقد ذهبت مباشرة إلى قسم المنتجات الحيوانية، وتناولت حزمتين من نقانق أرمور، وهي ليست رخيصة كما تعلمين، ولكنني لم أهتم بذلك حتى أنني لم أنظر إلى السعر. فهناك أنواع أخرى أرخص منها، وكلها جيدة مثلها. ولكنني كنت في عجلة من أمري لذلك لم أهتم بالسعر».

«كنت في عجلة من أمرك؟».

«أوه، نعم، ياسيديتي. كاد يصاب بأزمة. لأن فطائر سبام ليست شيئاً كغذاء بالنسبة لرجل يعمل».

«وهل النقانق أفضل منها؟».

«كنت قد فكرت بشراء «أضلاع»، لقد فكرت بذلك».

«ألم تكوني تعرفين أنّ زوجك سيعود لتناول طعام العشاء، ياسيدة أولبرايت؟ ألا يعود لتناول العشاء كل يوم؟».

فكرت ماقيس: إنها حقاً لطيفة ومهذبة؛ فهي لا تنظر إلى الغرفة ولا إلى أقدام الأطفال، ولا تنتفض بسبب الضجيج المنبعث من خلف البيت، الذي يتبعه صخب السيوفون.

الصوت الذين كان يحدثه المصور وهو يخلق حقائبه بدا أكثر قوة عندما توقف السيوفون. وقال: «حصلت عليها، أنا سعيد بلقائك ياسيديتي». انحنى ليشد على يد ماقيس. لون شعره بلون شعر الصحافية.

سألته جون: «هل أخذت مايكفي من الصور لسيارة الكاديلاك؟»

«ما يكفي منها» ورسم حرف O بواسطة إبهامه وسبّابته. وقال:
«أنتم جميعكم طيبون جداً». ثم تناول قبعته وانصرف.

كفّت سال عن ضم خصر أمها. انحنت إلى الأمام وبدأت منشغلة
بأرجحة قدمها التي راحت تصدم من وقت لآخر ساق مافيس.

من المكان الذي كانوا يجلسون فيه داخل الغرفة لا يستطيعون
رؤية سيارة الكاديلاك المتوقفة أمام المنزل. لكن جميع سكان الحي
كانوا يرونها منذ أشهر، والآن سوف يراها جميع الناس في ولاية
مرييلاند لأن المصور أخذ صوراً للسيارة أكثر مما أخذ لهم: خضراء
بلون النعناع، بلون الخس. لامعة براقّة. ولكنّ اللون لن يُرى في
الصحيفة. لن يُرى سوى المكان الذي مات فيه الطفلان. طفلان
رضيعان، لا يمكن رؤيتهما مطلقاً بعد الآن، لأنّ أمهما لم يكن لديها
حتى صورة أخذت على عجل لوجهيهما البريين.

قفزت سال واقفة وصرخت: «أوه! انظروا! خنفساء!» رُصّت
قدم أمها.

لقد سبق أن قالت مافيس: «نعم، ياسيديتي. إنه يعود لتناول
طعام العشاء كل يوم» وأخذت تتساءل كيف يمكن ذلك: أن يكون لها
زوج يعود كل يوم. حقاً كل يوم. وعندما ذهبت الصحافية، أرادت
أن تذهب لترى ماذا فعلت لها سال في خاصرتها، لكن فرانك كان
مايزال في الحُمام، ولا شك أنه نائم والأفضل عدم إزعاجه. ففكرت
بنزع فتات الشبيس العالقة تحت حواشي الغطاء البلاستيكي، ولكنّ
المكان الذي أرادت أن تكون فيه هو السيارة. مع أنّ الكاديلاك لم
تكن لها، بل له، فإنّ مافيس ربما كانت تحبها أكثر منه وقد كذبت
عليه عندما قالت له بأنها أضاعت رزمة المفاتيح الثانية. كان هذا
آخر ماتحدثت عنه عندما انصرفت جون قائلة: «إنها ليست جديدة،
عمرها ثلاث سنوات، فهي موديل عام 65». ولو استطاعت لنامت
فيها، على المقعد الخلفي، متكورة في المكان الذي وُجد فيه
التوأمان، الوحيدان اللذان كانا يحثيان البقاء معها، واللذان لم يكن
وجودهما يُعتبر عملاً ثقيلاً وشاقاً بالنسبة لها. ولكنها، بالطبع،
لاستطيع أن تفعل ذلك. فقد سبق لـ فرانك أن قال لها بالأمصلحة لها

بقيادة الكاديلاك إلى آخر أيام حياتها، ولا حتى بلمسها، ولذلك ذهلت مثل أي شخص آخر عندما سرقتها.

«هل أنت بخير؟» كان فرانك قد أصبح تحت الأغطية ومافيس استيقظت بانتفاضة رعب تحولت بسرعة إلى خوف اعتيادي.

«إنني بخير». وحدثت في الظلام مستفسرة باحثة عن إشارة لكي تحاول أن تعرف وتتبين مسبقاً مزاج فرانك. ولكن لم يكن هناك سوى الفراغ، تماماً كما كانت الحال أثناء تناول الطعام مساء يوم المقابلة مع الصحافية. ولا بد أن فطيرة اللحم الجيدة (لم تكن قاسية جداً ولا طرية أكثر مما ينبغي - لأن إضافة بيضتين لها صنعتنا هذا الاختلاف) قد أعجبت. الأمر هكذا، أو أنه عثر على التوازن: مايلزم لبطنه ومايلزم في تناول يده. وعلى أية حال، فقد كان ظريفاً، وحتى مسلياً، على المائدة، بينما كان الأطفال الآخرون متصلبين كالأوتاد. وقد وضعت سال موسى الحلاقة القديم الخاص بـ فرانك مفتوحاً بجانب صحنها، ثم ألقت على أبيها مجموعة من الأسئلة بدأتها بهذا السؤال: «هل هو مشحون بما فيه الكفاية لكي يقطع...؟» فأجابها فرانك: «إنه يقطع كل شيء، من شعر اللحية إلى الغضاريف» أو: «إنه يقطع أهداب البقرة». مما جعل سال تقهقه ضاحكة. وعندما بصق بيلي جيمس الـ «كول - إيد» في صحن مافيس قال أبوه: «أعطني الكاتشب يا فرانكي، وأنت يا بيلي كَفَّ عن اللعب بطعام أمك، أسمعني؟».

لم تعتقد أن ذلك يستغرق معهم وقتاً طويلاً. وعندما رأت كيف كانوا عند تناول طعام العشاء، منصرفين إلى الضحك من المزاح والمداعبات وكل ذلك، عرفت أن فرانك سترك لهم الحرية ليفعلوا مايشاؤون. سيبحث الصحافيون عن شيء يشد القارئ ويثير اهتمامه، وجون «وهي المرأة الصحافية الوحيدة في جريدة الكورير» ستمثل الجانب الإنساني.

حاولت مافيس ألا تتوتر بسبب الضجة التي يحدثها فرانك وهو يجد مكانه على الفراش. فهل احتفظ بسر واليه؟ لو عرفت ذلك لأدركت فيما إذا كان ينوي ممارسة الجنس أم لا. ولكن يستحيل اكتشاف ذلك دون أن تلمسه. وكما لو أن فرانك أراد إرضاء فضولها، أخذ يفرقع بالدكة المطاطية لسروال الملاكمة خاصته. فاسترخت مافيس وأرسلت تنهيدة، آملة أن تشبه الشخير. وكان الغطاء قد انتزع قبل أن تنتهي. ورفع قميص نومها وغطى لها به وجهها، فتركته يقوم بهذه الحركة المباركة. لكنها أخطأت مرة أخرى. فهو ربما يقوم بهذا أولاً والبقية بعد ذلك. ولا بد أن الأطفال الآخرين واقفون وراء الباب يتصاحكون، وعينا سال باربتان وغير متسامحتين كما كانتا عندما أخبروها بالحادث. قبل أن يأوي فرانك إلى السرير حلمت مافيس بشيء هام كان يُفترض أن تقوم به، ولكنها لم تستطع أن تتذكره. وما أن تذكرته حتى سالها فرانك عما إذا كانت بخير. والآن تفترض أنها بخير، لأن الأمر الهام الذي نسيته ماعاد هناك حاجة لإنجازه أبداً.

هل سيتم ذلك بسرعة، كما يحدث في كل مرة تقريباً؟ أم أنه سيدوم طويلاً، وبشكل ساو، لينتهي إلى إعياء صامت؟

لا هذا ولاذاك. فهو لم يلجأ - احتك بها وحسب، إلى أن شعر بذروة النشوة وهو يعض لها خصلة من الشعر من خلال قميص نومها الذي يغطي وجهها. كان يمكن أن تكون دمية أن الشعثاء، بالحجم الطبيعي.

بعد ذلك، تكلم معها عبر الظلام: «لأعرف يا مافي، حقاً. إنني لأعرف».

أكان عليها أن تقول: ماذا؟ ماذا تعني؟ ماهو هذا الذي لاتعرفه؟ أم تلزم الصمت؟ فاختارت مافيس الصمت لأنها أدركت فجأة أنه لم يكن يتكلم معها هي، بل مع الأطفال الآخرين الذين كانوا يتصاحكون وراء الباب.

وقال: «ربما، ربما أمكن معالجة ذلك، وربما، فأنا حقيقة لأعرف». وتثائب مطولاً، ثم: «ألا ترون كيف رغم ذلك».

كانت تعرف هذا، إنها الإشارة الموجهة إلى سال وفرانكي وبيلي جيمس.

وظلت تنتظر طيلة ماتبقى من الليل دون أن تغمض لها عين. بينما فرانك يغط في نوم عميق، كان يمكنها أن تتسلل من السرير (طالما أنه لم يخنقها ولم يكتف أنفاسها) وتفتح الباب لولا التنفس الذي راحت تسمعه يتردد في الجانب الآخر. كانت متأكدة أن سال تجلس القرفصاء هناك - مستعدة للانقضاض عليها، أو للإمساك بساقيها. وربما تكون شفتها العليا مرفوعة تكشف أسنان فتاة في الحادية عشرة، لكنها كبيرة الحجم بالنسبة لغمها الشرس. فكرت مافيس: سيكون الفجر خرجاً. فالفخ مقرر، ولكنه ربما لم ينصب بعد. وستكون بحاجة لأقصى درجة من التركيز لكي تحدد مكانه قبل أن يُطبق عليها.

وعند أول شعاع ضوء رمادي، غادرت مافيس السرير. فلو استيقظ فرانك لانهى كل شيء. تناولت بنطالاً أحمر ضيقاً وكنزة «دافي دك» وذهبت إلى الحمام. أخذت حمالة نهدين وسخة من سلة الغسيل وارتدت ملابسها بسرعة بدون سروال داخلي، ومن المستحيل الرجوع إلى الغرفة لجلب الحذاء. وأصعب مافي الأمر هو المرور أمام غرفة الأطفال الآخرين: فالباب مفتوح وإن كان لا يخرج منه أي صوت، ارتعشت مافيس من فكرة الاقتراب منه. في آخر الممر، إلى اليسار، كان يوجد المطبخ الصغير الذي يُستعمل أيضاً كغرفة طعام، وإلى اليمين غرفة الجلوس. كان عليها أن تقرر اختيار الجهة التي ستسلكها قبل المرور راكضة أمام الباب. إنهم توقعوا، دون شك، أن تذهب مباشرة إلى المطبخ، كما تفعل كل يوم، لذلك ربما كان عليها أن تتسلل بسرعة نحو الباب الخارجي. أو أنهم ظنوا بأنها ستغير عاداتها ولم يكن الفخ في المطبخ أبداً.

تذكرت فجأة أن حقيبة يدها في غرفة الجلوس، فوق خزانة التلفزيون التي أصبح يوضع عليها كل شيء، بعد أن تعطل الجهاز. ومجموعة المفاتيح الثانية معلقة تحت شق في بطانة الحقيبة. كتمت مافيس أنفاسها، حملقت في الظلام، وقفزت بسرعة أمام باب غرفة

الأطفال المفتوح، معرضةً ظهرها لذلك الخطر الجسيم، فشعرت بأنها أصيبت بالحمى - تتصبّب عرقاً، ومتجمدة في الوقت نفسه.

ليست حقيبتها وحسب كانت فعلاً في المكان الذي تذكّرت أنها موجودة فيه ولكنّ جزمة سال أيضاً بقرب الباب الخارجي. تناولت مافيس الحقيبة، دسّت قدميها في جزمة ابنتها الصفراء وهربت عن طريق الشرفة. لم تلتفت نحو المطبخ، ولم تره بعد ذلك أبداً.

الخروج من المنزل أحدث لديها إحساساً كان من الشدة، بحيث أنّها شعرت وهي تبعد بالكاد يلاك عن حافة الرصيف بأنها لا تملك أية فكرة عما ستفعله بعد ذلك ولا إلى أين يجب أن تذهب. فتوجهت نحو منزل بيغ، لم تكن تعرفها جيداً، ولكن أثناء الدفن، تأثرت كثيراً للدموع التي نرفقتها هذه السيدة. وقد أحبّت بعد ذلك على الدوام أن تتعرّف عليها بشكل أفضل ولكنّ فرانك يجد في كل مرة وسيلة كي يمنع تحوّل علاقة بسيطة إلى صداقة وطيدة.

كان المصباح الوحيد للشارع يبدو بعيداً لمسافة أميال، والشمس لما تشرق بعد، ولذلك وجدت صعوبة بالتعرف على منزل بيغ. وعندما وصلت أخيراً إليه، أوقفت السيارة في الجانب الآخر من الشارع وانتظرت أن يصبح ضوء النهار أكثر قوة قبل أن تقرر الباب. كان المنزل غارقاً في الظلام، وطيف صورة النافذة ما يزال في الأسفل، والسكون المطلق يخيم على تلك الأرجاء. تمثال خشبي لفتاة بين نباتات «البيتونيا»، تغطي وجهها قبعة لونها أزرق فاتح تمسك برشاش منحني نحو النباتات ومجموعة منحوتة من البط تتبعها منقطرة. والمرجة الخضراء، ذات الجوانب المقصوفة جيداً على استقامة واحدة، تشبه عيّنة من سجادة صوفية غالية الثمن. لا شيء يتحرك، لا الطاحونة الصغيرة ولا اللباب المتسلق الذي يحيط بها. ومع ذلك، هنالك نبتة ورد شارون، أكثر ارتفاعاً وأكثر قدماً من سطح السيدة بيغ، راحت تهتز بجانب المنزل. كانت تتراقص يهزها الهواء الذي يخرج من جهاز التكيف، فتدري زهوراً وأزهاراً على الحشائش. بريّة، تبدو بريّة، ونبيض مافيس أخذ يدق على إيقاع تراقصها. وحسب ساعة الكاديلاك لم تكن الساعة قد بلغت الخامسة

والنصف. فقررت مافيس القيام بجولة صغيرة والعودة في ساعة مناسبة. ربما في السادسة. ولكنهم سيكونون هم أيضاً قد استيقظوا في تلك الساعة، وسيلاحظ فرانك أنَّ الكاديلاك قد اختفت. ومن المؤكد أنه عند ذلك سيخبر الشرطة.

ابتعدت مافيس عن حافة الرصيف، وقد أحزنتها وأخافتها الحماقة التي ارتكبتها. فليس كل الجوار فقط يعرفون السيارة، إنّما الصحيفة ستنشر صورتها اليوم. إذ عندما اشتراها فرانك وعاد بها إلى المنزل ضرب الرجال الذين كانوا في الشارع براحة أيديهم على غطاءها وهم يبتسمون وأخذوا يشمون داخلها، ثم شغلوا الزمور وضحكوا. واستمروا في ضحكهم لأنَّ صاحبها كان عليه أن يستعير جرّازة الأعشاب كل خمسة عشر يوماً، وليس لديه حاجز منخلي لنوافذ بيته، وجهاز التلفزيون الذي لديه معطل، ولأنَّ اثنين من أعمدة شرفة منزله الستة طليت باللون الأبيض قبل ثلاثة أشهر، وطلاء البقية الأصفر كان يتقشّر باستمرار، ولأنَّ صاحبها كان ينام في بعض الأحيان - طيلة الليل - على مقود سيارته التي يتاجر بها أمام منزله. والنساء اللواتي كنَّ يشاهدن مافيس تأخذ الأطفال إلى وايت كاسل وقد وضعت نظارة شمسية في الأيام الغائمة، يحدقن ببلادة للتأكد من ذلك، قبل أن يهززن رؤوسهن مستغربات. كأنهن عرفن منذ البداية أنَّ الكاديلاك ستصبح ذات يوم سيئة الصيت.

سارت مافيس بحذر، بسرعة عشرين ميلاً في الساعة. دخلت الطريق 121، وهي تشكر الظلام الخفيف الذي مازال يخفيها عن الأعين. وعندما مرت أمام مشفى المقاطعة خرجت سيارة إسعاف صامته من المدخل. ظهر صليب أخضر على خلفية بيضاء في الظلام عبر أضواء الإسعاف الباهرة. خمس عشرة مرة أتت إلى هذا المشفى كمريضة، أربع مرات منها كي تلد. وفي آخر مرة، عندما كانت حبلى بالتوأمين، وتنتظر أن تلدهما، أتت أمها من ولاية نيو جيرسي لمساعدتها. فاعتنت بالبيت وبالأطفال الآخرين خلال ثلاثة أيام. وبعد ولادة التوأمين، عادت إلى باترسون، ففكرت

مافيس أن رحلتها تستغرق ثلاث ساعات بالسيارة. كان يمكنها أن تصل قبل «العاصفة السرية» التي فاتتها الصيف كله.

في إحدى محطات الوقود «املاً وامتض» تفقدت محفظتها قبل أن تجيب على سؤال المستخدم. ثلاث أوراق نقدية من فئة العشرة دولارات كانت مطوية خلف إجازة قيادة السيارة.

قالت: «عشرة.»

«غالونات أم دولارات ياسيديتي؟»

«غالونات.»

لاحظت مافيس بجانب المحطة واجهة مطعم ينعكس عليها ضوء الصباح الباكر، المرجاني.

فصرخت بأعلى صوته، عبر الضجيج الجهنمي الذي تحدثه الشاحنات على الطريق:

«هل المكان مفتوح هناك؟».

«نعم، يا سيدتي.»

فقفزت قفزاً فوق الحصى متوجهة نحو المطعم. في الداخل، كانت الخادمة تأكل كعك التفاح البري والجريش وهي جالسة خلف مكتب المحاسبة. غطت صحنها بخرقه ومسحت زاويتي فمها قبل أن تحيي مافيس وتسالها عن طلبها. وعندما خرجت مافيس ومعها قليل من القهوة في إناء من الكرتون وقطعتين من حلوى العسل في منديل من الورق، فاجأتها ابتسامة كبيرة بدت على وجه الخادمة في مرآة «بيرة هايرز روت» المعلقة عند المخرج. هذه الابتسامة أقلقته وهي في طريق العودة إلى محطة الوقود، إلى أن رأت حذاءها الأصفر الكناري وهي تخطو إلى داخل السيارة.

بعيداً عن مضخة الوقود، توقفت وراء المطعم، وضعت طعام إفطارها أمامها على حافة القيادة لكي تستطيع البحث عما يوجد في درجها. وهناك وجدت زجاجة مختومة من شراب إرلي تايمس وأخرى فيها قليل من الويسكي، مناديل ورقية، حلقة من المطاط

لأسنان الرُّضْع، عدة قطع مطاطية، زوج جرابيات وسخة، مصباح يدوي نفدت بطاريته، قلم أحمر شفاه، خريطة لولاية فلوريدا، سكاكر بالنعناع لترطيب الحلق، وبعض قسائم السفر. وضعت حلقة المطاط في حقيبة يدها، وضمت شعرها لتجعله على شكل ذيل حصان صغير وحزين، يبرز من الحلقة المطاطية كريش الدجاجة. ووضعت من أحمر شفاه المرأة المجهولة على فمها. ثم جلست في مقعدها وشربت قهوتها. كانت أكثر قلقاً من أن تطلب حليباً أو سكرأ، فشربتها «سادة»، ولم تستطع إرغام نفسها على ابتلاع الجرعة الثالثة. لقد ترك أحمر شفاه المجهولة أثره للرطب فوق حافة الكرتون.

الكاديلاك تستهلك عشرة غالونات من البنزين كل تسعين ميلاً. تساءلت مافيس فيما إذا كان عليها أن تتصل هاتفياً بأمها، أم أن تصل دون أن تعلمها بأنها قادمة. فبدأ لها أن الحل الثاني هو الأنسب. لأن فرانك ربما يكون قد اتصل بحماته، أو أنه قد يتصل بها في أي وقت. لذلك يصبح من الأفضل أن تستطيع أمها القول، دون أن تكذب: «لأعرف أين هي». لقد استغرقت رحلتها خمس ساعات، لأربعة كي تصل إلى باترسون وكان قد بقي معها أربعة دولارات وستة وسبعون سنتاً عندما رأت المؤشر. كان الوقود قد وصل في المؤشر إلى حرف E (أي فارغ).

بدأت لها الشوارع أكثر ضيقاً مما في ذاكرتها والدكاكين مختلفة. في الشمال، بدأت أوراق الأشجار تذبل وتصفّر. وبينما كانت تسير تحتها في الردهة الكبيرة التي شكلت فيها الأوراق بقعاً، حصل لديها انطباع بأن الشارع ينزلق أمامها بدلاً من أن يتراجع. وكلما زادت من سرعتها بدا لها أن الطريق يبتعد.

توقّف محرك الكاديلاك على بعد مبنى من منزل أمها، ولكن مافيس استطاعت أن تتجاوز نقطة التقاطع وتركن السيارة بجانب المنعطف.

كان الوقت مايزال مبكراً، وأمها لا تعود من روضة الأطفال قبل أن يأتي الناس ليأخذوا أولادهم بعد الظهر. لم يكن المفتاح موجوداً

تحت تمثال الرثة الجصي، لذلك جلست مافيس على درج مدخل المنزل الخلفي، وخلعت بصعوبة الجزمة الصفراء. فشعرت أن قديمها ليستا لها، بل لشخص آخر.

اتصل فرانك هاتفياً في الساعة الخامسة والنصف صباحاً، عندما كانت مافيس تتأمل شجرة ورد شارون أمام منزل السيدة بيغ. روت بيردي غودرو لـ مافيس أنها أغلقت الهاتف في وجهه بعد أن قالت له بأنها لاتفهم شيئاً مما يحكيه، ومن يعتبرها حتى يجعلها تغادر سريرها؟ لم تكن مسرورة. لافي ذلك الوقت، ولافيما بعد عندما قرعت ابنتها نافذة المطبخ وهي تبدو كخفاش خارج من الجحيم. وهذا ماقلته لها حالما فتحت الباب: «أيتها الفتاة، تبدين مثل خفاش خارج من الجحيم، ماذا تفعلين هنا بهذه الجزمة الولادية؟»

«دعيني أدخل وحسب، هل توافقين؟».

بيردي غودرو كان لديها مايكفي لشخصين بالضبط من كبد العجل. تناولت الأم وابنتها الطعام في المطبخ. وبدأت مافيس عند ذلك بحالة مقبولة، بعد أن استحمّت وسرّحت شعرها وتناولت بعض أقراص الأسبيرين، وارتدت ثوب بيردي المنزلي الذي بدا فضفاضاً عليها.

«حسناً، إذن ماذا حدث؟ حتى وإن كان لا ضرورة لأن تروي لي ذلك».

كانت مافيس ترغب بالحصول على مزيد من البازلاء، فأحنت الوعاء لترى إذا كان قد بقي فيه شيء.

تابعت بيردي الكلام قائلة:

«تعلمين أنني كنت أتوقع هذا. الجميع كانوا يتوقعونه، فالأمر لا يحتاج أكثر من دماغ بعوضة».

كان قد بقي قليل منها، نحو ملعقتين. أسقطتهما مافيس في صحنها، متسائلة إذا كان هنالك حلويات بعد الطعام. وقد تبقى بعض البطاطا المقلية في صحن أمها. «هل ستأكلينها يا أمي؟».

دفعت بيردي صحنها نحو مافيس كان ما يزال فيه أيضاً قطعة كبد صغيرة وبعض البصل المقلي، سكبت مافيس كل شيء في صحنها.

«ما زال لديك أطفال أيضاً. الأطفال بحاجة إلى أم. أعرف يا حبيبتي ماذا أصابك، ولكن لديك الأطفال الآخرين».

كان الكبد معجزة. فأمها تزيل منه كل أثر للغشاء الملتصق.

«ياماما»، قالت مافيس بعد أن مسحت شفتيها. بمنديل ورقي: «لماذا لم تأتي لحضور الدفن؟».

انتفضت بيردي: «ألم تتلقّي الحوالة؟ والزهور؟».

«لقد تلقيناها».

«إذن تعرفين لماذا. كان عليّ أن أختار - المساعدة على دفنها أو دفع نفقات الرحلة. لم أكن أملك الوسائل للقيام بالثنتين معاً. سبق أن قلت لك كل هذا. وسألتك بصراحة ماهو الأفضل. وكلاهما أحببتهما أن النقود هي الأفضل. كلاهما، نعم كلاهما قلتما ذلك».

«سيقتلونني ياماما».

«هل ستظلين ترددين عليّ هذا طيلة ماتبقى من حياتي؟ بعد كل ماعلمته لك وللأطفال؟»

«لقد سبق أن حاولوا ذلك ولكنني هربت».

«أنت كل مالدّي بعد أن ذهب أشقاؤك ليقتلوا مثل الـ...»

وضربته بيردي فوق الطاولة.

«ليس من حقهم أن يقتلوني».

«ماذا؟»

«إنه يُرغم الأطفال الآخرين على القيام بهذه الفعلة».

«ماذا؟ أية فعلة تعنين؟ تكلمي بصراحة كي أفهم ماتقولين».

«أقول إنهم ينون قتلي».

«هم؟ من هم؟ فرانك؟ من تعينين بـ هُم؟»

«هم كلهم. الأطفال أيضاً.»

«يقتلونك؟ أطفالك؟»

أومات مافيس برأسها. فتفرست بها بيردي غودرو، في البداية وقد جحظت عيناها، ثم نظرت إلى ركبتيها ممسكة جبينها بإحدى يديها.

بعد ذلك لم تقولا شيئاً خلال فترة من الوقت، ولكن فيما بعد، قرب المغسلة، سألتها بيردي: «هل حاول التوأمين، هما أيضاً القتل؟».

فحدقت مافيس بأمها: «لا! أوه، لا ياماما! هل جنتت؟ كانا رضيعين».

«حسناً، حسناً. كنت أسأل، إنه سؤال، وهذا كل شيء. فليس أمراً عادياً، كما تعلمين، التفكير بأن أطفالاً صغاراً...».

«ليس أمراً عادياً؟ إنه... إنه أمر سيء! ولكنهم سيفعلون مايقوله. والآن سيحاولون كل شيء، لقد سبق لهم أن حاولوا ياماما».

«كيف حاولوا؟ ماذا فعلوا؟».

«كان مع سال موسى حلاقة وكانوا يضحكون وهم ينظرون إليّ ويراقبونني. لم يكونوا يرفعون نظرهم عني دقيقة واحدة».

«ماذا تفعل سال بموسى الحلاقة؟».

«وضعتني إلى جانب صحنها وراحت تنظر إليّ. جميعهم راحوا ينظرون إليّ».

لم تتطرق أيّ منهما بعد ذلك إلى هذا الموضوع، لأن بيردي قالت - مافيس بأن بإمكانها البقاء شريطة ألا تتفوه ثانية بمثل هذا الكلام. وأن فرانك إذا اتصل هاتفياً لن تقول له بأنها موجودة هنا، لا له ولا لأي أحد غيره، ولكنها إذا أضافت كلمة واحدة عن قصة القتل تلك فإنها ستتصل به في الحال.

وبعد انقضاء أسبوع استأنفت مافيس الرحيل، ولكنها هذه

المرّة قد وضعت خطة. فقبل ذلك ببضعة أيام، سمعت أمها تتكلم بالهاتف بصوت منخفض: «الأفضل أن تأتي في الحال، أعني أن تفعل ذلك». فقامت مائيس بجولة في البيت أثناء وجود بيردي في الروضة، متفكرة: نقود، أسبيرين، ماكياج، ملابس داخلية، نقود، أسبيرين، ماكياج، ملابس داخلية. أخذت كلّ ما استطاعت أن تجده من النقود والأسبيرين. الحوالات في ظرفين حكوميين غامقي اللون، بقرب صورة أحد أخوتها الذين قتلوا في الحرب، وعبوتين من أسبيرين باير. وأخذت قرط الماس الاصطناعي من علبة حلي أمها، وعثرت على مفاتيح السيارة، التي كانت أمها تعتقد أنها قد خبأتها جيداً، وأفرغت غالونين من البنزين، كانت مخصصة لألة قص الأعشاب في خزان الكاديلاك، وذهبت تبحث عن غيرها. وفي نيو أرك وجدت مشغل إيرل شيب لطلاء السيارات وانتظرت هناك يومين في أحد المهاجع، حتى أعيد طلاء الكاديلاك باللون الأحمر الغامق. والدولارات التسعة والعشرون المعلن عنها لم تكن إلا للسيارات ذات الحجم العادي. أما هي فقد طلب منها أن تدفع للكاديلاك 69 دولاراً. واشترت الحذاء والملابس الداخلية من محل وول وورث. ومن دكان غودويل اشترت بنطالاً أزرق باهتاً لا يتجعد وفوليراً ملفوفاً من القطن الأبيض. وفكرت: هذا مناسب جداً، من أجل كاليفورنيا، حقاً مناسب.

غادرت نيو أرك متجهة نحو الطريق العام رقم 70 ، وبجانبتها على المقعد خريطة جديدة من شركة موبيل. ومع ابتعادها وتركها الشرق وراءها راحت تشعر بمزيد من السعادة. ولم تكن قد شعرت بمثل هذه السعادة إلا مرة واحدة. عندما ركبت لعبة الصاروخ وهي طفلة صغيرة. وعندما كان الصاروخ يزداد سرعةً في أحد المنحدرات عند ذلك تسحرها السرعة وتجعلها تشعر بنشوة السعادة. وعندما يبطن قبل أن يدير رأسه في قوس الدائرة الكبير في الأسفل تعثرها رعدة قوية ولكنها هادئة. كانت تصرخ بقوة كبقية الركاب، ولكن كانت تتصاعد في داخلها إثارة مطمئنة وهادئة كالتي تشعر بها عند مجابهة الخطر المقيّد في المعدن المتين بشكل

آمن تماماً. كانت سال تكره هذا، وكذلك الصبيان عندما اصطحبتهم فيما بعد، إلى مدينة الملاهي. والآن، وهي تهرب نحو كاليفورنيا، كانت حسب رغبتها تستعيد ذكريات الصاروخ واندفاعه بها.

حسب الخريطة عليها أن تسير إلى الأمام على خط مستقيم وماعليها سوى أن تجد الطريق الدولي العام رقم 70 ، وأن تتبعه حتى أوتاه ثم تلتف يساراً وتنحدر بعد ذلك من جديد، نحو لوس أنجلوس. وقد تذكرت، فيما بعد، أنها سارت هكذا مباشرة وعلى خط مستقيم: ولاية، ثم أخرى، حسب ماتتبيء به الخريطة. وعندما لم يبق معها سوى بعض قطع النقود الصغيرة، أصبحت مضطرة أن تصطحب في سيارتها بعض المسافرين اللواتي يقفن على الطريق وينتظرن من يصطحبهن في سيارته. لكن لم تكن تتذكر سوى الأولى والأخيرة. ولم يكن اصطحاب هؤلاء الفتيات يسبب أية مشكلة. كانت تأمل أن تكون رفقتن سهلة ومريحة، فهنّ يساهمن بدفع قيمة الوقود، ووجبات الطعام. يضيفين الجمال على الطرقات الرئيسية، وعلى مفترقاتها، وحواجز الجسور، ومداخل محطات الوقود، وأبواب الموتيلات. يرتدين بنطلونات جينز بزناز منخفض إلى الردين ومتماوج في الوسط. وشعرهن قاس يتأرجح في الهواء أو مشعث على الطريقة الأفريقية. الفتيات البيض كنّ الأكثر تودداً والملونات أبداً تكييفاً. ولكن جميعهن كنّ يحدثنها عن عالم ما قبل كاليفورنيا وعبث الثرثرة التي كانت تسمعها، والضحكات المستمرة، وفترات الصمت، كان العالم الذي يصفنه يشبه بدقّة حياتها قبل كاليفورنيا - عالم حزين، مخيف، سيء. المدارس العليا منحطة، الأهل أغبياء، جونسون يبعث على القرف، رجال الشرطة خنازير، الرجال جرذان، والصبيان قذرون.

الفتاة الأولى كانت موجودة عند مخرج زانسفيل. وبينما كانت تعد نقودها وهي جالسة في مطعم بجانب الطريق، وصلت الهاربة. رأتها مافيس عندما دخلت إلى دورة المياه الخاصة بالسيدات، وبعد ذلك بوقت قصير خرجت وهي ترتدي ملابس أخرى: تنورة طويلة هذه المرة وقميصاً نسائياً واسعاً وطويلاً ينسدل على فخذيها. وفي

الخارج، عند موقف السيارات أسرع الفتاة إلى قرب الكاديلاك وسألت مافيس إذا كانت تستطيع الركوب. وبابتسامة عريضة، فتحت الباب بسرعة عندما أومأت لها مافيس برأسها. وذكرت الفتاة اسمها - ساندرا، لكن، ناديني: دستي - وظلت تتحدث طيلة السير مسافة اثنين وثلاثين ميلاً. ثم دون أن تهتم مطلقاً بمافيس أكلت قطعتين من «المالومار» واستمرت في ثرثرتها المتعلقة أساساً بأصحاب البطاقات المعدنية للكلاب الستة المعلقة حول عنقها. فتيان من صفها في مدرستها العليا أو أنها تعرّفت عليهم قبل الثانوية. حصلت على بطاقتين منها أثناء مواعيد اتفقت عليها، أما البطاقات الأخرى فقد استجذبتها من أهلهم - إنها للذكرى. فجميعهم ماتوا أو اختفوا.

وافقت مافيس بأن تعرّج على كولومبوس لكي توصل دستي عند صديققتها. وصلتا إلى هناك نحت مطر ناعم. وكان أحدهم قد جزّ أعشاب المرجة الخضراء لآخر مرة في ذلك الموسم. شعر دستي ذو الخصلات الداكنة الصغيرة الملتصقة، ورائحة الأعشاب المقصوصة حديثاً، والقوية، بتأثير المطر، ورنين البطاقات المعدنية، ونصف قطعة «المالومار»: تلك كانت ذكريات مافيس عن أول رفيقة طريق اصطحبها في سيارتها. وفيما عدا الأخيرة، فإنها لا تتذكر الترتيب الذي التقت فيه مع بقية المسافرين. هل رأت رجلاً جالساً على مقعد، تحت بعض أشجار الصنوبر، في مكان للاستراحة في ولاية كولورادو؟ كان يأكل ببطء، ببطء شديد، وهو يطالع إحدى الصحف. أم قبل ذلك؟ كانت الشمس مشرقة، ولكن الطقس بارد. وعلى أية حال، فمن ذلك المكان، كانت قد اصطحبت الفتاة التي سرقت منها القرط المصنوع من الماس الاصطناعي. لكن قبل ذلك - هل حدث هذا قرب سان لويس؟ - سبق لها أن فتحت باب السيارة لفتاتين كانتا ترتجفان من البرد، على الطريق العام رقم 70. في مهب الرياح، وقد ضمّتا سترتيهما العسكريتين جيداً حتى الذقن، وتنتعلان حذائين ضخمين من الجلد، مع جوارب رمادية سمكية. مسحتا أنفيهما دون أن تُخرجا يديهما من جيوبهما.

قالتا بأنّ المكان ليس بعيداً. على مسافة بضعة أميال فقط.

والمكان مقبرة ذات خضرة زاهية تغص بالناس كأنها حديقة عامة. وصفوف من السيارات تحيط بمدخلها كالقلادة. جماعات وأفراد من المتنزهين يتحملون شدة الرياح، يختلطون بطلاب إحدى المدارس الحربية. شكرت الفتاتان مافيس وغادرتا السيارة. ثم أسرعتا للحاق بموكب دفن قرب قبر غير بعيد. تريت مافيس بمغادرة المكان وقد أدهشها جمال الخضرة غير الاعتيادي. وأولئك الذين ظننتهم طلاب إحدى المدارس الحربية، كانوا في الحقيقة جنوداً حقيقيين - لكنهم حديثو السن ويمثل نضارة شواهد القبور التي يقفون أمامها.

حدث ذلك دون شك بعد أن اصطحبت مافيس بيني - الأخيرة، تلك التي فضلتها على البقية والتي سرقت لها معطفها المطري وجزمة سال. شعرت بيني آنذاك بالسعادة، عندما علمت أن مافيس ذاهبة إلى لوس أنجلوس. لأنها تقصد سان دييغو. لم يكن هناك من يتحدث حديثاً طويلاً أو قصيراً ولكن بيني كانت تغني. أغاني الحب الصادق، الحب المخدوع، الخلاص، أغاني تعبر عن فرح لا حدود له، وأغاني تبث على البكاء، وأخرى غيرها تبدو بلهاء بشكل مقصود. كانت مافيس تغني معها من وقت لآخر، لكنها ظلت تصغي لها معظم الوقت، ولم تمل من سماعها طيلة المئة واثنين وسبعين ميلاً. وكانت هذه الأميال تنساب بسرعة وقد لطفها الأكم البديع في صوت بيني.

لم تكن تحب تناول الطعام في استراحات الطريق. وإذا توقفتا مع ذلك بناء على إلحاح مافيس، لم تكن بيني تشرب سوى الماء، بينما تلتهم مافيس شطائر الجبنة الذائبة والبطاطا المقلية. وقد جعلتها بيني مرتين تعرج على بعض المدن، لتبحثا عن أحد أحياء الملونين، حيث تستطيعان، تناول مأكولات «صحية» كما تقول. وفي هذه الأماكن، تأكل بيني ببطء ونظام، تطلب عدة مرات بعض المقبلات، ودائماً توصي بأن يهئ لها شيء تصطحبه معها. كانت تنتبه لنقودها جيداً دون أن يبدو عليها أنها قلقة بشأنها، وتشارك في كل مرة تزودان فيها بالوقود.

ولم تعرف مافيس أبداً ماذا كانت تنوي أن تفعل ولا من تريد أن

تقابل في لوس أنجلوس (حسناً سان دييغو). فقد كان جوابها الوحيد على أسئلة مافيس، هو قولها: «يجب أن أذهب إلى هناك». ومهما كان الأمر، فإنها في مكان ما، بين تويكا ولورنس في ولاية كنساس اختفت حاملة معها المعطف المطري البلاستيكي الشفاف، وجزمة سال الصفراء. وقد استغربت مافيس ذلك لأن الورقة النقدية من فئة الخمسة دولارات كانت مازال مثبتة بلاصق على ذراع تغيير السرعة المطاطي. كانتا قد انتهيتا من تناول الطعام المؤلف من الشواء وسلطة البطاطا، في مطعم بائس، يدعى هيكز. وطلب بيني «الخارجي»، مغلف وموضوع على المنضدة. وقالت وهي تومئ برأسها بشأن الحساب: «أنا أتولى ذلك، اذهبي إلى دورة المياه قبل أن نستأنف السفر». وعندما رجعت مافيس كانت بيني قد اختفت حاملة «الضلع على الماشي» معها.

«وكيف يمكنني أن أعرف بحق الحميم؟» هذا ما أجابت به الخادمة، «إنها لم تترك حتى سنتاً واحداً كبخشيش».

فأخرجت مافيس من جيبها ربع دولار ووضعت على طاولة المحاسبة، وانتظرت بضع دقائق في السيارة قبل أن تحاول تبين اتجاهها في العودة إلى طريقها الجميل الذي يحمل الرقم 70.

الهدوء الذي تركته بيني في الكاديلاك كان لا يطاق. فتركت مافيس جهاز الراديو يعمل على الدوام، وعندما كانت تذاع إحدى أغاني بيني، كانت تغني هي أيضاً، مع استيائها من أدائها السيء. وفي إحدى محطات إيسو للوقود، استولى عليها الذعر.

فقد ألقت نظرة عبر النافذة وهي تعيد مفتاح غرفة الاستراحة: في الجانب الآخر، تحت الأضواء المتلألئة التي تغمر مضخات الوقود، رأت فرانك منحنيًا على نافذة الكاديلاك. هل ازداد طول شعره إلى هذه الدرجة خلال خمسة عشر يوماً؟ وملابسه؟ ستره من الجلد الأسود، قميص مفكوكه أزراره حتى السرة تقريباً، وسلاسل ذهبية. ترنحت مافيس وعندما نظر إليها المستخدم حاولت أن تتظاهر بأنها قد تعثرت. ليس هناك أي مكان تهرب إليه. أخذت

تبحث في مصورات ولاية كولورادو المعلقة في لوحة العرض، وألقت من جديد نظرة أخرى: لقد انصرف. فظننت أنه قد أوقف سيارته بالقرب من المكان، منتظراً ظهورها.

قالت لنفسها: سأصرخ وأدعي أنني لأعرفه، سأجادل وأتخبط، وأستدعي الشرطة. السيارة لم تعد ذات لون أخضر نعناعي - ولكن، أوه يا إلهي! - لوحاتها المعدنية ماتزال هي نفسها. كانت أوراق السيارة بحوذتها. وماذا لو جلب معه أوراق الملكية. هل أذيعت عنها نشرة؟ لا يمكنها البقاء جامدة، وليس هناك تراجع. تقدمت مايس دون أن تحت الخطى ودون أن تركض، خافضة رأسها وهي تبحث في حقيبة يدها عن ورقة نقود بعشرين دولاراً.

وأخذت تنتظر في السيارة أن يأتي عامل المحطة ليأخذ ثمن الوقود، وأثناء ذلك عمدت إلى تقصي الجهات المجاورة عبر النافذة الخلفية والنوافذ الجانبية. لاشيء. دفعت، وأدارت محرك السيارة. وفي تلك اللحظة بالذات، ظهر الجذع ذو السترة السوداء والقميص المفتوح في المرآة العاكسة اليمينية. كانت السلاسل الذهبية تعكس الضوء المتلائي. ورغم كل جهودها للتحكم بالكاديلاك والسيطرة عليها فقد زادت وانحرفت عند مغادرتها موقف المحطة. وبسبب الخوف الذي انتابها فقد نسيت أي اتجاه يجب أن تسلك. وأي مفرق؟ هل تستدير إلى اليمين كي تذهب إلى الجنوب. كلا. بل إلى الغرب. أتسلك الطريق 70 ولكن لتذهب إلى أين؟ لكن هذا يؤدي إلى الشرق. ومفرق الخروج المنحني إلى أين يقود؟

وبعد ساعة كانت منطلقة على طريق سبق لها أن سارت عليه مرتين. غادرته بأسرع مايمكن، فوجدت نفسها على جسر ضيق في شارع تحيط به المستودعات. واعتبرت على أية حال أن من الأفضل السير على طرق فرعية، كما قررت، حيث توجد الشرطة بأعداد أقل وتكون الأضواء أقل. غادرت المدينة وهي ترتجف عند توقفها قرب كل إشارة ضوئية. كانت تسير على الطريق رقم 18 عندما حل الظلام، واستمرت تسير أيضاً وأيضاً حتى لم يبق سوى بخار البنزين لتغذية المحرك. فلم تعطس الكاديلاك ولم تسعل، بل توقفت ببساطة في

حفرة سوداء بينما راحت مصابيحها تنير ثلاثين قدماً من الاسفلت. أطفأت مافيس الأضواء وأغلقت الأبواب. وتمتعت قائلة لنفسها: لا بد من قليل من الشجاعة. مثل الفتيات اللواتي يهربن من شيء ما، ويسرعن نحو شيء آخر، إذا استطعن الاكثار من السفر، والقفز في السيارات والذهاب من أجل المشاركة بموكب جنازة أحد الأموات، ثم يحدث عن شيء يأكله في أحياء مجهولة، والسفر وحدن أو بحماية واحدة أخرى، هي تستطيع بالتاكيد البقاء في الظلام منتظرة طلوع الصباح. وهذا ما فعلته طيلة حياتها بعد أن بلغت سن الرشد، إذ لم تكن تنام نوماً جيداً وهنيئاً إلا في عز النهار. مرة وإلى الأبد لم تعد مراهقة، بلغت السابعة والعشرين من العمر، وأصبحت أمّاً...

ومشرب إرلي تايمس الذي شربته لم يفدها بشيء. فالدموع بلّلت ذقنها وسالت على عنقها. ولكن الكحول انتهى أخيراً بتنويمها.

عندما استيقظت مافيس كان فمها جافاً، مزعجاً، وهي مشوشة الذهن تماماً، وشعرت أنها تكاد تموت جوعاً، لأن الشمس، التي بلون البطيخ الأحمر آنذاك بدت لها صالحة للأكل. والأفق ذو اللون الأزرق الصارخ الذي يحيط بها، لم يعد يشكل دعوة أو توبيخاً، وكان يسنده مليار ميل من اللاشيء المطلق.

لم يكن لديها الخيار. فاسترخت كما علّمتها دستي أن تفعل وعادت إلى السيارة لتنتظر مرور أحد. بيني كانت حاذقة ومدبرة: فلم تكن تذهب أبداً إلى مكان ما، دون أن تحمل معها علبة ملأى بالمأكولات. شعرت مافيس أنّ بلاقتها قد انغلقت على رأسها مثل كيس فارغ. امرأة بالغة، تعجز عن اجتياز البلاد. وتعجز عن القيام بتنسيق يدوم أكثر من عشرين دقيقة. كان ينبغي أن تتعلم كيف تنشف جسدها بالأعشاب. بدت أكثر غباءً من أن تفتح نافذة السيارة كي يستطيع الطفلان الرضيعان أن يتنفسا. والآن هاهي لاتعرف لماذا هربت من السلاسل الذهبية المتجهة نحوها. لقد كان فرانك محقاً وعلى صواب. منذ البداية كان مصيباً عندما قال عنها: «إنها أغبي عاهرة على هذا الكوكب».

وأثناء انتظارها لم تمر أية سيارة، أية شاحنة أو باص، غلبها النعاس، فغفت واستيقظت وقد راودتها أفكار مخيفة، فعاودت النوم، وفجأة انتفضت، وبدت مستيقظة تماماً وقررت ألا تموت جوعاً. هل اللواتي يقفن على الطرقات بانتظار من يصطحبهن بسيارته يقبلن البقاء جالسات هكذا دون أن يفعلن شيئاً؟ ماذا عن دستي، بيني؟ أخذت تتفحص مايحيط بها. المليار ميل من اللاشيء على الإطلاق فيه أشجار في البعيد. لكن هل هذا عشب أم نوع من المزروعات؟ وكل طريق يؤدي إلى مكان ما، أليس هذا صحيحاً؟ تناولت مافيس حقيبة يدها، وبحثت عن معطفها المطري، فلاحظت أنه اختفى. صرخت: «ياللمسيح» وصدقت الباب بقوة.

سارت على الطريق نفسه طيلة بقية ذلك الصباح. وعندما بلغت الشمس أقصى ارتفاع لها، انعطفت إلى طريق أضيق من الأول، لأنه ظليل. إنه مسفلت أيضاً، لكنه ليس من السعة بحيث تمر سيارتان عندما تلتقيان دون الخروج عن الاسفلت. وما إن خرج الطريق من تحت الأشجار، حتى رأت بيتاً في الجهة اليسرى، أمامها. كان يبدو صغيراً ولكنه قريب، وقد أمضت بعض الوقت قبل أن تتبين أنه لم يكن لاهذا ولاذاك. وكان عليها أن تجتاز عدة أكرات مزروعة بالذرة الصفراء، قبل أن تصل إلى ذلك البيت الذي إما أنه يدير لها ظهره أو أنه ليس هنالك طريق يوصل إليه. وعندما اقتربت منه، لاحظت أنه مبني من الحجر الرملي - ربما ولكنه اسودّ بفعل الزمن، ولأول وهلة كان يبدو أنه بلا نوافذ، لكن مافيس لاحظت بعد قليل جانباً من إحدى الشرفات ورأت الأضواء التي بدت من النوافذ الكبيرة في الطابق الأرضي. استدارت نحو اليمين فاكشفت ممراً لا يؤدي إلى المدخل، بل يدور حول البيت. فتحوّلت باتجاه اليسار. كانت الممرجة الخضراء الممتدة بجانب الشرفة معتنى بها جيداً. وحاجز الدرج مثبت بالدرجات الحجرية بواسطة كلاليب حديدية. صعدت مافيس الدرج وقرعت الباب. لم يردّ عليها أحد. استدارت من جهة الممر، فرأت امرأة جالسة على كرسي خشبي أحمر، بجانب حديقة صغيرة للخضروات.

صرخت مافيس وقد وضعت يديها حول فمها كمكبّر للصوت:
«اعذريني».

التفتت المرأة نحوها ولكنّ مافيس لم تعرف إلى أين كانت تنظر. كانت تضع نظارة شمسية على عينيها.

«اعذريني»، اقتربت مافيس أكثر. لاجحة للصراخ الآن. «لقد تعطلت سيارتي على مسافة من هنا. فهل يستطيع أحد مساعدتي؟ وهل يمكنني أن أجري مكالمّة بالهاتف؟».

نهضت المرأة، أمسكت طرف مريلتها بيديها وتقدمت. كانت ترتدي فستاناً قطنياً أصفر اللون، معرّقاً بزهور بيضاء صغيرة ومزيناً بأزرار زائدة تحت مريلة تشبه قماش أشعة الزوارق. حذاؤها ذو الكعب المسطح، محلول الرباط. على رأسها قبعة من القش جوانبها عريضة. كانت أشعة الشمس حارة شديدة الوطأة، وعصفت ريح حارة طوت جوانب قبعتها.

قالت المرأة: «لا يوجد هاتف هنا في الخارج، ادخلي».

تبعها مافيس إلى المطبخ حيث أفرغت المرأة من مريلتها كمية من جوز البيكاني في علبة كانت بقرب المدفأة ونزعت قبعتها. على كتفيها راحت تتدلى صفيرتان من طراز «هياواثا»^(٥). نزعت قدميها من حذائيهما، ثبّتت الباب بقرميدة، ونزعت نظارتها الشمسية. كان المطبخ واسعاً جداً يطفح بالروائح والفوضى التي تتسم بها حياة امرأة تعيش وحيدة. وسألت مافيس وهي توليها ظهرها: «هل أنت امرأة تشرب؟».

لم تعلم مافيس ما إذا كانت المرأة تقدم لها الشراب أم تطلب منها أن تشرب.

«لا، أنا لا أشرب».

«الأكاذيب غير مسموح بها هنا. هنا نركب بكل ما هو حقيقي».
بُهِتَت مافيس. نفخت في يديها: «أوه، لقد تناولت قليلاً من

(٥) قبيلة من الهنود الحمر.

كحول زوجي منذ برهة، ولكنني لست تلك التي يمكن أن توصف بأنها «امرأة تشرب». أخيراً، كنت متعبة بعض الشيء وحسب فقد قدت السيارة لفترة طويلة، ثم نفذ الوقود مني».

تشاغلَت المرأة بإشعال الموقد. سقطت ضفيريها إلى الأمام. «لقد نسيْتُ أن أسألك عن اسمك، أنا أدعى مافيس أولبرايت». «الناس ينادونني كوني».

«أشتهي تناول قليل من القهوة ياكوني إذا كانت متوافرة لديك». «أومأت كوني برأسها دون أن تلتفت. «أنتِ تعملين هنا؟».

«أنا أعمل هنا». ودفعت كوني ضفيريها عن صدرها إلى خلف كتفيها.

«ألديك أسرة هنا؟ لدي انطباع بأنني قرعت الباب لزمين، خُيِّل لي أنه طويل».

«لا يوجد أسرة هنا. هي وحدها فوق. وهي لا تستطيع أن تجيب حتى لو أرادت، وهي لا تريد».

«أنا ذاهبة إلى كاليفورنيا. فهل تعتقدين أن بإمكانك مساعدتي لجلب الوقود إلى سيارتي؟ وإرشادي إلى الطريق الذي يخرجني من هنا؟».

أخذت المرأة تنفخ على الموقد ولكنها لم ترد.

«كوني؟».

«إنني أفكر».

نظرت مافيس إلى المطبخ، الذي بدا لها بأنَّساع كافيتيريا مدرستها المتوسطة، وله مثلها أبواب خشبية صفّاقة. وتصورت وجود غرف، العديد من الغرف، في الجانب الآخر من هذه الأبواب. «ألا تشعران بالخوف وأنتما وحدكما هنا؟ يخيّل لي أنه لا يوجد شيء على بُعد أميال كثيرة في الخارج».

ضحكت كوني: «الأشياء التي تخيف ليست دائماً في الخارج. وتلك التي تخيف أكثر هي في الداخل». التفتت ووضعت صحناً أمام مافيس التي بدت منزعة عندما رأت البطاطا يتصاعد منها البخار، وفوقها تذوب قطعة من الزبدة. وشراب الـ إرلي تايمس الذي تناولته حول جوعها إلى رغبة بالتقيؤ، لكنها قالت شكراً وتناولت الشوكة التي قدمتها لها كوني. على كل حال، كانت قد استبشرت برائحة القهوة.

جلست كوني بقربها وقالت: «ربما ذهبت معك».

رفعت مافيس نظرها. كانت هذه هي المرة الأولى التي ترى فيها وجهها دون نظارة شمسية، وأعادته بسرعة إلى البطاطا وغرزت شوكتها في الوعاء.

«مارأيك بذلك، أن نذهب أنت وأنا إلى كاليفورنيا؟».

شعرت مافيس بابتسامة المرأة، ولكنها لم تستطع مجابته. هل غسلت يديها قبل أن تُسخن البطاطا؟ كانت تفوح منها رائحة جوز البيكاني. «وعملك هنا؟» اضطرت مافيس إلى تذوق قطعة صغيرة من البطاطا. مالحة جداً.

«هل كاليفورنيا على البحر؟».

«نعم! على الشاطئ تماماً».

«من الجميل رؤية المياه من جديد». لم تكن عينا كوني تفارقان وجه مافيس. «موجة بعد موجة بعد موجة، كثير من المياه. زرقاء، زرقاء، زرقاء، أليس كذلك؟».

«هذا ما يقال. شمس كاليفورنيا، الشواطئ الرملية، البرتقال...»

«ربما كان هناك شمس أكثر مما ينبغي بالنسبة لي». نهضت كوني فجأة وذهبت إلى الموقد.

«لا يمكن أن يكون هناك شمس أكثر من هنا». الزبدة، الملح والفلفل وقد أضيفت إلى البطاطا، لم يكن ذلك شيئاً أبداً. كانت مافيس تأكل بسرعة. «قطعتُ أميلاً كثيرة ولم أر بقعة من الظل».

قالت كوني: «هذا صحيح!» ووضعت فنجانى قهوة وإناء عسل على المنضدة. «شمس أكثر مما ينبغي في العالم. وهذا يزعجني، ولم أعد أستطيع تحمله».

اندفعت هبة ريح من باب المطبخ وحلت رائحة أكثر عذوبة محل رائحة البطاطا. واعتقدت مافيس أنها ستبتلع القهوة بسرعة فور وصولها لكن المتعة التي كانت تتيحها لها البطاطا المالحة، جعلتها تتذرع بالصبر. واقتدت بما فعلته كوني فسكبت ملعقة عسل في فنجانها ثم أخذت تحركه ببطء.

«هل توصلت لمعرفة طريقة أستطيع بها تدبير الوقود للسيارة؟».

«لابد من الانتظار قليلاً. ربّما اليوم، ربّما غداً، يمكن أن يأتي جماعة ليشتروا».

«ليشتروا، ماذا يشترون؟».

«أشياء حدائقية. أشياء طبختها أنا. أشياء لا يريدون أن يزرعوها بأنفسهم».

«وسيمكن أحدهم من اصطحابي في سيارته لشراء بنزين؟».

«بالتأكيد».

«وإذا لم يأت أحدهم؟».

«يأتي دائماً، دائماً يأتي أحدهم. كل يوم. لقد بعث هذا الصباح، ثمانية وأربعين عرنوس ذرة صفراء وباونداً من الغليظة...».

تحسّست جيب مريبتها.

ذهبت مافيس إلى باب المطبخ كي تنظر إلى الخارج، وهي تنفخ بهدوء على فنجان القهوة الذي تحمله بيدها. عندما وصلت أولاً سرّت لأنها وجدت أحداً ما في المنزل فلم تنتظر بانتباه إلى الحديقة حيث شاهدت شيئاً لم تره سابقاً. والآن وراء الكرسي الأحمر، رأت زهوراً موازية لصقوف الخضار أو مختلطة بها. وفي بعض الأماكن زُرعت بعض النباتات على شكل دوائر وليس على خطوط، فوق أكوام عالية من التربة. بعض فراخ الدجاج كانت تقوق

هناك دون أن تُرى. وجزء من الحديقة، الذي ظنّته لأول وهلة مغزوّاً بالحشائش البرية السيئة، بدا لها، بعد أن أمعنت النظر فيه بمزيد الانتباه، أنه عبارة عن مسكبة كبيرة زُرعت بالبطيخ. وخلفها تمتد امبراطورية من الذرة المزروعة.

«أنت لاتزرعين كل هذا بمفردك، أليس كذلك؟». قالت مافيس هذا وأشارت بيدها إلى الحديقة.

فأجابتها كوني: «ماعد الذرة الصفراء».

«واو!».

وضعت كوني وعاء الإفطار على حوض الجلي.

«أتريدين أن تغسلي يديك؟».

إنّ تتابع الغرف الذي لانهاية له والذي تخيلته مافيس خلف الأبواب الصفّاقة، منعها من أن تطلب الذهاب إلى الحمام. لأنها، هنا، في المطبخ، كانت تشعر بالأمن، وتقلق لمجرد التفكير بمغادرته. «سأنتظر لأرى من سيأتي. وبعد ذلك سأحاول إصلاح زينتني، فلا ينبغي أن أبدو مثيرة للسخرية». ابتسمت وهي تأمل ألا يتم رفضها عن الخوف الذي كانت تشعر به.

قالت كوني: «كما تشائين» ثم وضعت نظارتها الشمسية. داعبت كتف مافيس وهي تلبس حذاءها المفلطح وخرجت إلى الباحة.

عندما ظلت مافيس وحدها توقّعت أن يفقد ذلك المطبخ الفسيح طابعه المطمئن. ولكن لا، فقد استولى عليها شعور بأن المكان يغصّ بالأطفال - وهم يضحكون؟ يغنون؟ - اثنان منهم كانا ميرل وبيرل. وعندما أطبقت أجفانها بقوة لتطرّد هذا الانطباع جعله ذلك أكثر قوة. لمّا فتحت عينيها كانت كوني تدخل وهي تجرّ على الأرض سلّة تتسع لثمانية غالونات.

وقالت: «هيا، ليكن منك بعض الفائدة».

قطّبت مافيس حاجبها عندما رأت جوز البيكان وهزّت رأسها

إزاء كسارات الجوز، الأدوات الأخرى والأوعية التي هيأتها كوني.
وأجابتها قائلة: «لا، أوجدي لي عملاً آخر أستطيع القيام به
لمساعدتك. أما تقشير هذه الثمار، فإنه سيصيبني بالجنون».

«لا، جاولي!»

«أوه، أوه! ليس أنا». وأخذت مافيس تنظر إليها وهي ترتب
الأدوات: «ألا تستطيعين فرش بعض الصحف على الأرض؟ فذلك
يجعل التنظيف أكثر سهولة».

«لا يوجد صحف في هذا المنزل. ولا راديو. والأخبار التي
تصلنا، نسمعها من بعض الأشخاص وجهاً لوجه».

قالت مافيس أخيراً: «هذا حسن، أيضاً. فالأخبار لا يمكن أن
تكون أسوأ مما هي عليه اليوم. وعلى أية حال لا نستطيع عمل أي
شيء حيال ذلك».

«أنك تستسلمين بسرعة. تأملي أظافرك، إنها قوية ومعقوفة
كمخالب طير - ويداك رائعتان لتقشير الجوز. وأظافر كهذه تخرج
في كل مرة لب الثمرة كاملاً. يدان جميلتان، وتقولين بأنك
لا تستطيعين العمل، وأن ذلك يمكن أن يصيبك بالجنون. أما أنا، فإن
ما يمكن أن يُسبب لي الجنون هو رؤية أظافر جميلة كهذه لافائدة
لها».

وفيما بعد، عندما تأملت يديها اللتين أصبحتا فجأة جميلتين
وتعملان، تذكرت مافيس مدرستها في الصف السادس وهي تفتح
أحد الكتب: كانت ترفع زاوية الغلاف، تتلمس حافته، ثم تلمس
الصفحة بأطراف أصابعها وتتابع بها الأسطر المطبوعة. وعندما
كانت تنظر إليها يعترها شعور بالذوبان وهي تراقبها. والآن، وهي
منهمكة بتقشير الجوز، تحاول الاقتصاد بحركاتها دون أن تضحي
برشاقة تلك الحركات. وقد ذهبت كوني بعد أن درّبتها على هذا
العمل المرهق قائلة بأن عليها أن تتفقد «أمها». تساءلت مافيس
وهي جالسة بجوار المنضدة، تستنشق الرائحة العذبة التي تحملها
الريح عبر الباب المفتوح، عن عمر والدتها كوني، فلو قدرته اعتماداً

على عمر ابنتها، فلا بد أنها قد تجاوزت التسعين. وبعد كم من الوقت سيأتي أحد الزبائن؟ وهل لاحظ أحدهم وجود سيارة الكاديلاك؟ وهل سيكون في محطة الوقود التي ستذهب إليها خريطة ترشدها إلى العودة لطريقها الجميل الذي يحمل الرقم 70 أو حتى إلى الطريق رقم 287. ستتجه شمالاً، نحو دنفر، قبل أن تسرع إلى الغرب. وإذا حالها الحظ، فهي ستستأنف السفر هذا المساء. ودون حظ ستكون مستعدة للسفر في الصباح الباكر. ستعود إلى الواقع، وتستمع إلى راديو السيارة الذي أتاح لها تحمل الصمت الذي خلفته بيني، خلال ساعات من السير دون توقف - إصبعها تديران بفارغ الصبر زر المؤشر لكي تجد أغنية أفضل وصوتاً أجمل. الراديو الآن يجتاز حقلاً تحت الطريق ثم حقلاً آخر. بعيداً، بعيداً، في الفضاء الذي كان يجب أن يُسمع فيه صوت الراديو، لا يوجد... شيء. غياب تام وحسب، لم تكن تعتقد أنها تستطيع أن تشغل نفسها بصورة صحيحة دون موجات الراديو المفرحة. امتد غياب الراديو بدءاً من المنضدة التي كانت تجلس بقربها وهي تتأمل بإعجاب يديها المنهكتين بالعمل. نار هادئة سرية تتنفس ذاتها وتنثفث أصوات اشتدادها: طقطقة الجوزات، وصوت ارتطام لئها عندما يلقي في الإناء، وأصوات أوعية الطبخ وهي تعاد إلى أماكنها بشكل دائم، وأزيز الحشرات، وشوشات الأعشاب الطويلة وشعال أغصان الذرة البعيد.

كل شيء كان هادئاً، ولكنها كانت تريد أن تعود كوني لأنها أخذت تخشى تكرار الأمر - متخيلة أطفالاً يغنون. وفي اللحظة التي بدأت مدة غياب المرأة تبدو طويلة جداً، سمعت مافيس صوت دواليب سيارة وهي تسحق الحصى. جلبة الكابج، وصفق أحد الأبواب.

«هاي أيتها السيدة العجوز». صوت امرأة، رشيق ومتراخ.

التفتت مافيس فرأت امرأة داكنة البشرة تسير بمرونة وسرعة، صعدت الدرجات وتوقفت عندما لم تر من كانت تتوقع وجودها هناك.

«أوه، اعذريني».

فقال مافيس: «لابأس بذلك، إن كوني هناك فوق».
«أرى هذا».

ظنّت مافيس أن المرأة تتفحص ملابسها بانتباه شديد.
قالت وهي تقترب من المنضدة: «أوه، رائع، حقاً إن هذا رائع»
أدخلت أصابعها في وعاء الجوز وتناولت بعض الثمار. توقّعت
مافيس أن تراها تأكلها، ولكنها رمتها على الكومة. «أيّ طعم لوجبة
عيد الشكر دون فطيرة بجوز البيكان؟ لاطعم لها أبداً».
لم تسمع أيّ منهما وقع الأقدام الحافية، ولأنّ الباب لا يحدّث
صوتاً عندما يفتح أو يغلق، فقد بدا دخول كوني كظهور سحري.
«ها أنت!» وفتحت المرأة السوداء ذراعيها. فالقت كوني
بنفسها عليها في عناق طويل متأرجح. «لقد أخفّت هذه الفتاة حتى
الموت. إذ لم يسبق أن رأيت أي غريب هنا».
فقال لها كوني:

«إنها الأولى: مافيس أولبرايت. هذه سوان مورغان».
«مرحباً يا حبيبتي».

«مورغان، السيدة مورغان».

سخن وجه مافيس ولكنها ابتسمت على أية حال، قائلة: «إني
أسفة، ياسيدة مورغان»، وقد لاحظت حذاءها الأنيق الغالي الثمن
«ماركة أوكسفورد»، جراباتها الناعمة، صدريتها المصنوعة من
خيوط الصوف وتفصيله فستانها: من قماش الكريب الصيفي، لونه
أزرق فاتح وياقته بيضاء.

فتحت سوان حقيبة يدها. «لقد جلبت لك المزيد»، قالت ذلك
وأخرجت نظارة شمسية من النوع الذي يستخدمه الطيارون.
«جيد. لم يبق لدي سوى نظارة واحدة».

ألقت سوان نظرة على مافيس. «النظارات الشمسية، إنها
تأكلها».

«ليس أنا. إن هذا البيت هو الذي يأكلها». ثبتت كوني ساعدي

النظارة خلف أذنيها ثم ذهبت لتجربها عند الباب. وأدارت وجهها نحو الشمس، أطلقت: «ها!» بصوت مليء بالتحدي.

«هل هناك من أوصى على جوز البيكان المقشور، أم أن الفكرة خطرت لك أنت؟»

«إنها فكرتي».

«وستصنعين كثيراً من الفطائر».

«أكثر من الفطائر». سكبت كوني الماء من الصنبور على النظارة الشمسية ونزعت عنها اللصاقة.

«لأريد معرفة شيء عن ذلك، فلاتحدثيني عنه إذن. وقد أتيت للأمر الذي تعرفينه».

أومات كوني برأسها. «هل يمكنك أن تدبري لها وقوداً لسيارتها؟ تصطحبينها وتعيدينها إلى سيارتها؟» كانت تنظف وتجفف النظارة الجديدة وأخذت تدقق لترى فيما إذا كان قد بقي بعض البقع أو بعض بقايا اللصاقة أو الخرقه التي نظفتها بها.

سألت سوان: «أين سيارتك؟» كان في صوتها نبرة تتم عن الدهشة كما لو أنها تشك بأن شخصاً ينتعل صندلاً وبنطالاً عتيقاً مرقعاً وكنزة ولادية وسخة، يمكن أن يكون لديه سيارة.

أجابتها مافيس: «على الطريق رقم 18. لقد مشيت خلال عدة ساعات حتى وصلت إلى هنا، ولكن بسيارة...»

أومات سوان برأسها. «كان من الممكن أن أقوم بذلك بكل سرور. ولكن يجب أن أجد أحداً يوصلك إلى سيارتك. فلديّ كثير من الأعمال يجب أن أقوم بها. وقد أتى ولديّ لتمضية إجازتهما». ونظرت بزهو إلى كوني: «البيت سيمتلئ قبل أن أشعر بذلك». ثم: «كيف حال الوالدة؟»

«لا يمكن أن يستمر ذلك».

«هل أنت متأكدة أنّ الذهاب إلى دمبي أو ميدلتون، ليس فكرة أفضل؟»

دست كوني نظارة الطيار في جيب مريلتها وتوجهت نحو غرفة المؤمن. «في المشفى لن تلفظ غير نفس واحد، أما نفسها الثاني قسيكون الأخير».

الكيس الصغير الذي وضعته كوني على سلة جوز البيكاني قد يكون قنبلة يدوية. وعندما وُضع على مقعد سيارة الأولدزموبيل، بين مافيس وسوان مورغان كان ينبعث منه نوع من التوتر. ولم تكف سوان عن تلثسه كما لو أنها تريد أن تتذكر بأنه مازال موجوداً هناك. وقد انقطع الحديث المريح الذي بدأ في المطبخ. إذ فجأة أصبحت سوان رسمية جداً، لم تعد تتكلم إلا نادراً، ولا تردّ على أسئلة مافيس إلا باختصار وبإعطائها أقل ما يمكن من المعلومات، دون أن تطرح هي أي سؤال.

«أليست كوني لطيفة؟».

نظرت سوان إليها: «نعم. لطيفة».

استمرت في السير خلال عشرين دقيقة. بدت سوان منتبهة لكل جانب وكل منعطف مهما كان يسيراً. وبدت كأنها تترصد شيئاً ما. توقفتا عند محطة وقود ذات مضخة واحدة في مكان غير معروف وطلبتا خمسة غالونات من البنزين، تأخذانهما معهما، من الرجل الذي اقترب من نافذة السيارة وهو يعرج. وحصلت مناقشة طويلة، تخللتها فترات من الصمت، بشأن صفيحة الخمسة غالونات. الرجل يريد أن تدفع مافيس ثمنها. فأجابته بأنها ستعيدها عندما ترجع لتملأ خزان السيارة. لم يصدقها. وأخيراً اتفقا على دفع دولارين كتأمين يردّ عند إعادة الصفيحة. استأنفتا السفر، وسارتا في طريق آخر يتجه نحو الشرق، خلال فترة لا تقلّ عن ساعة. أشارت سوان إلى لوحة خشبية غريبة الشكل وقالت: «هاقد وصلنا». وقد كُتب على تلك اللوحة، في أعلاها: «روبي 360 نسمة»، وفي أسفلها: «لودج 16».

الأمر الذي أثار في بداية الأمر بمافيس هو ذلك الهدوء المخيم على تلك المدينة الصغيرة، كما لو أنه لا يسكنها أحد. وفيما عدا مخزن لبيع الأغذية ومصرف للإيداع والتسليف، لم يكن يرى فيها

حي تجاري. اتجهتا نزولاً في شارع عريض جداً، وسارتا بمحاذاة بعض المروج الخضراء الفسيحة التي قصت أعشابها بشكل رائع، ومرتا أمام بعض المنازل والكنائس المطلية بالبلاستيك. كان الهواء معطراً، والأشجار فتية. وانعطفت سوان إلى شارع صغير تحيط به حدائق للزهور أكبر من البيوت التي كانت تتطاير حولها الفراشات كندف الثلج.

«صفيفة» الخمسة غالونات كانت تفوح منها رائحة قوية في سيارة سوان، ولكن لم يعد ممكناً تمييزها من الروائح الأخرى في شاحنة الشاب حيث كانت مافيس تمسك بـ الصفيفة محصورة بين قدميها. وربما كان ذلك المزيج من روائح أبخرة الصمغ والزيت والمعدن، قد سبب لها الغثيان لو لم يقم السائق من تلقاء نفسه بما لم تستطع مافيس أن تطلبه من سوان مورغان وهو: إدارة جهاز الراديو. راح المذيع الذي يقدم البرنامج يعلن عن الأغاني، كما لو أن بعض أفراد أسرته أو أفضل أصدقائه يغنونها: كينغ سولومون، براندر أوتيس، دينا بيبى، آيك آند تينا غيرل، سيستر داكوتا، ذاتميس.

وبينما كانا منطلقين على الطريق، كانت مافيس وقد أصبحت راضية حينذاك، تتذوق الموسيقى، وتتأمل بإعجاب رأس الشاب الحليق. لقد بدا لها أكثر ظرفاً من سوان ولكن ليس لديه الشيء الكثير ليتحدث عنه. كانا يستمعان إلى الأغنية السابعة من العشرين أغنية من سباق الأغاني الذي قامت به مجلة «جت»، وقد أصبحت على مسافة عدة أميال من مدينة «روبي 360 نسمة» الصغيرة، عندما انتبهت مافيس إلى أنها لم ترَ رجلاً واحداً أبيض فيما عدا عامل محطة المحروقات.

«ألا يوجد بيض في مدينتكم؟»

«لا يوجد بيض يعيشون فيها. يأتي إليها بعضهم من أجل

الأعمال».

وعندما لمحا المنزل من بعيد، بينما كانا يتجهان نحو الكاديلاك سألتها: «ماذا يشبه هذا، من الداخل؟»
فأجابته مافيس «لم أدخل إلا إلى المطبخ»
«عجوزان تعيشان منفردتين في هذا البيت الكبير، ليس هذا حسناً».

لم يمسّ الكاديلاك أحد ولكنها كانت ساخنة جداً، لدرجة أن الشاب اضطر أن يلحس أصابعه قبل وبعد نزع غطاء خزان الوقود. ثم تطفّ فادار لها المحرك، ونصحها بأن تترك أبواب السيارة مفتوحة بعض الوقت قبل أن تصعد إليها. ولم تجد مافيس صعوبة بأن تجعله يقبل بعض النقود - وهذا أمر يُرعب سوان - وقد انصرف ترافقه أغنية: «هاي جود» تتردّد من راديو شاحنته.

شعرت مافيس وهي وراء المقود، وقد ترطبت في جو السيارة المكيف، بالأسف لأنها لم تسجّل رقم محطة الراديو من تابلوه الشاحنة. وأخذت تبحث عنها دون جدوى وهي في طريق العودة إلى بيت كوني. أوقفت السيارة، والكاديلاك، ذات اللون الأحمر الغامق، الذي يشبه الدم الجاف، بقيت هناك طيلة سنتين.

كانت الشمس قد أخذت تغيب عندما أدار الشاب المحرك. ونسيت مافيس أن تسأله عن الاتجاه الذي يجب أن تسلكه. علاوة على ذلك، فهي لم تستطع أن تتذكّر أين توجد محطة المحروقات التي وضعت فيها الدولارين كتأمين، وهي لا تريد أن تبحث عنها في ظلام الليل. كانت كوني قد حشت فزّوجاً وطبخته. ولكنها إذا قرّرت أن تُضي تلك الليلة هناك فذلك بسبب الأم خصوصاً.

البياض في المركز كان يعمي الأبصار. أمضت مافيس بعض الوقت حتى استطاعت أن تتبيّن الشكل الكثير المفصل وسط الوسائد، وأغطية السرير ببياضها الناصع، وكان من الممكن أن تظنّ لاترى شيئاً لفترة أطول لولا سماعها الصوت الأمر الذي قال: «لاتنظري هكذا يا صغيرتي».

انحنّت كوني على قدم السرير ودسّت نراعها تحت الغطاء.

رفعت بيدها اليمنى كعبي الأم وبالييسرى رتبت الوسائد التي كانت تحتها. وتمتعت: «أظافر حادة كموسى الحلاقة». ثم وضعتهما برفق.

عندما اعتادت عينا مافيس على الظلمة وعلى النور، رأت شكل سرير صغير جداً بالنسبة لامرأة مريضة - يكاد يكون سرير طفل - وتشكيلة متجانسة من الطااولات والكراسي عند حد الظلمة التي تحيط بها. تناولت كوني شيئاً ما عن إحدى الطااولات وانحنى في الضوء الذي يرسم دائرة حول المريضة. أخذت مافيس تتابع حركاتها وتراقبها وهي تضع بعض الفازلين على شفتي وجه أكثر شحوباً من الوشاح الأبيض الذي يغطي رأس المريضة.

قالت الأم وهي تمرّ بطرف لسانها على شفتيها المطليتين بالفازلين: «لابد أن يكون هناك شيء طعمه أفضل من هذا».

أجابتها كوني:

«الطعام، أتريدين قليلاً منه؟».

«لا».

«القليل من لحم الفروج؟».

«لا. من هذه التي اصطحبتها إلى هنا؟ لماذا تأتين بأحد إلى هنا؟».

«لقد قلت لك: امرأة معها سيارة وهي بحاجة للمساعدة».

«كان ذلك البارحة».

«لا. قلت لك هذا الصباح».

«حسناً لقد مضى على ذلك عدة ساعات إذن، ولكن من الذي دعاها لتأتي إلى غرفتي الخاصة، إلى خلوتي؟ من؟».

«احذري. أنت، أنت التي دعوتها. أتريدين أن أدلك رأسك؟».

«ليس الآن. ما هو اسمك يا صغيرتي؟».

تمتعت مافيس اسمها من الحيز المظلم الذي كانت تقف فيه.

«اقتربي. فأنا لا أرى شيئاً إذا لم يكن بقربي تماماً. وكأنني

أعيش في قشرة بيضة».

قالت كوني لـ مافيس: «لاتعيريه انتباهاً. إنها ترى كل شيء في هذا الكون». ثم جذبت كرسياً إلى قرب السرير، جلست عليه وأمسكت يد المرأة وأخذت تمسد الجلد لكل أصبع معقوف واحداً تلو الآخر.

تقدمت مافيس إلى دائرة الضوء ووضعت يدها على قدم السرير المعدنية.

«هل سوي الأمر الآن؟ وسارت سيارتك؟»

«نعم يا سيدتي. لقد سوي الأمر. شكراً».

«أين أطفالك؟»

لم تستطع مافيس الإجابة.

«كان هنا كثير من الأطفال فيما مضى. كانت هذه مدرسة جميلة جداً، مدرسة بنات هنديات».

نظرت مافيس إلى كوني، ولكن عندما نظرت إليها كوني بدورها أطرقت مافيس وخفضت بصرها في الحال.

بدرت من المرأة التي في السرير ضحكة خفيفة وقالت: «صعب التحديق فيها والنظر في عينيها، أليس كذلك؟ عندما أتت إلى هنا، كانتا خضراوين بلون العشب».

فقالت كوني «وعيناك كانتا زرقاوين».

«ومازالتا كذلك».

«أنتِ تقولين هذا».

«ماهو لونهما إذن؟».

«لون عيني نفسه - لون حائل لامرأة عجوز».

«أعطني مرآة يا صغيرتي».

«لاتعطيها شيئاً».

«مازلت أنا التي تعطي الأوامر هنا».

«بالتاكيد، بالتأكيد».

الثلاثة كنَّ يراقبن الأصابع السمراء التي كانت تداعب الأصابع البيضاء. تنهَّدت المرأة المستلقية في السرير. «انظري إليّ، لأستطيع أن أجلس بمفردي دون أن يساعدني أحد، وأحتفظ بكبريائي حتى النهاية. لابد أن الرب يضحك إلى أن ينشَقَّ شداقه».

«الرب لا يضحك، وهو لا يلعب».

«نعم، حسناً، إنك تعرفين كل شيء عنه، أنا متأكدة من ذلك. وفي المرة القادمة التي تريينه فيها، قللي له أن يدع الفتيات الصغيرات يدخلن. إنهنَّ يتجمعن أمام الباب ولكن لا يدخلن. وذلك لا يزعجني أثناء النهار ولكنهنَّ يعكرن عليَّ النوم في الليل. هل تغذيهن كما يجب؟ إنهنَّ على الدوام جائعات جداً. يوجد عندنا كل ما يلزم، أليس كذلك؟ لا من تلك الفطائر التي يحببها، بل أطباق شهية ساخنة. لأنَّ فصول الشتاء قاسية جداً. ونحتاج لكثير من الفحم، وإنها لخطيئة أن تحرق الأشجار على المرح وبالأمس راح الثلج ينخل من تحت الباب فنستجدي السلام الآمن في اليوم الذي كانت المواطنة الأخت «روبرت» تقشّر البصلات، وبسبب خطيئة أنفها الأفتلس المفلطح دائماً، فإنه لا يمكنك النجاة من أي اضطراب».

ضمت كوني يدي الأم على الغطاء ونهضت، ثم أشارت إلى مافيس أن تتبعتها. أغلقت الباب، وسارتا في الممر.

«كنت أظن أنها أمك. بناءً على الطريقة التي كنت تتكلمين بها، كنت أعتقد أنها أمك الحقيقية». نزلتا على الدرج المركزي الواسع.

«إنها أمي. وأمك أيضاً. هل أنت أمّ؟».

لم تردّ مافيس، من جهة لأنها لم تكن تستطيع الكلام عن ذلك، ومن جهة أخرى لأنها كانت تحاول أن تتذكر من أين يأتي الضوء إلى غرفة الأم في بيت ليس فيه كهرباء.

بعد تناول طعام العشاء وأكل الفروج المحشي، اقتادت كوني مافيس إلى غرفة كبيرة. اختارت من بين الأسرة الأربعة التي تُطوى، السرير الأكثر قرباً من النافذة، وانحنى على ركبتيها لكي تنظر إلى الخارج. قمران بلون الحليب، بدلاً من القمر الموجود في الأعلى،

كان يمكن أن يكونا شبيهين بعيني كوني. تحتها عالم مرتب يسوده النظام. بلا يوم حساب. حسن الترتيب. فسيح، وأبدى.

أي الطرق إلى كاليفورنيا؟

أي الطرق إلى مرييلاند؟

ميرل؟ بيرل؟

شبل الأسد الذي التهمها تلك الليلة، كانت عيناه زرقاوي وليستا كستنائيتين، ولم يكن، تلك المرة، بحاجة إلى إبقائها على الأرض. عندما وضع قائمته اليسرى حول كتفها، تركت بمل إرادتها رأسها يسقط إلى الخلف مبدية عنقها. ولم تبذل أي جهد أيضاً للخروج من حلمها. كانت العضة شهية ولكنها ظلت نائمة مثله تنام أشياء أخرى إلى أن يوقظها الغناء.

تركت مافيس أولبرايت الدير مراراً ولكنها كانت تعود إليه باستمرار، كما أنها كانت هناك أيضاً عام 1976 .

في صباح ذلك اليوم من شهر تموز كانت تعي منذ بضعة شهور العلاقات الصعبة الموجودة بين الدير والمدينة، وربما توقعت قدوم تلك الشاحنة المحملة بالرجال، الذين أخذوا يتجولون بحثاً عن فريسة عبر الضباب. ولكنها كانت تفكر بأمور أخرى: ببخار ازدانت سواعدهم بالوشم وأطفال يستحمون في مياه زمردية اللون ولأنها متعبة من ملذات الليلة السابقة، فقد نامت واستيقظت بعد ذلك بساعة، وبينما كانت تطرد قراخ الدجاج من غرفة الدرس، شم رائحة دخان «سيجار» ورائحة خفيفة جداً من عطر أكوافيلفا.

غريس

إما أن الرصيف كان محرقاً، أو أنها قد خبأت بعض الأحجار الكريمة في حذائها. «K.D.» الذي لم يكن قد رأى أبداً امرأة تتمايل وتتخلع بهذا الشكل، اعتقد أن مشيتها هي التي تسبب المشكلة. لاهو ولا أصدقائه الذين كانوا يتسكعون قرب الفرن رأوها تنزل من الباص، ولكنه عندما انصرف، كانت موجودة هناك - في الجانب الآخر من الشارع، قبالتهم، بينطال ضيق يشد كثيراً على جسمها، وكعبين عاليين جداً وقرط كبير الحجم، لدرجة أنهم نسوا أن يضحكوا من شعرها. عبرت الشارع المركزي وأتت نحوهم وهي تسير بخطوات صغيرة جداً فوق نعلين ضخمين مضاعفين لم يسبق لهم أن رأوا مثلهما منذ العام 1949 .

أخذت تمشي بسرعة، كما لو أنها تقفز على جمر حار، أو أن شيئاً حصر في حذائها ويؤلمها. فكر «K.D.»: لابد أن هذا الشيء ذو قيمة كبيرة، وإلا لكانت انتزعتة.

اجتاز غرفة الطعام حاملاً صندوق التجهيزات. مربعات صغيرة من الدانتيل كانت تبدو من سلة وضعت على المنضدة. العمة سوان تنسج بالسنارة كالسجينات: يومياً، وبصورة منهجية ومجانية، كانت تصنع من الدانتيل أكثر مما يمكن أن يكون منطقياً. الحديقة الممتدة خلف المنزل، إلى اليسار، نُزعت منها كل الأعشاب البرية، الضارة، ويبدو أنها تحظى بعناية فائقة. استدار «K.D.» إلى اليمين

ودخل إلى الحظيرة. هاجت الكلاب عندما رآته. وكان عليه أن يقف مباعداً ساقيه فوق الكلبة غود لكي يمسك بها. كانت أذناها وديعتين لينتتين في يديه وهو يمسك بقوة قطعة القطن المبللة بالكافور. راحت القرادات تتساقط كحب القهوة. وضع يده تحت فكها، فلحست له ذقنه. بن: الكلب الآخر، كان ينظر إليهما، وقد وضع رأسه على قائمته. ولأن هذه الكلاب تعيش في مزرعة ستيوارد مورغان كانت محملة بالأوساخ على الدوام، وتحتاج الكلاب إلى بضعة أيام في روبي حتى يتم تنظيفها وهي تنظف مرتين في السنة، تناول «K.D.»، الفرشاة القاسية من اللعبة وعرزها في شعر الكلبة غود وأخذ يرققه برفق بالفرشاة وهو يغني بنعومة بصوت «مونوتوني» عال، الأغنية التي ابتدعها لها عندما لم تكن سوى جرو صغير وهي أغنية بلوز وإيقاعية: «إيه، ياكليبي الجيد، ابقى كلباً جيداً، كلباً عجوزاً جيداً، ياكليبي العجوز الجيد. الجميع بحاجة لكلب جيد، جيد، جيد، جميع الناس بحاجة لكلب جيد، جيد، جيد، جيد».

أخذت غود تتمطى مسرورة.

سيأتي إلى الاجتماع هذا المساء أولئك الذين يعينهم الأمر فقط. أي جميع الناس، عدا ذلك الذي أثار المشكلة. خاله ديك وستيوارد، والمحترم ميسيز، والد وآرنيت وأخوها. سيتحدثون عن الصفعة ولكن ليس عن الحثل وبالتأكيد ليس عن الفتاة ذات الأحجار الكريمة المخبأة في حداثها.

افترضوا أنها لم تكن هنا. افترضوا أن أحداً لم ير سرتها فوق حزام بنطالها الجينز وأن نهدبها قد هدأ للثو، هدأ لبضعة ثوانٍ، كافية ليتصوروا خلالها كيف يتصرفان - وأي وضع يتخذان. في العلن وبين الناس، دون فتيات متسكعات، كان يمكن أن يعرفا. وفي المجموعة، كان من الممكن أن يجدا على الفور النبرة المناسبة. ولكن آرنيت كانت هناك وقد أخذت تتباكى، وكذلك بيلي دبليبا.

ابتعد «K.D.» وآرنيت عن الآخرين لكي يتحدثا، وقد وقفا قرب شجيرات السنديان القزمة، خلف مقاعد وطاولات النزهة وبدأ الحديث أسوأ مما يظن أن يكون عليه أي حديث. وماراحت آرنيت

تقوله هو: «إذن، ماذا تنوي أن تفعل من أجل ذلك؟» كانت تعني: إني مسافرة إلى لنغستون في أيلول ولاأريد أن أكون حاملاً ولأن أجهض، ولأن أتزوج، ولأن أكون تعيسة بمفردي ولأن أجابه عائلتي. فقال: «إذن، ماذا تنوين أن تفعلني أنت من أجل ذلك؟» ثم مفكراً: لقد احتجزتني في العديد من الأمسيات، كانت كثيرة بحيث لاأستطيع أن أتذكر عددها، وعندما وافقت أخيراً، لم أضطرّ حتى لأن أنزع عنك سروالك الداخلي، فقد فعلت ذلك قبلي، لذلك فالمشكلة ليست مشكلتي.

كانوا قد بدؤوا لتوهم بحجب التهديدات وإظهار قرفهم المتبادل عندما اندفع الباص. جميع الرؤوس، جميعها التفتت. أولاً لأنهم لم يسبق لهم أن رأوا أبداً باصاً في تلك المدينة، فربوي لم تكن محطة على طريق عام يؤدي إلى مدينة ما. وثانياً لكي يروا ببساطة لماذا توقف. لفّت المشهد الذي بدا عندما ابتعد الباص انتباه جميع من كانوا يتمشّون قرب الفرن: كانت تقف بجانب الطريق، بين المدرسة وكنيسة «هولي ريديمر». لم تكن تضع أحمر شفاه، ولكن على بعد مئة وخمسين قدماً، كان بالإمكان رؤية عينيها. والصمت الذي خيم عند ذلك بدا أدياً إلى أن قطعتة أرنيته:

«إذا كان هذا هو نوع المتشردة التي تريدها، هيا، اقفز عليها أيها الزنجي».

انتقلت نظرات «K.D.» من قميص ثوبها الأنيق إلى شعرها المصفّف المسدل على جبينها، ثم إلى وجهها - المقطب، المشاكس والذي ينم عن الاتهام - وصفعها. فتبدّلت تعابير وجهها، وكان الأمر يستدعي ذلك.

قال أحد الناس: «واو!» ولكن أكثر أصدقائه كانوا يتأملون الحلمتين الصارختين اللتين راحتا تقتربان منهم. أرنيته هربت، وكذلك ببلي ديليا، ولكنها، كصديقة مخلصه، التفتت لكي تراهم يرغمون أنفسهم على الإطراق والنظر إلى الأرض أو إلى سماء أيار الصافية، أو إلى مدى طول أظافرهم.

انتهى «K.D.» من الاعتناء بالكلبة غود. وقد استدعى ذلك قص شعر بطنها قليلاً - ولولا ذلك كان يستحيل العناية به بسبب العُقد - ولكنها كانت جميلة. ثم بدأ «K.D.» عمله في شعر بِن وهو يردّد دفاعه أمام عائلة آرنيث. وعندما وصف الحادث لخالتيه، قطب كل منهما حاجبيه في الوقت نفسه. وكصورة في مرآة، فيما يتعلق بالحركات إن لم يكن بالمظهر، بصق ستيوارد عصارة مضغّة تبغ «بلوبوي» كانت في فمه، وأشعل ديك سيجاراً. وأياً كانت درجة قرفهما، فإنّ «K.D.» يعرف بأنهما لن يساويا على حلّ يعرّضه للخطر، هو، أو أموال آل مورغان. فعندما سمى جده توأميه: ديكون وستيوارد، لم تكن هذه التسمية عبثية. وأسرتها لم تبين مدينتين، وتناضل ضد قوانين البيض، وال«كولورد كريك» وقطاع الطرق، وتقارم التقلبات الجوية، لكي ترى المزارع، البيوت، ومصرفاً رهناً فيه مخزن للأغذية، وصيدلية، ومخزن للأثاث والمفروشات، تقع جميعها في جيب آرنولد فليتوود. ومنذ أن دُفنت عظام أبناء خاله المفككة، قبل ذلك بعامين، أصبح «K.D.» أملهما وضياح أملهما، فهو الذكّر الأخير في ذريّة أنجبت نائب حاكم ومفوضاً في ديوان محاسبات الولاية وعُمدتين. وكما هي العادة دائماً كان يجب تفحص سلوكه بعناية من أجل توجيهه للسير في الطريق المستقيم. أو أنّ الخالين يمكن أن يريا الأمور بصورة مختلفة؟ ربما كان طفل آرنيث صبيّاً، حفيداً صغيراً لآل مورغان. فهل سيكون لـ آرنولد والد آرنيث حقوق يجب على آل مورغان أن يحترموها؟

وبينما أخذ «K.D.» يدسّ أصابعه في شعر الكلب بِن وينزع الأوساخ العالقة بالخصلات الحريريّة، كان يحاول التفكير كخاله - تمرين صعب. لذلك تخلّى عن هذا التفكير واستغرق في حلم خياراته. وفي تلك المرة فقط اشتمل حلمه على جيحي وحلمتيها الصارختين. «هاي» وأخذت تططق بعلقتها كإحدى المحترقات. «هل هذه هي روبي؟ هذا ماقاله لي سائق الباص».

أجابها الشبان المتسكعون، جميعهم، بصوت واحد:

«نعم. بلى. أوه، هاه، بالتأكيد!».

«أيوجد فيها موتيلات؟».

أضحكهم هذا السؤال وشجّعهم على أن يسألوها عمّن تبحث
ومن أين أتت.

أجابت: «من فريسكو. فطيرة بالراوند. هل لديكم نار؟».

سيكون الحلم إذن في فريسكو.

لم يقدّم رجال أسرة مورغان أي تنازل ولكنّ مكان اللقاء الذي
اختير جعلهم غير مرتاحين. إذ أنّ المحترم ميسنر فكّر أنه من
الأفضل احترام البروتوكول والذهاب إلى آل فليتوود بدلاً من
تضخيم الإهانة التي وُجّهت إلى العائلة بإرغام المهانين على القدوم
إلى بيت من أهانهم.

جلس «K.D.»، ديك وستيوارد في غرفة الجلوس في بيت
الكاهن، ولم يفعل شيئاً سوى هزّ الرؤوس والتمتمة بالكلام الذي
يدعو إلى المصالحة، ولكنّ «K.D.» كان يعرف بماذا يفكر خالاه.
ولاحظ أن ستيوارد قد غيّر مضغته، عندما انتحي جانباً، واحتفظ
بالعصارة. حتى ذلك الحين، كانت جمعية التسليف التي شكلها
ميسنر لاتهدف لجني الأرباح - قروض صغيرة للحالات الطارئة
تعطى للأعضاء التابعين للكنيسة، لآجال تُسدّد فيها دون غرامات
بسبب التأخير. قال ديك: «إنها كالحصالة على شكل خنزير». ولكنّ
ستيوارد أضاف: «نعم، في الوقت الحاضر!». كانت سمعة الكنيسة
التي غادرها ميسنر لكي يأتي إلى روبي تتبعه: فقد نظّم اجتماعات
سرية لكي يحرض الناس، وقد عارض قانون البيض وقاومه بدلاً من
الالتفاف عليه. فقد سبق له أن وضع آماله بشكل صريح في ولاية
كانت قد قررت فيما مضى بناء كلية حقوق جديدة لاستقبال طالبة

واحدة - زنجية - والمحافظة في الوقت نفسه على التمييز العنصري. فهو يأخذ على محمل الجد إمكانية التغيير في ولاية سبق لها أن بنت أيضاً غرفة مستقلة ومفتوحة بجانب قاعة الصف بالضبط، لكي يستطيع طالب زنجي آخر الجلوس فيها بمفرده. حدث ذلك في الأربعينات، في الوقت الذي لم يكن فيه «K.D.» سوى طفل حديث الولادة، قبل أن تغادر أمّه وأخوته وأبناء خاله وكل الآخرين مدينة هافن. واليوم، بعد انقضاء عشرين سنة، يُصغي خاله لمواظ ميسنر كل أسبوع، ولكنهما يعد انتهاء كل موعظة، يندسّان خلف مقودي سيارتيهما الأولدزموبيل والأمبالا ويردّان لازمة أغنية الآباء القدامى: «الأوكلاهوما هي: هنود، زنوج والله ممزوجون معاً. والباقي علف». والأمر الذي أذهلهم هو أنّ المحترم ميسنر غالباً ما كان يعتبر العلف طبقاً يليق بمائدته، فرجل مثله كان يستطيع أن يشجّع الناس على القيام بتصرفات غريبة وأن يقف إلى جانب إحدى المراهقات أو أن يؤيد آل فليتيوود. ورجل كهذا، على استعداد لإلقاء النقود في الطريق، يمكنه أن يوحى ببعض الأفكار للمودعين، ويجعلهم يعتقدون أن باستطاعتهم أن يختاروا بين نسب الفائدة.

ولكن «المعدانيين» كانوا يشكّلون أهم وأقوى طائفة في المدينة. لذلك أجرى آل مورغان فرزاً دقيقاً بين آراء المحترم ميسنر لكي يعرفوا أيّ التوصيات يمكنهم تجاهلها بسهولة وأياً عبارة عن أوامر يجب عليهم الانصياع لها.

كانوا في سيارتين، ولم يقطعوا أكثر من ثلاثة أميال من غرفا جلوس ميسنر حتى بيت أسرة فليتيوود.

في جهة ما، من إحدى مدن أوكلاهوما كانت أصوات حزيران تتردّد على المياه المتلاطئة في أحد المسابح، تحت أشعة الشمس وقد ذهب إليه «K.D.» في إحدى المرات. جاب ولاية ميسوري كنساس وتكساس في القطار مع خاليه وظلّ ينتظر بجانب الرصيف بينما هما يتحدثان عن الأعمال في بناء شَيْد بالقرميد الأحمر. كانت تُسمع في الجوار أصوات مرحلة، فذهب ليرى. خلف حاجز مز الشبك، يحيط به بلاط واسع من الإسمنت، رأى مسبحاً مياه

خضراء. هو يعلم اليوم أنَّ مساحته متوسطة، ولكنه في ذلك الزمن بدا كأنه يغطي الأفق. وخيل له أنَّ مئات الأطفال البيض يتخبطون فيه، وأصواتهم تشبه أنقى شلالٍ من السعادة يمكن أن يوجد في هذا العالم، وتنم عن مرح أحسن به بقوة جعلت الدموع تطفّر من عينيه. والآن، بينما الأولدزموبيل تستدير أمام القرن بشكل حرف U حيث طقطقت جيبي بعلكتها، شعر «K.D.» مرة ثانية بالإثارة التواقة للمياه المتلائة وبأصوات المستحمين في شهر حزيران. لم يكن خاله مسرورين من اضطرارهما للبحث عنه وإحضاره من الحي التجاري في المدينة، وقد وبّخاه في القطار بعد ذلك في السيارة وهم في طريق العودة إلى روبي. لم يكن الصراخ ثمناً غالياً في ذلك الزمن، ولا هو أغلى في أيامنا هذه. - «كيف قمت بهذه الخبصات حتى وقعت في هذا الجحيم؟ كان عليك أن تعاشر أناساً في مثل سنك، ثم، وقبل كل شيء، لماذا رغبت بمضاجعة إحدى فتيات عائلة فليتوود؟ أتري أولاد هذا الفتى؟ اللعنة!» - كان الجميع يتفجرون غضباً دون أن يسيبوا له ألماً شديداً. ومثلما رأى المياه المتلائة رأى جيبي. ولكن من المؤكد أنه سيرى هذه الفتاة ثانية بينما لن يرى المسبح.

ركنوا سياراتهم متلاصقة بجانب بيت عائلة فليتوود. وعندما قرعوا الباب، بدأ كل منهم ماعدا المحترم ميسنر يتنفس من فمه لتخفيف حدة رائحة المرض في البيت.

لم يعد أرنولد فليتوود منذ ذلك الحين يريد أبداً أن ينام تحت إحدى الخيام أو على فراش من القش أو على الأرض. ولذلك فقد خطط لإيجاد أربع غرف في البيت الكبير الذي بناه في الشارع المركزي: واحدة له ولزوجته، وأخرى لكل من ولديه، وغرفة ضيوف، كانوا يفخرون بها كثيراً. وعندما عاد ابنه جفرسون من فييتنام وضاجع سويتي عروسه في سريريه الخاص، ظلت غرفة الضيوف شاغرة. وكان من الممكن أن تصبح غرفة للأطفال لو لم يحتاجوها كقاعة مشفى لأولاد جف وسويتي. وقد تطورت الأمور بحيث أن فليت ينام الآن في جانب منعزل، في غرفة الطعام.

جلس الرجال على أرائك ذات أغطية نظيفة، منتظرين أن ينهي المحترم ميسيز حديثه مع النساء اللواتي لم يَرَهُنَّ الرجال. السيدتان فليتود كَرَسَتَا كُلَّ طاقتيهما، كل وقتيهما وكل حنانهما للأولاد الأربعة الذين بقوا على قيد الحياة حتى ذلك الحين. فليت وجف اللذان كانت هذه المحبة تجعلهما معترفين بالجميل ولكن غاضبين، كانا يخفيان خجلهما. لأن مرافقة النساء، والجلوس قريهن أمر صعب، والتحدث إليهن أكثر صعوبة.

كان «K.D.» يعرف أن فليت مدين بمبلغ من المال إلى خاليه. ويعرف أيضاً أن لدى جف رغبة شديدة بقتل أحد لأنه لا يستطيع أن يقتل إدارة المحاربين القدماء كما ربما كان آخرون سيفعلون. وبدا الارتياح على الجميع عندما نزل المحترم ميسيز على الدرج وهو مبتسم.

«نعم. حسناً». ضمَّ المحترم ميسيز يديه وهزَّهما قرب كتفيه كما لو أنه قد تغلبَّ على الخصومة. «لقد وعدت السيدات أن يجلبن لنا القهوة، وأعتقد أنهنَّ قد تحدثن عن كاتو الأرض فيما بعد. وأظن أن هذا أفضل مبررٍ لكي نبدأ». ثم ابتسم من جديد. كان تقريباً يبدو أكثر أناقة مما ينبغي كرجل دين. ليس وجهه ورأسه فقط، ولكنَّ جسمه حسن التكوين تماماً، كل ذلك كان عملياً يجذب انتباه الجميع ويثير إعجابهم. وكرجلٍ جاد، كان يعتبر جماله الواضح كابحاً لكسله - فهو يرغمه على التصرف بحكمة مع المؤمنين التابعين له، وعلى ألا يأخذ شيئاً مسلماً به: لاهيام النساء ولا حسد الرجال.

لم يبادلُه أحد ابتسامته التي استقبل بها الفاكهة. فتابع:

«اسمحو لي أن أعرض الوضع كما أعرفه. أرجو أن تصحَّحوا لي، جميعكم، إذا أخطأت أو إذا نسيت شيئاً. فحسب ما فهمت، «K.D.» قد سبَّب إساءة، إساءة شديدة إلى سمعة آرنيت. ولذلك نستطيع القول بأنَّ «K.D.» لديه مشكلة لكي يحافظ على مزاجه وعليه التزام...».

فقاطعه جفرسون الذي يتميَّز غضباً وهو يجلس على أريكة منخفضة، بعيداً عن المصباح، قائلاً:

«أليس هو أكبر سنًا بعض الشيء من أن يُغضب فتاة صغيرة؟
أنا لأسمي هذا مزاجاً: أنا أسميه خرقاً للقانون».

«حسناً، ولكنه في تلك اللحظة بالذات، لم يكن يملك نفسه».

حدق جف بشكل مباشر في عيني «K.D.» «أستمحك عذراً أيها
المحترم، إنَّ أرنيت في الخامسة عشرة من العمر».

وقال فليت: «هذا صحيح، إنَّ أحداً لم يضر بها منذ أن كانت في
الثانية من عمرها».

«ربما كانت هذه هي المشكلة». كان ستوارد معروفاً بكلامه
الاستفزازي، وقد أُنذره ديك بأن يمسك لسانه ويدعه هو يتكلم، لأنه
أكثر حذقاً ولباقة. ولكنَّ كلماته الأخيرة جعلت جف يقفز عن كرسيه.

«لا تأتِ إلى بيتي لتشتُم عائلتي!».

«بيتك؟» تحولت نظرات ستوارد من جف إلى أرنولد فليتوود.

«لقد سمعنتي! بابا! أعتقد أنه من الأفضل فضَّ هذا الاجتماع
قبل أن يتأذى أحداً».

أجابه فليت: «معك حق ، إنَّما يتحدثون عن طفلي، طفلي!».

جف وحده كان واقفاً، ولكنَّ ميسنر نهض أيضاً: «أيها السادة
هيا، توقفوا!» ورفع يديه وقد علا بقامته الطويلة على الجالسين ثم
استغلَّ صوته كواعظ: «نحن رجال هنا، رجال الله. هل ستلقون بما
صنعه الله في المجاري؟».

«K.D.» رأى ستوارد يصارع ضد رغبته بأن يبصق، فنهض
بدوره وقال: «انظروا هنا، إنني آسف. حقاً. كما قلت سأراجع إن
كنت أستطيع».

خفض ميسنر يديه:

«ماحدث قد حدث يا أصدقائي».

تابع «K.D.» كلامه: «إنني أحترم ابنتك...».

سأله جف: «منذ متى؟».

«لقد احترمتها على الدوام. منذ أن كانت بهذا الطول». وأشار «K.D.» بيده إلى مستوى خصره. «اسأل أيًا كان. اسأل صديقها بيلي ديليا. ستقول لك ذلك بيلي ديليا».

أحدث هذا التصرف العبقري تأثيراً فورياً. الخالان مورغان كتما ابتسامتهما، بينما آل فليتيوود الأب والابن أخذوا يتحرقان غيضاً. ذلك لأن بيلي ديليا كانت أكثر الفتيات تسرعاً.

فقال جف: «كل هذا لا يتعلق بـ بيلي ديليا. إنه يتعلق بما فعلته بأختي الصغيرة».

عند ذلك قال ميسنر: «انتظرا دقيقة، ربما استطعنا فهم المشكلة بشكل أفضل لو قلت لنا يا «K.D.» لماذا فعلت ذلك. لماذا؟ وماذا حدث؟ هل كنت مخموراً؟ هل استقرّئك؟» - كان يتوقع أن تفتح أسئلته المباشرة مجالاً للتكلم بصراحة تجعل هؤلاء الرجال يكفون عن اللعب كالدببة، وينتهي الأمر بهم إلى التفاهم. وقد أدهشه الصمت المفاجئ الذي تلا ذلك. راح ستيوارد وديك يتنحنحان في الوقت نفسه. أرنولد فليتيوود أخذ ينظر إلى حذاءه. فأدرك ميسنر أن هناك شيئاً ليس على مايرام. وعبر ذلك الصمت الثقيل أخذوا يسمعون، فوق رؤوسهم وقع الأقدام الخفيف - كانت النساء تمشين، تعملن، تبحثن، تقدمن الطعام - كل ما هو ضروري لإنقاذ الأطفال الذين لا يستطيعون إنقاذ أنفسهم.

قال جف: «لانهما معرفة «لماذا» وماأريد معرفته هو ماذا تنوون أن تفعلوا». وعندما لفظ كلمة «تفعلوا» غرز سبّابته في ساعد الأريكة.

استند ديك على مسنده وباعد مابين فخذه كما لو أنه يريد أن يضمّ منطقة تخصه بصورة طبيعية، ثم سأل: «بماذا تفكرون؟».

قال فليت: «أولاً، بالاعتذار».

أجاب «K.D.»: «لقد قدمته لتوي».

«ليس لي، يجب أن تقدمه لها!».

فقال «K.D.»: «موافق ياسيدي، سأطلب منها المعذرة».

تولّى ديك الحديث قائلاً:

«حسناً، هذه هي النقطة الأولى. فما هي الثانية؟».

أجاب جف: «عليك ألا تفكر بأن ترفع يدك عليها مرة أخرى».

«لن أرفع عليها بعد الآن أي شيء ياسيدي!».

سأل ديك: «أهنالك نقطة ثالثة؟».

أجاب فليت: «نريد أن نتأكد من أنّ هذا هو مايفكر به حقاً، أي أننا نطلب دليلاً على ذلك».

«تريدون دليلاً؟» حرص ديك أن يبدي الدهشة.

«لقد نُمِرت سمعة أختي، أليس كذلك؟».

«ايه. أفهم ذلك جيداً».

«لأشياء يمكن أن يُصلح هذا، أليس صحيحاً ما أقول؟» اجتمع الاستفهام والاستفزاز في سؤال جف.

انحنى ديك إلى الأمام: «حسناً، لأدري، لقد سمعت أنها تذهب إلى الجامعة. وهذا يتيح نسيان كل شيء. وربما يصبح من الممكن مساعدتها قليلاً».

غمغم جف: «لأعرف شيئاً من كل هذا». نظر إلى والده: «مارأيك بذلك يا بابا؟ هل هذا...».

«يجب أن أسأل أمها. فهي أيضاً قد تأثرت كما تعلم، وربما بشكل أسوأ مما أصابني».

فقال ديك: «حسناً، لماذا لا نتحدث إليها إذن؟ فإذا كانت موافقة، توقفوا في المصرف. غداً».

حكّ فليت ذقنه: «لأستطيع أن أعد بشيء. لأنّ مابل امرأة مزهوة بنفسها، مزهوة جداً».

أوماً ديك برأسه «لديها مايبزّر ذلك، ابنتها التي تذهب إلى الجامعة، وكل ذلك. ولانريد أن يعيق هذا أي شيء. إنه شرف للمدينة».

أحنى ستيوارد رأسه: «متى تبدأ الدروس في هذه المدرسة، يافليت؟».

«في آب على ما أعتقد».

«هل ستكون جاهزة في ذلك الوقت؟».

«ماذا تعني؟».

أجابه ستيوارد: «حسناً، آب ما يزال بعيداً، فنحن في أيار. ويمكن أن تغيّر رأيها. وتقرّر البقاء».

«أنا والدها. إنها لن تغيّر رأيها».

قال ستيوارد: «حسن جداً».

سأل ديك: «إذن، لقد سوي الأمر؟».

«يجب أن أتحدث مع أمها، كما سبق وقلت».

«بالتأكيد».

«إنها المفتاح. زوجتي المفتاح».

ابتسم ديك ابتسامة واضحة للمرة الأولى في تلك الأمسية: «النساء هنّ المفاتيح دائماً، ليباركهنّ الله».

تنهّد المحترم ميسز كما لو أنّ الهواء أصبح من جديد صالحاً للتنفس، وقال: «محبة الله موجودة في هذا المنزل، أشعر بذلك في كل مرة آتي إلى هنا. في كل مرة». ونظر إلى السقف بينما كان جفرسون فليتيود يحدق فيه بعينين مرهقتين. «نحن نثمن كثيراً قوته تعالى، ولكن لا ينبغي لنا أن نتجاهل محبته. وهذا ما يجعلنا أقوىاء أيها السادة. فلنصل يا أخوتي».

أحنوا رؤوسهم وأصغوا بانصياح إلى كلام ميسز المرتب بشكل مذهش، وإلى وقع أقدام النساء اللواتي لم تكن رؤيتهنّ ممكنة.

في صباح اليوم التالي، دهش المحترم ميسز لكونه نام نوماً

هائناً. إذ أن لقاء آل مورغان وآل فليتيود في الأمسية السابقة، قد سبب له الاضطراب. كان هناك دب رمادي في غرفة جلوس فليتيود - هادي، غير منظور، ولكنه كان يجعل القيام بأية مناورة ماهرة أمراً مستحيلاً. وفي الأعلى، كان قد أضحك النساء - في الحقيقة أضحك مابل. سويتي ابتسمت، ولكن كان من الواضح أنها لم تستمتع بمزاحه. لم تكن عيناها تفارق أطفالها. اقتراب. انحناءة، انجذاب - كانت تنحني على أحد الأسرة وتقوم بالحركات السريعة والضرورية. لكنها ظلت تبدي تعبيراً ينم بعض الشيء عن التعطف كما لو أنها تريد القول ما الذي يمكنه أن يسليها، ولماذا سيحاول أن يفعل ذلك؟ وافقت عندما طلب منها أن تصلي معه. أحنّت رأسها، وأغمضت عينيها ولكنها عندما نظرت إليه، وهي تلفظ كلمة «آمين» بكل هدوء، حصل لديه انطباع بأن علاقته بالإله الذي يتوجه إليه غامضة أو حديثة أكثر مما ينبغي، بينما علاقة سويتي كانت أسمى، قديمة ومضمونة.

كان أوفر حظاً مع مابل فليتيود التي سرّت بزيارته لدرجة أنها أطالت الحديث معه دون مبرر. وفي الطابق الأسفل كان الرجال الذين جمعهم، بعد أن علموا بما حدث قرب القرن، مازالوا ينتظرون - مثلهم في ذلك مثل الدب الرمادي.

أوسع ميسنر وسادته ضرباً بقبضته لبعض الوقت، ونجح بإقناع نفسه بأن النهاية كانت مُرضية: فالحساسيات أزيلت آثارها، ووجد الحل المناسب وعقد الصلح. على الأقل هو يأمل ذلك. يبدو أن آل مورغان لديهم على الدوام نوعان من الكلام - حوار لا يُسمع، تماماً إلى جانب الحوار الذي يلفظونه بصوت عالٍ. ويتصرفون كرجل واحد، ولكن بسبب شيء ما في موقف ديك أخذ ميسنر يتساءل فيما إذا لم يكن يتكلم نيابة عن أخيه - دافعاً إياه كأنه ولد متخلف. والطابع الغالب على أرنولد هو الخجل: شيء ما يتوقع منه، ولكنه معروف بأنه قليل الأهمية. كان جفرسون شديد الحساسية، ولكن «K.D.» هو الذي كان أكثر استفزازاً - ميسنر. فهو أكثر تسرعاً من

أن يكون مُرضياً: اعتذارات معسولة، ابتسامة مخادعة. ميسز يحتقر الذكور الذين يضربون النساء - فكيف والفتاة في الخامسة عشرة من العمر؟ وماذا يعتقد «K.D.» أنه قد فعل؟ إنَّ صلات قرابته بـ ديك وستيوارد كانت تحميه بالتأكيد، ولكن من الصعب محبة رجل يعتمد على هذا الأمر. متذلل لخاله، فظ وعنيف مع النساء. ثم، فيما بعد، في إحدى الأمسيات، بينما كان ميسز يعمل على تسخين أقراص اللحم المقلية والبطاطا التي جلبتها له آنَّا فلوود لعشاءه، ألقي نظرة عبر النافذة، فرأى «K.D.» يسرع السير في الشارع المركزي وهو وراء مقود سيارة ستيوارد، الأمبالا. كان يبتسم ابتسامته الخادعة، ويراهن عليها.

وقد اعتقد أنَّ أفكاراً مزعجة بالقدر نفسه، هي التي ستبقيه مستيقظاً طيلة الليل تقريباً، لكنه استيقظ في الصباح كأنه خارج من أمنا نوم. اعتقد أن هذا من تأثير الطعام الذي تحضره آنَّا. ومع ذلك أخذ يتساءل: إلى أين كان «K.D.» يسرع على الطريق، خارج المدينة؟

رجل وامرأة يتضاجعان بشكل دائم. عندما يتغيّر الضوء كل أربع ساعات، يفعلان شيئاً جديداً. يتضاجعان أمام سماء أريزونا عند حدود الصحراء. لاشيء يستطيع ايقافهما. لاشيء يريد ذلك. ضوء القمر يقوّس جذع الرجل. ضوء الشمس يسخّن لسان المرأة. لا يمكن أن نتوه عنهما ولأن تقوتنا رؤيتهما إذا عرفنا مكان وجودهما: عند نقطة الخروج من مدينة توكسون على الطريق العام (3 - I) في مدينة تدعى وش^(٥). تعبرينها. تسلكين أول طريق على يسارك. عندما ينتهي الطريق وتبدأ الصحراء الحقيقية، عليك أن

(٥) تعني الرغبة.

تتابعي السير. الرّتيلات سامّة، ولكن من الضروري أن تسيري هناك على قدميك، لأنّ أي عجلات لاتستطيع السير على تلك الأرض. ساعة على الأكثر، وسترين ممارسة الحب تناطح السماء. أحياناً يكونان حنونين، وأحياناً فظّين. ولكنهما لايتوقّقان أبداً. لا عندما تهب العواصف الرملية، ولا عندما تبلغ الحرارة 108 درجات^(هـ). وإذا كنت صبورة ورأيتهما تحت إحدى زخّات المطر النادرة الحصول في الصحراء، فسترين أنّ لون جسديهما أصبح غامقاً. لكنهما يستمران بفعل ذلك تحت المطر النادر والنقي - الزوجان الأسودان من سكان وِش، في الأريزونا.

لم يكفّ ميكي عن إخبار جيجي عنهما وعن كيفية العثور عليهما خارج بلدته الأم. وأنهما يمكن أن يكونا وسيلة لجذب السياح، كما يقول، إلا أنهما يربكان سكان المنطقة. وقد شكّلت لجنة من الطرائقيين المتشدّدين الذين أقلقهم وجودهما، لنسفيهما أو لإخفائهما تحت سائر من الإسمنت، بدأت عملها، لكنّ اللجنة حُلّت بعد إجراء بعض الأبحاث والدراسات الأولية. وقد أكّد أعضاء اللجنة أنّ اعتراضاتهم لم تكن موجّهة أبداً ضد الممارسات الجنسية، بل ضد الانحلال، لأنّ بعضهم، من الذين نظروا إليهما بانتباه شديد، اعتقدوا أنّ الاثنين كانا امرأتين تمارسان الحب في الغبار، وآخرون، بعد فحص بالدقة نفسها: (عن قرب بالمنظار المقرب) قالوا كلّاً، إنهما نكران - وقحان مثل سكان عمورة.

ومع ذلك، فإنّ ميكي سبق له أن لمس أعضاءهما التناسلية ويعرف جيداً أنّ أحدهما كان رجلاً، والآخر امرأة. فقال: «إنن، وماذا في ذلك؟ إنهما لم يكونا يمارسان ذلك علي الطريق العام، وبعد كل شيء، فعلى من يريد رؤيتهما أن يبتعد كثيراً عن الطريق». ميكي يقول بأنّ الطرائقيين المتشدّدين يريدون التخلص منهما ولكنهم يريدون أن يظلّا هناك. وأنه، حتى زمرة من الفلاحين المكبوتين

(هـ) المقصود درجة فهرنهايت وليس درجة مئوية.

الذين يظّلون أكثر خوفاً من أن يحلموا أحلاماً رطبة، يعرفون أنهم بحاجة للزوجين. حتى وإن لم يسبق لهم أن اقتربوا منهما أبداً، كما قال، فإنهم بحاجة ليعرفوا أنهما موجودان هناك. أكدّ أنهما، عندما تشرق الشمس، يصبح لونهما نحاسياً ويعرف الجميع أنهما لم يتوقفا طيلة الليل. وعند الظهر يتلونان بالرمادي القضي. ثم الأزرق بعد الظهر، والأسود في المساء. يتحركان، يتحركان، يتحركان طيلة الوقت.

كانت جيبي تحبّ أن تسمعه يقول هذا: «يتحركان، يتحركان، يتحركان، يتحركان طيلة الوقت».

عندما افترقا، حُكم ميكي بالسجن لمدة ثلاثة شهور. جيبي أطلق سراحها من غرفة الإسعاف وعلى راسها ضماد. وقد حدث كل ذلك بمنتهى السرعة بحيث لم يتح لهما وقت لتحديد موعد للقاء. وعاد المحامي الذي عينته المحكمة قائلاً لاثقبيل الكفالة، ولا يمكن إخلاء السبيل المشروط، وأن موكله يجب أن يمضي الأشهر الثلاثة بكاملها في السجن. وبعد أن حسبت مدة الحكم وأنقصت منها مدة التوقيف الاحتياطي قبل الحكم وهي ثلاثة أسابيع، أرسلت له رسالة بواسطة المحامي، الرسالة تقول: «وش، 15 نيسان».

سألها المحامي: «ماذا؟».

«قل له هذا وحسب: وش، 15 نيسان».

بماذا أجاب ميكي على رسالتها؟

قال: «موافق، موافق».

لم يكن هناك من يدعى ميكي، ولا مدينة تدعى وش ولا طريق عام يحمل الرقم (3 - I) ولا أحد يضاجع أحداً في الصحراء. وجميع من تحدثت إليهم في توكسون ظنوا أنها مجنونة.

قالت: «ربما المدينة التي أبحث عنها صغيرة جداً، لدرجة أنها لم تُذكر على أية خارطة».

«إذن اسألي عنها الشرطة الذين يتجولون بسياراتهم في كل مكان، فليس هناك مدينة مهما كانت صغيرة إلا ويعرفونها».

«الصخور بعيدة عن الطريق. وهي تشبه زوجين يمارسان الحب».

«حسناً، لقد رأيت سحالي تفعل ذلك في الصحراء يا آنسة».

«ربما هي نباتات شوكية».

«الآن هذا ممكن».

وأخذاً يضحكان ضحكاً مشعشعاً.

بعد أن مرّت بإصبعها على أعمدة الأسماء في دليل الهاتف، ولم تجد اسم ميكى رود في الولاية، تخلّت جيّجي على مضض عن البحث. ومع ذلك، تابعت البحث بحماسة وجدة عن المضاجعة الأبديّة التي تحدث في الصحراء. كان عاشقا الصحراء يحطمان لها قلبها تحت تأثير أحلام بالعدالة الاجتماعية وبحراس للناس الشرفاء - أكثر قوة من ذكرى صبي ييصق دمه في يديه - لم يكن ميكى قد ابتدعها. ربما وضعهما في المكان الخطأ، ولكن كل ما فعله هو أنه رفع إلى السطح ما عرفت أنه موجود طيلة حياتها... في مكان ما. ربّما في المكسيك، إلى حيث تتجه.

جرعة المخدّر كانت ثقيلة، الرجال مستعدون دائماً، ولكنها بعد ذلك بعشرة أيام استيقظت وهي تبكي. هاتفت إلى ألكورن، في المسيسيبي، عن طريق السنترال على حساب المتّصل به.

«اجلبي مؤخرتك إلى البيت يا فتاة. فهل تغير العالم بما يكفي ليلائمك؟ على أية حال لقد ماتوا جميعهم. كينغ، فرد آخر من آل كيندي، مدغار ابقرس الزنجي الذي كانوا يدعونه: «مالكوم X»، يا إلهي، لم أعد أتذكّر من، منذ أن غادرت دون أن تقولي لي فعلاً بأنك تتذكرين (L.J.) الذي كان يعمل في المركز التجاري على الطريق عندما جاء أحد ما في وضخ النهار حاملاً مسدساً لا يشبه شيئاً مما رآه أحد على الإطلاق...».

أسندت جيبي رأسها على الحائط المطلي بالكلس، بجانب الهاتف.

أمام الحانة وقف بائع وأخذ يطرد بعض الأطفال بمكنسة. فتيات. دون سراويل داخلية.

«أنا آتية يا جدي. عائدة إلى البيت في الحال».

في معظم الأحيان كانت تحجز مقعدين لها وحدها. لتحصل على مكان تستلقي فيه. تنام. تعيد قراءة أعداد من صحيفة رامبارتس لفتها في حقيبة ظهرها. عندما صعدت إلى قطار سنتافي استأنف سيره وهو يغص بالطيارين باليستهم الزرقاء. وبعد قليل امتلأت المقصورات بـ (H'eres - 4). ولكنها عندما استقلت قطار MKT لم تعد عرباته مكتظة بالمسافرين أبداً.

لم يأت الرجل الذي يضع قرطاً في أذنه ليراها. بحثت عنه. فقط لكي تتحدث إلى شخص لم يكن مكسواً بالبوليستر ويبدو عليه أنه يدخل سجن ليس من نوع شسترفيلد.

إنه قصير القامة يكاد يكون قزماً، ولكنه يرتدي ملابس من آخر زِي ظهر على الشاطئ الشرقي. تسريحة شعره الأفريقية كانت مرتبة وشعره ليس مشعثاً، ويضع سلسلة ذهبية حول عنقه متلائمة مع قرط أذنه الذهبي.

كانا يقفان الواحد بعد الآخر في السناك بار الذي يصّر المستخدم على تسميته: عربة العشاء. طلبت زجاجة كوكا بدون ثلج وقطعة كاتو بالشوكولا. أما هو فدفق ثمن كأس كبيرة من الثلج وحسب.

قالت جيبي للرجل الجالس وراء طاولة المحاسبة: «ينبغي أن يكون هذا مجاناً، وماكان عليه أن يدفع ثمنها».

«اعذريني ياسيديتي، إنني أطبق النظام وحسب».

«لم أطلب ثلجاً، هل حسمت لي شيئاً؟»
«بالتأكيد، لا».

قال الرجل القصير: «لاتزعجي نفسك!».
قالت له جيجي: «لست منزوعة» ثم قالت للآخر الذي يواجهه:
«اسمع. أعطه الثلج الذي ماكان ينبغي أن تجعلني أدفع ثمنه،
مفهوم؟».

«آنسة، أيجب أن أستدعي المسؤول عن القطار؟»
«إذا لم تستدعه، فإنني، سأفعل أنا ذلك، هذه سرقة في القطار.
حسناً، القطارات هي التي تسرق الناس».
قال الرجل: «حسناً، المبلغ مجرد خمسة سنتات».
فقالت جيجي: «إنها مسألة مبدأ».
«مبدأ بشأن خمسة سنتات، هذا ليس مبدأ. هذا الشخص بحاجة
إلى السنتات الخمسة. هو حقاً بحاجة إليها». وابتسم الرجل
القصير.

قال مستخدم القطار: «لست بحاجة لشيء، إنه النظام».
قال الرجل، وقذف بخمسة سنتات في الصحن: «إليك اثنتين».
غادرا السناك بار معاً، جيجي غاضبة، بينما كان الرجل ذو
القرط يبتسم. جلست بقربه، في الجانب الآخر من الممر، للتعليق على
الحادثة، بينما كان يُهشم الثلج الذي اشتراه.
«أنا أدعى جيجي!» ومدّت يدها، «وأنت؟»
قال: «داليس»^(٥).

«تعني الحجر الصغير المذرج؟»
«بل زوج منه».

لمسها بيد باردة، وأخذاً يتبادلان رواية الحكايات مسافة
أميال. حتى أن جيجي شعرت في نهاية الأمر بما يكفي من الارتياح

(٥) dice وتعني النرد في العربية.

لكي تسأله فيما إذا رأى أو سمع بوجود صخرة تشبه رجلاً وامرأة يتضاجعان. ضحك وقال كلا، ولكنه سمع بمكان توجد فيه بحيرة وسط حقل قمح. وأن شجرتين نبتتا بجانب البحيرة مُتَعَانِقَتَيْن. وأنه إذا اندس أحد، تماماً كما ينبغي، بينهما، يمكن أن يشعر بنشوة لا يستطيع أي كائن بشري أن يخترعها أو يقلدها. «ويقال إنه بعد ذلك لن يستطيع أحد أن يهملك».

«لأحد يهملني الآن».

«لأحد؟ أعني لا - أ - حد؟».

«وأين يقع هذا المكان؟».

«روبي. روبي في ولاية أوكلاهوما. تماماً وسط اللامكان».

«هل كنت هناك؟».

«ليس بعد. ولكني أخطط أن أفعل ذلك. يقال أن لديهم أفضل قطائر بالراوند، في البلاد كلها».

«أنا أكره الراوند».

«تكرهينها؟ أيتها الفتاة أنت لم تحبي بعد، لم تحبي بعد على الإطلاق».

«إنني عائدة إلى بيتنا. ذاهبة لأرى أهلي».

«أين البيت بالنسبة لك؟».

«في فريسكو. جميع أفراد عائلتنا يعيشون في فريسكو. لقد هاتفنا جدي. إنهم ينتظرونني».

هرّ داييس رأسه ولكنه لم يقل شيئاً.

حسّرت جيبي غلاف الكاتو في فنجانها الورقي. وفكرت، إنني لست تائهة، أبداً، لست تائهة. أستطيع الذهاب لزيارة جدي أو العودة إلى «بي» «Bay» أو...

خفّف القطار من سرعته. نهض داييس ليتناول حقيبته من شبكة الأمتعة. كان قصيراً جداً لدرجة أنه وقف على رؤوس أصابعه، كي يستطيع الوصول إليها. ساعدته جيبي في ذلك ولم يبدُ عليه أنه انزعج.

«حسناً، سأنزل هنا. لقد سررت بالتحدث إليك».

«وأنا أيضاً».

«حظاً طيباً. انتبهي الآن. لا تتبالي».

لو أنَّ الفتیان الذين يقفون أمام محل للشواء، قالوا لا، هذه ألكورن في ولاية المسيسيبي لكانت دون شك قد صدقتهم: قصّات الشعر نفسها، النظرات نفسها، ابتسامات القرويين السانجة نفسها. ذلك ماكان جدها يدعو: «ريف الريف». كان هناك أيضاً بعض الفتيات اللواتي، على ما يبدو، كنَّ يتجادلن مع واحدة منهن. وعلى أية حال، لم يقدّم لها مساعدة تذكر. ولكنها استمتعت بموجات الإثارة الممضة التي كانت تصفع قفاها وهي تسير في الشارع.

غبار، ناعم كالطحين، دخل في عينيها وفي فمها في بداية الأمر. ثم شعّنت لها الريح شعرها. وفجأة وجدت نفسها خارج المدينة. وما يسميه الناس هناك الشارع المركزي ينتهي بشكل مفاجئ، ويججي كانت عند حدود روبي في الوقت نفسه الذي وصلت إلى مركزها. والريح التي لا تحدث أي صوت تبدو قادمة من الأرض بدلاً من الأجواء. وفي إحدى اللحظات أخذ كعباها يقطقان، ثم في اللحظة التالية أحمَد الغبار المتطاير صوتهما. ومن الجانبين، كانت الحشائش تجرج كال مياه.

قبل ذلك بخمس دقائق توقفت في مخزن يسمى نفسه صيدلية واشترت علبة سجاير وعلمت أنَّ الفتیان الذين كانوا قرب محل الشواء قالوا الحقيقة: ليس هناك موتيل. وإذا كان يوجد فطائر، فإنها لا تقدّم في مطعم، لأنه ليس هناك مطعم أيضاً فيما عدا المقاعد المعدة للمتزهين، بجانب ما يسمى محل الشواء، لا يوجد أي مكان عام للجلوس. وحولها من جميع الجهات أبواب مغلقة ونوافذ مغلقة. يستأثر مزاحة ولكنها تستبدل بسرعة.

هذا كثير على روبي، فكرت، لابدَّ أنَّ ميكي هو الذي أرسل لها

قزم القطار، الكاذب. كانت تريد أن ترى، وحسب. ليس فقط ذلك الشيء الغريب في حقل القمح، ولكن فيما إذا كان يوجد شيء يستطيع العالم أن يدعيه له (في الصخر أو الشجر أو الماء) وليس حقايب شخصية أو أولاداً صغاراً ييصقون الدم في أيديهم لكي لايلوثوا أحذيتهم. ثم هناك ألكورن. تستطيع أيضاً الذهاب إليها في ولاية المسيسيبي. عاجلاً أم آجلاً، إحدى الشاحنات المتوقفة أمام مخزن الأغذية والبدار ستستأنف السفر، وعند ذلك ستغادر الجحيم خارجة من هناك.

فكرت جيبي التي تمسك بشعرها وتتلفت بوجه الريح، بالعودة إلى مخزن الأغذية، كانت الحقيقة التي تحملها على ظهرها تثقل كعبي حذائها العالين، وإذا لم تتحرك فإن الرياح يمكن أن توقعها. وكما هبت تلك الرياح بشكل مفاجئ فقد هدأت بالطريقة نفسها. وعبر الصمت الذي خيم عندئذ، سمعت هدير محرك يقترب نحوها. «أتذهبين إلى الدير؟» فتح رجل يضع على رأسه قبعة عريضة الجوانب باب شاحنته.

ألقت جيبي حقيبتها على المقعد وصعدت إلى الشاحنة. «إلى الدير؟ أتمرح؟ كل شيء إلا هذا. يمكنك أن تنزلني قرب موقف حقيقي للباصات، أو محطة قطار، شيء من قبيل ذلك».

«لقد حالفك الحظ. سوف أصطحبك مباشرة إلى الطريق».

«عظيم» أخذت جيبي تفتش في حقيبتها التي وضعتها بين ركبتيها: «تبدو جديدة».

«إنها جديدة. أنتما أول المسافرين في سيارتي».

«المسافرات؟».

«يجب أن أتوقف. هناك مسافرة أخرى ستستقل القطار». ابتسم. «اسمي روجر، روجريست».

«جيبي».

«أنت بالمجان. أما الأخرى فسأجعلها تدفع». قال ذلك وقد

حوّل نظره عن الطريق. تظاهر بأنه يتأمل المنظر الطبيعي عبر النافذة التي بجانب الراكب، ونظر أولاً إلى سُرّة جيّجي ثم إلى الأسفل، ثم إلى الأعلى.

أُخرجت جيّجي مرآة، وأصلحت، بقدر ما استطاعت الضرر الذي لحقته الرياح بشعرها، وفكرت: نعم، أنا حرة، حسناً.

وكان هذا صحيحاً، تماماً كما قال روجريست، الرحلة لا تكلف المسافرة الحيّة شيئاً، ولكنها تكلف الميتة خمسة وعشرين دولاراً.

كانت المرأة الجالسة على درجات الشرفة ترفع نظارتها الشمسية من وقت لآخر لكي تلمس عينيها. وجديلة تبرز من تحت قبعتها متدلّية على ظهرها. ركع روجر على ركبتيه وتحدّث إليها بعض الوقت الذي بدا لجيّجي طويلاً، ثم دخل الاثنان إلى المنزل. وعندما خرج روجر كان يُغلق محفظته وقد قطّب حاجبيه.

«ليس هنالك من يساعدني. فمن الأفضل أن تنتظري في الداخل، لأن إنزال الجثمان سيأخذ بعض الوقت».

التفتت جيّجي كي تنظر إلى الخلف ولكنها لم تر شيئاً من خلال الحاجز.

«يايسوع!! اللعنة! إنها سيارة دفن الموتى؟».

«أحياناً وأحياناً أخرى سيارة إسعاف. اليوم هي سيارة لدفن الموتى». كان منهمكاً في عمله تماماً. لم يعد ينظر خلسةً إلى نهديها. «يجب أن أحملها على القطار MKT الساعة الثامنة وعشرين دقيقة. وينبغي أن أصل إلى هناك ليس في الوقت المناسب تقريباً، بل في الموعد المحدد بالضبط».

نزلت جيّجي بسرعة ورعونة من السيارة التي أصبحت عربّة لدفن الموتى، ولكنها قامت بجولة حول المنزل، صعدت الدرجات الخشبية العريضة ودخلت من الباب الرئيسي خلال بضعة ثوانٍ. لقد قال «دير»، ولذلك أخذت تتصور نساءً وديعات ولكنهن متشدّات، يمشن عائمات بقبعات كالقوارب الشراعية، فوق أكمام طويلة

سوداء. ولكن لم يكن هناك أحد والمرأة ذات قبعة القش قد اختفت. اجتازت جيبي مدخلاً رُصفت أرضه بالرخام وعبرت مدخلاً آخر أكبر مرتين من الأول. وعبر الغبش تبينت ممراً يتجه بعيداً إلى اليمين وإلى اليسار. أمامها يوجد درج أكثر عرضاً كذلك. وقبل أن تقرّر أيّ اتجاه تسلك كان روجر قد أصبح خلفها وهو يدفع شيئاً معدنياً مزوداً بدواليب. اقترب من الدرج وهو يغمغم متزماً: «أليس هناك أية مساعدة أبداً». اتجهت جيبي إلى اليمين وأسرعت نحو ضوء يتسرّب من تحت بابين صفّاقين. في الجانب الآخر كانت توجد أطول طاولة في أكبر مطبخ رأتهما طيلة حياتها. جلست هناك وأخذت تمضغ ظفر إبهامها متسائلة فيما إذا كان السفر مع أحد الأموات أمراً سيئاً. كان لديها بعض الأعشاب في حقيبتها، ليس كثيراً، كما فكرت، ولكنها تكفي لمنعها من الاسترسال في الأوهام. مدت يدها وكسرت قطعة صغيرة من قشرة فطيرة موضوعة أمامها ولاحظت، للمرة الأولى، أنّ المكان طافح بالماكولات التي لم تُمسّ: عدة أقراص كاتو، فطائر أخرى، سلطة بطاطا، لحم الخنزير، طبق فاصولياء كبير. فكرت، من المؤكّد أنّهنّ راهبات صالحات. أو ربما كان كل هذا من أجل الجنازة. وفجأة، كأنها أحد أقرباء المتوفى الأصليين، استولى عليها جوع شديد.

كانت جيبي تلتهم الطعام وتكوم المزيد منه في صحنها وهي تغرف منه، عندما دخلت المرأة دون قبعتها القش ونظارتها واستلقت على البلاط البارد.

كان فم جيبي ممتلئاً بالفاصولياء والكاتو بالشوكولا، فلم تستطع الكلام. سمع عند ذلك صوت زموّر سيارة روجر. وضعت جيبي ملعقتها ولكنها لم تترك قطعة الكاتو، عندما اقتربت من المرأة المستلقية على الأرض. جلست القرفصاء، مسحت فمها، انحنت على المرأة وقالت لها: «هل أستطيع أن أساعدك؟». كانت عينا المرأة مغمضتين، ولكنها أشارت برأسها أن لا.

«هل يوجد هنا من أستطيع استدعاءه؟».

فتحت المرأة عينيها ولم ترَ جيبي شيئاً - سوى دائرة شاحبة حيث كانت توجد حافة القزحية.

كان روجر يصيح «هاي! أيتها الفتاة. أتأتين؟» بصوت ضعيف وبعيد، يكاد لا يُسمع بسبب هدير محرك سيارته. «لا أستطيع أن أتأخر عن موعد القطار! يجب أن أكون في المحطة في الساعة المحددة بالضبط».

انحنى جيبي أكثر قليلاً وهي تحقق في العينين دون أن يكون لديها ما تنصحه به.

«لقد سألتك فيما إذا كان هنا شخص آخر.»

«أنت. أنت هنا.» هذا ماتمتت به، وكانت كلماتها تتجه نحو جيبي على موجة من الأنفاس المشبعة برائحة الكحول.

أُنذرها روجر: «أُتسمعينني؟ لا أستطيع الانتظار طيلة النهار.» هزّت جيبي يدها أمام وجه المرأة لكي تتأكد من أنها كانت عمياء بقدر ما كانت سكرى.

قالت المرأة متممة بشكل ينم عن الانزعاج: «توقفي، كفي عن هذا!».

قالت جيبي: «أوه، كنت أعتقد. لماذا لم تنتظري حتى أعطيك كرسيًا؟».

«أنا ذاهب، أُتسمعين؟ أنا ذاهب!» سمعت جيبي هدير المحرك، والسائق أخذ يسير بسيارته إلى الخلف.

«ستفوتني فرصة الركوب بالسيارة. ماذا تريدين أن أفعل؟».

استدارت المرأة على جنبها ودسّت يديها تحت خدها: «كوني لطيفة احرسي البيت فقط. إنني لم أغمض عيني منذ سبعة عشر يوماً.» «أليس السرير أفضل لك؟».

«كوني لطيفة. كوني لطيفة. لأريد أن أنام عندما لا يكون هنا أحد لمراقبة البيت وحراسته.» «على الأرض؟».

ولكنها استغرقت في النوم، وأخذت أنفاسها تتردد كطفلة.

نهضت جيحي وأدارت نظرها في المطبخ وهي تبتلع ببطء ما بقي من قطعة الكاتو. على الأقل لم يعد يوجد ميت هنا. أخذ صوت السيارة التي تنقل الميتة يخف تدريجياً، ثم اختفى.

الخوف، وليس الفوز، كان ينضخ لدى كل خطوة في مسكن المختلس الذي كان يتقوس على شاكلة خرطوشة حية ليبلغ نقطة مميتة في أقصى الطرف الشمالي، حيث كان يوجد، في الأصل، غرفة الجلوس والطعام. فلا بد أنه كان يعتقد أن مضطهديه يمكن أن يأتوا من جهة الشمال لأن جميع نوافذ الطابق الأرضي بدت مجمعة في هاتين الغرفتين كمراكز مراقبة. والطرف الجنوبي كان يحتوي بعض الدلائل على رغباته متمثلة في غرفتين: مطبخ كبير الاتساع، وغرفة يستطيع أن يمارس فيها ألعاب الأغنياء. وأية غرفة من هذه الغرف لا تطل على الخارج، لكن كان في المطبخ أحد مدخلي المنزل. وهناك شرفة تدور من طرف القاعة شمالاً، تستمر متابعة الجدار، وتمز أمام المدخل الرئيسي وتنتهي عند آخر الخرطوشة - جنوباً - . في البيت لا يمكن أن ترى الشمس وهي تشرق سوى من الغرف، ولا يمكن أن ترى وهي تغرب من أي مكان. ولذلك يظل الضوء على الدوام غير مستقر ومضلل.

لا بد أنه كان يتوقع أو يحدوه الأمل بأن يحظى بأصدقاء مرحين في معقله هذا: ثماني غرف، حمامان فسيحان، مستودعات في قبو أرضي يشغل مساحة تعادل ما يشغله الطابق الأول. وكان مهتماً بأن يعامل مدعويه معاملة رائعة لكي لا يفكروا بالانصراف لأيام لانهاية لها. وجهوده لتسليتهم لم تكن أكثر تعقيداً ولا أكثر أهمية منه - وهي تتألف أساساً من المأكولات والجنس والألعاب. وبعد عامين ونصف العام من أعمال البناء التي تمت بصورة شبه سرية، أقام حفلة شهوانية قبل أن يلقي القبض عليه، تماماً كما كان يخشى، رجال القانون القادمون من الشمال، الذين كان أحدهم قد حضر حفلته الأولى والوحيدة.

أما الراهبات المملعات الأربع اللواتي انتقلن إلى المنزل بعد أن

عُرض للبيع بثمن زهيد، فقد بذلن جهوداً كبيرة لإخفاء الآثار الواضحة لمذااته ولكنهنَّ عجزن عن إخفاء رعبه. «خلفية» البيت المغلقة والمحمية، و«رأسه» المتوازن واليقظ. مدخل لا تحرسه الآن سوى مخالب تمثال وحشي أزلته الراهبات على الفور. باب مطبخ غير مثبت جيداً ويُشكل نقطة الضعف الوحيدة.

جيجي التي اقتصدت غاية الاقتصاد بالكمية المحدودة التي بقيت معها، أخذت تتجول في المنزل بينما المرأة السكرانة نائمة على أرض المطبخ، وتبين لها على الفور أنَّ غرفة الطعام قد تحولت إلى غرفة درس، وغرفة الجلوس إلى مصلى، وغرفة الألعاب إلى مكتب. كان هناك عصي وكرات لعبة البلياردو، لكن لا يوجد طاولة. ثم اكتشفت آثار الصناعة الفاشلة للراهبات: حاملات الشموع وهي على شكل جذوع نساء في الثريات المعلقة في السقف. خصلات الشعر، الملتفة عبر أوراق الكرمة، التي داعبت فيما مضى وجوهاً أزيلت. تماثيل صغيرة لملائكة تبرز من طبقات الطلاء حول الموقد. قبضات أبواب على شكل خلّصات نهود. أشخاص لاهون شبه عراة إلا من بعض ملابس قديمة الطراز، يشربون ويداعب أحدهم الآخر في لوحات مطبوعة صُفّت في خزائن. تماثيل أو تماثلان - فينوس بين تماثيل عارية أخرى تحت درج القبو. بل لقد وجدت أيضاً بعض الأعضاء التناسلية الذكورية المصنوعة من النحاس والتي انتزعت عن المغاسل وحوض الحمام، وقد كُدّست في صندوق مملوء بالنشارة، كما لو أن الراهبات، وإن استبعدنها من مجال عملها في ضبط وتصريف المياه، عرفن قيمة المعدن الذي صُنعت منه. لعبت جيجي بتلك الأدوات وبرمت الخصيتين المعدّتين لإسالة المياه من القضيب. وامتصت سيجارة الحشيش حتى آخرها - مينغ ون - أطفالاً عقبها في أحد المهابل المصنوعة من المرمر، والكائنة في غرفة الألعاب. وتخلّلت رجالاً ينفضون فيها سجاثرهم برضى. أو ربّما كانوا يضعونها هناك وحسب، وهم يعرفون دون الحاجة للنظر إليها أنَّ طرفها المحمّر يشكّل ببطء رأساً ظريفاً من الرماد.

تحاشت الدخول إلى الغرف لأنها لم تكن تعرف أيها تخصّص.

الشخص الميت، ولكنها عندما أرادت استعمال أحد الحمامات، لاحظت أن مايجري من حركات وأعمال على المغاسل ينعكس في مرآة تعكسه مرآة أخرى. وأكثرها وهي مثبتة جيداً في بلاط الجدران غطيت بالطلاء. وعندما انحنى لتتفحص الحوريات اللواتي يحملن حوض الحمام، لاحظت وجود مقبض معلق بلوحة من الخشب يحيط بها بلاط الأرض. استطاعت الإمساك بالمقبض ورفعها، ولكنها عجزت عن تحريكه.

فجأة شعرت من جديد بجوع شديد، فرجعت إلى المطبخ لكي تأكل وتعمل ما طلبته منها المرأة: أن تكون لطيفة وتحرس البيت أثناء نومها - كما جاء في الرواية القديمة عن تلك المتنزهة التي خافت من النزول بمفردها. فقد أنهت المعكرونة، وتناولت قليلاً من لحم الخنزير وقطعة أخرى من الكاتو عندما تحركت المرأة المستلقية على الأرض وجلست. ظلت لبعض الوقت واضعة وجهها بين يديها، ثم فركت عينيها.

سالتها جيغي: «ألمست أحسن حالاً؟».

أخرجت نظارة شمسية من جيب مريلتها ووضعتها على أنفها: «لا. ولكنني ارتحت قليلاً».

«حسناً، هذا أفضل».

نهضت المرأة: «أظن ذلك. شكراً... لبقائك».

«بالتأكيد، إن آثار السكر عاهرة. اسمي جيغي. من هو الميت؟».

قالت المرأة: «إحدى أحبتي. لقد رزقت باثنتين، كانت هذه هي الأولى والأخيرة».

فقالت جيغي: «أوه، إنني آسفة، إلى أين يأخذها سائق سيارة دفن الموتى؟».

«بعيداً، إلى بحيرة تحمل اسمها. هكذا أرادت شيئاً مميزاً».

«هل يعيش أحد غيرك هنا؟ إنك لم تحضري وحدك كل هذه المأكولات، أليس كذلك؟».

ملأت المرأة القدر ماء وهزّت رأسها.

«ماذا ستفعلين الآن؟».

«جيجي جيجي جيجي جيجي جيجي جيجي. هكذا تنفّني الضفادع. ماذا سمّتك أمك؟».

«هي؟ لقد أعطتني اسمها».

«وما هو؟».

«غريس»^(٥).

«غريس. وما الاسم الذي يمكن أن يكون أفضل منه؟».

لا شيء. لا شيء على الإطلاق. وإذا حدث ذات صباح واستدارت النعمة والحظ الطيب البسيط وابتعدا لكي يهربا، ربما كانت النعمة وحدها تكفي. ولكن من أين يمكن أن تأتي؟ وبأية سرعة؟ وهل تستطيع النعمة أن تندسّ في ذلك الحيز المقدّس بين رؤية الأمر ومتابعته؟

كانت المرأة الواهبة التي تقدّم نهديهما ككرتين من البوظة على طبق من بلّور هي التي انتزعت كل البريق من عيني الشاب. جيجي راقبته وهو يقاوم تحديقه بها، ويخسر في كل مرة. قال إنه يدعى «K.D.» وحاول أن يستمتع بوجهها وبالشق بين نهديهما وهو يتكلم. كانت هذه عبارة عن معركة توقعتها، تصدّت لها بكل سرور - بصورة طبيعية. لكن الصورة التي استيقظت أمامها، قبل ذلك بساعة، أفسدت كل شيء.

رفضت جيجي أن تنام في الطابق الذي مات فيه للتو أحد الناس، واختارت الأريكة المكسوة بالجلد في الغرفة التي كانت سابقاً للألعاب، والتي أصبحت مكتباً، وهي بدون نوافذ، ووتعتمد على الكهرباء، التي لم تعد متوافرة للإنارة في المنزل، وهذا

(٥) كلمة (GRACE) لها عدة معاني بالعربية، المنة والجمال والرشاقة واللفظ والكياسة والنعمة الإلهية ... والمقصود بها هنا «النعمة الإلهية».

ماساعدها على أن تنام نوماً عميقاً لزمن طويل. وقد فاتها الاستيقاظ في الصباح، فاستيقظت بعد الظهر في عتمة تشبه تقريباً العتمة التي كانت سائدة عندما نامت. كانت هناك الصورة المحفورة، التي لم تكد تنظر إليها عندما تجولت في البيت بالأمس، معلقة على الجدار أمامها. أما الآن فهي تتبينها عبر الضوء الضعيف الذي يأتي من المدخل: امرأة جاثية على ركبتيها وقد خفضت بصرها، متضرعة، وبسطة ذراعيها رافعة هديتها على طبق إلى مولاها. اقتربت جيحي على أطراف أصابع قدميها وانحنى لترى من هي تلك المرأة ذات الوجه الذي يعبر عن الاستسلام. كانت عبارة «القديسة كاترين السيناوية» منقوشة على لوحة صغيرة في الإطار الذهبي. ضحكت جيحي - أعضاء تناسلية من النحاس خُبئت في صندوق، جلمات نهود من الحلوى عُرضت على طبق - ولكن، في الواقع، لم يكن ذلك طريفاً. ولذلك عندما قام الفتى الذي رأيته في اليوم السابق في المدينة، بإيقاف سيارته قرب باب المطبخ وأخذ يزمر، تحول الاهتمام الذي كانت توليه إياه إلى انزعاج. راحت تاكل فطيرة مربى، مستندة في المدخل وهي تصغي إليه وتراقب المعركة التي كانت محتدمة في عينيه.

كان له ابتسامة عذبة وصوت فاتن: «لقد بحثت عنك في كل مكان. قيل لي بأنك هنا، فظننت أنك ربما لم تغادري هذا المكان بعد».

«من قال لك هذا؟».

«أجد الأصدقاء. حسناً صديق صديقي».

«أتقصد أنه سائق سيارة دفن الموتى؟».

«أهاهه! لقد قال بأنك غيّرت رأيك، وأنت لم تعودى تريدين الذهاب إلى محطة القطار».

«الأخبار تنتشر بسرعة هنا، هذا مؤكد، حتى وإن كانت هي الشيء الوحيد الذي يسير بسرعة».

«نتدبر أمورنا. هل تريدين القيام بجولة؟ سأقود بالسرعة التي تريدينها».

لحست جيغي المربي عن إبهامها وسبابتها. التفتت إلى اليسار نحو الحديقة واعتقدت أنها رأت في البعد بريق أنية معدنية أو ربما مرآة تعكس ضوء الشمس، كما ينعكس على النظارات خاصة الشرطة الخيالة.

أخيراً قالت له: «دقيقة واحدة لأغير ملابسي».

في غرفة الألعاب، لبست تنورة صفراء وقميصاً أحمر، غامق اللون. ثم استشارت طالعها قبل أن تحشر حوائجها (وبعض الهدايا التذكارية) في حقيبة ظهرها، وألقتها على مقعد السيارة الخلفي.

قال «K.D.»: «هاي. سنقوم بجولة صغيرة فقط».

أجابت: «نعم، ولكن من يدري؟ ربما غيّرت رأيي مرة أخرى».

سارا عدة أميال تحت سماء صافية زرقاء. لم تكن جيغي في الحقيقة قد تأملت المناظر الطبيعية من نوافذ القطار أو الباص. بالنسبة لها لم يكن يوجد شيء في الخارج. ولكن الانطلاق في سيارة الأمبالا كان أشبه بالسفر في طائرة DC 10 واللاشيء بدا أنه للسماء - سماء، يستحيل تجاهلها، ديكور مصنوع بدقة. ليست فراغاً كذلك، بل مليئة بالنفحات. والعين إنما حُلقت لتنظر إليها.

وجّه لها ابتسامته العذبة: «إنّها أقصر تنورة رأيتها في حياتي».

قالت جيغي: «هذه ميني، في العالم الحقيقي يسمونها ميني - سكيرت».

«ألا يسبب ذلك تحديق الناس إليك؟».

«يحدقون إليّ. ويسيرون العديد من الأميال، يتعرضون لحوادث الطرق. ويتفوّهون بالسخافات».

«لأبد أنك تحبينها. وأعتقد أنها صُممت من أجل هذا».

«حدثني عن ملايسك، وسأحدثك عن ملابسي، من أين حصلت على هذا البطال، مثلاً؟».

«ما الخطأ فيه؟».

«لا شيء. اسمع، إذا كنت تريد أن تجادل هيا أرجعني».

«لا، لا، لا أريد الجدل، أريد فقط... متابعة السير».

«حسناً؟ وبأية سرعة؟».

«قلت لك: بأسرع ما أستطيع.».

«ولكم من الوقت؟»

«بقدر ماتريدين.».

«إلى أين؟».

«كل الطريق.».

قال ميكى: زوجا الصحراء كبيران. وقال: من أية زاوية ننظر إليهما، نراهما يملآن السماء، ويتحركان، يتحركان. فكّرت جيبي: كذاب، ميكى كذاب! ليس هذه السماء، هذه السماء أكبر من كل شيء، بما فيه امرأة ونهداها على طبق.

عندما دخلت مافيس الممشى الكائن قرب باب المطبخ ضغطت بقوة كبيرة على المكابح لدرجة أن حوائجها انزلقت عن المقعد وسقطت تحت تابلوه السيارة. القامة الجالسة على الكرسي الأحمر في الحديقة كانت عارية تماماً. لم تكن ترى الوجه الذي تحجبه جوانب القبة، ولكنها عرفت بأنها لاتضع نظارة شمسية. لم تكن قد غادرت هذا المنزل إلا منذ شهر، وطيلة ثلاثة أسابيع لم تنقطع عن التفكير بالعودة إليه. فكرت أنه لابدّ قد حدث أمرٌ ما، للأمر، له كوني. ورغم صرير مكابح السيارة، فإنّ الجالسة في الشمس لم تتحرك، ولكن عندما صفقت باب الكاديلاك وقفت ورفعت قبعتها. أسرعّت مافيس نحو مدخل الحديقة وهي تصرخ: «كوني! كوني؟ بحق الجحيم من أنت؟ أين كوني؟».

تشاءت الفتاة العارية، حكّت شعر عانتها وسألت: «مافيس؟».

ارتاحت عندما تبين لها أنّ الفتاة قد عرفتها، وأنّ هناك من

تحدّث عنها على الأقل، فخفضت صوتها: «ماذا تفعلين في الخارج بهذا الشكل؟ أين كوني؟».

«بهذا الشكل؟ إنها في الداخل».

«أنت عارية».

«أجل. وماذا في ذلك؟ أتريدين السيجار؟».

ألقت مافيس نظرة نحو البيت وقالت:

«هل غِرفَن؟» وألقت مافيس نظرة باتجاه المنزل.

قالت جيبي: «سيدتي، أتنظرين إلى شيء لم يسبق لك أن رأيته؟ أم شيء لم تملكيه؟ أم أن عندك هوساً بالملابس أم ماذا؟».

«ها أنت». كانت كوني تنزل على الدرج باسطة ذراعيها نحو مافيس: «لقد اشتقت إليك!» تعانقتا، واستسلمت مافيس لخفقات قلب هذه المرأة وهي تتجاوب مع خفقات قلبها.

«من هذه يا كوني وأين ثيابها؟».

«أوه، إنها الصغيرة غريس. لقد وصلت في اليوم التالي لوفاة الأم».

«توفيت؟ متى؟».

«منذ سبعة أيام. سبعة».

«ولكني جلبت الأغراض. كلها معي في السيارة».

«لا جدوى من ذلك. بالنسبة لها على أية حال. كان قلبي محطماً تماماً ولكن، الآن وقد عدت، فأني أشعر بالرغبة بالطهو».

«ألم تأكلي شيئاً؟». ألقت مافيس نظرة باردة على جيبي.

«القليل من الطعام الذي خُصّر للمشاركين بالجنازة. ولكني الآن سأحضّر شيئاً طازجاً».

قالت جيبي: «يوجد الكثير من الطعام، مأكولات لم يمسه أحد...».

«أذهبي واردي ملابسك!».

«قبلي مؤخرتي!».

قالت كوني: «افعلي ذلك يا غريس، هيا افعلي ذلك كفتاة طيبة.
غطي نفسك، ونحن نجيك على أية حال».

«هل سبق لها أن سمعت بحمام الشمس؟»

«أكملي عملك الآن».

ذهبت غريس وهي تبالغ في أرجحة ردفها وقد وجّهتهما نحو
مافيس التي تساءلت عند ذلك:

«من تحت أي صخرة خرجت؟».

قالت كوني: «صه، إنها ستروق لك بسرعة».

فكرت مافيس: بالتأكيد، لا، كلا إنها لن تعجبني مطلقاً. لقد
رحلت الأم، ولكن كوني بخير. وقد أمضيت زهاء ثلاث سنوات هنا،
وهذا المنزل هو حيث نحن. نحن وليس هي.

فعلتا كل شيء سوى تبادل الصفعات، ولكن في النهاية فعلتا
ذلك. والأمر الذي أحر حدوث الشيء المحتوم كان أشكالاً يائسة من
الحب وفتاة صغيرة السن ترتدي ملابس ضيقة جداً، قرعت الباب
المنخلي وقالت:

«يجب أن تساعدوني، يجب ذلك. لقد اغتصبت في شهر آب
تقريباً».

كان جزء من هذا صحيحاً فقط.

سينيكا

كان شيء ما يحتك بزجاج النافذة ثانيةً. استلقت دوشي على بطنها رافضة النظر عبر النافذة في كل مرة تسمع فيها ذلك الاحتكاك. لم يكن هناك. فهو لا يأتي أبداً في الليل. وعن عمد أخذت تفكر بالشؤون اليومية: ماذا ستحضر لعشاء الغد؟

ليس أمراً مهماً زراعة البازلاء في الحديقة. يمكن أن نجدها محفوظة في العلب ونأكلها. ليس لدى ستيوارد حليلة تذوق في فمه تجعله يشعر بالفرق. فمضغة «البلوبوي» التي تظل طيلة الوقت محصورة داخل خده، منذ عشرين سنة قلّصت في البداية حاسة ذوقه إلى حاجة للبهارات، ثم إلى مطلب وحيد يقتصر على الفليفلة الحارة.

عندما تزوجا، كانت دوشي واثقة بأنها مهما أجادت الطبخ فإنها لن تُرضي أحد التوأمين، المعروف بأنه أكثر حساسية من أخيه التوأم الآخر ديك. وعند عودتهما من الحرب كان الرجلان يشعران بجوع للطبخ المنزلي، ولكنهما وقد ظلّا يحلمان به طيلة ثلاث سنوات، فإن ذلك غَظم توقعاتهما، وغالى في مقدرة شحم الخنزير في صنع بسكويت أخف من الثلج، ومسؤولية الجبن الحاد في دقيق الذرة الصفراء. عندما سُرحا وعادا، أخذ ديك يندندن مسروراً وهو يمتصّ نخاع عظام فراخ الدجاج أو وهو يسحقها. ولكن ستيوارد يتذكّر الأمور بصورة مختلفة. ألم يكن ينبغي أن يُشكَّ

كباش القرنفل في اللحم بدلاً من أن يوضع على لحم الخنزير؟
والفروج المقلي - مع بصل فوداليا أم بصل إسباني؟

وقفت دوشي يوم زفافها مقابل الورق الذي يغطي الجدران،
وقد أدارت ظهرها للنافذة لكي تستطيع أختها سوان أن ترى بشكل
أفضل. رفعت دوشي طرف شلحتها بينما سوان تحدد موضع
الدرزات. كانت الفرشاة الصغيرة تدغدغ مؤخرة ساقها. لكنها ظلت
ثابتة تماماً لا تتحرك. لم يكن هناك جوارب حريرية في هاتن ولا في
العالم عام 1949 ولكن أن تُزَفَّ إلى زوجها وساقها عاريتان بشكل
واضح، فذلك أمر يُغضب الله ويسيء إلى حفل الزفاف.

قالت دوشي لأختها: «لا أتوقع أن يكون مسروراً على المائدة».
«لم لا؟»

«لأدري. إنه يمتدح مجاملة طبخي، ثم يشرح لي كيف يمكنني
تحسينه في المرة القادمة».

«ابق كما أنت يادوشي».

«ألا يفعل ذلك ديك معك أيضاً؟».

«ليس هذا. إنه حساس بطريقة أخرى. ولكني مكانك لأقلق
بسبب هذا الأمر. لأنه إذا كان راضياً في السرير فلن يكون لمسألة
المائدة شأن كبير».

أخذتا تضحكان، وكان على سوان أن تعيد تحديد الدرزات من
جديد.

الصعوبة التي كان يبدو أنها قد ظهرت عام 1949، تم التغلب
عليها بوساطة التبغ المعد للمضغ. ولا أهمية أن تكون البازلاء
طازجة من الحديقة أو من العلب. لأن فليفلة الدير الحارة كنار
الجحيم تطهو لها طعامها. فزراعة البازلاء تظل جهداً ضائعاً. ملعقة
صغيرة من السكر وقطعة زبدة بحجم الجوزة على محتويات علبة
بازلاء، يفيان بالغرض تماماً لأنّ مذاق مسحوق الفليفلة السوداء
الأرجوانية القوي، الذي يُرَشُّ فوق البازلاء يغطي على أي مذاق أقل
قوة مثلما طفى على طعم القرع، في المرة الأخيرة، مثلاً.

في الليل، عندما تفكر دوفي مورغان بزوجها، كانت معظم الوقت تفكر بما خسره. لم يكن حسه بالتذوق سوى مثال من بين أمثلة أخرى. وعلى عكس تقييمه (وتقييمات روبي) كلما اكتسب ستيفارد المزيد، أصبحت خسائره المنظورة أكثر. فقد توافق بيع قطيعه، عندما كان الدولار في أوج قيمته عام 1958، مع هزيمته في انتخابات الولاية على منصب أمين سر الكنيسة، بسبب احتقاره الذي لم يكن يكتمه للطلاب الذين كانوا يترددون على مخزن الأدوية في مدينة أوكلاهوما. حتى أنه كتب أيضاً رسالة حاقة إلى النساء المسؤولات عن الفتيان. وموقفه هذا لم يدهش دوفي، لأنه قبل ذلك بعشر سنوات، وصف «شرجود مارشال»^(*) بـ «الزنجي المحرض» لأنه كان قد ارتدى بزّة التمييز العنصري الخاصة بجمعية (NAACP)^(**) في نورمان. وفي عام 1962، ملأ الغاز الطبيعي الذي اكتشف على عمق عشرة آلاف قدم في مزرعته، جيوبه، ولكنه جعل مزرعته بحجم نمية وخسر الأشجار التي كانت تضيء عليها جمالاً يخلب الأنظار. وقد اختلف مع الزمن «فُزق» شعره، وحليمت التذوق عن لسانه. خسارات صغيرة توجّتها الخسارة الكبرى: عام 1964، وقد بلغ الأربعين من العمر، تحققت لعنة فيري: فقد علم الأخوان أنّ أياً منهما لا يمكن أن يُنجب.

واليوم بعد ما يقرب من عشر سنوات صار «طفراناً»، كما كان يقول، بصفقة عقارية بمدينة موسكوغي، ولم يعد على دوفي أن تتساءل ماذا سيخسر الآن، لأنه سبق له أن خسر المعركة مع المحترم ميسنر بشأن النمس المكتوب على فتحة الفرز. كانت دوفي تظن أن تلك المعركة تغتذي جزئياً من مصدر لا يتحدث عنه أحد. الشبان الحائرين اليائسين، أو الذين يقومون بأي عمل. أرנית التي عادت من الجامعة ولا تريد مغادرة السرير. مينوس ابن هاربر جوري الذي يسكر في نهاية كل أسبوع بعد عودته من فييتنام. يبلي

(*) «شرجود مارشال» (1908 - 1993): أحد رجال القانون، عضو المحكمة العليا من

سنة 1967 إلى سنة 1991.

(**) (NAACP): الجمعية الوطنية العاملة من أجل تقدم الملونين.

دليلاً حفيظة روجر وقد اختفت دون أن تترك أثراً. سويتي زوجة جف التي تضحك وتضحك على نكات لم يتفوه بها أحد. وقصة «K.D.» المؤسسة مع تلك الفتاة التي تقيم في الدير. كل هذا بالإضافة إلى وقاحة وشكوك وغمغات أناس آخرين، أولئك الذين يريدون تسمية القرن: «مكان كذا وكذا» والذين قرروا أن الكلمات الأصلية المكتوبة عليه تقول ما يغضب ستيوارد وديك. وقد تحدثت دوشي عنها إلى أختها (وهي زوجة أخي زوجها أيضاً)، إلى مابل فليتود، إلى أنا فلود وإلى امرأتين من أعضاء النادي. كانت الآراء متنوعة، مشوشة، بل وغير متجانسة، لأن هذا الموضوع كان مثيراً بالنسبة للجميع، وأيضاً لأنَّ بعض الشبان، وهم يسخرون من ذكرى إصبع الأنسة إستير كانوا يشتمون كل الأجيال التي سبقتهم. فهم لم يقترحوا بلطف أن الأنسة إستير ربما تكون قد أخطأت، وسخروا من فكرة تذكر كلمات غير مرئية لا تستطيع حتى أن تقرأها من خلال رسم الأحرف التي لا تستطيع لفظها.

سأل الأبناء: «هل رأيتهما؟».

صاح الآباء: «أكثر من ذلك! لقد شعرت بها، لمستها ووضعت إصبعها عليها».

«لو كانت عمياء ياسيدي لأمكن تصديقها، واعتبار الأمر شبيهاً بالقراءة على طريقة برايل. ولكن طفلة في الخامسة من عمرها لن تستطيع حتى أن تقرأ ما كتب على شاهدها لو خرجت من قبرها ووقفت قبالتها؟».

قطب التوأمان حاجبيهما. فليت وقد تذكر طيبة القلب التي اشتهرت بها حماته قفز عن مقعده، وكان لا بد من الإمساك به.

في بداية الأمر ابتسم الطرائقيون المتشددون^(*) لهذا الانشقاق الذي حصل بين المعتقدانيين وضحك البنديكتيون^(**) ملء أفواههم.

(*) «الطرائقيون المتشددون» الميثوديون: أتباع نظرية كنسية، وهي حركة إصلاحية تهدف لإحياء كنيسة إنكلترا.

(**) البنديكتيون: طائفة من الطوائف المسيحية ينسب اسمها لعيد العنصرة.

ولكنّ هذا لم يدم. فقد بدأ بعض الشبان التابعين لكنائسهم بالذات، بإبداء آرائهم بالكلمات التي كُتبت على الفرن. ففي كل طائفة كان هناك أناس ينتمون إلى الخمس عشرة عائلة التي غادرت هافن لكي تبدأ العمل من جديد، أو أناس منحدرين من تلك العائلات: الفرن لا يخصّ أية طائفة بعينها، إنه يخصها جميعها، ولذلك طُلب من الجميع أن يحضروا إلى كنيسة كالفاري لمناقشة هذا الموضوع، كما قال المحترم ميسيز. كان الجو بارداً والحدائق تعبق بالروائح العطرية، وعندما اجتمع الناس عند الساعة السابعة والنصف، في جو لطيف، لم يكن يدفعهم إلى ذلك سوى الفضول. وقد ظلّ الموقف على هذه الحال خلال الملاحظات الأولى التي أبداهها ميسيز. ربّما كان الشبان قلقين، لكنهم عندما بدؤوا الكلام وكان أول من تكلم رويال وديستري ابنا لوثر بوشامب، بدت أصواتهم حادة جداً. لدرجة أن النساء انزعجن من ذلك وخفضن بصرهن نحو كتب الجيب خاصتهن، كما أنّ الرجال استنكروا هذا الأمر لدرجة أنهم أبقوا عيونهم مفتوحة دون أن يرف لهم جفن.

كل شيء كان يمكن أن يتم بصورة أفضل بالنسبة للجميع لو أنّ الشبان تكلموا بلطف، واعترفوا بنشأتهم وهم يعرضون وجهات نظرهم. ولكنهم لم يكونوا راغبين بالمناقشة، بل يريدون إعطاء التعليمات.

«لن يطلب منا أيّ عبد سابق أن نخاف طيلة الوقت. أن «نحذر» الله، أن نخفض رؤوسنا، نغوص محاولين أن نبقى متحفزين إلى الوقت الذي يستعد الله فيه ليلقي إلينا شيئاً ما، لئيقينا مسحوقين».

قال سارجنت بيرسون: «عليك أن تقول: «أيها السيد» عندما تخاطب الرجال».

«اعذرني، ياسيدي، أي نوع من الرسائل هي؟ ليس هناك أيّ عبد سابق كانت لديه الهمة ليشق طريقه ويبنى مدينة من لاشيء يمكن أن يفكر هكذا، لا يمكن لعبد سابق...».

قاطعه ليكون مورغان: «إنك تتحدث عن جدّي. كفّ عن تسميته «عبد سابق» وكأنه لم يكن سوى ذلك. لقد كان أيضاً نائب حاكم ولاية سابق، صاحب مصرف سابق، شماساً سابقاً، وشغلّ مناصب كثيرة أخرى سابقاً، ولم يشقّ طريقه منفرداً، لقد كان فرداً في مجموعة شقّت طريقها».

رغم التقاء نظراته بنظرات المحترم ميسنر فقد ظلّ الفتى ثابتاً: «لقد ولد في عصر العبودية أيها السيد، كان عبداً، أليس كذلك؟»
«ليس كل الذين ولدوا في عصر العبودية عبيداً، ليس بالطريقة التي تعنيها».

قال ديستري: «ليس هناك سوى طريقة واحدة أعنيها ياسيدي».
«إنك لاتدري عمّ تتحدث!».

صاح هاربر جوري: «لأحد يعرف شيئاً إنهم لايعرفون حتى الخراء!».

قاطعهم المحترم ميسنر: «هو، هو يا أختي وأخواتي. لقد اجتمعنا في بيت الله لكي نحاول إيجاد...»
زمر سارجنت: «في أحد بيوت الله».

«حسناً، في أحد بيوته، ولكنه يطالب الموجودين في أيّ من هذه البيوت بالاحترام. هل أنا على صواب أم لا؟».

جلس هاربر ثم قال وهو يشير بإصبعه إلى أعلى: «إنني أعتذر من الله عن كلامي».

قال ميسنر: «ربما يرضيه ذلك، وربما لايرضيه. يجب ألا يقتصر احترامك عليه وحده أيها الأخ جوري. فهو يحذّر مما يخالف ذلك».

نهض المحترم بوليام وهو رجل عبوس وعصبي - يبدو وقوراً بشعره الأبيض:

«يامحترم، لدينا مشكلة. أنت وأنا والجميع. إنها الطريقة التي يتحدث بها بعضنا. فعلى الكبار، بالتأكيد، أن يستعملوا أسلوباً لائقاً

في كلامهم. ولكن ما يقوله الشبان هو أشبه ما يكون بالمهارات منه بالحديث. ونحن هنا من أجل...».

في الواقع قاطع بويال بوشامب المحترم: «ماذا نتكلم، إن لم نرد؟ وماتريدونه أنتم جميعكم هو ألا نتكلم أبداً. كل ما يقال تعتبرونه مهاترة إذا لم يتفق مع ما قيل للتو... أيها السيد».

ذهل الجميع من قلة أدب الشاب، لدرجة أنهم بالكاد سمعوا مقالته.

لم يكن بوليام يتصور إمكانية حضور أهل روي - لوثر وهيلين بوشامب - لذلك التفت بهدوء نحو ميسنر وقال له: «أيها المحترم، هل تستطيع أن تطلب منه أن يسكت؟».

فسأله ميسنر: «لماذا؟ لسنا هنا لتكلم وحسب، بل لنصغي أيضاً».

وقد شعروا بلهات المفاجأة والذهشة أكثر مما سمعوها.

ضيق بوليام عينيه واستعد للإجابة عندما غادر ديك مورغان مقعده في الممشى: «حسناً ياسيدي، لقد أصغيت وأعتقد أنني سمعت أكثر مما أحتاج لسماعه. والآن عليكم أن تصغوا إلي جميعكم بانتباه. لأحد، أقول بالضبط لأحد، سيمس القرن أو يعطيه اسماً غريباً: لأحد سيأتي ليخرب عملاً أقامه أجدادنا. لقد صنعوا كل قرميذة فيه، واحدة واحدة، بأيديهم». حدق ديك بروي. «هم الذين استخرجوا الصلصال ولست أنت. وهم الذين نقلوا هذه المواد بالقفّة على ظهورهم، وليس أنت». ثم التفت ليوجّه كلامه أيضاً إلى ديستري، هرستون وإلى كالين بول، إلى لوركاس وليندا ساندز، «لقد مزجوا الملاط، ولم يفعل ذلك أحد منكم. صنعوا قرميدات جيدة صلبة لهذا القرن، بينما كان مأواهم العصي والأعشاب. أنفهمون ما أقوله لكم؟ وقد احترمنا الشيء الذي عاشوا لكي يعملوه. ولا شيء عومل برفق أكثر من هذه القرميدات التي صنعها أولئك الرجال - الرجال، هل تسمعونني، ليس العبيد سابقاً وما إلى ذلك. قل لهم

ياسارجنت كيف تم الهدم بعناية وأناة، وكم كان انتباهنا شديداً، وكيف غلغنا القرميدات واحدة واحدة. قل لهم يا فليت وأنت ياسيرليت وأنت أيضاً ياهاربر قل له إن كنت أكذب. وقد رفعنا أنا وأخي اللوحة الحديدية. نحن الاثنين. وإذا سقطت بعض الحروف فلم يكن ذلك بسببنا، لأننا غلغناها بالقش، كأنها حمل يثغو. لذلك افهموني جيداً عندما أقول لكم بأن لأحد سيأتي بعد ثمانين عاماً ويدعي أنه يستطيع إعطاء الدروس للرجال الذين عاشوا حياة الجحيم لكي يعرفوا هذه الأمور. افعلوا بي ماتشاؤون، ولكنكم سوف تتعرضون لمتابع شديدة إذا فكرتم أنكم تستطيعون عدم احترام خط محرات لم يسبق لكم أن اعتنيتم به أبداً».

نحو عشرين «أمين» مختلفة تلت تصريح ديك. ومقاله كان يمكن أن ينهي جميع المناقشات، لو لم يصف ميسنر:

«يبدو لي يا ديك أنهم يحترمون كل هذا. بالضبط لكونهم يعرفون قيمة القرن، فهم يريدون منحه حياة جديدة».

الهمة التي أثارها هذا الرد الثاني لصالح الشبان تحولت بسرعة إلى زمجرة لم تهدأ إلا لسمع الحاضرون كيف سيرد الخصوم.

«إنهم لا يريدون منحه شيئاً أبداً، بل يريدون قتله وتحويله إلى شيء من ابتكارهم».

قال روي: «إنه أيضاً تاريخنا. وليس تاريخكم وحدكم».

«تصرفوا إذن على شكل مشابه له! لقد قلت لكم للتوا فهذا القرن له تاريخ ولا يحتاج إليكم لتثبيته».

فقال ريتشارد ميسنر: «انتظر يا ديك. فكر بما قيل. انس الاسم، اسم القرن، المشكلة هي توضيح الشعار».

أشار المحترم بوليام بإصبعه الأنيق إلى السماء: «الشعار؟ الشعار؟ تتحدثون بلغة الأمر! «احذروا غضبة الله» هذا ماهو مكتوب، على نحو واضح وضوح النهار. إنه ليس اقتراحاً، إنه أمر».

قال ميسنر: «حسناً، كلاً، هذا ليس واضحاً وضوح النهار.
فالمكتوب هو: «... غضبة الله». ولاوجود لكلمة «احذروا».

لَوْح أرنولد فليتيوود بيده اليمنى محدراً: «لم تكن موجوداً هناك!
إستير كانت موجودة! ولم تكن أنت هناك في البداية أيضاً! أما إستير
فكانت هناك!».

قال ميسنر: «لقد كانت طفلة صغيرة، وربما أخطأت».

لحق فليت بـ ديك إلى الممشى: «لم يسبق لإستير أن ارتكبت
خطأ من هذا النوع طيلة حياتها. وهي تعرف كل مايجب معرفته عن
هافن وعن روبي أيضاً. وقد أتت قبل أن يكون هناك طريق. وهي
التي سمّت هذه المدينة، اللعنة! اعذروني ياسيداتي».

أما ديستري الذي كان يبدو متوتر الأعصاب، تكاد الدموع
تطف من عينيه، فقد رفع يده، وسأل: «اعذروني، ياسيدي. ما الخطأ
في عبارة «كونوا الغضبة»؟ «كونوا غضبته»؟

تكلم ناثن دوبريس بهدوء وهو يهز رأسه: «لاستطيع أن
تكون الله، ياأبني».

«والفرن لن يصير هو الله، ياسيدي، إنه يصبح أدواته، عدالته،
ونحن كجرق...»

«عدالة الله له وحده. كيف ستصبح أدواته إذا كنت لاتفعل
مايقول؟» هذا ماقاله المحترم بوليام متسائلاً، وأضاف: «يجب
علينا أن نطيعه».

قال ديستري: «نعم ياسيدي ولكننا نطيعه. إذا اتبّعنا وصاياه
نكون صوته وعقوبته. وكأناس...».

أسكته هاربر جوري: «إنه يقول: «احذروا»، وليس «كونوا».
واحذروا تعني «انتهبوا». إنني أملك السلطة. يجب أن تعتادوا
عليها».

قال سارجنت: ««كونوا» تعني أنك تستبعد الرب وأنت أنت
السلطة».

«نحن السلطة لو أننا فقط...».

«أترى ما أعني؟ أترى ما أعني؟ اصغ إلى ذاك! أسمع أيها المحترم؟ ذلك الفتى بحاجة للإصلاح. لأن ماقاله تجديف».

وكما كان متوقعا، ستيوارد هو الذي كانت له الكلمة الأخيرة - على الأقل الكلمات التي سيتذكرها الجميع باعتبارها الأخيرة لأن الاجتماع قد انفض. قال بصوت جعلته مُضغّة «البلوبوي» يبدو أجشاً:

«أصغوا إليّ. إذا تجاهل أيّ واحد منكم، إذا غيّر، إذا أزال أو أضاف أي شيء على كلمات هذا القرن، سأنسف دماغه كما لو أنه أفعى ذات قنزعة».

دوغي مورغان التي جعلتها تهديدات زوجها تقشعر رعباً، لم تستطع سوى النظر إلى ألواح الأرضية، متسائلة أيّ شكل منظور ستأخذه الآن خسارته.

بعد ذلك ببضعة أيام، كانت ماتزال تجهل أيّ جهة هي على صواب. وخلال المناقشات مع الآخرين، بمن فيهم ستيوارد كانت تميل إلى الإتفاق مع من تصغي إليه. وتلك مسألة من بين مسائل أخرى قد تطرحها على صديقها عندما يعود إليها.

لدى مغادرة ستيوارد ودوغي الاجتماع الذي عُقد في كنيسة كالفاري حدثت بينهما مشادة اعتيادية لمعرفة إلى أين يتجهان. اتجه نحو المزرعة. التي تقلصت إلى مزرعة للعرض فقط بعد أن بيعت حقوق استخراج الغاز، ولكن يبقى في ذهن ستيوارد أنها المنزل، حيث يخفق علم الولايات المتحدة في أيام العطل، وحيث علق شهادة تسريحه المشرفة، بعد أن وضعها في إطار جميل، هنا يبقى واثقاً أنّ كلييه: بنّ وغود سيلوحان بذنبيهما كالمسعورين عندما سيظهر لهما. ولكنّ بيتهما الصغير في شارع سان ماتيو، الذي كان

بيتاً مرهوناً اشتراه التوأمان، ولم يبيعاه ثانية قط، أخذ يصبح شيئاً فشيئاً بيتاً خاصاً لدوئي. كان يقع جانب بيت أختها، وبالقرب من كنيسة كالفاري والنادي النسائي. وهو المكان الذي اختاره صديقها لزيارتها أيضاً.

«أنزلني هنا يا ستيوارد أريد أن أقطع بقية الطريق سيراً على قدمي».

«ستمتوتين».

«لا، إنَّ هواء الليل البارد سينعشني».

فقال لها، ولكن بعد أن ربت على فخذها قبل نزولها من السيارة. «أيتها الفتاة، أنت عذاب».

سارت دوئي متمهلة في الشارع المركزي. من بعيد كانت ترى مصابيح «منتزه جونتينث» معلقة بالقرب من القرن. وقد مضى على تعليقها أربعة أشهر، ولم يُزلها أحد لكي تُصان إلى العام المقبل. والآن أصبحت تنير - قليلاً فقط، إلى الحد الأدنى وحسب - أعياداً أخرى للحرية، يُحتفل بها في ظلالها. على يسارها يوجد المصرف، بناؤه أقل ارتفاعاً من الكنائس، ولكنه مع ذلك يبدو نجم الشارع. لم يشأ أحد من الأخوين بناء طابق ثانٍ، مثل مصرف هافن حيث مقرات شركة لودج. لم يكونا يريدان أن يتجول أحد في مؤسستهم لغرض آخر سوى الأعمال المصرفية. وقد أقلس مصرف هافن الذي كان يملكه والدهما لأسباب عديدة، ويؤكد ستيوارد أنَّ أحدهما كان اجتماعات لودج، ويضيف قائلاً: «يشوش التركيز». على يمينها، بعد ثلاثة شوارع، جانب بيت باتريسيا بيست توجد المدرسة التي قامت دوئي بالتعليم فيها، إلى أن تمَّ بناء بيت المزرعة. ولكنَّ سوان علّمت لفترة أطول لأنها تسكن جوار المدرسة تماماً. أما الآن فإنَّ بات تدير المدرسة بمفردها، والمحترم ميسنر وآنا فلود يدرسان تاريخ الزوج، ويعلمان الضرب على الآلة الكاتبة في دروس مسائية. بدت الزهور والخضار الموجودة جانب المدرسة تشكل أمتداداً للحديقة الكائنة أمام منزل بات.

اتجهت دوفي إلى اليسار في شارع سان ماتيو. كان نور القمر يضيء الحواجز البيضاء التي تنحني محاولةً اجتياز مختلف أنواع الزهور كالأقحوان والقمعية ودوار الشمس وحشيشة القمر والزهرة القضيبة بينما للنعناع والملك الفضي تبرز من بين قضبانات الحواجز. كانت السماء في تلك الليلة تبدو كغطاء رائع، يحتجز الروائح العطرية قرب الأرض، يدخرها، يكتفها ويرد عنها أي نسمة هواء يمكنها أن تهرب بها.

إن معارك الحقائق - وما فيها من ربح وخسارة وغموض - كانت قد انتهت جميعها تقريباً. فقد احتدمت طيلة عشر سنوات، بعد أن بدأت بشكل مفاجئ عام 1963، عندما سحبت الفرصة لذلك. فالنساء اللواتي كنَّ في سنِّ العشرين عند تأسيس روبي عام 1950، انتظرن على مدى ثلاث عشرة سنة كرملاً لم يحلمن به أبداً. فاشترين الورق الصحي الناعم، واستعملن قماش التنظيف في الأعمال المنزلية بدلاً من الخرق، والصابون لغسيل الوجه وحده، أو الحفاضات فقط. وفي كل بيت من بيوت روبي كانت الأجهزة المختلفة تعمل تنضج، تدوي، تمتص، تموء، توشوش وتنضج. وكان هذا يوفر الوقت خمس عشرة دقيقة عندما لا يحتاج الأمر لتزويد الموقد بالحطب. وساعة كاملة عندما لم يعد هناك حاجة لكشط وفرك الأغذية وملابس العمل على خشبة الغسيل. عشر دقائق تكتسب لأنه لم يعد من الضروري نقض سجاد أو تعليق ستائر على سكة، وساعتين لأن الطعام يحفظ في البراد، ويمكن جمع أو شراء كمية أكبر منه. أواجهن وأبناوهن الذين كانوا يتلون من الضحك والذين لم يكونوا أقل زهواً من النساء، يترجمون الزيادة للأسعار بخمسة أضعاف والسعر لكل باوند أو بالة أو وزن حي إلى كلفيناتور أو جون دير، إلى علامة فيلكر^(*) أو بدي باي فيشر^(**).

(*) فيلكر: علامة أجهزة منزلية.

(**) بدي باي فيشر: علامة البسة.

طبقات البورسلان الأبيض فوق الفولاذ، السيور، الصّمامات وأقسام البيكلايت كانت تمنحهم رضى عميقاً. وكان الدوي والضخّ والمواء اللطيف تمنح النساء الوقت.

الباحات الترابية التي كانت تُكنس بعناية وترش بالماء في هافن أصبحت مروجاً خضراء في روبي، إلى أن امتلأت المساحات الموجودة أمام المنازل بالزهور في نهاية الأمر، دون أي مبرر لذلك سوى وجود الوقت للعناية بها. انتشرت العادة وازداد الاهتمام بزراعة نباتات لاتؤكل، وكذلك مساحة الأرض التي تُترك للقيام بذلك. وأدى تبادل أو إعطاء فسيل هنا وجذير هناك، بصيلة أو اثنتين، إلى الاستئثار الحماسي بالأرض، لدرجة أنّ الأزواج أخذوا يتذمرون من الإهمال ومن المحصول المخيب للأمال من الفجل أو الخطوط القصيرة جداً من الملفوف أو الشوندر. واستمرت النساء بالاهتمام بحدائق الخضراوات الكائنة خلف المنازل، ولكن، بالتدريج، تحوّل ماكانت تنتجه هذه الحدائق إلى مايشبه الزهور - وقد دفعت إلى ذلك الرغبة وليس الضرورة. أزهار السوسن والقبس والورود وعود الصليب أخذت وقتاً متزايداً، الكثير من الزهو والكثير من الحجم لدرجة أن فراشات جديدة صارت تقطع أميالاً عديدة لكي تأتي وتضع بيوضها في روبي. حيث تظل شرانقها مغلقة ومختبئة تحت أشجار الأكاسيا، ومن هناك، راحت تلتحق الفراشات الزرقاء والصفراء التي كانت تتغذى منذ عدة عقود من أزهار القمح الأسود والنفل. أما زمر الفراشات الحمراء التي تمتص أزهار السمّاق فأخذت تنافس الفراشات البيضاء والسكرية اللون القادمة أخيراً والتي تحبّ زهور الجواهر والكبوسين. أجنحة كبيرة برتقالية اللون تغطيها الدانتيل السوداء، تطير فوق أزهار الثالوث والبنفسج. ومثلما مضت سنون التنافس بين الحدائق، فإنّ الفراشات رحلت في تلك الأمسية الباردة من شهر تشرين الأول. ولكنّ النتائج بقيت: ساحات خصبة صيغت بعناية، باقات وسلاسل البيض. مخبّاة حتى الربيع.

صعدت دوفي الدرجات، وهي تلامس الأوتاد التي تحدّد مسار

الممر. على الشرفة ترددت وفكرت بالعودة لمناداة سوان التي غادرت الاجتماع قبلها. كانت سوان تسبب لها القلق، فقد بدت أنها تمر بفترات من الهشاشة والكتابة لاعلاقة لها بموت ولديها قبل ذلك بخمس سنوات. ربما شعرت سوان بما أحسسته دوفي - وطأة كونها ذات زوجين لاواحد وحسب. توقفت دوفي ثم غيّرت رأيها وفتحت الباب، أو حاولت أن تفعل ذلك. كان مقفلاً من جديد. إنه عمل بداهة ستيوارد منذ بعض الوقت، وهو يثير غضبها: يغلّق المنزل بالمفتاح كأنه أحد المصارف. كانت دوفي متأكدة أنه البيت الوحيد في روبي الذي له باب مقفل، فما الذي يخشاه؟ رفعت الصحن من تحت أصيص شجرة التين، وتناولت المفتاح الرئيسي.

قبل المرة الأولى تلك، ولكن ليس بعد ذلك أبداً، كانت هناك علامة. في الطابق العلوي، حيث كانت ترتّب البيت الصغير المرهون، وتوقفت لتلقي نظرة عبر نافذة غرفة النوم. تحت، في الأسفل كانت الأشجار كثيفة الأوراق ساكنة لا تتحرك، كأنها لوحة زيتية. تموز حرّ وجفاف، 101 درجة. مع ذلك، فإنّ فتح النوافذ سيلطّف جو الغرفة المهجورة منذ عام. أخذ منها هذا العمل بعض الوقت - دفعة هنا، هزة أو اثنتان - ولكنها نجحت أخيراً بفتح النوافذ كلها. ثم انحنّت إلى الخارج لكي ترى ماذا بقي من الحديقة. من مكانها قرب النافذة كانت الأشجار تحجب عنها القسم الأكبر من الباحة فمدّت رأسها لترى ما وراء امتدادها. عند ذلك دخلت يد قوية في كيس ضخّم وقذفت حفنة من بتلات الزهور في الجو. أو أنّ هذا ما بدا لها: فراشات. درب كبير متأرجح من أجنحة بلون البرسيمون^(هـ) اجتاز أعالي الأشجار الخضراء، ثم اختفى.

فيما بعد، وبينما كانت جالسة على كرسي هزاز تحت تلك الأشجار، مرّ. لم تكن قد رآته فيما مضى أبداً ولم تتعرف في ملامح

(هـ) البرسيمون: شجر ذو ثمر أصفر.

وجهه على صفات أية عائلة محليّة. وقد ظنّت في بادئ الأمر أنه ربما يكون مينوس بن هاربر، السكير، الذي كان سابقاً يملك هذا البيت. ولكنّ هذا الرجل يمشي بسرعة وبخط مستقيم كما لو أنه متأخر عن موعد، فقطع الباحة مثل من يقطع طريقاً مختصراً إلى مكان آخر. ربما سمع صرير كرسيها الخافت. وتساءل فيما إذا كان من الحكمة بشيء مروره من هنا. على أي حال فهو عندما التفت ورأها ابتسم، ورفع يده بالتحية.

فقالَت بأعلى صوتها: «مساء الخير».

غيّر اتجاهه واقترب من المكان الذي تجلس فيه.

«هل أنت من هنا؟».

أجاب ولكنه لم يحرك شفّتيه عندما تكلم. «من مكان قريب».

كان بحاجة لأن يقصّ شعره.

أشارت دوشي بإصبعها وقالت: «رأيت فراشات هناك قبل قليل، في الأعلى: حمراء برتقالية اللون. زاهية جداً. لم يسبق لي أن رأيت هذا اللون في حياتي. إنه يشبه ماكانوا يسمونه المرجان عندما كنت صغيرة، وبلون اليقطين، ولكنه أقوى». كانت تتساءل في الوقت نفسه عن معنى وهدف ثرثرتها، ولو لم يبذل لها أنه مهتم جداً بما كانت تصفه له لتمتعت بعبارة تنهي بها كلامها بصورة مهذبة - ملاحظة عن حرارة الجو، أو ربما عن الانفراج الذي يتيح المساء - كان يرتدي ملابس عمل نظيفة ومكوية حديثاً. وقد شمّر أكمام قميصه الأبيض عن ساعديه. هذان الساعدان بعضلاتهما الملساء والنحيلة جعلتها تعيد النظر في الانطباع الذي حصل لديها عن وجهه: إنه يشكو من سوء التغذية.

«هل سبق لك أن رأيت فراشات كهذه؟».

هزّ رأسه ولكن كان واضحاً أنه قد اعتبر السؤال جدياً، فجلس القرفصاء أمامها.

«لأريد أن أمنعك من متابعة طريقك. ولكن كان ذلك مشهداً مدهشاً، يا إلهي...».

ابتسم ابتسامة ودية والتفت نحو المكان الذي أشارت إليه. ثم نهض ونفض مؤخره بنطاله وإن كان لم يجلس على العشب وقال: «هل سيكون الأمر على مايرام إذا مررت من هنا؟».

«طبعاً. في أي وقت تشاء. لأحد يسكن هنا الآن. والذي كان يملك هذا المنزل فقده. مع أنه جميل، أليس كذلك؟ تفكر بالإقامة فيه من وقت لآخر. ولكن زوجي...» كانت تثرثر وتهذر، وتشعر بذلك، ولكنه بدا مصغياً باهتمام لكل كلمة تقولها. وأخيراً توقفت - وهي أكثر خجلاً بسبب حماقتها من أن تستطيع متابعة الكلام - وكزرت دعوتها له لاستخدام هذا الطريق المختصر عندما يحلو له ذلك.

شكرها وغادر الباحة، واختفى بسرعة بين الأشجار. فراقبت دوفي ظله يذوب عبر ستار الظلام الذي يحجب البيوت البعيدة.

لم ترَ أجنحة البرسيمون بعد ذلك أبداً. ولكن الرجل عاد ثانية. بعد شهر على وجه التقريب، ثم على فترات متفاوتة، كل شهر أو كل شهرين. ظلت دوفي تنسى دائماً أن تسأل ستيوارد أو أي شخص آخر، عن هذا الرجل، ومن يمكن أن يكون. فقد أصبح من الصعوبة بمكان معرفة هوية الشبان، بل إن هذا الأمر يزداد صعوبة، لأن الأصدقاء أو الأقارب عندما يأتون للقيام بإحدى الزيارات لبعض أصدقائهم أو أقاربهم في روبي لا يحضرون دائماً، كما كانوا يفعلون في الماضي، الصلوات التي تقام في الكنائس لكي يتعرفوا على جميع المؤمنين ولكي يتعرف عليهم هؤلاء. ولم تستطع أن تسأله عن عمره ولكنها تفترض بأنه أصغر منها بعشرين سنة على الأقل، وربما هذا السبب وحده يفسر لماذا أحاطت زيارته بالسرية التامة.

عندما كان يأتي يحدث معها أن تروي كثيراً من السخافات. فتحدثت عن أمور لم تكن تعرف أنها موجودة في ذهنها: ملذات، ومتاعب، وأمور لاعلاقة لها بمشاكل العالم الخطيرة. ومع ذلك فقد كان يصغي بانتباه شديد إلى كل مائقوله. وبكشف لا تستطيع

تفسيره، عرفت أنها لو سألته عن اسمه، فإنه لن يعود أبداً.
أعطته مرةً فطيرةً بمربي التفاح، فأكلها.

أخذت تجد في معظم الأحيان مبررات متزايدة للبقاء في البيت الكائن في شارع سان ماتييو. ودون أن تنتظره أو تبحث عنه، تظل راضية ومسرورة لمجرد كونها تعرف أنه قد أتى وأنه قد يعود ليستمتع لبعض الأحاديث أو لياكل فطيرة، أو ليشرب قليلاً من الماء البارد عند ظهر أحد الأيام الحارة. لم تكن تخشى سوى أمر واحد، أن يتحدث أحد عنه أو يأتي معه، أو يدّعي الأولوية في صداقته. ولكن لم يفعل ذلك أحد. فبدا أنه لها وحدها دون سواها.

ولذلك فإنّ دوفي مساء يوم الجدل مع الشبان في الكنيسة، وضعت المفتاح في قفل باب البيت المرهون، منزعة من ستيوارد الذي جعل ذلك ضرورياً، ومستاءة من الطريقة التي سار عليها الاجتماع. أخذت تفكر بالبقاء جالسة مع كأس من الشاي الحارّ، وتقرأ بعض الآيات أو المزامير وتركز أفكارها في القضية التي كانت تغضب الجميع، في حال مرور صديقها صبيحة ذلك اليوم. إذا أتى فإنها ستسأله عن رأيه. ولكنها عدلت عن تناول الشاي أو القراءة، وبعد أن تلت صلواتها أوت إلى السرير، حيث كان هناك سؤال دون جواب منعها من النوم: هل يستطيع رجل غني أن يكون صالحاً، دون أن يتخلى عن ثروته؟ ستسأل «صديقها» عن ذلك.

الآن على الأقل، أخيراً، أصبحت الباحة الخلفية جميلة كفاية لاستقباله. عند زيارته الأولى كانت في حالة سيئة من الفوضى، بلا صياغة، مزبلة حقيقية - وكانت الهرة، الأقاعي وفراخ الدجاج الشاردة تعتبرها مأوى مناسباً لها - والأجنحة المرجانية وحدها هي التي تزيّنها. كان على دوفي أن ترتّب كل شيء بنفسها. إذ أن «K.D.» يتهرب مبدئياً أعذاراً تافهة. ومن الصعب إيجاد بعض الشبان الذين يهتمون بالأمر. لقد ساعدتها بيلي ديليا مرة في الماضي، الأمر الذي أدهشها كثيراً، لأنها لم تكن تفكر إلا بالشبان. ولكن هنا

أيضاً كان شيء ما خطأً. فمنذ بعض الوقت لم يرَ أحد هذه الفتاة، وقد امتنعت أمها بات بيست عن الإجابة على الأسئلة. وفكرت دوفي: إنها نائمة دائماً، بسبب الطريقة التي عاملت بها المدينة والدها. رغم أن بيلي ديليا لم تحضر الاجتماع، فإنَّ موقفها كان حاضراً. حتى عندما كانت طفلة صغيرة، ذات بشرة غريبة اللون، وردية وسمراء لوحتها الشمس، وشعر بني مشعث، كانت تتبرّم إزاء كل شيء - فيما عدا العناية بالحدائق. ودوفي تفنقدها، متسائلة عن رأيها في تغيير رسالة القرن.

«احذروا غضبة الله؟» «كونوا غضبة الله؟» كان رأيها أن «غضبة الله» عبارة تكفي وحدها، وتظلّ صالحة لأي عصر ولأي جيل. ومن غير المجدي تخصيص المعنى وتحديدته وتسميره. المسامير الوحيدة التي كان يجب أن تُدَقَّ قد دُقَّت. على الصليب. أليس كذلك؟ ستسأل صديقها ثم ستقول ذلك لسوان. كانت الخربشة على زجاج النافذة قد توقّفت، وأدركت وهي تكاد تغفو أن البازلاء المعلّبة يمكن أن تفي تماماً بالغرض.

أنزل ستيوارد زجاج النافذة وبصق منتبهاً كيلا تعيد الريح البصاق إلى وجهه. كان متقرّزاً خائراً العزيمة. «دعني أعش» هو الشعر الذي أراد حقاً أولئك الشبان كتابته. على باب القرن. مثلهم في ذلك مثل ابن أخته «K.D.»، لم يكن لديهم أية فكرة عما تطلبه بناء هذه المدينة. من أي شيء كانوا محميين. وماهي المذلات التي لم يضطروا لمجاببتها. وبينما كان يقود سيارته كالعادة، بالسرعة التي تسمح بها تلك السيارة على الطريق المؤدي إلى مزرعته، أخذ ستيوارد يفكر بالفرق بين «احذروا» و«كونوا» وبالطريقة التي كان «بيغ بابا» سيفسّر بها ذلك. أما هو، شخصياً، فلم يكن يبالي بهذا الأمر أبداً. المشكلة لم تكن لماذا كان ينبغي أو لاينبغي تغيير الجملة، ولكن فيما يربحه الأب ميسّر بطرحه هذه الفكرة. بصق ثانية وفكر،

إن المحترم ميسيز قد أصبح، بالفعل، معتوهاً. معتوهاً وربما حتى خطير. وأخذ يتساءل فيما إذا كان هذا الجيل - جيل ميسيز و«K.D.» - ينبغي أن يُضخّى به لكي يكرس الناس جهودهم للجيل اللاحق: للأحفاد وأبنائهم الذين يمكن تأهيلهم وتربيتهم، كما فعل أبوه وجدّه لجيل ستيوارد. فلا فترات راحة، ولا «دعني أعش» آنذاك. التوقعات كانت عالية وتحققت. لم يتحمل أحد المزيد من المسؤولية عن سلوكهم مثل أولئك الرجال الطيّبين. تذكر قصة أخيه ايلدر مورغان، عندما نزل من السفينة القادمة من ليفربول في أحد مرافئ ولاية نيويوركسي: (هوبوكن)، عام 1919. إذ بينما كان يقوم بجولة في مدينة نيويورك قبل أن يستقل قطاره، رأى رجلين يتشاجران مع إحدى النساء. قال ايلدر بأنه من ملابس المرأة، خمن أنها امرأة شوارع، ولأنه لم يشعر إلا بالاحتقار لعملها فقد تعاطف في بداية الأمر مع الرجلين اللذين يصرخان. وفجأة وجه أحدهما لكمة للمرأة في وجهها فسقطت. وبشكل مفاجئ أيضاً تحولت ألوان المشهد من الألوان اليومية إلى الأسود والأبيض. وقال ايلدر بأنه شعر عند ذلك بجفاف في حلقه. ابتعد الرجلان الأبيضان وتركوا المرأة الزنجية ملقاة على الرصيف. وقبل أن يبدر أي رد فعل من ايلدر غير أحدهما رأيته رجعت فوجه رفسة للمرأة على معدتها. لم يعرف ايلدر أنه كان يركض حتى وصل وأبعد الرجل. فقد كان يندفع ويقاقل طيلة عشرة أشهر متوالية، وظل بلا فطام عن العنف التلقائي. ضرب ايلدر الرجل الأبيض على فكّه، واستمر في توجيه اللكمات له إلى أن هاجمه الأبيض الآخر. لم يخرج أحد من المعركة منتصراً. فالكمل تلقوا اللكمات. كانت المرأة ماتزال ممدة على الرصيف حتى استدعى أحد الأشخاص الذين تجمعوا رجال الشرطة. خاف ايلدر، ركض، وارتدى معطفه العسكري حتى وصوله إلى أوكلاهوما خيفة أن يرى أحد الضباط حالة برّته الرسمية. فيما بعد، عندما غسلتها زوجته سوزانا ورقعته وكوتتها، طلب منها أن تنزع عنها قطب الخياطة، وأن تترك جيب السترة تتدلى، وألا تصلح ياقة القميص، وعدم لمس الأزرار

المدة أو عدم تعويض ما فقد منها. كان قد فات الأوان لإزالة بقع الدم، وحين دفع إلى جيب بنطاله المنديل الذي يحمل بعض تلك البقع مع ميداليته، ظلت صورة قبضة ذلك الرجل الأبيض التي وجهت للكلمة إلى وجه تلك المرأة الملونة ماثلة في ذاكرته لاتفارقها. وبصرف النظر عن شعوره نحو نشاطات تلك المرأة، فإنه ظل يفكر بها ويصلي من أجلها حتى آخر حياته. وقد حاولت سوزانا معارضة ذلك زمناً طويلاً، ولكن الغلبة كانت لرجال أسرة مورغان. دفن ايلدر كما طلب: ببرّته الرسمية وشقوقها الظاهرة. لم يغفر لنفسه هربه وتخليه عن المرأة، ولم يكن يتوقع من الله أن «يدعه يعيش» بسبب ذلك. وكان على استعداد للإجابة فيما لو سألته كيف حدث ذلك. كان ستيوارد يحب هذه القصة، ولكنه لم يكن يطيق أن يعرف أنها تقوم على الدفاع عن عاهرة والصلاة من أجلها. لم يكن يتعاطف مع الرجلين الأبيضين ولكنه كان يفهم وجهة نظرهما، حتى إنه يشعر بالأدريين الذين يتصاعد في جسمه عندما يتخيل أن القبضة كانت قبضته.

ركن ستيوارد سيارته ودخل إلى المنزل. لم يكن يحب فكرة الإيواء إلى السرير بدون دوفي وقد حاول مجدداً أن يجد حجة تمنعها من البقاء كثيراً من الوقت في المدينة. ولكن ذلك دون جدوى لأنه لم يكن يرفض لها طلباً. ذهب فأتى بالكلاب وأخذها معه ليرى فيما إذا كان العمال قد قاموا بعملهم كما ينبغي. كان هؤلاء العمال محليين، وهو يعرف نساءهم وآباءهم. وكلهم يترددون على الكنيسة ذاتها أو كنيسة قريبة، ويكرهون مثله الفكرة القائلة: «دعني أعش». وشعر بالمرارة من جديد: لو أنهما رزقا أولاداً، لأصبحت مثلاً يحتذى بالاستقامة، ولضحكا من أفكار ميسيز عن الرجولة: الردود الوقحة، تغيير الاسم - كما لو أن سحر الكلمات له علاقة ما بالشجاعة اللازمة لشخص حتى يكون رجلاً.

ربط ستيوارد الكلاب وفتح الاسطبل. فهو يفضل أن يمتطي «نايت» فرسه المفضلة عند الساعة الرابعة صباحاً ليقوم بنزهة

صباحية تستمر حتى شروق الشمس، كان يحب التجول في المراعي حيث كل شيء مفتوح. ويكتشف من جديد في كل مرة، وهو على ظهر فرسه «نايت»، الدهشة من معرفته أن المرء لا يمكن أن يضل سبيله أبداً على أرضه كما ضاع «بيغ بابا» و «بيغ دادلي» وكل التسعة والسبعين الآخرين، بعد أن غادروا فيرلي في ولاية أوكلاهوما سيرا على الأقدام، تائهين تماماً، وغاضبين. ولكن لم يكن يخيفهم شيء سوى حالة أقدام الأطفال. فقد كانوا إجمالاً بصحة جيدة، ولكن النساء الحوامل أصبحن بحاجة أكثر فأكثر للراحة. فزوجة دروم بلاكهورس: سيلست، وجدته: الأنسة ميندي وبيك وأمه، جميعهن كن ينتظرن مولوداً. وكان من العار أن يرى أحدهم زوجته أو أخته أو ابنته الحامل، مرفوضات في المأوى الذي هُذِهْنُ وَغَيْرُهُنَّ طوال الوقت. وكانت المذلة لا تثير لديهم الحقد وحسب، بل تكاد تهشم عظامهن.

تذكر ستيوارد أدق تفاصيل الحكاية التي رواها له أبوه وجدّه. ولم يجد صعوبة بتصور العار الذي لحق بهما جراء ذلك. فدوفي مثلاً، قبل كل إجهاض، كانت تضع يدها على خاضرتها. عيناها ضيقتان، نظراتها متجهة إلى الداخل، دائماً إلى الداخل نحو الجنين الذي في داخلها. فماذا سيكون شعوره إذا أتى رجال مدعون بقمصانهم ذات الياقات وأحذيتهم الجيدة وقالوا لها: «انقلعي من هنا»، دون أن يستطيع هو ستيوارد أن يفعل شيئاً؟ حتى الآن، عام 1973 وهو يتجول في أرضه، والرياح تعصف في الشعر الذي يعلو رقبة فرسه «نايت»، كان التفكير بهذا العجز يثير لديه الرغبة بأن يطلق النار على أحد. تسعة وسبعون. جميع حوائجهم مربوطة على ظهورهم أو محمولة على رؤوسهم. الفتيان يتناوبون لبس الأحذية كل منهم بدوره. لا يتوقفون إلا ليأخذوا قسطاً من الراحة، لكي يناموا أو يأكلوا الفضلات. فضلات مع ذرة مسلوقة أو فضلات مع حلوى الذرة أو فضلات مع لحم طرائد أو فضلات مع هندباء بريّة. كانوا يحلمون بسقف يؤويهم، بالسّمك، بالأرز، بشراب حلو. ويحلمون، وهم بأسماهم البالية، الشبيهة بأوراق الملفوف المخلل،

بشباب نظيفة تزيينها الأزهار وبقمصان ذات كتمين. كانوا يسيرون صفاً أحادياً، الواحد تلو الآخر: وفي مقدمتهم دروم وتوماس بلاكهورس، و«بيغ بابا» الذي أصبح يعرج الآن، محمول على لوح خشبي، في المؤخرة. بعد فيرلي لم يعرفوا في أي اتجاه يجب أن يسيروا، وماكانوا يريدون أن يلتقوا بأحد يمكن أن يأمرهم أو أن تكون لديه فكرة أخرى. لذلك كانوا يبتعدون عن طرق العربات ويحاولون البقاء أقرب إلى غابات الصنوبر والأنهار، متجهين نحو الشمال دون سبب محدد سوى أن ذلك كان يبدو لهم أفضل طريقة للابتعاد عن فيرلي.

في الليلة الثالثة، أيقظ «بيغ بابا» ابنه ريكتر، وأشار إليه أن ينهض. ابتعد عن المخيم وهو يتكئ على عكازين، ثم همس، قائلاً: «اتبعني، أنت».

عاد ريكتر فأحضر قبعته وتبع والده الذي كان يسير ببطء شديد وبشكل ينم عن الألم. والأمر الذي أقلق الشاب، هو خشيته من أن يكون الرجل العجوز يحاول الوصول إلى إحدى المدن في منتصف الليل، أو أنه ذاهب لبحث عن نجدة من إحدى المزارع حيث البيوت مستكنة على رابية هناك. ولكن «بيغ بابا» اقتاده إلى عمق غابة الصنوبر حيث لم تلبث رائحة اللراتنج التي كانت طيبة في البداية أن سببت له صداعاً. كانت النجوم تتلألأ في السماء بحيث يبدو الهلال ضئيلاً، توقّف «بيغ بابا» وجثا على الأرض ين من الجهد.

قال: «أبي، زكريا هنا». ثم بعد بضعة ثوانٍ من الصمت المطلق أخذ يندن بأشد الألقان التي سمعها ريكتر طيلة حياته عذوبة وحزناً. لحق ريكتر «بيغ بابا» زاحفاً على ركبتيه وظل هكذا طيلة الليل، لم يكن يجرو أن يلمس العجوز، ولا أن يقطع له صلواته. ولكنه لم يكن يستطيع أيضاً أن ينهض لكي يقرص ويريح ركبتيه اللتين كانتا تؤلماناه. بعد فترة جلس صراحة على الأرض، ممسكاً قبعته بيديه وقد طأطأ رأسه محاولاً الإصغاء والبقاء مستيقظاً ليفهم. وأخيراً استلقى على ظهره وأخذ ينظر إلى النجوم فوق الأشجار. كانت الموسيقى الحزينة تغمره، وقد شعر بأنه يطفو على ارتفاع

بضعة بوصات فوق الأرض. وأقسم فيما بعد أنه لم ينم. وأنه ظلّ طيلة الليل يصغي ويراقب. ولأنّ أشجار الصنوبر كانت تحيط به، فقد شعر دون أن يرى أن السماء تبهت عند خط الأفق. آنذاك سمع وقع الأقدام - كما لو كان ناجماً عن مشية مارد. أما «بيغ بابا» الذي لم يحرك أية عضلة من جسمه ولم يوقف غناؤه، قصمت في الحال. جلس ريكثور وأخذ ينظر حوله. كان وقع الأقدام كالرعد، ولكنه ظلّ عاجزاً عن معرفة الجهة التي يأتي منها. وعندما اتسع نطاق الضوء في السماء، استطاع أن يميّز أطراف جذوع الأشجار.

لقد رأياه معاً في الوقت نفسه: كان على مايبدو رجلاً ضئيلاً، ضئيلاً جداً بالنسبة للصوت القوي الذي يحدثه وقع خطواته. أخذ يبتعد. كان يرتدي بزة سوداء، ويضع السترة على كتفه ممسكاً بها بسبابة يده اليمنى. قميصه الأبيض يلمع بين حائلتي بنطاله العريضتين. نهض «بيغ بابا» دون أنين ودون الاستعانة بالعصا. أخذاً يراقبان معاً الرجل الذي يمشي مبتعداً، عبر الجانب الأكثر شحوباً من السماء. أبطأ مرةً في مشيته والتفت لينظر إليهما، ولكنهما لم يستطيعا أن يتبيّنا ملامح وجهه. وحين استأنف السير لاحظا أنه يحمل جعبته بيده اليسرى.

قال «بيغ بابا»: «هيا، أسرع وأحضر الناس!».

فقال ريكثور: «لا يمكنك أن تبقى وحدك هنا».

«أسرع!».

وركض ريكثور مسرعاً.

عندما استيقظوا جميعهم، اقتادهم ريكثور إلى حيث أمضى تلك الليلة هو و«بيغ بابا». وجدوه في المكان نفسه تماماً، أكثر استقامة من جذوع أشجار الصنوبر، وقد ألقيت عصاه بعيداً، ويدير ظهره نحو الشمس المشرقة. لم يروا أي رجل يمشي هناك، ولكن السلام الذي كان يغسل وجه زكريا اتسع ليشمل أرواحهم ويبعث فيها الطمأنينة.

قال زكريا: «إنه معنا. وهو يدلنا على الطريق».

ومنذ تلك اللحظة، أصبح للرحلة هدف، ولم يعد يتخللها أية شكوى. ومن وقت لآخر كان الرجل الذي يمشي يظهر من جديد: على ضفة أحد الأنهار، أو عند قمة إحدى التلال مستنداً على بعض الصخور. وفي إحدى المرات تشجع أحدهم وسأل «بيغ بابا» كم من الوقت سيستغرق ذلك. فأجاب:

«إنه زمن الله، لا يمكنك أن تبدأه، ولا يمكنك أن توقفه. وهناك أمر آخر: إنه لا يقوم بأعمالكم بالنيابة عنكم، لذلك عليكم أن تخطوا بحيوية».

ما عاودوا يسمعون وقع الأقدام الثقيلة ولو كانت مستمرة. ولم يكن أحد يرى الرجل الذي يمشي سوى زكريا وأحياناً يراه أحد الأطفال. أما ريكتر فلم يره ثانية حتى نهاية الرحلة. بعد ذلك بتسعة وعشرين يوماً. بعد أن أئذروا بطلق نارٍ، وبعد أن قدّمت لهم بعض النسوة السوداوات الطعام في حقول، وسرق اثنان من رعاة البقر بنادقهم - ولكن، دون أن يعكرو صفو سلامهم - بعد كل ذلك، رآه ريكتر وأبوه.

كانوا آنذاك في شهر أيلول. وأي مسافرين آخرين كانوا سيحذرون قبل الدخول إلى منطقة الأراضي الهندية دون هدف محدد مع اقتراب فصل الشتاء. ولكنهم إذا كانوا قلقين، فإن ذلك لم يكن بادياً عليهم. كان ريكتر مستلقياً بين العشب الطويل منتظراً أن يصطاد له الفخ البدائي الذي نصبه أرنباً، كما يأمل، أو مرموطاً أو حتى سنجاباً - حين رأى في تلك اللحظة بالذات الرجل الذي كان يمشي، واقفاً بين الأعشاب النامية، وقد أخذ ينظر حوله. ثم جلس الرجل القرفصاء، فتح حعبته وأخذ يفتش فيها. راقبه ريكتر لبعض الوقت، ثم ذهب زاحفاً بين الأعشاب الكثيفة قبل أن يقفز ويعدو عائداً إلى المخيم حيث كان «بيغ بابا» ينتهي من تناول إفطاره البارد. وصف ريكتر ما رآه واتجه الاثنان إلى المكان الذي نصب فيه الفخ. كان الرجل الذي يمشي ما يزال هناك يُخرج أشياء من حعبته ويضع فيها أشياء أخرى. وفي الوقت الذي كانا يراقبانه فيه،

أخذ الرجل يتلاشى. عندما اختفى تماماً أخذوا يسمعون من جديد وقع الأقدام الذي كان يتردد مدوياً في جهة لم يستطيعا تحديدها: أمن الجهة الخلفية؟ أم من اليسار؟ الآن من اليمين. أم أنه يأتي من فوق رؤوسهم؟ ثم ساد الصمت فجأة. تقدم ريكتر زاحفاً على ركبتيه، وكان «بيغ بابا» يدب أيضاً لكي يرى ماذا ترك الرجل الذي يمشي. وقبل أن يقطعا مسافة ثلاث ياردات سمعا صوت شيء بين الأعشاب. هناك في الفخ، الذي لم يُمسَ خيطه ولا الطعم الذي وُضع فيه، شاهد ديكاً رومياً، ريشه يخلب الأبواب بجماله الساحر. وبعد أن تبادلوا نظرة، تركاه في مكانه وذهبا إلى الموضع الذي ظنّا أن الرجل قد وضع فيه الأشياء التي كانت في جعبته. لم يجدا شيئاً هناك: مجرد انخفاض صغير بين الأعشاب. انحنى «بيغ بابا» عليه وأخذ يتحسس. ضغط بيده على الحشائش التي وطأتها قدما الرجل وأغمض عينيه ثم قال:

«هنا، هذا هو مكاننا».

حسناً، هذا لم يكن مكانهم بالتأكيد، ليس بعد على أية حال، فهو يخص عائلة من هنود تلك الولاية، وقد احتاج الأمر سنة وأربعة أشهر من المفاوضات، والكثير من العمل الشاق في الأرض، للحصول أخيراً على هذا الموقع خالياً ونظيفاً. والقُدوم من موضع غزير النباتات إلى فراغ واسع جداً جعلهم يشعرون بأنهم صغار لأنهم رأوا من السماء، أكثر مما رأوا من الأرض، إضافة إلى أن العشب يصل إلى أوراكهم. اما بالنسبة للآباء القدامى فكان هذا يعتبر ترفاً - ومدى متسعاً للروح والجسد مساوياً لحرية بلا حدود، وبلا غابات كثيفة تخفي الأخطار، ويمكن أن يختبئ فيها الأعداء. هنا لم تكن الحرية لعباً، كأحد الكرنفالات أو حفلات الرقص التي لا تقام إلا مرة واحدة كل عام. ولم تكن أيضاً كفضلات الطعام التي تلقى عن موائد المترفين. فالحرية هنا اختبار تديره الطبيعة وعلى الإنسان أن ينجح فيه بمفرده كل يوم. وإذا نجح في هذه الاختبارات خلال فترة كافية من الزمن فإنه يصبح ملكاً.

ربما لم يعد زكريا يريد أن يأكل لحم الأرنب المشوي على السقود، ولا لحم البوفالو البارد أبداً. وربما بعد أن طرده من المكتب جماعة من البيض ورفض بعض الملونين منه مرزعة، أراد إقامة شيء دائم في هذا البلد المفتوح المختلف والمختلف كثيراً عن ولاية لويزيانا. وعلى أي حال، فبينما كانوا يبنون مساكن مؤقتة - سقائف وملاجئ تحت الأرض - وينقلون الخشب على عربة يجرها حصانان أعارهما لهم الهنود، جمع زكريا بعض الرجال لكي يبنوا فرناً. كان من دواعي فخرهم أن أية امرأة من نساءهم لم تشغل أبداً في مطبخ أحد الرجال البيض، ولم تُرضع أي طفل أبيض. مع أن العمل في الحقول أشد قسوة وأقل اعتباراً، فقد اعتقدوا أن اغتصاب النساء اللواتي يشتغلن في مطابخ الرجال البيض لم يكن يقيناً بل احتمال جلي - لا يستطيعون تحمله. لذلك كانوا يستبدلون هذا الخطر بالأمن النسبي الذي يتيح العمل الشاق. هذه الفكرة هي التي جعلت إقامة مطبخ مشترك، تبدو مقبولة بهذا القدر. لقد كانوا رجالاً استثنائيين: خدموا وحفروا وحرثوا وتعاطوا الأعمال التجارية في ولاية لويزيانا منذ عام 1755، حين كانت المنطقة تشمل الميسيسيبي، وبعد انقسام المنطقة إلى ولايات، ساعدوا الحكومة من عام 1868 وحتى عام 1875، وبعد ذلك اقتصر نشاطهم على العمل في الحقول. وطيلة فترة تزيد على مئتي عام، حافظوا على ازدهار ثمرة جهودهم. ولم يمنع أحد منهم شيئاً عن الآخرين، لم ينحنوا أمام أحد، لم يركعوا إلا أمام خالقهم. والآن، بينما كان ستيفارد يتذكر أعمالهم وكيف قضوا حيواتهم، شعر بالقوة، وأنه يتمتع بتصميم لا يتزعزع. وأخذ يفكر: تصور، ماذا كان سيقول: «بيغ بابا» أو دروم بلاكهورس أو جوفينال دوبريس عن هؤلاء المغرورين الذين يريدون تغيير كلمات صُنعت من الحديد المطروق.

لم يستطع ستيفارد الاستمرار في نزته زمناً طويلاً بعد أن أوشكت الشمس على الشروق. لذلك لوى عنان فرسه «نايت» وسار في طريق العودة، متفكراً بشيء يقوله أو يعمل - دوفي كي يقنعها

بأن تكفَّ عن تمضية الليل في المدينة. فالنوم دون عطرٍ شعرها بقربه أمر مستحيل.

في اللحظة ذاتها، قبل أن يبرز ضوء الفجر الأول، كانت سوان تقف في مطبخ أكبر منزل في روبي وتتكلم بصوت خافت عبر الجانب الآخر المظلم من النافذة.

«انتبهن، ياسماناتي.» «Deek» يبحث عنكنَّ ببندقيته، وعندما يعود يلقي بكيس مليء على أرض مطبخي النظيفة، ويقول شيئاً كهذا: «لا بدَّ أنَّ هذه ستفي بالغرض، من أجل العشاء» يقول ذلك مزهواً، كما لو أنه يقدم لي هدية. كما لو كنتن وقد نُتف ريشكن ونظفت بطونكن وطُبختن.»

لم تكن سوان تستطيع أن ترى شيئاً عبر الظلام في الخارج بسبب الضوء المنتشر في المطبخ من مصباح النيون الذي رُكِّب فيه حديثاً، وظلَّت تنتظر أن يسخن الماء في الغلاية، فهي تريد أن ينخلُ الشراب المقوي بصورة صحيحة قبل عودة زوجها. كانت تمسك برؤوس أصابعها إحدى مستحضرات كوني في كيس صغير من القماش مغلف في علبة من الورق المطلي بالشمع. وهذه هي المرة الثانية التي تنقذها فيها كوني. أمَّا المرة الأولى فكانت غلطة فظيعة، كلاً، لم تكن غلطة، بل خطيئة.

ظنَّت أن الوقت كان منتصف الليل عندما انسلَّ ديك من السرير وارتنى ملابس الصيد، وعندما نزل بالجوارب أَلْقَتْ نظرة على رقاص الساعة المضىء: الثالثة والنصف، ففكرت: مازال لديّ ساعتان من النوم، ولكنَّها استيقظت في السادسة صباحاً، وكان عليها أن تسرع لتتناول افطارها، وتحضر له ملابس العمل. لكن قبل ذلك، المقوي، فهي بأشد الحاجة إليه الآن لأنَّ الهواء كان واهناً من جديد. كان قد بدأ واهناً كما لو كان قادماً من ثوب بال، ليس عندما

قُتل سكوت ولكن بعد ذلك بخمسة عشر يوماً - وحتى قبل إعادة جثمانه - عندما أبلغوهم أن إيستر قد مات هو أيضاً. كانا مجرد طفلين: الأول في التاسعة عشرة، والآخر في الحادية والعشرين. أي فخر وزهو وأية سعادة عندما تطوّعا، وقد شجّعتهما بقوة على أن يفعلا ذلك. خدم والدهما في الأربعينات، وعماهما أيضاً. جف فليتود عاد من فييتنام سليماً معافى، وعاد مينوس جوري حياً وإن بدا مصدوماً قليلاً. وكأي حمقاء كانت تعتقد أن ولديها سيكونان في مأمن، أكثر من أي مكان من ولاية أوكلاهوما فيما عدا روبي، أكثر أمناً في الجيش ممّا في شيكاغو التي كان إيستر يريد الذهاب إليها، وأكثر أمناً ممّا في بيرمنغهام، ومونتغمري، وسلمى وواتس^(٥) وأكثر أمناً ممّا في موني في ولاية المسيسيبي عام 1955، وفي جاكسون في المسيسيبي عام 1963 وأكثر أمناً ممّا في نيوارك وديترويت، أو واشنطن D.C. وقد اعتقدت أن الحرب تشكل ملجأ أكثر أمناً من أي مدينة في الولايات المتحدة. واليوم بقي لديها أربع رسائل لم تُفَضَّ، أودعت في البريد عام 1968، وسُلِّمَتْ إلى بريد دمبي بعد أربعة أيام من دفنها لابنها الأخير. ولم تستطع أبداً فضّ هذه الرسائل. لقد حضر الاثنان في إجازة، أرادا أن يمضياها في عيد الشكر عام 1968، بعد سبعة أشهر من اغتيال مارتن لوثر كينغ، بكت سوان كالتي تحقّق خلاصتها بروية ولديها على قيد الحياة. ولدان لطيفان أسودان، لم يُقتلا أو يُسحلا أو يُجرحا أو يُسجنا. صرخت عندما نزلا من السيارة: «الصلاة تفعل فعلها!» وكانت تلك آخر مرة تراهما فيها كاملين. لقد باعتهما كوني كثيراً من جوز البيكان المقشور من أجل فطائر عيد الشكر. كانت هناك في ذلك اليوم فتاة تعطلت سيارتها، ورغم أن سوان اصطحبتهما لشراء البنزين الذي كانت بحاجة إليه لكي تذهب إلى حيث هي متّجهة، فالفتاة بقيت هناك. ومع ذلك، سافرت إلى مكان ما قبل وفاة الأم، وإلا لما اضطرت كوني لإشعال النار في الحقول. فلولا تصاعد دخان تلك

(٥) هذه المدن حدثت فيها اضطرابات ضدّ السود في الستّينات: 1960 وما بعدها.

النار لما عرف أحد نبأ الوفاة. وقد رأت آنا فلود الدخان، فذهبت بالسيارة وعرفت الخبر.

وكان على سوان أن تسرع هي أيضاً. تحدثت إلى روجر وذهبت إلى المصرف لكي تتصل بمجهولين في الشمال، وجمعت الطعام من عند الجيران، وحضرت طعاماً بنفسها. وقد حملته هي ودوغي وأنا إلى هناك، وهنّ يعلمن جيداً أنه ليس هناك من سيأكله غيرهنّ. بسرعة وبسرعة أكثر، لأن الجثمان يجب أن يرسل إلى الشمال بمنتهى السرعة، بعد حفظه بالتلج. بدت كوني غريبة الشكل، محطمة نوعاً ما، وقد أضافتها سوان إلى قائمة الأشخاص الذين يتكدون عيشها، منهم على سبيل المثال «K.D.» وآرنيت وسويتي. والآن هي لاتكف عن التفكير بـ القرن. فقد روى الناس أن بعض الشبان اعتادوا الاجتماع فيه ليحتسوا البيرة التي تبلغ درجة كحولها «3,2» وكانوا يطلبون من الأولاد الذين يلعبون هناك أن يذهبوا إلى بيوتهم. أو أنّ أمهاتهم قلن ذلك. كما أنّ بعض الفتيات (كانت سوان تعتقد أنّهنّ بحاجة للصفع) وجدن أسباباً للذهاب إلى هناك، ومنهن آرنيت وبيلي ديليا.

كثيراً ما قال الناس بأنّ هؤلاء الشبان بحاجة لما يشغلهم. ولكنّ سوان التي تعرف أنّ هناك الكثير مما يجب القيام به، لم تكن تؤمن بذلك. كان يحدث شيء ما، شيء آخر علاوة على القبضة السوداء الفاحمة، ذات الأظافر الحمراء التي رُسمت على جدار القرن الخلفي. لم يعلن أحد مسؤوليته عن ذلك، ولكنّ الأمر الأكثر صدماً من الإنكار الجماعي، هو رفض الجميع إزالتها. أولئك الذين يتسكعون هناك، يقولون كلّاً، إنهم لم يرسموها على جدار القرن ولذلك، كلّاً، لن يزيلوها. ومع أنّ كيت غولايتلي وأنا فلود مع، برييلو، تولوا إزالتها بمزيل للدهان وبسطل من ماء الصابون المغلي تدريجياً خلال خمسة أيام، كان زعماء المدينة خلالها يمنعون بكل غضب أي امرئ أن يمحوها إلا المتسكعين. الأصابع المضمومة ذات الأظافر الحمراء المتجهة إلى الجانب وليس إلى الأعلى، كانت تؤلم أكثر من لكمة

قوية، وقد دام ذلك لزمان طويل. ولم تستطع عملية التنظيف التي قامت بها كيت وآنا أن تمحو الألم المثير والكريه الذي أحدثه ذلك. لم تتمكن سوان من فهم ما حصل. إذ لا يوجد في تلك الجهات بيض يشوشون أذهانهم (أخلاقيون أو شريريون) أو يحرضونهم عليهم، فيجعلونهم يشوهون القرن ويتحدّون الكبار. الحقيقة أنّ السكان في تلك المنطقة كانت أحوالهم تزدهر، والحظ يحالفهم منذ أكثر من عشر سنوات: دولارات جيدة مقابل الثيران والقمح وبيع حقوق استثمار الغاز الطبيعي والنقط، كل هذا يمول المشتريات ويدعم المضاربات. ولكن أثناء الحرب عندما راحت روبي تنمو وتزدهر، كان الغضب يغزو أماكن أخرى. قال المحترم بوليام وهو يقف على منبر كنيسة «صهيون الجديدة»: «إنها أزمنة شريرة». وقال القسّ كاري في كنيسة «هولي ريديمر»: إن هذه الأيام أشبه بيوم الحساب الأخير. ولم يقل أحد شيئاً آنذاك في كنيسة كالفاري لأن رواد الكنيسة كانوا مازالوا ينتظرون القسّ الجديد، الذي أعلن عند وصوله عام 1970، أخباراً طيبة: «سأقهر أعداءك أمام ناظريك»، هذا ما قاله الرب، الرب، الرب.

هذا قبل ثلاث سنوات. وهم الآن في العام 1973. ابنتها الصغيرة - أليس كذلك؟ - كانت ستبلغ التاسعة عشرة الآن لو لم تذهب سوان إلى الدير طلباً للعون الذي تحتاجه الخطيئة دوماً. وبعد ذلك بوقت قصير، بينما سوان تقف تحت حبل الغسيل وتتعارك ضد الرياح لكي تنشر الشراشف، رفعت نظرها فرأت سيدة تبتسم لها في الباحة. كانت ترتدي فستاناً صوفياً بني اللون وقبعة قديمة من القماش الأبيض وتحمل بيدها سلة كبيرة. لوحّت لها السيدة بيدها، فردّت سوان على تحية السيدة المجهولة بأفضل ما استطاعت وفمها مليء بملاقط الغسيل، بانحناءة من رأسها حاولت أن تجعلها مهذبة. استدارت السيدة وانصرفت. لاحظت سوان أمرين: السلة بدت فارغة ولكنّ السيدة كانت تمسكها بيديها الاثنتين كما لو أنها ملائنة، وهو الأمر الذي أصبحت تعرفه الآن، على أنه إشارة إلى ماسوف يحدث -

فراغ يمكن أن تسحقها وطأته، وغياب أثقل من أن يحتمل. وكانت تعرف من أرسل السيدة لتبلغها ذلك.

صَفَرُ البخار وقطع على سوان تحسراتها، فصَبَّت الماء الذي يغلي في فنجانٍ على كيس الموسلين الصغير. وضعت طبقاً على الفنجان وتركت الدواء يُنقع.

ربما كان عليهم أن يعودوا إلى الطريقة التي كانوا يصرفون بها الأمور عندما ولد طفلها. لما كان الجميع أكثر انشغالاً بأعمال البناء وتخزين المحصول في المستودعات وحصاد المزارع، من أن يتشاجروا أو يفكروا بالأعمال الشريرة. الطريقة التي كانوا يصرفون بها الأمور قبل الانتهاء من بناء كنيسة كالفاري. عندما كان تعميد الأطفال يتمّ بالماء النظيف. حفلات تعميد رائعة، تثير المشاعر وتؤثر في القلوب بأناسيدها التي يردها الكبار وهم يرتعشون والدموع تترقرق في أعينهم وهم يفكرون بخلاص أطفالهم أخيراً. حين كان القس يرفع الفتيات الصغيرات بين ذراعيه ثم يغطسهن في الماء الواحدة بعد الأخرى بعد مباركته للماء ودون أن يوقعهن أبداً. كان الآخرون يتأملون هذا المشهد وهم يحبسون أنفاسهم. تنهض الفتيات بعد ذلك الواحدة تلو الأخرى، وقد حبسن أنفاسهن أيضاً، وفساتينهن البيضاء المبللة تنثني في الماء الذي تلتصق فيه أشعة الشمس. بينما يسيل الماء على شعرهن وعلى وجوههن، يرفعن أنظارهن نحو السماء قبل أن يحنن رؤوسهن بانتظار الأمر: «هيا، اذهبن الآن»، ثم لتطمينهن: «لقد نجوت يا ابنتي!». وعندما تلمس الفتاة الماء المقدس، تتضاعف ثم تتضاعف ثلاث مرات أعذب نعمة، ثم تتعالى نغمات أخرى من حناجر أخرى وتنضم بانسجام رائع إلى الأولى. العصفير تلتزم الصمت على الأشجار وتحاول أن تتعلم. بعد كل هذا كانت الفتيات اللواتي بوركن ونجّون يمشين متمهلات يداً بيد، رؤوسهن مستندة إلى الأكتاف في الماء متجهات نحو الضفة حتى الوصول إلى الفرن لتجفيف ملابسهن وهناك يتعانقن ويتبادلن التهاني.

أما الآن فيوجد حوض داخل كنيسة كالفاري، بينما هناك

أوعية خاصة في كنيسة «صهيون الجديدة» و«هولي ريديمر»
لصب الماء على الرؤوس المنتصبه لتلقي بركة التعميد.

لولا حفلات التعميد، لما كان للقرن بعد ذلك قيمة حقيقية. لأن
الناس في روبي ما عادوا بحاجة لما هو ضروري في أيام هافن
القديمة. فالشاحنات التي قِيموا بها إلى روبي جلبت أيضاً مواقد
وأفراناً. واللحم الذي ياكلونه يحصلون عليه من الدواجن التي تصيح
وتقوي في الباحة أو التي تنهار على رُكبها تحت ضربة مطرقة أو
التي تحشرج من حرِّ في عنقها. وخلافاً للبدايا في هافن،
أصبحت الطرائد صيداً عندما أُسْسوا روبي. لقد هزّت النساء
رؤوسهن عندما فكَّ الرجال القرن، أحضره، ثم جمَّعه من جديد.
ولكنهن في قرارة نفوسهن كنَّ يلمنهم على المكان الذي أفردوه له
في الشاحنة - بدلاً من بعض أكياس البذار الإضافية، أو خنوص، أو
حتى بدل سرير صغير لأحد الأطفال. وكما لَمَنُّهم أيضاً على
الساعات التي أمضوها في إعادة تجميعه - ساعات كان يمكن
تكريسها لترتيب أبواب الغرف. وإذا كان للوحة كل هذه الأهمية -
وهي تقدّر ذلك من الاجتماع الذي حضرت قسماً منه وترى أنه مهم -
فلماذا لم يأخذوها وحدها ويتركوا القرميدات في مكانها الذي ظلت
فيه طيلة خمسين سنة؟

أوه، كم راقٍ لهؤلاء الرجال إعادة بناء القرن وكم كانوا
مزهوين بذلك، وكم اجتهدوا له. وفكرت: أمر جيد حتى هذا الحد،
ولكن صار مبالغاً فيه. شيء نافع أصبح مذهباً (الأمر الذي لم يُخدَّن
منه سفر التثنية وحسب، بل الرسالة البديعة الموجهة للكورنثيين2).
وقد دمر نفسه بنفسه مثل كل من أساء إلى الرب. ولم يكشف أحد
الأمر على نحو أفضل مما فعل ذلك الشاب الوقح الذي حوله إلى
قرن من نوع آخر. قرن يُشوى فيه لحم بشري.

عندما طالب رويال والآخرون: ديستري وإحدى بنات بيوس
دوبريس بعقد الاجتماع، تمت الموافقة على ذلك بسرعة. فلم يكن
أحد قد طلب عقد اجتماع في المدينة منذ عدة سنوات. وظنَّ الجميع،
بمن فيهم سوان ودوفي أنَّ الشبان سيبادرون إلى الاعتذار عن

سلوكهم ويلتزمون بتنظيف المكان وصيانتته. ولكنهم بدلاً من ذلك أتوا معهم مخططهم. وهو مخطط ينجز ما كانت القبضة قد بدأته. فبدأ رويال، الذي يدعونه روي، الكلام بصورة ارتجالية، وألقى خطاباً كاملاً من كل الوجوه، لكنه لم يكن مفهوماً. لم يعرف أحد عم يتكلم، والمقاطع التي استطاعوا فهمها كانت جنوناً محضاً بلا قيد أو شرط. قال بأنهم جميعهم خارج اللعبة تماماً، وأن الأمور قد تغيرت في كل مكان باستثناء روبي. كان يريد إعطاء اسم لـ الفرن وأن تُعقد الاجتماعات فيه، لكي يقولوا لبعضهم كم هم أنيقون وهم يعطون لأنفسهم أسماء بشعة، ليس كالأسماء الأمريكية. بل كالأسماء الأفريقية. إن كل ماتعرفه. سوان عن أفريقيا هو الخمسة والسبعون سنناً التي كانت تتبرع بها للجمعية التبشيرية. واهتمامها بالأفريقيين، يعادل اهتمام هؤلاء بها: معدوم. ولكن روي كان يتحدث عنهم كما لو أنهم من الجيران أو أسوأ، كأنهم من أفراد العائلة. ثم تحدث عن البيض وكأنه قد اكتشفهم لتوه فقط، معتقداً أن ما عرفه كان أخباراً.

ومع ذلك كان هناك شيء آخر في خطابه. ليس مما يمكن الموافقة عليه أو رفضه، بل نوع من الاتهام. ضد البيض نعم، ولكن ضد أهل المدينة أيضاً الذين كانوا يصغون، ضد أهلهم وأجدادهم وجميع الراشدين في روبي. كما لو أن هناك طريقة جديدة وأشد رجولية للتصرف مع البيض. ليس على طريقة بلاكهورس أو مورغان بل نوع من الشيء الأفريقي الذي يطفح بالكلمات الجديدة، وبتراكيب جديدة للألوان وقصات شعر جديدة. ألمح إلى أن الرغبة بتجاوز البيض أمر يتسم بالجبن. وأنه يجب التحدث إليهم، رُدْهم والتصدي لهم. لأن الأسلوب القديم كان بطيئاً، يقتصر على بضعة أشخاص، وضعيفاً. هذا الاتهام الأخير جعل عنق ديك ينتفخ، وذات يوم من ذلك الأسبوع كان عليه أن يفجر دماغ السمّانات كيلا ينفجر دماغه هو.

بين لحظة وأخرى سيجلب كيساً مملوءاً بهذه الطيور، وستقدم له سوان فيما بعد طبقاً من أنصاف السمّانات البنية اللون والطرية. وقد تردّبت في إضافة الرز أو البطاطا، بينما كانت محتويات كوبها

تتحلّ. وعندما ابتلعت آخر نقطة منه فتح الباب الخلفي.
«ما هذا؟»

إنها تحب رائحته. رائحة الهواء الرطب والأعشاب. «لاشيء».
ألقى ديك كيسه على الأرض: «أعطني بعضاً منها، إذن».
«هيا ديك كم واحدة؟»

«اثنتا عشرة، لقد أعطيت ستة إلى سارجنت». جلس ديك وقبل
أن يخلع سترته، فك رباط بوطه. «إنها تكفي لتحضير عشائين».
«هل ذهب «K.D.» معك؟»

«لا. لماذا؟» وغمغم متذمراً وهو يبذل جهداً ليخلع بوطه.
التقطته سوان وأخذته لتضعه على مدخل الدرج الخلفي.
«يصعب العثور عليه في هذا الوقت. وأنا أراهن أنه الآن يخطط لأمرٍ
ما».

«هل حضّرت القهوة؟ مثل ماذا؟»

أخذت سوان تشم رائحة الهواء عبر الظلام لتختبر ثقله قبل أن
تغلق الباب «لاأستطيع أن أقول شيئاً بالضبط. ولكنّ لديه الكثير من
المبرّرات لكي ينتعل حذاءً خفيفاً».

«أظنّ أنه يطارد المؤخرات. أتذكرين تلك الفتاة التي كانت
تتسكّع في المدينة منذ بعض الوقت ثم ذهبت إلى الدير؟»

التفتت سوان نحوه وهي تحمل غلاية قهوة أمام صدرها، ثم
رفعت غطاءها: «لماذا تقول إنها كانت «تتسكّع»؟ لماذا تقول
«تتسكّع»؟ هل رأيتها؟»

«لا، ولكن هناك آخرين رأوها».
«ثم؟»

أخذ ديك يتثاءب: «ثم لاشيء، القهوة يا حبيبتي. القهوة،
القهوة».

«اذن لاتقل «تتسكّع».

«حسناً، حسناً: لم تكن تتسكع». ضحك ديك وهو يلقي ثيابه على الأرض: «لقد كانت تعوم».

«ماهو الخطأ في خزانة الملابس، يا ديك؟».

أخذت سوان تنظر إلى البنطال المشمع، السترة الحمراء والسوداء وقميص الفانيلا. «ماذا يعني هذا؟».

«لقد قيل لي بأن كعب حذاءها بطول ست بوصات».

«أنت تكذب».

«وأطير».

«حسناً. ولكن إذا كانت ماتزال في الدير، فلا بُدُّ أنها بخير».

أخذ ديك يدك أصابع قدميه: «لديك نقطة ضعف حيال تلك النسوة المقيمات هناك. لو كنت مكانك لأخذت حذري، كم عددهن الآن؟ أربع؟».

«بل ثلاث، لقد توفيت السيدة العجوز، ألا تتذكر ذلك؟».

«حق ديك فيها ثم حول نظره. «أية سيدة عجوز؟».

«الأم الرئيسة. من تظن؟».

«آه، صحيح. نعم». وتابع ديك تنشيط الدورة الدموية في قدميه.

ثم قهقه ضاحكاً: «كانت تلك المرة الأولى التي استخدم فيها روجر شاحنته الجديدة».

فقالت سوان وهي تلتقط ملابس ديك: «إنها سيارة إسعاف».

«لقد سدّ ثلاثة أقساط في اليوم التالي. أرجو أن يستطيع

تسديد الباقي، إذ لا توجد حركة نقل إلى المشفى ولا إلى المقابر في هذه المنطقة تكفي لتبرير الثمن الباهظ الذي اشترى به سيارته».

فأحت رائحة القهوة، فأخذ ديك يفرك راحتيه.

سأله سوان: «هل أصيب بأذى؟».

«ليس بعد. ولكن بما أن أرياحه تتوقف على المرضى والموتى،

فإنني أفضل أن يتعرّض للإفلاس».

«ديك!».

«إنه لم يقدم ولو شيئاً رديئاً من أجل ولديّ اللذين دفنا في كيس، كالهرة الصغيرة».

«لقد كان لهما تابوتان جميلان، جميلان جداً».

«نعم، ولكن في الداخل...».

«كفّ عن هذا ياديك، لماذا لا تكفّ». وضعت سوان يدها على عنقها.

«أمل أن يتخلص من ورطته. وإذا رحلت قبله، في هذه الحال، حسناً، تعرفين ماذا يجب عمله. لايهمني على الإطلاق أن أذهب في شاحنته، ولكنني أريد تابوتاً من الطراز الأول. وهذا يحل له المشكلة تماماً. فليت هو الذي يعاني من المشاكل». ثم ذهب ليغسل يديه على المغسلة.

«إنك تقول هذا طيلة الوقت. فكيف يتم ذلك؟».

«عن طريق الطلب بالبريد».

«ماذا؟» صبّت سوان القهوة في الفنجان الأزرق الكبير الذي يفضلُه زوجها.

«ألا تذهبن جميعكّن إلى دمبي عندما ترغبين بشراء محمصة خبز أو مكواة كهربائية، توصون عليها بعد الإطلاع على الكاتالوغ ثم تذهبن إلى هناك لإحضارها. فماذا يعني ذلك؟».

«لم يكن فليت يمتلك الشيء الكثير وما يمتلكه كان هناك منذ زمن طويل. فقد تغيّر لون الأريكة ثلاث مرات وهي تقبع في الواجهة».

قال ديك: «هذا هو السبب، إذا لم يستطع التخلص من مخزونه القديم لن يتمكن من شراء مخزون جديد».

«اعتاد أن يفعل الشيء الصحيح».

صبّ ديك قليلاً من القهوة في صحن فنجانته: «قبل عشر سنوات. خمس». أخذ السائل الغامق اللون يرتعش عندما نفخ عليه. «الشبان

العائدون من فييتنام، كانوا يتزوجون ويستقرون بنقود الحرب، وتزدهر المزارع. كانت أحوال الجميع جيدة». رشف القهوة من حافة الصحن، وتنهّد من المتعة. «والآن، حسناً...».

«أنا لأفهم، ياديك».

«أمّا أنا فأفهم». ابتسم لها. «لست بحاجة لأن تفهمي».

هي لم تقصد أنها لم تفهم عما يتحدث، بل تقصد أنها لاتفهم لماذا لم يعد يحاول مساعدة أصدقائه على حل مشاكلهم المالية. على سبيل المثال، لماذا لم يستطع مينوس الاحتفاظ بالبيت الذي اشتراه؟ ولكنّ سوان لم تحاول الشرح، بل اكتفت بتفحص وجهه: وجه لطيف ومايزال جميلاً بعد ستة وعشرين عاماً، وهو الآن يشع سروراً. الصيد الموفق الذي قام به هذا الصباح هدأه وأعاد كل شيء إلى مكانه. لون القهوة كان جميلاً ودرجة حرارتها مناسبة. وبعد قليل ستذوب في فمه سُمّانات دون أدمغتها.

في كل مرة يسمح فيها الطقس، كان ديكون مورغان يقطع ثلاثة أرباع الميل بسيارته السوداء اللامعة. انطلاقاً من منزله في شارع سان جون. يستدير إلى اليمين عند زاوية الشارع المركزي، ويجتاز شوارع لوك، مارك وماتيو، قبل أن يوقف سيارته بكل دقة أمام المصرف. أما الحماسة المتمثلة باستخدام السيارة لاجتياز مسافة كان بوسعها اجتيازها سيراً على قدميه في وقت أقل من الوقت اللازم لتدخين سيجار، هذه الحماسة في نظره تُلغِيها أهمية ذلك التصرف. سيارته كبيرة، وكل ما يهمه فيها قوتها، وأمر آخر يستحق التعليق: كيف يغسلها ويلمّعها بنفسه - دون أن يترك «K.D.» أو أي عامل آخر، يلمسها. كيف يمضغ التبغ فيها دون أن يشعل فيها سيجاراً على الإطلاق، وكيف لم يكن يستند عليها أبداً. ولكن إذا تناقش بعض الناس معه واقفين بجانب السيارة، كان يداعب غطاءها بأطراف أظافره، يزيل عنها غباراً لا يراه أحد سواه، ويزيل بمنديل بعض

البقع غير المرئية. وبين أصدقائه يضحك من غروره، لأنه يعرف أن سرورهم إزاء ضعفه يسير جنباً إلى جنب مع خوفهم من الأسلوب السحري الذي يكدّس به الأموال (هو وأخوه التوأم). حكمته التنبؤية. وذاكرته التي لا تخطئ. وأقوى ذكرياته، هي واحدة من ذكرياته الأقدم.

قبل اثنتين وأربعين سنة، تعارك معهم ليتركوا مكاناً ليده قرب النافذة الخلفية في السيارة (نموذج T) العائدة لـ «بيغ دادي» مورغان» لكي يلوح مودّعاً لأمه وأخته الصغيرة روبي. وبقيّة أفراد العائلة - الأب، العم بريور، أخوه الأكبر ايلدر وتوأمه ستيوارد - جميعهم كانوا مجتمعين بجانب سلّتين كبيرتين مملّتين بالماكولات. لأن الرحلة التي يقومون بها يمكن أن تستغرق عدة أيام، وربما أسبوعين. قال الأب إنها الرحلة الكبرى الثانية، فأضاف العم بريور ضاحكاً، إنها الرحلة الكبرى الأخيرة.

الرحلة الأولى حصلت عام 1910 قبل ولادة التوأمين، يوم كانت هافن تناضل من أجل العيش. وقد اصطحب «بيغ دادي» آنذاك أخاه بريور وابنه البكر ايلدر في جولة بالسيارة عبر الولاية وخارجها، من أجل دراسة وتفحص وتقييم مدن السود الأخرى. خططوا لزيارة مدينتين خارج أوكلاهوما وخمس مدن داخلها: بولي، لنغستون سيتي، رانتيسفيل، تافت، كليرفيو، موندبايو، ونيكوديموس. ولكنهم في نهاية الأمر لم يزوروا سوى أربع. ولم يكف «بيغ دادي» والعم بريور وإيلدر عن الحديث عن هذه الرحلة، كيف تفوقوا في النقاش والجدال مع قساوسة وصيادلة وأصحاب مخازن الملابس الجاهزة وأطباء وناشري صحف ومعلمين ومصرفيين. لقد تحدثوا عن الملاريا وقانون حظر المسكرات، وخطر المستوطنين البيض والمشاكل مع جماعة «الكريك»: المحرّزين، عن إخلاص رجال الإدارة العسكرية، والطابع العملي للمعرفة، عن الحاجة للتدريب التقني والمهني، والنتائج المترتبة على إنشاء الولاية، وإقامة النوادي، وعن العنف الذي يمارسه البيض الذين يتجولون حولهم، بصورة عشوائية، أو منظمة. توقفوا بجانب حقول الذرة،

وساروا بمحاذاة مزارع القطن، زاروا ورشات الطباعة، وصفوف بعض المدارس، وبعض الكنائس والمنابر، درسوا طرق الري وأنظمة التخزين. وقد نظروا بشكل خاص إلى الحقول والبيوت والطرق.

وبعد أحد عشر عاماً، قُصفت تولسا بالقنابل، وقد زالت من الوجود بعض المدن التي زارها «بيغ دادي» وبرفقته بريور وايلدر. ولكن خلافاً لجميع التوقعات كانت هافن تزدهر عام 1932، إذ أن الكساد الاقتصادي لم يطلها: فالمبخرات الفردية الخاصة كانت كبيرة، ومصرف «بيغ دادي» لم يَغم بأية مجازفة. (جزئياً لأن أصحاب المصارف البيض أغلقوا دونه أبواب مصارفهم، وجزئياً لأن قيمة الأسهم كانت تتمتع بتغطية جيدة) والعائلات تتقاسم فيما بينها كل شيء، وتسعى دائماً للتأكد بأن لأحد ينقصه شيء. إذا تعرض محصول القطن للدمار؟ يتقاسم الذين يزرعون الذرة أرباحهم مع الذين زرعوا قطناً. هل احترق مستودع للحطب؟ عند ذلك يعمد أولئك الذين يقطعون أشجار الصنوبر إلى جعل بعض قطع تلك الأشجار تسقط «عَرَضاً» من عرباتهم في بعض الأماكن لكي يتم التقاطها أثناء الليل. هل اجتاحت الخنازير حقل أحد الجيران؟ في هذه الحالة كان هذا الجار يتلقى تعويضاً عن محصوله، وتأكيداً بأنه سيحصل على لحم الخنزير عندما يذبحون الخنزير. والرجل الذي تجرح يده بضربة بلطة خاطئة ويتعطل عن العمل، لا يكاد يضع لها الضماد الثاني حتى يأتي من يقطع له حزمة كبيرة من الحطب ويكسها له في مستودعه. وبما أن الناس نبذوهم في عام 1890 أثناء رحلتهم إلى أوكلاهوما، فإن سكان هافن كانوا لا يرفضون شيئاً فيما بينهم، ويظلون منتبهين لأقل حاجة أو لأدنى نقص.

ولم يكن يرضي آل مورغان أن يُسرَّ أحد من فشل بعض تلك المدن الملونة - لأنهم كانوا يتذكرون الرفض الذي جوبهوا به عام 1890 وكأنه رصاصة في أدمغتهم. وقد أشاروا فقط إلى لغز العدالة الإلهية، وقرروا اصطحاب التوأمين في رحلة ثانية لكي يشاهدوا كل شيء بأنفسهم.

وما شاهدوه في بعض الأحيان كان لاشيء، وأحياناً كان يبعث على الحزن. وظل ديك يذكر كل ذلك: مدن تشبه أحياء للعبيد نُقلت وحُرِّكت. مدن ثملة من الثراء. ومدن أخرى تتظاهر بالنوم مكدسة الأموال والسندات والعقود المسجلة لدى كاتب العدل في بيوت غير مطلية على شوارع غير مرصوفة.

في إحدى المدن المزدهرة لاحظ هو وستيوارد وجود تسع عشرة امرأة زنجية يقفن صفاً على درج دار البلدية. كن يرتدين فساتين صيفية فُصلت من قماش لم ير أحد منهما في حياته قماشاً بمثل خفته ورقته. معظم فساتينهن بيضاء عدا اثنتين أحدهما أصفر ليموني والآخر وردي. كن يرتدين قبعات صغيرة بيج وردي وأزرق مغبر: قبعات تجذب الانتباه إلى العيون الواسعة والبراقة للنساء اللواتي يرتدينها. خصورهن تكاد لا تكون أضخم من أعناقهن. كن يتصاحكن ويتمازحن ويستعرضن أمام مصور لم يكن يُخرج رأسه من تحت غطاءه الأسود حتى يعود ليخبئه تحته من جديد. وبعد وضعية مُرضية لأخذ الصور، تفرقت السيدات بمجموعات صغيرة وهنّ يثنيان خصورهن النحيفة مسترسلات في الضحك، ويمشين متخاضرات. سَوّت إحداهن وضع مشبك صديقتها، وتبادلت أخرى كتاب جيبيها مع جارتها. أقدام صغيرة تستدير وتلامس الأرض بأخذية من الجلد الرقيق. وحيال بشرتهن البضة والمتألثة تحت أشعة شمس العصر شعر ديك بأنحباس أنفاسه. اجتاز بعض من أصغرهن سناً الشارع ومررن قريباً جداً من الحاجز الذي كان يجلس عليه هو وستيوارد. كن ذاهبات إلى مطعم ليس بعيداً من هناك. سمع ديك أصواتهن الموسيقية، الخافتة، المشبعة بالبهجة والأسرار، وتركهن خلفهن نفحات من عطر زهرة رعي الحمام. لم يتبادل التوأمين النظرات. ودون أن يتلفظا بكلمة واحدة، اتفقا على السقوط عن الحاجز. وبينما هما يتخبطان على الأرض، ويوشخان بنطاليهما وقميصيهما، التفتت السيدات الزنجيات لكي ينظرن. فحصل الشابان على الابتسامات التي يتمنيانها، قبل أن يقطع «بيغ دادي» حديثه مع الآخرين وينزل من السقيفة لكي يأتي ويمسك كلا

منهما من نطاق بنطاله ويقودهما إلى السقيفة ليضربهما بعكازه على مؤخرتهما.

وحتى اليوم مايزال عطر زهرة رعي الحمام ماثلاً في الذاكرة، وحتى اليوم ماتزال تلك الفساتين الصيفية، وتلك البشرات النضرة الرضاعة تثير اضطراب ديك، ولو أنه وستيوارد لم يرتعيا عن الحاجز، لانفجرا بالانحباب. ولذلك فإن بين تفاصيل الذكريات التي ماتزال محسوسة من تلك الرحلة - الأسف، العناد، الخداع، الثراء - ظلت الصورة التي يحتفظ بها ديك في ذاكرته للسيدات التسع عشرة بفساتينهن الصيفية تختلف عن الصورة التي أخذها المصور لهن. كانت ذاكرته ملونة بالوان الباستيل وأبدية.

في صباح اليوم التالي، بعد الاجتماع في كنيسة كالغارى ولأنه كان راضياً عن حصيلة الصيد، ولم يكن متعباً ولا يشعر برغبة بالنوم، فقد قرّر الذهاب لتفقد الفرن قبل أن يفتح المصرف. ولذلك انعطف إلى اليسار وليس إلى اليمين في الشارع المركزي، ومن بالمدرسة على الجانب الغربي، أمام بقالية إيس ومخزن المفروشات والأدوات المنزلية الذي يملكه فليتود، وأمام عدة منازل في الجانب الشرقي. وعندما وصل إلى الفرن، قام بجولة حوله: المكان نظيف، عدا بعض غلب الصودا والأوراق التي سقطت من حاوية القمامة. لا قبضة، ولا شبان يتسكعون في ذلك المكان. رأى أن عليه أن يتحدث مع آنّا فلود التي كانت تدير حينئذ بقالية إيس - لكي تلتقط اللعب الفارغة والأوساخ التي تنجم عن المشتريات التي تحصل في دكانها. هذا ماكان يقوم به والدها إيس في الماضي إذ يكنس المكان كلياً كما لو أنه مطبخه الخاص، ولو ترك يعمل كما يريد لعمد إلى تكنيس الشارع من الرصيف إلى الرصيف المقابل. وعند عودته إلى الشارع المركزي لاحظ ديك سيارة ميسر الفورد العتيقة متوقفة أمام منزل آنّا. بعد ذلك سمع، من جهة اليسار، أصوات مجموعة من التلاميذ ينشدون قصيدة سبق له أيضاً أن حفظها غيباً، وهو لم يكن

بحاجة لسماع أبيات «دنبار»^(*) سوى مرة واحدة حتى يحفظها جيداً عن ظهر قلب وبصورة دائمة. وحين تطوَّع في الجيش هو وستيوارد كان عليهما أن يتعلَّما كثيراً من الأمور - بدءاً من عقد ربطة العنق العسكرية بصورة نظامية وحتى حزم الحقيبة. كانا أوَّل من فهم، وتذكَّر كل شيء تماماً كما في مدرسة هافن. ولكن لاشيء كان أفضل ممَّا تعلَّما في البيت، وهما يجلسان على الأرض في غرفة تضيئها نار الموقد، يصغيان لقصص الحرب وقصص الهجرات الكبيرة - قصص مَنْ قاموا بها وَمَنْ لم يقوموا بها، إخفاقات وانتصارات رجال أذكىاء - مخاوفهم، شجاعتهم، حالات الارتباك والحيرة التي تعرضوا لها. قصص الحب العنيف والخالد. كل ذلك في الكتاب الوحيد الذي كان بحوزتهم في ذلك الحين: غلاف من الجلد الأسود، الكتابة عليه دوَّنت بحروف ذهبية، الصفحات أكثر رقة ونعومة من أوراق الأشجار حديثة الظهور، ومن بتلات الأزهار. الغلاف مهترئ في أعلاه، وقد لَفَّت الأصابع زواياه حتى حدود الحروف. وكلِّما تابعا الاستماع إلى تلك القصص، ازدادا يقيناً بأنها تعنيهما وأنها قصصهما - والكلمات التي كانت تيدو لهما في بداية الأمر غريبة، أصبحت مألوفة فيما بعد، واكتسبت قيمة وجمالاً منوماً تنوِماً مغناطيسياً.

حين كان يقود سيارته متجهاً نحو الشمال، بدا له الشارع المركزي والشوارع الجانبية بحالة مرضية كالعادة: منازل هادئة، بيضاء وصفراء ملأى بمنتجات الصناعة، وفي داخلها نساء سوداوات أنيقات منهنمكات بأعمال مفيدة، وخزانات حسنة الترتيب، دون مبالغة أو إهمال وبياضات مغسولة ومكوية إلى حد الكمال. لحم جيد محضَّر وجاهز للشواء. مشهد يضخِّي بروحه من أجله لو أن «K.D.» أو بعض الشبان الكسولين أزعجوه.

كان ذلك صرخةً بعيدة من أزمنة هافن الأولى وكان جدّه سيسخر من هذه الرفاهية - شراء عقارات بالدولارات المتوافرة بدلاً

(*) بول لورنس دنبار: شاعر أميركي (1872 - 1906).

من مقايضتها بسنوات من العمل. كم كان سينزعج من أحفاده الذين يعملون اثنتي عشرة ساعة في اليوم، وخمسة أيام في الأسبوع، بدلاً من ثماني عشرة إلى أربع وعشرين ساعة يومية كان سكان هافن يؤدونها لمجرد البقاء على قيد الحياة، أما أحفاده اليوم فيستطيعون الذهاب لصيد السمك لمجرد المتعة والتسلية وليس بسبب الحاجة اليائسة للقاء الزوجة وثمانية أولاد حول المائدة، دون شعور بالخجل. وربما ضيق عينيه الباردتين والمصابتين بالزمد عند رؤيته القرن. لم يعد ذلك هو المكان الذي كانوا يلتقون فيه للكلام عما أنجزوه من الأعمال، وما يحتاجون إليه، ويتحدثون عن الأمراض، الولادات والوفيات، عن الروحات والغدوات. هذا القرن الذي شاهد الأطفال المعمدين يدخلون في حياة حظيت بالمباركة يقتصر دوره اليوم على تأمل الشبان الكسولين: كان يتسكع هناك أيضاً اثنان من أبناء سارجنت، ثلاثة من أبناء بول، اثنان من آل سيرايث، اثنان من أسرة بوشامب، ولدان من عائلة دوبريس - وبنات سوت وبيوس وحتى آرنيت وابنة بات بيست الوحيدة. مع أن جميع هؤلاء ينبغي أن يعملوا بالتقطيع، بتحضير المعليات، بالتصليح والترقيع، أو بأعمال النقل. هذا القرن الذي سمعت كل قرميدة فيه أناشيد جوقات المرددين الحية وهي تصدح في تمجيد الرب، أصبح مرغماً الآن على سماع الموسيقى التي تبثها الإذاعة والموسيقا المسجلة - موسيقا تعتبر مئنة سلفاً عندما تمر عبر سلك أسود يمتد من دكان آنا إلي القرن كأنه أفعى. ولكن جده يمكن أيضاً أن يكون مسروراً: فبدلاً من الأطفال والبالغين الذين كانوا يجتمعون مساءً في الزمن السابق، ليخربشوا حروفاً ورسوماً بواسطة الحصى على قطع الفخار، لكي يتعلموا القراءة ممن يتقنونها، كانت توجد مدرسة هنا. ليست كبيرة كالمدرسة التي بنوها في هافن، ولكنها مفتوحة الأبواب طيلة ثمانية أشهر في السنة، دون أن يتسولوا أموالاً من الدولة لتشغيلها. لم يحتاجوا حتى لـ سنت واحد.

وكما توقّع «بيغ بابا» تماماً، لو ظلوا معاً يعملون ويصلّون

ويدافعون عن أنفسهم، لن يحدث لهم ماحدث لسكان داونز
لكسنغتون، سابلوبا، وغانز التي طُرد منها الملونون في إحدى
الليالي المظلمة. وما كانوا أيضاً في عداد الموتى والجرحى في
تولسا ونورمان وأوكلاهوما سيتي، هذا عدا عن ضحايا
الاضطرابات والاعتداءات التلقائية وأعمال القتل والتهجير بعد
إضرام الحرائق المتعمدة. ما عدا شقّ هنا وتصدّع هناك، فقد ظلّ
كل شيء سليماً في روبي. ولا جدوى من التساؤل عما إذا كان نقل
الفرن يعتبر خطأ، أو إذا كان بحاجة لأن يظل في أرضه الأصلية
كأساس لاحترام وقديسة المنفعة التي يستحقها. كلا، كلا، أيها
ال«بيغ بابا»، كلا أيها الـ «بيغ دادي» إننا لم نخطئ.

كان اطمئنان ديك يتّصف بالقوة أكثر مما يتّصف بالثقة، هذا
لأنّ سوان كانت تقلقه بشكل متزايد. لم يكن هناك ما يبرّر ذلك، ولكن
كان لديه شعور دائم بالخسارة. فقد ظلّ يشاظرها حزنها، ويعتقد
أنه يحسّ بخسارة ولديه بمثل الحدة والعمق اللتين تحسّ بهما هي،
عدا كونه يعرف عن هذا الأمر أكثر مما تعرف هي. فهو مثله في ذلك
مثل معظم أفراد أسرة مورغان، قد شارك في الحرب، أي أنه عاش
الموت، ورآه وهو يزور الآخرين ويعرف أنّ الأجساد لاتستلقي على
الأرض، بل إنها في معظم الأحيان تتطاير تنفّاً في الجو، وأنّ
ما أرسلوه لهم في تلك الصناديق التي أنزلوها من القطار في ميدلتون
كانت قطعاً جمعوها ووضعوها في الصناديق، ولاتزن أكثر من
نصف وزن جسم شاب في التاسعة عشرة من عمره. كان إيسنر
وسكوت ينتميان إلى وحدات متطوعة، ولو فكّرت سوان بهما ربما
استطاعت أن تعتبر نفسها سعيدة، فيما لو علمت أنّه أيّاً كانت القطعة
التي تنقص من جسديهما، فإنّ القطع كلها لرجال سود - وهذه بادرة
احترام وقاعدة كان الأطباء يلتزمون بتطبيقها خشية إضافة فخذي
رجل أبيض أو قدميه إلى رأس أسود. لو أن سوان شكّت بما يمكن
أن يحدث؟ - آه، يارجل. لقد ندم على ارتكابه خطأ وهو يتناول
القهوة، ولكونه نؤّه عما يعجز روجر عن القيام به. بل إنه لم يشأ
حتى أن تتصور السؤال الوحيد الذي طرحه على روجر - أولاً، بشأن

سكوت وبعد ذلك بشأن إيستر: «هل جميع القطع سوداء؟». وذلك يعني أنها إذا لم تكن كذلك فعليك أن تتخلص من القطع البيضاء. فاقسم روجر على أنها متماثلة عرقياً، والتوايبت الفخمة دليل امتنان عائلة مورغان وعزاء لسوان، ومع ذلك فإن هذه الخسارة تركت آثاراً بدا أنها تتراكم بصورة لا يمكن السيطرة عليها. لم يكن يثق كثيراً بالأدوية التي تتناولها ولا يثق إطلاقاً بمصدر تلك الأدوية. ولكنه لم يكن يجد مطعناً في سلوكها. وهي جميلة بقدر ما يمكن أن تكون عليه امرأة فاضلة. تدير منزلها بصورة جيدة، وتشارك بالأعمال الخيرية في كل مكان. بل كانت أكثر كرمًا مما يأمل، وهذا ما لا يستطيع أحد أن يلومها عليه أو أن يفعل شيئاً حياله. إذ أن سوان تتحمل عبء خسارة ولدين، أما هو فيتحمل عبء خسارة جميع الأولاد. وبما أن ولديه التوأمين لم يُنجبا، فقد انتهت عند ذلك الجد ذرية آل مورغان. نعم، هناك بالتأكيد أبناء ايلدر - زمرة تاوي إلى كل مكان ماعدا البيت، وقد أتى بعض أفرادها إلى روبي لتمضية أسبوع فيها، ولكنهم غادروها قبل نهاية الأسبوع متلهّفين للهروب من حالة السلم التي وجدوها كثيبة، ومن الصناعة التي وجدوها مملة، ومن الحرارة التي شعروا أنها مهينة، ولذلك لم يكن هناك جدوى من التفكير بهم ولا بالسلالة الشرعية لـ آل مورغان. إنه هو وستيوارد الوريثين الحقيقيين، والدليل على ذلك ماكانت عليه مدينة روبي نفسها. من غير الوريثة الشرعيين يمكنه أن يكرّر ما فعله زكريا وريكتور تماماً؟ ولكن بما أن جانباً من المهمة هو التكاثف، فإنه كان يتألم لعلمه أن «K.D.» هو السبيل الوحيد للقيام بذلك. و«K.D.» هو الابن الذي أعطته إياه أخته وأحد رفاق السلاح. وهذه العقدة التي راحت تتكوّن في صدر ديك كل مرة يفكر فيها بأخته، أصبحت مألوفة لديه. روبي، تلك الفتاة المتواضعة والضحك، التي عملا على حمايتها هو وستيوارد طيلة حياتهما أصيبت بالمرض أثناء الرحلة، ثم بدا عليها أنها تتعافى، ولكنها مالبت أن انتكست بسرعة. ولما أصبح واضحاً أنها بحاجة للمساعدة الطبية، لم يجدوا وسيلة لتوفيرها. نقلوها بالسيارة إلى دمبي، ثم إلى مدينة أخرى أبعد منها، إلى ميدلتون. ولكنّ الملونين ماكانوا يُقبلون في

المشافي، ولايعالجهم أي طبيب مؤهل. لقد فقدت السيطرة ثم الوعي عند وصولهم إلى ثاني مشفى. وماتت فوق مقعد في قاعة الانتظار بينما كانت الممرضة تبحث عن طبيب لكي يفحصها. وعندما علم الأخوان أنَّ الممرضة كانت تحاول العثور على طبيب بيطري حملا أختهما المتوفاة على ذراعيهما، وظلَّت أكتافهما ترتجف طوال طريق العودة. ثم نُفنت روبي في زاوية جميلة من مزرعة ستوارد دون حفل جنازتي، وفي ذلك الوقت خُتِمت القضية. صلاة على شكل صفقة عُقدت مع الله، لا أقل من ذلك، يبدو أنه باركها وتقبلها، إلى أن أُعيد جسدُ إيسْتِر وسكوت عام 1969 . بعد ذلك أدركا بشكل أفضل شروط الصفقة وحدودها.

ربما كانا قد ارتكبا خطأ عام 1970 ، عندما ثُنِّيا «K.D.» وابنة فليت عن عزمهما على الزواج. كانت حاملاً، ولكن بعد إقامتها فترة قصيرة في الدير لم تعد كذلك، هذا إذا كانت حقاً حاملاً، وقد استولى القلق على الخالين بشأن الشكل الذي ستتخذه ذرية فليتوود، وعلاوة على ذلك، فقد كان هناك مرشحات أخريات مناسبات في الجوار. ولكن «K.D.» كان دائماً يضاجع إحدى الشاردات التي تعيش هناك، حيث مدخل الحجيم واسع، وقد حان الوقت لإبلاغه بالأخبار: المواخير كلها لا تعلق الضوء الأحمر في النافذة.

ضغط على مكابح السيارة لإيقافها أمام المصرف عندما لاحظ أمامه شبح فتاة تسير منفردة. عرفها في الحال، ولكنه أخذ يراقبها بانتباه، لأنها أولاً لا ترتدي معطفاً، ثم لأنه لم يسبق له أن رآها خارج منزلها منذ ست سنوات.

الشارع المركزي شارع عريض جداً، طوله ثلاثة أميال مكسوة بالإسفلت، تبدأ عند الفرن وتنتهي أمام مخزن الأغذية والبذار الذي يملكه سارجنت. الشوارع الجانبية الأربعة شرقي الشارع المركزي تحمل أسماء القديسين الانجيليين الأربعة. وعندما دعت الحاجة لشارع خامس، أطلق عليه اسم سان بيتر. وفيما بعد، عندما توسعت روبي، افتتحت شوارع أخرى إلى الغرب من الشارع المركزي،

ورغم أن هذه الطرق الجديدة استمرار للشوارع الشرقية - فهي تقع مقابلها تماماً - فقد أطلقت عليها أسماء مشتقة من أسماء الشوارع الأولى. وهكذا فقد أصبح شارع سان جون الشرقي يسمى امتداد شارع سان جون. وشارع سان لوك أصبح امتداد شارع سان لوك. وقد أعجبت سلامة هذا الإجراء جميع الناس تقريباً، وبخاصة ديك، وظلّ هناك على الدوام أماكن لمنازل إضافية (يمولها عند الضرورة مصرف الأخوين مورغان) تبنى على الأراضي والحقول الكائنة خلف البيوت المبنية سابقاً. ويبدو أن المرأة التي أخذ يراقبها ديك قد غادرت امتداد شارع سان بيتر، واتجهت نحو مخزن الأغذية والبقار العائد لـ سارجنت. ولكنها لم تتوقف عنده، بل على العكس من ذلك، اتجهت بتصميم نحو الشمال، حيث يعرف ديك أنه لا يوجد شيء على مسافة سبعة عشر ميلاً. فماذا يمكن أن تفعل أحلى فتاة، التي سمّيت سويتى (*) لأنها كانت كذلك بطبيعتها، وإلى أين تذهب دون معطف في هذا الصباح البارد من شهر تشرين الأول، بعيداً عن المنزل الذي لم تخرج منه منذ عام 1967؟

لفتت انتباهه حركة في مرآة سيارته العاكسة، وعرف الشاحنة الصغيرة الحمراء القادمة من الجنوب. يقودها آرون بول وقد أتى متأخراً كما توقّع ديك لأنه أحضر القسط الأخير من القرض الذي استلفه من المصرف. فكّر ديك أن يجعل بول ينتظر، ويلحق بسويتى الحلوة بسيارته، ولكنه أوقف محركها. لأن جولي سكرتيرته لاتأتي قبل الساعة العاشرة. وليس هناك مناسبة لايفتح فيها مصرف مدينة جيّد وجاداً أبوابه في الوقت المحدد.

قالت آنّا فلود: «انظر. هيا انظر إليه وحسب!».

(*) سويت (Sweet من sweetie): حلو / حلوة.

كانت تراقب سيارة ديك وهي تدور حول الفرن، ثم تسير متمهّلة عند مرورها أمام مخزنها.
«ماذا به كي يطوّف هكذا؟».

رفع ريتشارد ميسنر نظره عن مدفاة الحطب، وقال وهو مستمر في إشعال النار: «إنه يتحقق من بعض الأشياء وحسب، وهذا من حقه، أليس كذلك؟ إنها مدينته نوعاً ما، له ولأخيه ستيوارد».
«أنا لأقول هذا، يمكنهما أن يتصرفا كما لو أنها يمتلكانها، ولكن هذا ليس صحيحاً».

يحب ميسنر أن تكون النار قوية، وهذه التي يشعلها ستكون كذلك. ثم أضاف قائلاً: «حسناً، إنهما اللذان أسساها، أليس كذلك؟».
«مع من كنت تتحدث؟» غادرت أنا النافذة وذهبت باتجاه الدرج الخلفي المؤدي إلى شقتها. دسّت تحت الدرجات قِدرًا فيه بعض بقايا اللحم والحبوب. لأنّ الهرة التي أصبحت شريرة منذ أن أصبح لديها صغار، صارت تحدّق بها وتوجه إليها نظرات تعبر عن التهديد. «خمس عشرة عائلة أسست هذه المدينة، خمس عشرة وليس اثنتان. إحداها أسرة أبي، والأخرى أسرة عمي...».

قاطعها ميسنر قائلاً: «تعرفين ماذا أعني».

أخذت أنا تنظر عبر الظلام، لكي تحاول أن ترى صغار الهرة الذين كانوا في الصندوق. ثم قالت: «لا لأعرف».

فقال ميسنر: «المال، آل مورغان كانوا يملكون المال، وربما كان ينبغي عليّ أن أقول إنهم قد مؤّلوا المدينة... لا أسسوها».

لن تأكل الهرة إذا كان هناك من يراقبها، ولذلك أَلَقْتُ أنا نظرة مختلصة على الهرة الصغار، والتفتت نحو ريتشارد ميسنر: «نكّ تخطئ بقولك هذا أيضاً. فكل فرد من السكان دفع الحصة المطلوبة منه. وفكرة المصرف لم تكن سوى طريقة للقيام بذلك. أما العائلات فقد اشترت الأسهم فيه كما تعرف، بدلاً من الودائع التي استغلوها منذ القديم. وبهذه الطريقة حفظوا أموالهم».

هزّ ميسز رأسه ومسح يديه. فهو لا يريد الدخول في خصام آخر. ورفضت أنّا أن تفهم الفرق بين توظيف المال والعمل التعاوني. تماماً كما كانت ترفض الاعتقاد بأن مدفأة الحطب تعطي حرارة أكثر من مدفأتها الكهربائية الصغيرة. وقالت:

«كل مافي الأمر هو أن آل مورغان كانوا يملكون الثروة في مصرف والدهم في هافن وجديّ أبّل فلود كان شريكه. وجميع الناس كانوا يلقبونه بـ «بيغ دادي» ولكنّ اسمه الحقيقي، كان...».

«أعرف، أعرف. ريكتور. ريكتور مورغان المعروف أيضاً باسم «بيغ دادي». وهو ابن زكريا مورغان الذي لقّبه المسيحيون بـ «بيغ بابا». ثم ذكر لها عبارة طالما أحبّ مواطنو روبي تكرارها، وهي قولهم: «لقد أفلس مصرف ريكتور، ولكنّ ريكتور لم يفلس».

«هذا صحيح. اضطرّ المصرف لإيقاف نشاطاته - في بداية الأربعينات - ولكنه لم يغلق أبوابه بصورة نهائية. أعني أنهم كان لديهم ما يكفي من الأموال ولذلك استطاعوا استئناف العمل. أعرف ماذا تظن، ولكن للأمانة لا يمكن القول إنّ الأمور لم تنجح، فالناس جميعهم ينجحون هنا».

«جميع الناس ينجحون بفضل القروض يا أنّا. وليس الأمر سيّان».

«إذن؟»

«إذن ماذا لو توقفت القروض؟».

«لا يمكن أن يحصل ذلك. فنحن نملك المصرف، وليس المصرف هو الذي يملكنا».

«أوه، يا أنّا أنت لاتفهمين هذا الأمر، ولاتعرفين عنه شيئاً».

كانت تحب وجهه، حتى عندما يوبّخ أناساً تحبّهم مثل ستيوارد الذي يبدو أنه يحتقره، ولكنّ ستيوارد هو الذي أفهم أنّا درس العقرب. عندما كانت في الرابعة من عمرها كانت تجلس على سقيفة

دكان والدها الجديدة - عام 1954 - . كان الجميع منهمكين في البناء وجماعة من الرجال من بينهم ستيوارد تساعد إيس فلود في إنجاز مجموعة الرفوف. كانوا في الداخل يأخذون قسطاً من الراحة بعد غداء سريع، بينما أنا تلهو بتحويل بعض النملات عن طريقها على درجات السلم، وتضع العقبات على طريقها وتنتظر إليها وهي تتسلق جانب ورقة ثم تتابع سيرها كما لو أن جبلاً أخضر وجديداً تماماً قد أصبح عنصراً لا يمكن تجنبه في رحلتها. فجأة خرج عقرب بجانب قدمها الحافية، فاندفعت إلى الدكان جاحظة العينين. توقف الحديث، حاول الرجال معرفة سبب هذا الظهور الطفولي المفاجئ، ولكن ستيوارد هو الذي أخذها بين ذراعيه وسألها: «ما الذي يخيفك يا جميلتي؟» وأخذ يهدئ مخاوفها. ظلت أنا متشبثة به بينما أخذ يشرح لها أن العقرب إذا رفع ذنبه فذلك لأنه يخاف منها بقدر ماتخاف منه وليس لسبب آخر. وفي ديترويت عندما راحت ترى رجال الشرطة، ذوي الوجوه الطفولية، يحملون الأسلحة، كانت تتذكر ذنب العقرب المنتصب. وقد سألت ستيوارد مرة عن تأثير ولادة الشخص كتوأم لشخص آخر. فأجابها: «لأستطيع أن أقول شيئاً عن ذلك، لأنني لم يسبق لي أبداً أن كنت بمفردي، ولكني أعتقد أن التوأم يشعر أنه أكثر كمالاً.

فسألته أنا: «كما لو أنك لم تستطع أن تبقى وحيداً أبداً؟».

«حسناً، نعم، شيء من ذلك، بل وأكثر أيضاً... أكثر تفوقاً».

عندما مات والدها إيس، عادت إلى روبي وأخذت تستعد لبيع كل ماتملك أي، المخزن، المنزل، السيارة، لكي ترجع إلى ديترويت، عندما وصل القس الجديد لكنيسة كالفاري إلى المدينة، بمفرده، في سيارة فورد عتيقة.

صالبت أنا ذراعيها فوق مكتب الحسابات الخشبي: «إنني أملك هذا المخزن. لقد توفي والدي - وأصبح المخزن ملكي. ليس هناك إيجار ولا رهن. لاشيء سوى الضرائب والرسوم البلدية. أنا أشتري الأشياء وأنا أبيعها، وأنا أحدد الأسعار بنفسني».

«أنت محظوظة. ماذا عن المزارع؟ تصوري لو كان المحصول سيئاً. لنقل خلال سنتين متواليتين. فهل تستعيد العجوز، السيدة ساندز أو ناثان دوبريس حصتيهما؟ أو أنهما يقترضان عليها، أم يبيعانها إلى المصرف؟ أم ماذا يفعلان؟»

«لأدري ماذا يفعلان، ولكني أعرف أن المصرف لا يربح شيئاً فيما إذا فقداها. لأن أصحاب المصرف سوف يعطونهما حينئذٍ مزيداً من النقود لكي يشتريا بذاراً وسماداً وكل ما يحتاجانه.»

«تقصدين القول إنهم سوف «يقرضونهما» نقوداً.»

«أشعر بالأم في رأسي وأنا أصغي إليك. ربما كان هذا صحيحاً في المدينة التي أتيت منها، ولكن الأمر مختلف في روبي.»

«أمل ذلك.»

«إنه هكذا. وأياً كانت المشكلة، فإنها لا تتعلق بالنقود.»

«حسناً، بماذا تتعلق إذن؟»

«من الصعب معرفة ذلك، ولكني لأحب منظر ديك وهو يفتش الفرن. فهو يفتشه في كل يوم يرسله الله. ويكاد من يراه يقول إنه يصطاد، أكثر منه يفتش. ما هم سوى أولاد.»

«القبضة المرسومة على القرن أخافت الجميع.»

«ولماذا؟ ليست سوى صورة! وكان أحداً أحرق صليباً.»

وأخذت من غيظها تمسح الأشياء - الجرار وواجهات الإطار وصندوق تبريد الصودا - ثم أضافت: «كان عليه أن يتحدث إلى الآباء، لأن يطارد الأولاد كما لو أنه العمدة «الشريف». فالفتيان بحاجة لشيء آخر يختلف عما هو موجود هنا.»

لم يعد ميسنر يستطيع الموافقة على ما تقوله. فمنذ اغتيال مارتن لوتر كينغ أقسم الناس على احترام التزامات جديدة، وأدخلوا قوانين جديدة، ولكن الشيء الجوهرى ظل عبارة عن مظاهر تزيينية: تماثيل، أسماء شوارع، خطابات. كما لو أن أحدهم رهن شيئاً وأضاع الإيصال. وهذا مراح يبحث عنه ديستري وروي وليتل ميرث والآخرون. وربما ما يبحث عنه أيضاً من رسم القبضة.

وعلى أية حال، فإنهم إذا لم يجدوا الإيصال، ربما يدخلون عنوةً إلى الدكان التي تمنح قروضاً مقابل رهنٍ الأشياء. والسؤال هو: من كان أول من رهنه ولماذا؟

«لقد قلت لي إنك من أجل هذا سافرت - لاشيء لتفعله - ولكنك لم تقولي لي أبداً لماذا رجعت».

لم تكن حالة أنا تسمح لها بأن تشرح كل هذا، ولذلك، قررت أن أوضح له مايعرفه سابقاً: «نعم، حسناً، كنت أظنّ أنني ربما استطعت القيام بشيء في الشمال. شيء حقيقي لا يحطم قلبي. ولكن كل شيء كان... لا أدري... كلاماً وركضاً في كل مكان. لم أكن أعرف إلى أين وصلت في كل ذلك. ولكنني لست نادمة أبداً على سفري - حتى لو لم أوفق».

«حسناً، إنني مسرور، لأنك لم تُوفقي، أيّاً كان سبب ذلك». وأخذ يتحسّس يدها ويداعبها.

فبادلته أنا المداعبة قائلةً: «إنني قلقة بشأن بيلي ديليا. يجب أن نجد شيئاً نفعله ياريتشارد أكثر من مسابقات الجوقات، ودرّوس الكتاب المقدس ومسابقات أكبر الخضار حجماً في البساتين، ومسابقات الأطفال للاغتسال تحت الدوش...». «ماذا عنها؟».

«أوه، لا أدري. أتت إلى هنا منذ بعض الوقت، وأدركت في الحال أنها تفكر بأمر، ولكنّ شاحنة نقل البضاعة تأخرت، ولذا عاملتها بجفاف». «وماذا يعني ذلك؟».

«لقد سافرت، على الأقل هذا ما أعتقد، ولم يرها أحد بعد ذلك». «وماذا تقول أمها؟».

هزّت أنا كتفها: «من الصعب التحدث مع بات. لقد سألتها كيت عن بيلي ديليا - لم تكن قد رأتها أثناء تدريبات الجوقة. فهل تعلم ماذا فعلت؟ لقد أجابت عن سؤال كيت بسؤال آخر». وأخذت أنا تقلد

صوت بات بيست الناعم والبارد: «ولماذا تريدان معرفة ذلك؟» ومع ذلك، فهي وكيت قريبتان جداً من بعضهما.

«أتظنين أنها تبحث عن المتاعب؟ لايمكنها أن تختفي دون أن يعرف أحد إلى أين ذهبت».

«لأدري ماذا أظن».

«تحدثني في الأمر مع روجر لايد أنه يعرف، فهو جدّها».

«أسأله أنت، وليس أنا».

«قولي لي، لماذا لديكم جميعاً هذا الشعور تجاه روجر؟ هاقذ مضت ثلاث سنوات أو مايقارب ذلك وأنا هنا، دون أن أستطيع فهم سبب هذا السلوك البارد تجاهه. هل سبب ذلك هو عمله في إعداد مواكب دفن الموتى؟»

«محتمل. هذا إلى جانب أنه، أخيراً «أعدّ» ماتم زوجته بالذات ولأدري إذا كنت تفهم ماأعنيه».

«أوه!».

«إنّ هذا يبعث على التفكير، أليس كذلك؟».

«حتى الآن».

ظلاً صامتتين لحظةً، يفكران في هذه القضية، ثم دارت أنّا حول المكتب وذهبت لتقف قرب النافذة: «أتعلم، لقد كنت مصيباً بشأن الطقس. إنها المرة الثالثة التي لأصدقك فيها، وأكون أنا المخطئة».

لحق بها ميسزر. وبمجرّد ملامستهما لزجاج النافذة، استطاعا القول بأنّ درجة الحرارة قد هبطت فجأة تحت العشرين.

قالت ضاحكةً، وهي سعيدة أنها أخطأت إذا كان هذا يثبت أنّ الرجل الذي تعشقه على صواب: «هيا، أشعلها!» بعض النساء العاملات في الكنيسة كنّ يشتهجنّ الاهتمام الظاهر الذي يوليه لها وليس لأحدٍ سواها. وقد عرفت بات بيست كيف تكتم بمهارة إعجابها هي أيضاً به. ولكنّ أنّا كانت تظنّ أنّ هناك في هذه القضية شيئاً آخر غير المخططات التي راحت تضعها تلك النسوة، هنّ وبناتهن وبنات أخوتهنّ لأجل هذا الرجل الأنيق والذكي. كانت واثقة

أَنْ استهجانهن ناجم أساساً عن شعرها المجدد. يا إلهي، ماهو الشيء الذي لم تسمعه عندما عادت من ديترويت! التحقيقات الغريبة، البلدية والاستفزازية. انتابها إحساس بأنهن يتحدثن عن شعر عانتها، أو عن الشعر الذي تحت إبطيها. وأنها لو سارت في الشارع عارية تماماً لما تحدثن إلا عن شعرها. وقد أثار الموضوع من الانفعال وولّد من الآراء وحرك من مشاعر الغضب، أكثر مما أثارتة المومس التي أتى بها مينوس من فيرجينيا. وفي نهاية الأمر بدا من الممكن، دون شك، أن تسبّل شعرها من جديد - دون أن يكون ذلك تغييراً دائماً ولا تأكيداً - ولكن ذلك قد أوضح كثيراً من الأمور بالنسبة لها في ذلك الوقت الذي كانت تبدو لها فيه أمور كثيرة أخرى غامضة ومشوشة. وقد استطاعت على الفور أن تتبين من هن صديقاتها ومن لسن كذلك، وأن تعرف المهنذبات من غير المهنذبات، المتوعدات والخائفات. كانت دوفي مورغان تحب تسريحة شعرها، أما بات بيست فتركهاها. وكان ديك وستيوارد يهزّان رأسيهما. وكيت غولايتلي كانت تحب تسريحتها وتساعدها على العناية بها. وقد خصّها المحترم بوليام بخطبة كاملة عنه. أمّا «K.D.» فكانت تثير لديه الضحك. بينما أكثر الشبان يعجبون بها، فيما عدا آرنيت، وظلّت تعتقد على الدوام، أنّ شعرها، مثل عذّاد «جيجر»^(٥) يسجل هدوء أو شدة الاختلالات العميقة والصمّاء.

النار التي كانت تفوح منها رائحة زكية رائعة جذبت الهرة. فتجمعت كالكرة خلف المدفأة ولكنّ عينيها ظلّتا متيقظتين خوفاً من المعتدين - من البشر أو غيرهم.

قالت أنا وهي تنظر إلى الغيوم فوق كنيسة «هولي ريديمر»: «سأحضّر القهوة، قد يصبح الأمر جدياً».

إيس فلود. والد أنا كان يتمتع بإيمان يزحزح الجبال، ولذلك فقد بنى مخزنه لكي يدوم. وقد بناه بالحجارة الرملية، فصار أمتن

(٥) Hans Geiger هانس جيجر: (1882 - 1945) عالم فيزيائي ألماني، بعد أن قام بكثير من الأبحاث في الفيزياء النووية، ابتكر، هو و«ريتز فورد» سنة 1913، عذّاد الجزيئات والذرات، الذي يحمل اسمه، والذي يكشف ويعدّ الإشعاعات أيضاً.

من بعض الكنائس. فوقه أربع غرف لأسرته، وتحتة مستودع، غرفة صغيرة ومخزن واسع ارتفاعه خمسة عشر قدماً، محشو بالرفوف والصناديق والدلاء الخشبية والجوارير. أما النوافذ فهي نوافذ بيت عادي - لم يكن يريد العرض وليس بحاجة إليه، فلا ألواح زجاجية كبيرة مُدْعَمَة ومكلفة، إذ لا جدوى منها بالنسبة له: فليدخل الناس ليروا ماذا عنده. ليس لديه كثير من الأشياء، بل الكثير مما خزّنه. وقبل موته، شَهِدَ تَغْيِيرَ دَوْرٍ مخزنه. تحوّل من تقديم خدمة ضرورية في روبي إلى تجارة يدعمها زبائن مخلصون يحتاجون لبعض الأشياء، ولكنهم مع ذلك يتردّدون إزاء أسعارها ويصبح ذهابهم إلى دمبي بالشاحنة، أكثر تكراراً ليحصلوا على منتجات أرخص (ومن نوعية أفضل). إلا أنّ آتًا غيّرت كل هذا: فما لا تحتويه بقالية إيس بكميات، غُوّضَ عنه بالتنوع والأسلوب: كانت تقدّم القهوة عندما يكون الطقس بارداً، والشاي المثلج في الجو الحار. ووضعت كرسيّين ومنضدة أمام المحل للأشخاص المسنين ولمن يأتون من مزارعهم بالسيارة ويريدون أن يرتاحوا قليلاً. ولأنّ الكبار لم يعودوا يأتون في ذلك الحين إلى القرن الكائن على مسافة خطوتين من مخزنها - إلا في بعض المناسبات الخاصة - فقد تجاوزت مع ميول الشبان الذين يتواجدون هناك. أخذت تعرض فطائرهما والحلويات التي تصنعها بنفسها وتبيعهما مع الكثير مما كانت تشتريه من دمبي. كان لديها ثلاثة أنواع من ماء الصودا بدلاً من نوع واحد. أحياناً تبيع الفليفلة السوداء مثل «الصخرة الثامنة» التي تُزرع في الدير. ويوجد لديها في الثلاجة، على الدوام، كآببها، جبن وزبدة ولحم خنزير مملح، من الانتاج المحلي إضافة إلى المعلبات والفاصولياء اليابسة، القهوة، السكر، الشراب، ثاني كربونات الصودا، الطحين، الملح، الكاتشب، ومحارم الورق - أي كل ما لا يستطيع أو لا يريد الناس أن يصنعوه في بيوتهم - جميع هذه المواد أصبحت تملأ المكان الذي كان إيس فلود يضع فيه، سابقاً، الملابس وأحذية العمل والأدوات الصغيرة والكبوسين. أما الآن، فإن مخزن سارجنت للأغذية والبذار يبيع الأحذية والأدوات

والكبروسين، والمخزن الذي يملكه هاربر يبيع الإبر والخيطان والأدوية بموجب وصفة أو بدونها والمناشف والورق والدفاتر والتبغ، فيما عدا التبغ الخاص بالمضغ من نوع «بلوبوي». فقد استمر ستيوارد في شراء تبغه من مخزن إيس ولم يكن يرغب بتغيير عاداته.

وقد ازدهرت بقالية إيس بإدارة آنا بفضل المرونة والراحة التي أمّنتها للزبائن، وبفضل تنوع المواد. وباعتبارها سمحت لمينوس بقص الشعر في القسم الخلفي من المخزن، أيام السبت، فقد شجع هذا على الشراء. وبما أنّ لديها في الأسفل مغاسل عامة نظيفة ونظيفة، فقد كان الذين يستعملونها يجدون أنفسهم ملزمين بأن يصبحوا زبائن قبل أن ينصرفوا. المزارعات يأتين لشراء أقراص النعناع بعد حضورهن القداس في الكنيسة، والرجال يشترون أكياس الزبيب. وفي كل مرة يشترون شيئاً إضافياً عن الرفوف.

جَعَلَهَا استمتاعها بالنار التي أشعلها ريتشارد تبتسم. ولكن لم يكن ممكناً بالنسبة لها أن تصبح زوجة القس أبداً. هل هذا ممكن؟ حسناً، ولكنه لم يطلب يدها - أياً كانت سعادتها بحرارة المدفأة، بتأمل عنق ريتشارد من الخلف، وبوجود صغار الهررة التي لا تستطيع أن تراها.

بعد ذلك ببعض الوقت، ظهرت سيارة ستيشن وتوقفت قرب المخزن تماماً بحيث استطاع ميسيز وآنا أن يتبَيَّنَا الحمى في عيني الطفل الزرقاوين، كانت أمه تحمله على كتفها وتداعب شعره الأشقر. أمّا السائق، وهو رجل في الأربعين من العمر، بملايس تنم على أنه من سكان المدن، فقد نزل وفتح باب مخزن آنا. ابتسم وقال:

«كيف حالكم؟»

«بخير، وأنت؟»

«يبدو أنني تائه، ضللت الطريق. وقد أمضيت أكثر من ساعة وأنا أحاول العثور على الطريق رقم 18 الذي يتجه غرباً». ثم نظر إلى ميسيز وتبسم مرة أخرى ليعتذر عن كونه قد خالف إحدى قواعد

الرجولة التي تقضي بعدم السؤال مطلقاً عن الطريق: «المرأة أرادت مني أن أتوقف. فهي تقول إن صبرها قد نفذ».

فقال له ميسنر، بعد أن رأى لوحات ولاية أركنساس على السيارة: «إنه بعيد جداً عن الطريق الذي أتيت منه، ولكني أستطيع أن أدلك كيف يمكنك العثور عليه».

قال الرجل «شكراً، أشكرك كثيراً، لا أتوقع أن أجد طبيباً في هذه الجهات، أليس كذلك؟».

«لا، ليس في هذه النواحي. من أجل هذا عليك أن تذهب إلى دمبي».

«مُم يشكو الطفل؟» سألته آنًا.

«إنه يتقيأ، وحرارته مرتفعة أيضاً، لقد عملنا كل مايلزم، ولكن من يجلب معه دواءً للسعال أو حبوب أسبيرين عند القيام برحلة صغيرة كهذه؟ لا يمكن التفكير بكل هذه الأشياء اللعينة أليس كذلك؟ يا للمسيح!».

أخذت آنًا تحمق بعينيها عبر النافذة لكي ترى بشكل أفضل، ثم قالت: «وهل يسعل طفلك؟ لأعتقد أنه بحاجة لدواء ضد السعال، قل لزوجتك أن تأتي وتجلس هنا في الدفء».

قال ميسنر: «يوجد أقراص أسبيرين في مخزن الأدوية».

«لم أر أي مخزن أدوية، أين هو؟».

«لقد مررت أمامه، ولكنه لا يشبه مخزن الأدوية - بل يظنه المارة، بيتاً عادياً».

«كيف سأعثر عليه؟ يبدو أن البيوت هنا لا تحمل أرقاماً».

«قل لي ماذا تريد وسأذهب لأجله لك. وقل لزوجتك أن تحضر الطفل إلى الداخل». وتناول ميسنر معطفه.

«أحضر لي فقط بعض أقراص الأسبيرين، وشيئاً مضاداً للسعال. أشكرك. سأحضر المرأة».

عندما فتح الباب مرّ تيار جعل الفناجين تصطدم ببعضها

وترسل رنيئا. رجع الرجل إلى السيارة الستيشن. بينما ابتعد ميسنر بسيارته الفورد العتيقة. أمّا أنا ففكرت بتحضير فطيرة محمصة بالقرفة. لأنّ كعكة القرع لا بد أنها رَنَحَتْ الآن، ومن المفيد تماماً أن يكون لديها موزة ناضجة جداً - إذ أنّ الطفل يبدو مصاباً بالإمساك. وستهرس له الموزة مع قليل من مربى التفاح.

عاد الرجل وهو يهزّ رأسه: «سأترك المحرك يعمل وحسب. هي تقول إنها تفضل البقاء جالسة في السيارة».

هزّت أنا رأسها: «هل ما يزال أمامكم طريق طويل تقطعونونه؟».

«حتى «لوبيوك»، ولكن قولني لي، هل قهوتك ساخنة؟».

«أهاهه! كيف تحبّها؟».

«سوداء وحلوة».

لم يكّد يشرب منها جرعتين، حتى دوى صوت منبّه السيارة الستيشن، فقال: «اللعة! اعذريني». وعندما عاد، اشترى قليلاً من السوس، شيئاً من زبدة الفستق، والبسكويت، وثلاثة من «رويال كراون»، أخذها إلى زوجته ثم عاد لينهي قهوته التي شربها صامتاً ومتمهلاً، بينما راحت أنا تحرك الجمر في الموقد.

«يجدر بك أن تملأ خزان سيارتك بالوقود عندما تصل إلى الطريق رقم 18 . فالطقس ينذر بعاصفة ثلجية».

أخذ يضحك: «عاصفة ثلجية؟ في لوبيوك تكساس؟».

سألته أنا: «ألم تذهب بعد إلى تكساس؟» والتفتت نحو النافذة فرأت شخصين قادمين، ثم دفع ميسنر الباب بكتفه وبدخول ستوارد أطبق على عقيبه.

«هيا، إليك الأدوية!» قال ميسنر وهو يناول الزجاجات للرجل الذي تناولها وأسرع إلى سيارته الستيشن، ثم تبعه لكي يدلّه على الاتجاه الذي يجب عليه أن يسلكه.

سأل ستوارد: «من هم هؤلاء؟».

ناولته آنّا علبة تحوي 32 أونصة من تبغ المضغ ماركة «بلو بوي». وأجابته: «مجرد أناس تائهين».

«أناس تائهون، أم بيض تائهون؟».

«أوه، ستيوارد، أرجوك».

«الفرق كبير، يافتاتي آنّا، كبير، أليس صحيحاً أيها المحترم؟»
كان ميسز قد وصل لتوّه.

«إنّهم يضلّون الطريق كبقية الناس» قالت آنّا.

«لقد ولدوا ضالّين. وفتحوا العالم ومايزالون ضالّين، أليس صحيحاً أيها المحترم؟».

فقالت آنّا ضاحكة: «إنك لاتفعل شيئاً سوى التناقض مع نفسك».

«الله ليس له سوى شعب واحد ياستيوارد وأنت تعرف ذلك».

وفرك ميسز يديه ثم نفخ عليهما.

فقال ستيوارد: «أيها المحترم، لقد سمعتك تقول أموراً نتيجة الجهل، ولكنّ هذه هي المرة الأولى التي أسمعك فيها تقول أموراً مبنية على الجهل».

ابتسم ميسز وأخذ يستعد للإجابة، عندما عاد الرجل التائه ليدفع إلى القسّ ثمن الأدوية.

«العاصفة الثلجية تقترب». تأمل ستيوارد ملابس الرجل الخفيفة وحذاءه الرقيق. «ربما تريد اللجوء إلى مكان ما. هناك محطة لبيع المحروقات على الطريق رقم 18، لو كنت مكانك لتوقفت فيها دون أن أذهب إلى أبعد من ذلك في هذا الطقس المثلج».

«سأغلب عليها». أغلق الرجل محفظته، ثم أضاف: «سأملأ خزان سيارتي بالوقود من تلك المحطة على الطريق 18، ولكننا سنخطّي حدود الولاية اليوم. أشكركم. لقد ساعدتمونا جميعكم كثيراً، فشكراً لكم».

قال ستيوارد بعد أن ذهبت السيارة الستيشن: «إنهم لايصفون أبداً» ولأنه هو نفسه الذي كان هنا عام 1958 عندما نفقت قطعان

الماشية بكاملها بسبب شدة البرد، فقد عمل في ضخّ الماء، وسَمَر درفات نوافذه، وجمّع كمية احتياطية من العلف أدخلها إلى الحظائر منذ يوم الأربعاء. ثم ذهب إلى المدينة ليجلب تبغاً وشراباً ويصطحب دوفي.

سأله ميسنر: «قل لي ياستيوارد، هل رأيت حفيدة روجر، بيلي ديليا؟».

«لماذا عليّ أن أراها؟».

«آنا تقول إنّ أحداً لم يرها. نحن بالتأكيد لم نسأل أمها».

عندما سمع ستيوارد «نحن»، وضع على المكتب ورقة نقد مدعوكة من فئة خمسة دولارات. وقال متأملاً: «لن تحصل على شيء هناك». وقال وهو يفكر: ولكن ذهابها ليس خسارة كبيرة. وهذا أمر حسن بالنسبة لـ بات إنها تحشر أنفها دوماً في أمور الآخرين، ولكنها تنطوي على نفسها عندما يقترب أحد من شؤونها. «هذا يذكرني أنّ ديك قال لي بأنه رأى سويتي صباح هذا اليوم - كانت تسير على الطريق، دون معطف ولا شيء».

«سويتي؟ خارج البيت؟» كانت نبرات صوت آنا تدل على أنها لم تصدق شيئاً مما سمعته.

سأله ميسنر: «على أي طريق؟».

«ليست سويتي».

«ديك أقسم أنها هي».

فقال ميسنر: «لابدّ أنّ هذا صحيح، فقد رأيتها أنا أيضاً. أمام باب منزلي بالضبط. وظننتها تهتمّ بقرع الباب ولكنها استدارت واتجهت نحو الشارع المركزي فاعتقدت أنها عادت إلى البيت».

«لم تفعل، لقد قال ديك إنه رآها بعد مخزن سارجنت مغادرة المدينة وتسير كالجند».

«ألم يوقفها؟».

أخذ ستيوارد ينظر إلى آنا كأنه لا يستطيع تصديق ماقلته. وأجابها: «كان يفتح أبواب المصرف أيتها الفتاة».

قَلْبُ ميسِر حاجبيه. فقاطعته أَنَا مسبقاً، لأنه ربما كان ينوي الكلام: «هل تريدان قليلاً من القهوة؟ أو بالأحرى بعض الكعك بالقرع؟».

وافق الرجلان.

«من المستحسن أن يتحدث أحدهم إلى جف.» كان هذا صوت أَنَا ولكنَّ الثلاثة حولوا أنظارهم نحو الجدار المغطى بالرفوف الذي يوجد خلفه مخزن فليتوود لبيع الأثاث والأدوات المنزلية.

رغم التنبؤات - حسب تحديقة ريتشارد ميسِر واحتياطات ستوارد - أضاعت لوحة ألوان مائية جانباً صغيراً من السماء: باللون البرتقالي الدراقي، بأخضر النعناع، بأزرق الشواطئ. وظلَّت بقية السماء بلونها الرمادي الفضي، لاتفعل شيئاً سوى إبراز بريق الثغرة في كتاب صُور الشمس. دام ذلك زهاء ساعة كاملة وقد تأثر بهذا المنظر جميع الذين شاهدوه. ثم اختفى ذلك وتصلبت السماء الرصاصية تحت عصف الرياح الشديدة. وعند الظهيرة أخذت تتطاير أول نُدف الثلج، ثم تساقطت كرات صغيرة وأخزة، خشنة الملمس، محدثة صوتاً جافاً، دون أن تذوب في الهواء. الدفعة الثانية من الثلج، بعد ذلك بساعتين، لم يسمع لها أي صوت. فقد انتشرت بصمت وغطت كلَّ شيء.

قالت سويتي: «سأعود في الحال يا آنسة مايل. لن أتغيَّب سوى دقيقة.»

هذا ما أرادت قوله. ربما قالت. على أي حال تبادر إلى ذهنها أن تقوله. ولكن كان عليها أن تسرع قبل أن يقرر أحدهم.

عند المدخل سارت سويتي بخطى هادئة في الممشى، كما لو أنها ذاهبة إلى مكان هام. أو أن عليها أن تقوم بعمل لن يستغرق سوى بضعة دقائق ثم تعود في الحال. وستعود في الوقت المناسب لتدليك الردفين الصغيرين من أجل تلافى القروح، أو إزالة البلغم أو

هرس بعض المأكولات أو تنظيف الأسنان أو قص الأظافر أو غسل الملابس الداخلية الملوثة بالبول أو لتَهَرَّ أحدهم بين ذراعيها أو تغني له، ولكي تُراقِب في معظم الوقت. ألا تحوّل نظرها أبداً، إلا إذا كانت حماتها موجودة هناك، لكي تراقب أيضاً، لأنَّ عيني الأنسة مابل لم تعودا حادثتين كما في السابق. وقد عرض بعضهم تقديم المساعدة، حصل هذا غالباً في البداية، والآن بصورة غير منتظمة، ولكنها ظلت ترفض ذلك على الدوام. فلا أحد يستطيع القيام بالمراقبة مثل سويتي، تأتي بعدها حماتها. آرنيت كانت لابأس بها، ولكنها لم تعد كذلك الآن. إذ أن جف وحما سويتي لا يريدان الرؤية، فضلاً عن المراقبة.

لم تكن المراقبة مشكلة على الإطلاق وهي مستيقظة، ولكنها تصبح مشكلة عندما تنام. فهي منذ ست سنوات تنام على فراش من القش بجانب المهود، أو في السرير مع جف وتحبس أنفاسها، تشنّف أنفيها وكل عضلة من عضلاتها تستعد للقفز. كانت تعرف أنها تنام، لأنها تحلم قليلاً، وإن كانت لاتستطيع أن تتذكّر بماذا. وقد أخذت تتزايد صعوبة المراقبة والنوم في وقت واحد.

عندما طلع الصباح ودخلت مابل إلى الغرفة المعتمة ومعها فنجان قهوة، نهضت سويتي لتتناوله. كانت تعرف أن مابل قد هيأت لها الحماط وطوت لها منشفة وقميص نوم نظيفين وضعتهما على الكرسي في الغرفة. وتعرف أنها ستعرض عليها تصفيف شعرها - تضفره، تغسله، ترفعه، أو أن تفرك لها فروة رأسها وحسب. القهوة رائحة، كثيفة وشديدة الحلاوة. ولكنها تعرف أيضاً أنها إذا شربتها هذه المرة فقط وأوت إلى السرير عند شروق الشمس صباحاً هذه المرة فقط فإنها لن تستيقظ بعد ذلك أبداً، وفي هذه الحالة، من الذي سيقوم بمراقبة الأطفال والسهر عليهم؟

لذلك تناولت القهوة وقالت، أو أرادت أن تقول: «عودي بعد دقيقة يا آنسة مابل».

عندما نزلت إلى الطابق السفلي وضعت الفنجان وصحنه على

المنضدة، ثم دون أن تغتسل ويلا معطف ودون أن تسرح شعرها، فتحت الباب الخارجي وذهبت بسرعة كبيرة.

فكرت بأن تمشي إلى أن تنهار أو يغمى عليها أو تتجمد من البرد فتنزلق في العدم لبعض الوقت. والأمر البسيط الذي كانت تريده هو ألا تحصل على تلك القهوة الصباحية وذلك الحماز الجاهز وقميص النوم المطوي والرقاد المتيقظ، في هذا الترتيب إلى الأبد، كل يوم وبشكل خاص هذا اليوم بالتحديد. وأخذت تفكر بأن الطريقة الوحيدة لتغيير النظام ليست القيام بأمر ما بصورة مختلفة، ولكن القيام بعمل مختلف. وبدا لها احتمال وحيد - مغادرة منزلها والسير في شارع لم تطأ أرضه منذ ست سنوات.

سارت سويتي في الشارع المركزي حتى نهايته - اجتازت الشوارع التي تحمل أسماء القديسين الانجيليين، ومرت أمام كنيسة «صهيون الجديدة»، مخزن أدوية هاربر، المصرف، وكنيسة كالقاري. ثم تحولت إلى شارع امتداد سان بيتر، وغادرته لتمر من أمام مخزن سارجنت لبيع الأغذية والبذار. وفي شمال روبي حيث تغيرت طبيعة الطريق مرتين بدت ساقاها قويتين. وكذلك بشرتها، لأنها لم تشعر بالبرد. مع أن الهواء النقي في الخارج، والذي لم تكن معتادة عليه راح يؤلم منخريها، فرفعت وجهها لكي تتحمله. ولم تكن تعرف أنها تبسم، فضلاً عن الفتاة التي أخذت تنظر إليها من مؤخرة شاحنة بيك آب، جديدة لامعة طراز 73. ظننت الفتاة أن سويتي تبكي، فحطم قلبها من جديد منظر امرأة سوداء تجهش بالبكاء وهي تسير على طريق ريفي.

أخذت تخالس النظر إلى سويتي بانتباه شديد من مخبئها بين الصناديق. وشاحنة الفورد التي كانت تتجه نحو الجنوب أبطأت في سيرها عند مرورها ب سويتي، ثم توقفت. في غرفة القيادة تبادل السائق وزوجته النظرات. أخرج الرجل رأسه من النافذة والتفت إلى الوراء، وصاح بأعلى صوته: «هل أنت بحاجة للمساعدة؟».

لم تلتفت سويتي وتجاهلت العرض. فنظر الرجل والمرأة، أحدهما إلى الآخر من جديد، ومضتا أسنانهما عندما ركب الزوج

السرعة الأولى. ولحسن الحظ أن الطريق ينحدر في ذلك الموضع وإلا لكانت تلك الفتاة التي تحطم قلبها أصيبت ببعض الجروح عندما قفزت من الشاحنة. ورأى الزوجان في مرآة السيارة العاكسة مسافرةً يجهلان هويتهما، تلحق مسرعةً بالمخلوقة المسكينة التي تستدعي الشفقة وغير المهذبة التي حتى لم تقل: «لا، شكرًا».

عندما أدركت الفتاة ذات القلب المحطم، المرأة، كانت تعلم أنها لا ينبغي لها أن تلمس أو تحاول الدخول في تلك الفقاعة العنيدة التي تحولت إليها هذه المرأة التي تبكي. فمشيت على بعد زهاء عشر خطوات أو أكثر خلفها وأخذت تتأمل عقبيها الجميلين الذاكرين فوق حذائهما الأبيض البالي، وفستانها الأزرق الشاحب الذي تزيّنه طيات عند الخصر وجيوب كبيرة متدلّية. وشعر المرأة النائمة - أملس من إحدى الجهات ومشعث من الجهة الأخرى. ومن وقت إلى آخر ظلت تبدر منها تنهيدة تشبه القهقهة.

سارتا هكذا لأكثر من ميل. المرأة التي تمشي كانت متجهة إلى مكان ما. والمسافرة بالأتوستوب لا تنتجه إلى أي مكان: الطيف وظله.

كان الصباح بارداً غائماً. والريح تنساب بين الحشائش الطويلة على جانبي الطريق.

قبل ذلك بخمسة عشر عاماً، عندما لم تكن فتاة الأوتوستوب ذات القلب المحطم قد تجاوزت الخامسة من عمرها، أمضت أربع ليالٍ وخمسة أيام وهي تقرر جميع الأبواب في البناء الذي تقيم فيه: «هل أختي هنا؟».

قال بعضهم: لا، وقال آخرون: من؟ والبعض الآخر: ماهو اسمك يا صغيرتي؟ ومعظمهم لم يفتحوا أبوابهم عام 1958، حين كان الطفل يستطيع اللعب في المساكن الحكومية الجديدة بكل أمان.

في اليومين الأوليين، بعد أن قامت بجولة في الطوابق، صاعدة من طابق إلى آخر، حريصة على أن تقرر كل الأبواب، أخذت تنتظر: أختها جين ستعود بعد قليل، لأنّ طعام العشاء على المائدة - رغيف اللحم، فاصولياء خضراء، كاتشب وخبز أبيض - وفي البراد يوجد

إناء مملوء بعصير الليمون. انشغلت ببعض كتب التلوين، بمجموعة من ورق اللعب وبدمية على شكل طفل يتبول. شربت الحليب وأكلت بعض رقائق البطاطا والبسكويت المملح ومرّبت التفاح، ثم أكلت شيئاً فشيئاً كل رغيف اللحم. وكانت الفاصولياء المقدّدة هي كل ما بقي من الغداء، إذ كانت من العفونة والذبول بحيث لا تحتمل.

في اليوم الثالث بدأت تفهم لماذا ذهبت جين وكيف يمكن إرجاعها. غسلت أسنانها وأذنيها بعناية. وشدت السيوفون في كل مرة ذهبت فيها إلى دورة المياه وطوت جوربيها ووضعتها في حذاءها. أمضت وقتاً طويلاً في مسح عصير الليمون وجمع قطع الزجاج التي تبعثرت من الإناء الذي انكسر في البراد عندما حاولت رفعه. ثم تذكرت أنه يوجد رزمة «لورنا دونز» في علبة الخبز، ولكنها لم تجرؤ على الصعود على كرسي لكي تفتحها. وأخذت تصلي راجية أن تتحقق أميبتها: إذا قامت بكل شيء كما ينبغي ودون أن يطلب منها ذلك فإن جين سوف تحضر أو أنها ستحضر عندما تقرر أبواب الشقق! وبانتظار ذلك ستبتسم وتبسط لها ذراعها.

أمضت ليالٍ مرعبة.

وفي اليوم الرابع، بعد أن غسلت أسنانها اللبنية الثماني عشرة، حتى احمرّت الفرشاة من الدم، أخذت تنظر عبر النافذة إلى الناس الذاهبين إلى العمل، وإلى الأطفال الذاهبين إلى المدارس تحت وابل من المطر الدافئ. خلال وقت طويل لم يمر أحد. ثم مرّت امرأة عجوز وضعت على رأسها سترة رجل كي تقيها من المطر الناعم. ثم رأت رجلاً يقذف حبوباً على أماكن قُلعت أعشابها. ثم مرّت أمام النافذة امرأة طويلة دون معطف ولا تضع شيئاً على رأسها، جفّت عينيها بساعدها وبباطن يدها. كانت تبكي.

فيما بعد، في اليوم السادس، عندما أتت المشرفة الاجتماعية، فكرت بالمرأة الباكية التي لم تكن تشبه جين أبداً - حتى أنها لم تكن من اللون نفسه. ولكن قبل ذلك، في اليوم الخامس، وجدت - أو بالأحرى رأت - شيئاً موجوداً هناك منذ زمن طويل. فبعد أن وهنت عزيمتها لأنّ صلواتها لم تُستجب، وبسبب لئلتها الدامية وبطنها الذي

يتصور جوعاً، تخلّت عن السلوك الحسن، وصعدت على كرسي ثم فتحت علبة الخبز، كان فيها مغلف ملقى على رزمة الـ «لورنادونز» عليه كلمة عرفتھا في الحال: اسمھا مكتوب بأحمر الشفاه. فتحتھا، حتى قبل أن تهجم على علبة الحلويات، وأخرجت منه الورقة الوحيدة التي كتبت عليها كلمات أخرى بأحمر الشفاه أيضاً. لم تفهم أيّاً منها سوى اسمھا الموجود أيضاً في أعلى الورقة، و«جين» في أسفلھا، وبين الإسمين علامات حمراء صارخة.

شعرت بسعادة غامرة، وأعادت الرسالة إلى المغلف ثم دسّتها في حذاءها حيث احتفظت بها طيلة حياتها، فقد خبأتها هناك، وناضلت في سبيل حقها في إيقائها هناك ثم استعادتها من سلال المهملات. وكان عليها أن تنتظر حتى تبلغ السادسة من العمر، وتصبح تلميذة مجتهدة في المدرسة الابتدائية، قبل أن تستطيع قراءة كل ماكتب في تلك الرسالة، التي أصبحت بمرور الزمن مجرد قطعة من الورق ملطخة بالأحمر الناري، دون أن تبقى عليها كلمة واحدة يمكن قراءتها. ولكن تلك الرسالة المخبأة في حذاءها هي التي جعلتها تذهب برفقة المشرفة الاجتماعية إلى إحدى المربيتين المتاحتين لتبنيها. وقد فكرت في تلك اللحظة، بإيجاز، بالمرأة التي تبكي، وبشكل أكثر لاحقاً، حتى أصبح منظر تلك المرأة حلماً يحطم قلبها.

الرياح التي تهزّ الحشائش أصبحت الآن محملة بالثلج المتناثر، الرملي، القاسي والواخز كالزجاج. توقّفت المسافرة بالأوتوستوب وسحبت غطاءً من حقيبتها ثم ركضت لتلحق بالمرأة التي كانت تمشي أمامها، ووضعت الغطاء على كتفها.

حرّكت سويتي يديها إلى أن أدركت أن هناك من وضع لها شيئاً يدفعها، وأنّ لأحد يمنعها من متابعة السير. ولم تتوقف خطوة واحدة عن السير عندما وُضع الغطاء الصوفي على كتفها. تابعت سيرها وهي ترسل ضحكات خافتة، مكتومة - لعلها كانت نحيباً؟

تذكّرت المسافرة بالأوتوستوب أنها مرّت، قبل أقلّ من نصف ساعة، أمام منزل كبير، عندما كانت مخبئة بين الصناديق.

والمسافة التي تستغرق عشرين دقيقة بالشاحنة يحتاج اجتيازها سيراً على الأقدام لبضعة ساعات، ولكنها تظنّ أنهما لابدّ ستمكنا من الوصول إليه قبل حلول الظلام. إن إحدى المشكلات هي البرد، والمشكلة الثانية تكمن في إيجاد وسيلة تجعل المرأة تكفّ عن البكاء، ترتاح، وتقبل باللجوء إلى المنزل عندما تصلان إليه. عيناك كذلك العينين لم تكونا غير مألوفتين. ففي المشافي مثل هذه العيون تعود للمرضى الذين يسرون طيلة الليل والنهار، على الطرق، بكل حرية، والناس ممن لهم عيون كهذه يمشون إلى الأبد. قررت المسافرة بالأوتوستوب تمضية الوقت وهي تتكلم وبدأت بالتعريف بنفسها.

سمعت سويتي ماقالته وللمرة الأولى منذ خروجها من البيت، تعثرت وهي تلتفت بوجهها الياسم - أو الباكي - نحو هذه الرفيقة التي لم تدعها لمرافقتها. ففكرت: إنها الخطيئة، أنا أسير بجانب الخطيئة. متدثرة بغطائها تمتمت: «ارحميني» وأرسلت ضحكة خفيفة - لعلها نشيج.

عندما لمحتا الدير كانت سويتي تشعر بالدفع، وإن لم تشعر بالبرد القارس الذي كان يكنس الطريق، فقد قوى من عزيمتها الثلج الدافئ الذي يغطي شعرها ويملاً حذاءها. كانت تشعر بالعرفان لكونها محمية بشكل واضح، ومنفصلة عن شكل الخطيئة الذي يسير بجانبها. وكان دليل حالة الرحمة التي تنعم بها سويتي هو العنف الذي يلفح به الثلج الدافئ ذلك الشكل، ويجعله يصمت ويتجمد، ويرغمه على اللهاث بصعوبة بحيث لا يكاد يستطيع اللحاق بها، هي، سويتي التي كانت تمشي دون أن تحني رأسها عبر الرياح اللاذعة. من تلقاء نفسها صعدت سويتي الممشى، ولكنها تركت الشيطان يكمل الباقي.

المرأة التي فتحت الباب على مصراعيه، قالت: «أوه» وجذبت الاثنين إلى الداخل.

رأت سويتي أنهما تشبهان الطيور: الصقور. وقد أخذت تنقرها وترف بأجنحتها. فتصعب جسمها عرقاً. ولو أنها كانت أقوى مما

هي عليه، وغير متعبة من سهر الليالي بسبب مراقبة الأطفال والاعتناء بهم، لدفعتها عنها، ولكنها، فيما عدا الصلاة، لم تكن تستطيع أن تفعل شيئاً. وضعتها في سرير تحت عدد كبير من الأغشية لدرجة أن قطرات العرق أخذت تتصبب في أذنيها. لم تشرب ولم تاكل شيئاً مما قدمته لها. فقد أطيقت شفتيها وكزت على أسنانها. بصمت وحماسة أخذت تصلي من أجل خلاصها، وهل تصدقون أنها حصلت على ما أرضاها: فقد تركتها وحدها في الغرفة الهادئة، فأخذت سويتي تشكر ربها، ثم استغرقت في نوم عميق ومضطرب. كان صراخ الطفل هو الذي أيقظها وليس الارتعاشات التي انتابتها. ورغم ضعفها نهضت، أو حاولت أن تفعل ذلك، بدا حلقها جافاً ورأسها يؤلمها. ولاحظت أنها لم تكن في سرير بل على أريكة جلدية في غرفة مظلمة. أخذت أسنانها تصطك عندما دخل أحد الصقور، فمه أحمر كالدم، يحمل مصباح كيروسين. تكلم معها بأعذب صوت، على طريقة الشيطان، ولكن سويتي استعانت بمخلصها، فانصرف الصقر. وفي مكان ما من البيت كان الطفل مستمراً في البكاء، وهو ما كان يملأ سويتي طرباً - فهي لم يسيق لها أبداً أن سمعت أطفالها يكون هكذا. ولم تسمع مطلقاً هذا النداء التواقي الواضح والمستمر والموزون، فهو يشبه نشيداً أو أغنية مهد أو أسطر محكمة من الوصايا العشر. جميع أطفالها كانوا صموتين. وفجأة وهي في غمرة الفرح، انتابها غضب شديد: الأطفال سيكون هنا بين هؤلاء الشياطين وليس في منزلها؟

عندما عاد اثنان من الصقور، يحمل أحدهما صينية عليها وجبة طعام، سألتها: «لماذا يبكي ذلك الطفل؟».

نفثا بالطبع، وكذبتا، مع أن صوت البكاء كان يصل حتى الغرفة. بل إن إحدهما حاولت صرف انتباهها عن ذلك قائلة:

«لقد سمعت أطفالاً يضحكون ويغنون أحياناً ولا يكون أبداً». راحت الأخرى تقهقه.

بذلت سويتي جهداً كبيراً لكي تجعل صوتها عالياً: «دعوني أخرج، يجب أن أعود إلى بيتي».

«سوف أصطحبك إلى هناك. حالما تحمي السيارة». قيل لها ذلك بالتبرات الشيطانية الماكرة.

فقالت سويتي: «الآن!».

«تناولي قرصاً من الأسبيرين وكلي شيئاً من هذا».

«دعوني أخرج من هنا حالاً».

قالت إحداهما: «يالها من عاهرة!».

فقالت الأخرى: «إنها الحمى وحسب، هلاً أغلقت فمك؟ ألا تستطيعين».

إنه الصبر ورفضها سماع أي صوت، عدا تأنيب ربها لها، هو الذي سمح لها بالخروج من هناك. في بداية الأمر داخل سيارة حمراء صدئة علقت دواليبها في الثلج في بداية الممشى، وأخيراً، ليكن مباركاً اسمه القدوس، هاهي بين ذراعي زوجها.

رافقتها آنّا فلود. كانا في طريقهما لحظة دعت ربها. وألقت سويتي نفسها تماماً بين ذراعي جف.

«ماذا تفعلين هناك؟ لم نستطع السفر طيلة الليل أين عقلك. يا إلهي! أيتها الفتاة، يا حبيبتي ماذا حدث؟»

صرخت سويتي: «لقد سرقنني، اختطفنني. آه، يا إلهي، خذني إلى البيت. إني مريضة، يا آنّا، يجب أن أعتني بالأطفال».

«صه. لا تقلقي حول ذلك».

«إني قلقة، قلقة».

«ستسير الأمور الآن على مايرام. آرنيت عائدة إلى البيت».

«شغلي جهاز التدفئة. أشعر ببرد شديد، لماذا أنا بردانة إلى هذه الدرجة؟».

حدقت سينيكاً بالسقف. فراش السرير الصغير بدا رقيقاً وقاسياً. والغطاء الصوفي يحكُ ثَقْنَهَا، وهي تشعر بالَم في كفيها

لكونها جرفت الثلج من الممشى. فقد سبق لها أن نامت في أرياض البيوت على قطع من الورق المقوى، على فرش مملوءة بالماء، تُسبب الكوابيس لمن يرقد عليها، كما نامت طيلة أسابيع عديدة على المقعد الخلفي في سيارة أيدي. ولكنها لم تستطع النوم على هذا السرير الولادي، التنظيف والضيق.

تقلبت المرأة الباكية طيلة الليل وفي صباح اليوم التالي أيضاً. وأمضت سينيكاً الليل بطوله واقفة تصغي إلى مافيس وجيجي. وبدأ البيت كأنه يخصهما حتى وإن راحتا تتحدثان عن شخص يدعى: كوني. كانتا تطبخان لها الطعام دون أن تتطفلاً عليها بشيء. وعلاوة على النقاش حول اسمها - من أين أتت به؟ - كانتا تتصرفان كما لو أنهما تعرفان كل شيء يتعلق بها وهما سعيدتان لبقائها هناك، وفيما بعد، أي بعد الظهيرة، حينما ظنت أنها تكاد تسقط من الإعياء، اقتادتاها إلى غرفة فيها سريران صغيران. قالت لها مافيس: «ارقدي قليلاً، وخذي قسطاً من الراحة، سأناديك عندما يصبح العشاء جاهزاً. هل تحبين الفروج المقلي؟» ظنّت سينيكاً أنها ستتيقناً.

لم تكن إحداهما تحب الأخرى على الإطلاق، ولذلك تُظهر سينيكاً للثنتين الابتسامة نفسها والمودة نفسها. وإذا شتمت إحداهما الأخرى وسخرت علناً منها، فإن سينيكاً تضحك. وإذا تحرك الأخرى عينيها اشمئزاً، فإن سينيكاً تحدجها بنظرة متفهمة. فهي صانعة السلام دائماً، تلك التي تقول نعم أو لا أمانع أو سأذهب. وإلا - ماذا؟ وإلا فإنهما ربما لن تحباها. ربما تكيان. ربما تغادران. لقد عملت كل ماوسعها كي تجلب السرور حتى وإن صار الكتاب المقدس أثقل من حذاءيها. وكجميع الذين يبدؤون الهجوم، كان يريدان كليهما في الحال. لم تشعر سينيكاً بأية مشكلة بسبب حذاء أديداس قياس 11. ولكن في بريستون بولاية إنديانا لم يكن يوجد أية بائعة كتب سواء دينية أو غيرها. فقامت بجولة حتى «بلومغتون» ووجدت مايسمى «الكتاب المقدس الحي» وآخر مزيناً بصور ملونة، وفيه أيضاً عدة صفحات بيضاء ومسطرة كي تُسجل عليها تواريخ

الولادات، الوفيات، واقعات الزواج، ومناسبات تعميد الأطفال، وبدا شيئاً رائعاً - جدول نشاطات العائلات بكاملها خلال سنوات - ولذلك فقد اختارت هذه. وقد غضب عند ذلك، بالطبع، لدرجة أن السرور الذي شعر به عند حصوله على الحذاء الغريب ذي اللونين الأسود والأبيض تبدد:

«ألا تستطيعين أن تشتري شيئاً لائقاً؟ مجرد كتاب مقدس صغير. وليس موسوعة يلعنها الله».

لقد أقر بأنه مذنب ولم تكن تعرفه سوى منذ ستة أشهر، بينما هو يعرف من قبل إلى أية درجة كانت يائسة. مع ذلك، فقد قبل الكتاب المقدس الضخم ووافق أن تتركه هو والحذاء على المقعد وأن تكتب عليهما اسمه ورقمه. وقد أرغما على كتابتهما كما لو كانت عاجزة عن أن تتذكر خمسة أرقام متتالية. كانت قد جلبت أيضاً بعض سندويشات من لحم الخنزير (لأنه قال في رسالته، إن من الممكن أن يقوما بما يشبه غداء النزهة في بهو الزيارة) ولكنه كان أكثر عصبية وحنقاً من أن يستطيع الأكل.

بدا الزوار الآخرين وكأنهم يقضون وقتاً طيباً مع سجنائهم. والأولاد أخذ واحد منهم يغيظ الآخر، يتقلبون بين آبائهم يداعبون وجوههم وشعرهم وأصابعهم. أما النساء والفتيات فقد أخذن يلمسن الرجال ويتوششن فيما بينهن ويقهقهن بالضحك. فقد كنّ معتادات على ذلك - وقد ألفن سائقي الباصات والحراس وموظفي الشاحنة التي تباع القهوة. بدا السرور في أعين السجناء وعلى محياهم. فقد كانوا يلاحظون كل شيء ويعلقون على كل شيء: بطاقات التقرير التي يجلبها لهم الأولاد الصغار في مغلقات كبيرة بنية اللون، المشابك في شعر الفتيات الصغيرات، حالة معاطف النساء. يصغون بانتباه شديد للتفاصيل المتعلقة ببعض الأصدقاء والأقارب غير الموجودين هناك. ويعطون النصائح والتعليمات بشأن أبسط الأخبار المنزلية. راحت سينيكا ترى أنهم يتمتعون برجولة هائلة - وكأنهم زعماء يقومون بزيارة تفقدية. فهم يدلون

الناس إلى الأماكن التي يجب أن يجلسوا فيها، وإلى الحاوية التي يجب أن يلقوا فيها أوراق الرزم، ويقدمون الاستشارة الطبية، ويشيرون إلى الكتب التي يجب إرسالها. لا يتكلمون أبداً عما يحدث في الداخل، ويتجاهلون وجود الحراس. فربما كانت أتيكا في أذهانهم.

فكرت حالما انتهت جملة، أن أيدي لا بد أن يكون كذلك، فلم يكن خائفاً ولا ضحية، كما كان في الزيارة الأولى عندما اتهم. فقد أخذ ين، ويلوم. فالكتاب المقدس ضخم جداً لدرجة أنه يزعجه. الخردل بدلاً من المايونيز في السندويشات. ولا يريد أن يسمع شيئاً عن عملها الجديد في كافيتيريا إحدى المدارس. فهو يهتم بـ صوفي وبرنارد فقط: ماذا يأكلان؟ هل تتركهما يخرجان ليلاً؟ كانا بحاجة لأن يركضا فترة طويلة من الوقت. وألا تضع لهما خطاميهما إلا خارج المنزل.

تركت أيدي تورتل في بهو الزيارة ووعده بـ أربعة أمور: أن ترسل له صور الكلبين. أن تباع جهاز الستيريو وأن تحصل على وعدٍ من أمه بأن تقبض نقود دفتر التوفير. وأن تستدعي المحامي: ترسل، تباع، تحصل على، تستدعي: هكذا، هي تتذكر كل ذلك، ولن تنسى شيئاً.

وعند توجهها نحو موقف الباص، تعثرت سينيكا وسقطت على ركبتيها. فأتى أحد الحراس لمساعدتها على النهوض:

«انتبهي أيتها الأنسة!».

«آسفة. شكراً».

«لأدري كيف تستطعن أنتن الفتيات، المشي بهذه الأشياء».

فاجابته باسمه: «المفروض أن تعجبكم».

ضحك ضحكة لطيفة كشفت عن صفين من حشوات الأسنان الذهبية، وقال: «أين؟ في هولندا؟».

أعادت سينيكا حقيبتها إلى مكانها، وسألتها: «كم تبعد ويشيتا من هنا؟».

«هذا يتوقف على واسطة النقل التي تستخدمينها. ففي السيارة، هذا يستغرق... أوه... عشر، إلى اثنتي عشرة ساعة. في الباص، الرحلة تستغرق وقتاً أطول».

«أوه!».

«ألك عائلة في ويشيتا؟».

«نعم، لا. إنه البوي فرند، أريد زيارة أمه».

رفع الحارس قبعته ومرّ بيده على شعره القصير وقال: «حسناً، يوجد في ويشيتا شواء طيب جداً، حاولي أن تأكلي منه».

في مكان ما من ويشيتا، لابد أنه يوجد شواء طيب ولذيذ جداً، ولكن ليس لدى السيدة تورتل. إذ أنّ بيتها يتّبع نظام التغذية النباتية حصراً: فلا يظهر شيء ممّا له حافر، ريش، قشر أو قواقع، على مائدتها. سبعة أنواع من الخضار وسبعة من الحبوب - تاكلين واحداً من كل نوع (واحداً فقط) كل يوم وتعيشين إلى الأبد. هذا ما خططت للقيام به، ولم يكن وارداً أن تمسّ نفوذ التوفير التي تركها لها زوجها من أجل أيّ كان، فما بالك بشخص دهس طفلاً، بسيارته وتركه في مكانه، حتى ولو كان هذا الشخص ابنها الوحيد.

«أوه، لا، ياسيدة تورتل لم يكن يعرف أنه طفل. لقد ظنّ ايدي أنه ... أنه...».

سألتها السيدة تورتل: «أنه ماذا؟ ماذا ظنّ أنه كان؟».

«نسيت ماذا قال لي، ولكنني أعرف أنه ماكان ليفعل ذلك، إذ أنّ ايدي يعشق الأطفال. هو يعشقهم حقاً، إنه بالحقيقة لطيف جداً، وقد طلب مني أن أحضر له الكتاب المقدس».

«لقد باعه الآن».

التفتت سينيكا إلى جهة أخرى: شاشة التلفزيون تتلأل، وقد ظهر عليها رجال رصينو المحيّا يتبادلون الكذب بنعومة فيما بينهم.

«أيتها الفتاة الصغيرة، لقد عرفته لأقل من فصل واحد في السنة، أما أنا فقد عرفته طيلة حياته».

«نعم، ياسيدتي».

«هل تعتقدين أنني سأدعه يضعني في مأوى الفقراء لكي يَفْتَنِي محامٍ ماكر؟».

«لا، ياسيدتي».

«ألم تَرَي محامي ووترجيت؟»

«لا ياسيدتي. نعم ياسيدتي».

«حسناً إذن، علينا ألا نضيف كلمة واحدة بشأن هذا الموضوع. أتريدين أن تتعشي شيئاً أم لا؟».

الحبوب كانت خبز القمح، والخضار هي الملفوف. والشاي الثقيل المثلج لتسهيل بلع الاثنين.

لم تقدّم لها السيدة تورتل سريراً لتنام عليه في الليل، لذلك تناولت سينيكا حقيبتها ونزلت إلى أحد شوارع ويشيتا الهادئة، في جو المساء الناعم. لم تكن قد تخلّت عن عملها لتقوم بهذه الرحلة، ولكنّ المشرف قال لها بصراحة بأن غياباً مبكراً إلى هذه الدرجة ليس في مصلحة مستخدمة جديدة. وربما تكون قد طردت الآن، ومن الممكن أن تسمح لها السيدة تورتل بأن تتصل هاتفياً برفاقها في الغرفة لكي تعرف فيما إذا كان أحد قد اتصل ليقول لها: «لا تكلفي نفسك بالعودة». عادت سينيكا أدراجها.

أمام الباب، عندما همّت بقرعه، سمعت نحيباً، عويل أمّ يائسة - صوتاً لا يشبه صوتاً آخر في العالم. تراجعت سينيكا ثم ذهبت إلى النافذة وهي تضع يدها اليسرى على صدرها لكي تهدئ خفقان قلبها. وأبقتها هكذا - وهي تتصور الصمّامات الحمراء، وكيف كانت تتلجّج، تنددن، متردّدة وهي تحاول استعادة إيقاعها الصحيح - بينما راحت تهبط الدرج القرميدي لتصل إلى الرصيف، ثم تسير في الشوارع الموحلة، ثم تلك المغطاة بالإسفلت، وفي غيرها المفروشة

بالإسمنت إلى أن وصلت إلى محطة الباصات. ولم تستسلم للعويل الذي كان يتردد في رأسها إلا عندما جلست كالضفدع على أحد المقاعد البلاستيكية. أما السيدة تورتل، بينما هي وحيدة دون شاهد، فقد نسيت عقلها وشخصيتها، وصرخت بأصوات كأصوات جميع الحيوانات المكسوة بالريش، المزودة بالزعانف أو بالحوافر والتي لم تأكل لحمها أبداً، وبدأ صراخها يشبه صراخ نورس أو حوت، أو نثبة انتزع منها صغيرها. كانت يداها منغرزتين في شعرها، وقمها مفتوحاً وسط وجهها المبلل.

أما سينيكا فقد جفت شفثاها وأخذت تلهث، ولكنها تخلصت من سماع العويل وانطلقت في الشوارع الواسعة والضيقة، ولم تبطئ السير إلا في الحي التجاري. وقبل أن تدخل إلى المحطة اشترت قليلاً من فستق العبيد، وشراب الزنجبيل من جهاز توزيع، وندمت على ذلك في الحال، لأنها كانت تشتتي كثيراً شيئاً طوياً، لاملحاً. وجلست على أحد المقاعد في قاعة الانتظار واضحة ساقاً فوق الأخرى وقد باعدت ما بين ركبتيها. ثم وضعت الفستق في جيبيها وأخذت ترتشف شراب الزنجبيل. وأخيراً زال عنها الرعب وهدأ روعها، وأصبح يستحيل عليها أن تميز صراخ امرأة جريئة من ضجيج حركة السير اليومية.

خيم الظلام، كانت القاعة مزبحة كمحطة تقاطع الخطوط عند الصباح. ولم يبرد جو ذلك اليوم الحار من أيلول عندما غابت الشمس. لم يكن هناك فرق يذكر بين جو غرفة الانتظار الكثيف وبين الجو الخارجي. وراح المسافرون والذين يرافقونهم يبدون هادئين، يكادون لا يهتمون بالسفر أو بالوداع. أكثر الأطفال كانوا نائمين على ركب ذويهم، على الأمتعة وعلى المقاعد. ومن لم ينم منهم كان يشاكس ويعذب القريبين منه. كان الكبار يقلبون بطاقات سفرهم، يجفون العرق عن أعناقهم، يداعبون الأطفال ويتحدثون فيما بينهم بصوت منخفض. بينما بعض الجنود وعشيقاتهم يقرؤون مواعيد انطلاق الباصات المعلنة خلف الألواح الزجاجية. أربعة مراقبين على رؤوسهم قبعات صوفية، كانوا

يفنون بهدوء قرب أجهزة توزيع آلية. اجتاز القاعة رجل يرتدي بزة السائقين، كأنه يبحث عن مسافره، ومَرَّ رجل وسيم بكرسيه المتحرك بسهولة من المدخل، لكنه انزعج قليلاً من طريقة تصميم الباب.

كان قد بقي ساعتان وعشرون دقيقة على موعد انطلاق الباص التي ستسافر به سينيكا فتساءلت فيما إذا كانت ستمضيها في إحدى دور السينما التي رأتها، وكانت آخر العروض الجديدة هي «سربيكو» أو «طارد الأرواح الشريرة» أو «اللسعة»، لكن بدا لها بمثابة الخيانة أن تشاهد أحدها دون ذراع ايدي حول كتفيها. تذكرت سينيكا أنه في وضع صعب وأنها تبذل جهوداً متعثرة لمساعدته، فتنهدت بعمق ولكنها لم تشعر بأن دموعها يمكن أن تنهمر من عينيها، حتى أنها لم تذرف دموعاً واحدة عندما عثرت على رسالة جين قرب رزمة الـ «لورنا دونز». وقد حظيت بعناية ومحبة الوالدين في الأسرتين اللتين تبنتاهما، وكانت تعرف أنها لم تعجبهما لذاتهما، ولكن كونها تتقبل التوبيخ دون أن تقول شيئاً وتأكل مايقدم لها من طعام، وتقاسم الآخرين ماتملكه، ولا تبكي مطلقاً.

راحت بقية شراب الزنجبيل تخشخش في المصاصة، عندما توقف السائق أمامها وابتسم لها: «المعذرة، يا آنستي. هل أستطيع أن أتحدث معك برهة؟».

«بالتأكيد. هيا» تنحّت سينيكا جانباً على المقعد لتفسح له مكاناً، لكنه لم يجلس.

«إنني مخول بأن أقدم لك خمسمئة دولار من أجل القيام بعمل معقد بعض الشيء، ولكن من السهل تنفيذه، إذا كان هذا يهمك».

فتحت سينيكا فمها لكي تقول: معقد وسهل؟ كانت عيناه رماديتين داكنتين وأزرار بزمته تلمع كالذهب العتيق.

وقالت: «أوه، كلاً، أشكرك، إنني ذاهبة عما قليل، وباصي سينطلق بعد ساعتين».

«مفهوم، ولكن العمل لا يستغرق وقتاً طويلاً. ربما لو تحدثت مع

السيدة التي أعمل عندها - فهي هنا، خارج المحطة - وسوف تصفه لك. إلّا إذا كنت في عجلة من أمرك».

«هي؟»

«نعم، السيدة فوكس. تعالي من هنا، لاحتاج الأمر لأكثر من دقيقة».

بدأت أنوار المصابيح تنعكس على سيارة ليموزين التي توقفت على بعد بضعة ياردات من المدخل، وعندما فتح السائق بابها، التفت رأس امرأة جميلة جداً نحو سينيكا:

«مرحباً. إنني أدعى نورما. نورما كين فوكس وأبحث عمّن يساعدني». لم تمدّ يدها، ولكن بسبب ابتسامتها العذبة تمتنت سينيكا أن تفعل ذلك. «أيمكنني أن أتحدث معك عن الموضوع؟».

كانت ترتدي بلوزة من الكتّان الأبيض دون أكمام، تكشف عن عنقها وكتفئها وتنورة بيج طويلة. وعندما أفلتت ساقها المتصالبتين رأت سينيكا صندوقاً لماعاً وأظافر بلون المرجان: وشعرها الذي كان بلون الشمبانيا ينسدل خلف أذنيها اللتين ليس فيهما أقراط.

سألتها سينيكا: «ما هو نوع المساعدة؟».

«اصعدي لأشرح لك ذلك. من الصعب التحدث عبر باب السيارة المفتوح».

تردّدت سينيكا بالصعود.

كانت ضحكة السيدة فوكس تدوي كأجراس متناغمة دافئة:

«حسناً، ياعزيزتي، فأنت لست مرغمة على القيام بهذا العمل إذا كنت لاتريدين ذلك».

«لم أقل إنني لأأريده».

«حسناً إذن تعالي. فالجو هنا أبرد».

أغلق باب السيارة ثانية، محدثاً صوتاً هادئاً ولكنه عميق،

وكان عطر «بال أفرساي» الذي تضعه السيدة فوكس لا يقاوم.

قالت: شيء سرّي، وبالتأكيد ليس هنالك ما هو غير مشروع، إنه شخصي فقط. أتجيددين الضرب على الآلة الكاتبة؟ قليلاً؟ أريد أحداً ليس من هنا. أرجو أن تكون الخمسمئة كافية. أستطيع أن أزيدها قليلاً لفتاة تكون ذكية حقاً. وسيُرجعك دافيد إلى محطة الباصات حتى ولو لم تقومي بالعمل.

ولم تدرك سينيكا أنّ الليموزين لم تعد في موقف الباصات إلا في تلك اللحظة. كانت مصابيحها الداخلية ماتزال مضاءة. كان الجو بارداً، وهي تسير متهادية.

أضافت نورما: هذه المنطقة جزء جميل من العالم، ولكنّ العقلية فيها محدودة، ولا أدري إذا كنت تدركين ماذا أعني. ومع ذلك فإنني لأرغب بالعيش في مكان آخر غير هنا. زوجي لا يصدّقني، ولا أصدقائي، لأنني من شرق البلاد. وعندما أعود إلى هناك، يقولون: ويشيتا؟ هكذا، ولكني أحب هذا المكان. من أين أنت؟ هذا ما كنت أظنه. فالفتيات هنا لا يلبسن جينز كهذا الذي تلبسينه. كان ينبغي عليهنّ أن يلبسنه، أعني لو أن مؤخراتهن يناسبها هذا النوع من الأكبسة مثلما تناسبك. نعم. ابني في رايس. كثير من الناس يشتغلون عندنا، ولكن فقط عندما لا يكون ليون هنا - وهو زوجي - أستطيع أن أطلب منهم القيام ببعض الأعمال، وهذا ما أريد منك أن تتدخل في، أعني إذا كنت موافقة على العمل. أمتزوجة أنت؟ حسناً، فالعمل الذي أنا بحاجة إليه لاتستطيع القيام به سوى إحدى النساء الذكيات. أنت لاتستعملين أحمر شفاه، أليس كذلك؟ حسناً، شفتاك جميلتان هكذا. لقد قلت لدافيد، اعثر لي من فضلك على فتاة ذكية. ليست من أولئك الفتيات اللواتي يعملن في المزارع ولا ملكات الأكبان. إنه جيد جداً، فقد عثر عليك. نحن نسكن في مكان خارج المدينة، كلا، شكراً. أنا لاتستطيع هضم الفستق. أوه يا عزيزتي، لا بدّ أنك تموتين جوعاً. حسناً سوف نتناول عشاءً شهياً جداً، وسأشرح لك ماذا أريد أن تفعلي. إنه بالحقيقة عمل بسيط جداً إذا عرفت أن تتّبعي التعليمات. هو خاص وسرّي، ولذلك أفضل أن أكلف شخصاً

غريباً للقيام به، بدلاً من أحد الأشخاص المحليين. هل هذه أهدافك؟ إنها جميلة جداً. دافيدا هل تعرف إذا كانت ماتي قد هيأت لنا عشاء حقيقياً الليلة؟ أرجو ألا يكون فيه سمك، أم أنك تحبين السمك؟ سمك الترويت رائع في ولاية كنساس، أعتقد أن الدجاج المقلي يفي بالغرض. لدينا دواجن تتغذى بشكل رائع هنا - فهي تأكل أحسن مما يأكل معظم الناس. لا، لاتلقها بعيداً، أعطني إياها. من يدري؟ ربما أمكن الاستفادة منها.

أمضت سينيكا الأسابيع الثلاثة التالية في غرف فخمة، مع نورما الرائعة، ووجبات طعام أشهى وأجمل من أن تؤكل. وأخذت نورما تطلق عليها كثيراً من الأسماء الحلوة، لكنها لم تسألها أبداً عن اسمها الحقيقي. لم يكن الباب الخارجي يُغلق بالمفتاح أبداً، وكانت تستطيع الذهاب عندما تريد. لم تكن مضطرة للبقاء هناك، كي تنتقل من ريش الطاووس إلى المذلات المهنية، من الدلال إلى الاستغلال العابت، من أنخاب الشراب ومقبلات الكافيار إلى القمامة. لكن الألم كان يشكل إطاراً للسرور ويضع له حداً. والمذلة تجعل الاستسلام عميقاً وحنوناً وطويل الأمد.

عندما هتف ليون فوكس معلناً عن عودته الوشيكة أعطتها نورما الخمسمئة دولار، وبعض الملابس بينها شال من الكشمير، وكما وعدتها، فقد أوصلها دافيد بالسيارة إلى محطة الباصات. راحت أزرار بزته تلمع تحت أشعة الشمس. ولم يتكلما في الطريق.

تسكّعت سينيكا بضع ساعات في ويشيتا متوقفة أحياناً في أحد المقاهي، ومرتاحة أحياناً أخرى في إحدى الحدائق. دون أن تعرف إلى أين تذهب ولماذا تفعل. هل تستطيع أن تعثر على عمل في مكان قريب من السجن لكي تبقى بجانبه؟ أي أن تتّبع تعليماته، وتعتذر منه لأنها لم تجلب له مدخرات أمه. أم أنها تعود إلى شيكاغو؟ وتستأنف حياتها السابقة قبل تعرّفها على ايدي تورتل؟ الأصدقاء الفوريون.

الأشغال السريعة والسكن المؤقت، والطعام المسروق. لقد نظم أيدي تورتل حياتها لمدة ستة أشهر وقد رحل الآن. هل عليها أن تستأنف الطريق؟ لقد التقطها السائق لأجل نورما مثل جرو صغير ضال. لا، حتى ولا هكذا. كحيوان يتسلى به الناس لبعض الوقت - لفترة قصيرة - دون أن يحتفظوا به، أو يحبوه. دون أن يطلقوا عليه اسماً، فقط يطعمونه، يتسلون به ثم يعيدونه إلى مسكنه الطبيعي. كان معها خمسمئة دولار في جيبها، وفيما عدا أيدي لم يكن أحد يعرف أين هي. وربما كان يجب عليها أن تستمر على هذا الوضع.

لم تكن سينيكا قد قرّرت شيئاً هاماً عندما رأت أول مكان تستطيع الاختباء فيه - مؤخرة شاحنة محملة بأكياس الإسمنت. وحين اكتشفها السائق حصرها بقرب أحد الدواليب، ثم أضاف إلى أسئلته، وشتائمته وتهديداته بعض الغزل المتردد والخجول. لم تقل سينيكا شيئاً في بادئ الأمر، ثم فجأة طلبت منه الإذن بالذهاب إلى دورة المياه: «يجب أن أذهب إلى هناك، إنني بحاجة ملحة لذلك»، فتنهّد السائق وتركها تذهب وهو يوجه لها إنذاراً أخيراً. بعد ذلك وقفت على الطرق عدة مرات لكي تسافر بإحدى السيارات العابرة، لكنها كانت تكره كثيراً الحوارات الاضطرارية لدرجة أنها تجازف بالاختباء في الشاحنات لكي تتحاشى ذلك. وظلّت دائماً تفضل الذهاب إلى اللامكان، منقطعة عن المجتمع - مختبئة بين الحمولة الصماء - دون أن يعرف أحد أنها موجودة هناك. وعندما وجدت نفسها بين بعض الصناديق في شاحنة بيك آب من طراز 73، جديدة تماماً، وقفزت لنكتفي أثر امرأة دون معطف، كان ذلك أول عمل تقوم به في حياتها دون أن تتلقى أمراً صريحاً بأن عليها أن تقوم به.

كان نحيب المرأة - أم أنه كان قهقهة خافتة - قد تلاشى. والتجلى لم يعد يتساقط. وتحت، في الطابق السفلي هناك من يناديها باسمها: «سينيكا؟ سينيكا! تعالي يا طفلي، نحن ننتظرك».

ديقاين

«دعوني أحدثكم عن الحب، هذه الكلمة السخيفة التي تعتقدون أنها مناسبة إذا كان أحد ما يحبكم أو إذا كنتم تحبون أحداً ما، أو إذا كنتم تستطيعون تحمل شخص ما لكي تحصلوا منه على شيء ما، أو مكان ما، هذه الكلمة التي تعتقدون أنها ذات صلة بالطريقة التي يستجيب فيها جسدكم لجسد آخر، مثل عصافير أبي الحنّاء أو ثيران البيسون الأميركية، أو ربما تعتقدون أنّ الحبّ هو الطريقة التي تكون فيها القوى أو الطبيعة أو الحظ مؤاتية لكم بشكل خاص، فلا تشوهم أو تقتلكم، وإذا فعلت ذلك فتعتقدون أنها فعلته لخيركم.

ليس للحب شأن بكل هذا. فلا يوجد شيء في الطبيعة يشبهه. لافي عصافير أبي الحنّاء ولا في ثيران البيسون الأميركية ولا في كلاب الصيد التي تقتنونها وتهزّ لكم ذيولها، لافي الأزهار ولا في المهر الرضيع. قالحب إلهي وصعب دائماً. وإذا كنتم تعتقدون أنّ الحب سهل، فذلك يعني أنكم أغبياء. أو إذا كنتم تعتقدون أن الحب طبيعي فذلك لأنكم عميان. إنه تطبيق نتعلمه بلاسبب أو دافع إلا ذاك الدافع الذي من الله.

«إنكم لاتستحقون حباً بسبب الآلام التي تحملتموها. لاتستحقون حباً لأنّ أحد الناس تصرّف بشكل سيء معكم. لاتستحقون حباً لمجرد كونكم ترغبون فيه. ليس بوسعكم إلا أن تملكوا - بالممارسة والملاحظة المتأنية - حق التعبير عن ذلك

وعليكم أن تتعلموا القبول به. الأمر الذي يعني أنه يجب عليكم أن تكسبوا الله. عليكم أن تمارسوا الله وعليكم أن تفكروا بالله - بعناية. وإذا كنت طالباً مجداً ومثابراً فإنك تستطيع اكتساب الحق بإظهار الحب. فالحب ليس هبة تعطى. إنه شهادة. شهادة تمنح بعض المزايا: مزية التعبير عن الحب ومزية تلقّيه.

«كيف تخرجت؟ أنت لاتعرف ذلك. ماتعرفه هو أنك كائن بشري وبالتالي فأنت قابل للتربية، وبالتالي قادر أن تتعلم، وبالتالي - فأنت مهم لله الذي لايهتم إلا بنفسه، أي أنه لايهتم إلا بالحب. فهل تفهمني؟ الله لايهتم بك، إنه يهتم بالحب وبالغبطة التي يجلبها الحب، يهتم بالذين يفهمون هذا الاهتمام ويتقاسمون.

«الأزواج الذين يدخلون قدسية الزواج وهم غير مستعدين للسير في هذا الطريق أو غير مستعدين لتقبل حب الله الحقيقي، لا يستطيعون النجاح. قد يرتبط أحدهم بالآخر كعصافير أبي الحناء أو طيور النوارس أو مثل أي شيء آخر يتزوج مدى الحياة. ولكن إذا تجنبوا هذا المسلك الجبار، عندما يحاسب الجميع لأجل الحياة الأبدية، فإن ارتباطهم لن يعني شيئاً. فليبارك الله الطاهرين والقديسين، آمين».

بعض هذه «الأمين» التي رافقت وتلت كلام السنيور المحترم بوليام كان قوياً، وبعضها الآخر متحفظاً. وبعض الأشخاص لم يفتحوا أفواههم أبداً. وكانت أنا تفكر، ليس السؤال هو لماذا؟ ولكن من؟ فمن الذي يهاجمه بوليام بقسوة؟ هل يوجّه ملاحظاته للشبان، منذراً إياهم بوجوب إصلاح حياتهم الانانية؟ أم أنه يقصد بذلك ذويهم الذين يتسامحون معهم ويتغاضون عن فوضويتهم وعن حياتهم المضطربة، وعن مواقفهم التي تتسم بالتحدي، وهذا مالم يتقبله منهم على الإطلاق حتى قبل ظهور صورة القبضة على الفرن؟ وفكرت، إنه على ما يبدو كان يحاول إحراج ريتشارد تحت وطأة تربيته الطرائقية المتشددة. وما هذا سوى حجر لكي يسحق به رسالة زميله الذي يعتبر الله محركاً داخلياً دائماً، حالما يدور، يزمجر ويدوي ويدفعك للقيام بعملك وبعمل الله - لكنه إذا تُرك وشأنه دون

أن يدور أو يعمل فإنه يصدأ ويجمد الروح لتصبح مثل قبضة جليدية.

وفكرت: لابد أن الأمر هو هكذا: بوليام يقصد ميسنر بكلامه. لأنه بالتأكيد لم يكن يستطيع الوقوف أمام العروستين - وهو قسٌ ووجهت إليه الدعوة، وطلب منه أن يبدي بضع (بضعاً) ملاحظات قبل الاحتفال أمام جمع يضم على وجه التقريب جميع سكان روبي، كان ثلثهم وحسب أعضاء في كنيسة بوليام - ويجعلهم يموتون من الخوف يوم زفافهم. لأنه بالتأكيد لن يشتم أم العروس، ولا زوجة أخيها اللتين تحملان، كالمعطف، هم العناية بأطفال رضع عاجزين، واللّتين لم تعاقبا الله فقط لأنه أطلق طلقة الرحمة هذه على كل ماكانتا تحلمان به بل إنهما تزدادان ثباتاً مع كل سنة تمر. ورغم أن العريس يتيم والوالدين فمن المؤكد أن بوليام لا يريد إحراج زوجتي خاليه - ويجعل هؤلاء النسوة التقيّات يتعرّضن لاختيار النار لكي يولين اهتماماً (ربما أكثر مما ينبغي؟) «للابن الوحيد» الذي يمكن أن تحصل عليه العائلة بعد أن مات ولدا سوان. ودوفي لم ترزق أطفالاً وترفض السماح للجداد على الموتى أن يمزقهما أو يغلق قلبهما. بالتأكيد كلا. وبالتأكيد، لم يكن بوليام يحاول إزعاج خالي العريس، سيكون وستيوارد اللذين كانا يتصرّفان كما لو كان الله شريكهما الصامت. وعلى ما يبدو ظل بوليام على الدوام معجباً بهما، قائلاً بكلمات مبطنّة بأنهما ينتميان إلى كنيسة «صهيون الجديدة» وليس إلى كنيسة كالفاراي حيث كان عليهما أن يسمعا العظات الثقافية التي يلقيها رجل يفكر بأن التعليم يقضي بترك الأولاد يتكلمون كما لو أنّ لديهم أموراً هامة يقولونها، لم يسبق له أن سمعها وتعامل معها.

من غيره يمكنه أن يشعر بالوخزة التي تنتج عن عبارة: «الله لا يهتم بك» أو يرتعش من حرق عبارة: «إذا كنتم تعتقدون أن الحب طبيعياً فذلك لأنكم عميان». من غير ريتشارد ميسنر الذي يجب عليه الآن أن ينهض ويرأس حفل الزفاف الأكثر انتظاراً والذي سيتذكره الناس أكثر من أي حفل آخر، تحت دعوة السنيور بوليام الملحاحة -

«لاتأخذوا أي سجناء»؟ بالتأكيد، إلا إذا كان يتحدث إليها هي، ليقول لها: تعلقي بآخر إذا أردت، ولكن إذا لم تتعلقي بالله (أي إله بوليام) فإن زواجك لن يستحق الرخصة. لأنه يعلم أنها كانت وريتشارد يتحدثان عن الزواج وهو يعرف أنها كانت تساعد على تنظيم الشبان المتمردين. «كونوا الغضبة».

هيمن النعناع الخبيث على صنوف الزهر المنسقة حول المذبح. كان ينبت منها أجما، بالإضافة إلى زهرة الفلوكس التي يسمونها «زهو ويليام الطيبة البرية»، وجميعها تنمو تحت نوافذ الكنيسة، التي تفتح عند الحادية عشرة صباحاً لأشعة الشمس الطالعة. كان ضوء سماء نيسان هدية ثمينة. وفي داخل الكنيسة بدت المقاعد المصنوعة من خشب الزان وقد لمعت، بالمقياس العسكري للتلميع، تبرز البياض الربيعي للجدران، المنبر الخفيض، والسياج الوددي للدرابزين حيث يمكن لمتناولي القربان أن يركعوا للترحيب بالروح مرة أخرى. وفوق المذبح، في الفضاء النير والنظيف، عُلق صليب من خشب السنديان يبلغ ارتفاعه ثلاثة أقدام، عارٍ. فارغ. قلا قطعة ذهبية تشوّه كماله أو تُخلّ بتوازنه. ليس هناك أي التواء، أو ضعف في جسد المسيح يسيء إلى رعدته الغنائية.

لم تكن نساء روبي يضعن المساحيق على وجوههن، ولا يتعطرن بعبور المومسات. ولذلك فإن الرائحة الشهوانية التي تفوح من النعناع وزهور وليم البرية كانت تثير الاضطراب لدى الجماعة وتدير رؤوس أفرادها وهم يفكرون بالوجبة الشهية والدسمة التي تنتظرهم عند سوان مورغان. الجميع سيعزفون الموسيقا: جولي على البيانو، جوقة من الذكور، غناء منفرد تؤديه كيت غولايتلي، الأرغن، المجموعة الرباعية العائدة لكنيسة «هولي ريديمر»، وصبي ذو عيين حالمتين، يدعى برود يجلس على الدرج ومعه هرمونيكا ليعزف بها. وسيُسمع هناك حفيف الملابس الجميلة والجديدة، فساتين حريرية وقمصان منشأة ينساها الناس عندما يستندون على الأشجار أو يجلسون على العشب الأخضر ليتناولوا كيفما اتفق بازلاء بالقشدة. سيعلو صراخ الأطفال المنتهين بأكل

السكاكر، وستُسمع طقطقة الورق الذي غُلِّفت به هدايا الزفاف، الذي يُلنقط من الأرض ويطوى بعناية لدرجة أنه يبدو أغلى ثمناً من الهدايا التي غُلِّفت به. فلاحون وأصحاب مزارع ونساء يعملون بزراعة القمح، الجميع سيسمحون بأن يُنتزعوا عن الكراسي، ليشاركوا في رقصات ذات خطوات مكررة من الزمن القديم. والمراهقون يتصاحكون، ويرفون بجفونهم جاهدين لإخفاء جهمهم.

لكن أكثر من الفرحة والأطفال الحالمين بتناول حلويات العرس، كان الجميع ينتظرون اتحاد عائلتين ونهاية العداء الذي شمل أفرادهما وأصدقاءهما طيلة أربع سنوات، عداء تركّز على الطفل المزعوم الذي لم تعترف به العروس، ولم تعلن عنه، ولم تلده.

والآن يجلس الجميع مثل آنا ويتساءلون عما يمكن أن يفعله المحترم بوليام الآن. لماذا يرفع غطاء النعش؟ لماذا يُنقص أريج النعناع وزهور الفلوكس ويقضي على طعم الحمل المشوي وقطائر الليمون التي تنتظرهم، لماذا يحطم الانسجام، ويبعد السلام الذي جلبه هذا الزواج؟

نهض ريتشارد ميسز. منزعاً، كلاً، بل غاضباً، وغاضباً جداً لدرجة أنه كان عاجزاً عن النظر إلى زميله ليريه عمق جرحه. وبينما كان بوليام يبدي ملاحظاته، راح يوجّه نظرة شاردة إلى قبعات النساء الجالسات على المقاعد الخشبية. وقبل ذلك ببعض الوقت، أي في صبيحة ذلك اليوم، تخيل خمس أو ست جمل كمقدمة يفتتح بها طقوس الزواج المقدسة، ورتبها بعناية حول الاصباح 19 ، والفقرات 7 و 9 من «رؤيا يوحنا» للقيامة ملمعاً صورة «عشاء عرس الخروف»^(*) معيداً صياغتها، لكي يُظهر الصلح الذي يَعُدُّ به هذا الزواج. ثم انتقل من كتاب «رؤيا يوحنا» إلى إنجيل القديس متى، الاصباح 19 ، الفقرة 6: «إذ ليسا بعد اثنين بل جسداً واحداً»^(**)، وذلك كيلا يرسخ إخلاص العريسين، أحدهما للآخر، وحسب، لكن

(*) العهد الجديد: رؤيا يوحنا اللاهوتي.

(**) العهد الجديد: إنجيل متى..

أيضاً المسؤولين المشتركة لجميع أفراد أسرتي مورغان وفليتود.

الآن راح ينظر إلى العريسين اللذين ينتظران بصبر واقفين، أمام المذبح، وتساءل إذا كانا قد فهما أو حتى سمعا ما أُلقي على مسامعهما. أما هو، فقد فهم جيداً. فهو يعرف أن تلك الرؤية المميّنة لعمله هي اعتداء مقصود على كل مايؤمن به. وفجأة أدرك ذلك، وشارك القديس أوغسطين ثورة غضبه حيال «القس المغرور» الذي يصنّفه مع الشيطان. كان القديس أوغسطين يضيف قائلاً بأن رسالة الرب لا يدنسها حامل الرسالة: «وإذا كان على (النور) أن يمرّ غيّز كائنات دنسة، فإنه هو، ليس دنساً». القديس أوغسطين لم يلتق بالسنير بوليام، فلابد أنه قد عرف قساوسة مثله. لكن دفعهم إلى رفاق الشيطان لا يعتبر اعترافاً بالضرر الذي يمكن أن يسببه كلام يُلقى على المنبر. فماذا يمكن أن يقول أوغسطين أبسط من ذلك عن السموم التي نثرها بوليام لتوّه، على كل شيء؟ على رؤوس الرجال الذين يلاقون صعوبة كبيرة في مقاومة غرائزهم لكي يتحكموا بما يستطيعون التحكم به ويمضغوا الباقي. وعلى قلوب النساء اللواتي كنّ يروّضن المعتدي بلا كلل، وعلى وجوه الأطفال الذين لم يستعيدوا وعيهم بعد من الضربة التي وُجّهت إلى كرامتهم، عندما يعلمون أن الكبار لن يعتبروهم كائنات بشرية طالما لم يتزوجوا، على وجهي العريسين اللذين ينتظران هنا، إلى درجة اليأس، ذلك الرباط العمومي لكي يزيلا عارهما المكتوم. كان ميسنر يعرف أن كلام بوليام وسيلة لتوسيع نطاق الحرب التي أعلنها على نشاطات ميسنر: إغراء الشبان باجتياز الجدار، اجتياز حدود المدينة، وإرشادهم وإرغامهم على المخالفة وانتهاك القوانين، وأن يظنوا أنفسهم مقاتلين في حرب أهلية. وكان يعلم أيضاً أن السر الذي يعرفه الجميع عن طفل لم يولد كان يخرق أسس الخصومة كأنه ناب.

تبادر إلى ذهنه كلام مناسب، لكن لشعوره أنه لا يستطيع الكلام دون الكشف عن جرحه الشخصي العميق، ابتعد ميسنر عن المنبر، وذهب إلى قرب الجدار الأخير داخل الكنيسة. هناك رفع ذراعيه

ومذهما لكي يتمكن من إنزال الصليب. ثم حمله ومشى ماراً أمام كراسي المرتكبين الفارغة، أمام الأرغن حيث تجلس كيت، وأمام الكرسي الذي يجلس عليه بوليام، حتى المنصة حيث أبقاه أمامه لكي يراه الجميع - إذا أرادوا ذلك. أن يروا ماكان حقاً الإشارة الأولى التي أبداهها أي كائن بشري في أي مكان: الخط العمودي، والخط الأفقي. حتى الأطفال يرسمونها بأصابعهم في الثلج، في الرمل أو في الوحل، يمثلونها على الأرض بالعصي، على التوندرا المتجمدة أو السافانا الفسيحة بالعظام، وبالحصى على ضفاف الأنهار، ويقتشونها على جوانب المغاور والكهوف الصخرية، من «نوم» وحتى جنوب أفريقيا. الألفونكرن، اللابون، الزولو والدروديون - جميعهم، لديهم في أصابعهم نكزى تلك الإشارة الأصلية. لم تكن الدائرة هي الأولى، ولا المتوازيان، ولا المثلث. كانت تلك الإشارة موجودة تحت جميع الإشارات الأخرى. وهي تُرى في ترتيب سمات الوجه. إشارة جسم بشري واقف، متوازن، مستعد للعناق. أنثزغها كما فعل بوليام للتو، فتصبح المسيحية شبيهة بأية ديانة: أناس من المتضرعين، يتسولون مهلة من سلطة ضئيلة، مؤمنون مضطهدون ينحنون أمام القدر أو يحاولون تجنب الآلام والشور اليومية، والضعفاء يتشاورون عن رحلة محتومة في البرية، والذين يرون ينزع عنهم النور ويلقى بهم في الظلمة الأبدية لعدم الاختيار. ولولا تلك الإشارة لاقتصرت حياة المؤمن على تمجيد الرب وتلقي الضربات. فالتمجيد هو القرض، والضربات فائدة مستحقة على نئين لايمكن تسديده. أو كما قال بوليام «لأحد يعرف متى حصل على الشهادة». لكن، معها، في الديانة حيث كانت هذه الإشارة سامية وأساسية، فالحياة تصبح قضية أخرى، مختلفة تماماً.

أترون؟ إعدام هذا الرجل الأسود الوحيد والذي أسند إلى تصالب هذين الخطين اللذين ربط فوقهما في تحريف ساخر للعناق البشري، لقد رُبط على الخشبتيين المناسبتين جداً، والمعروفتين جيداً والراسختين في الوعي كالوعي لكونهما عاديتين وساميتين. أترون؟ رأسه الصوفي الشعر الذي ينتصب تارة على عنقه وتارة

يسقط على صدره وبريق ذلك الجلد الأسود الذي أطفأه الغبار وثَلَّمته الضغينة والمرارة ودنَّسه البصاق والبول، كان يعكس لون القصدير في الرياح الحارة والجافة، وأخيراً، بينما كانت الشمس تُعتم خجلاً، ولون بشرته ينسجم مع ضوء العصر الذي أخذ يخبو، كأن المساء الذي يأتي دائماً مفاجئاً ودائماً عبر ذلك المناخ قد حلَّ ليلته هو والمجرمين الآخرين الموجودين في رواق الموت، غاب ظلُّ تلك الإشارة الأولية في سماء ذلك الليل المزيف. فتأملوا كيف أنَّ جريمة القتل الرسمية هذه، من بين مئات الجرائم تشير إلى الفرق، وتنقل العلاقة بين الله والإنسان، مدير التنفيذ وصاحب الطلب إلى علاقة الواحد بالآخر؟ الصليب الذي حمله كان مجرداً، معنوياً، والجسم الغائب كان حقيقياً واقعياً، لكنَّ الاثنين يتحالفان لكي يسحبا البشر من أعماق المسرح نحو النور، ومن الوحوشات في الكواليس نحو الدور الرئيسي في حياتهم. حكم الإعدام هذا جعل من الممكن أن يحترم المرء - بكل حرية ودون خوف - نفسه والآخر. ويكون هذا كما يكون الحب نفسه: احترام بلا دافع. وكل هذا يشهد ليس على مشاكسة الله الذي هو حب خاص به بل على الله الذي يمكن الإنسان من ممارسة الحب الإنساني. فאלله يحب الطريقة التي يتحابب بها البشر فيما بينهم ويحب الطريقة التي يحب بها الناس أنفسهم. يحب العبقريّة على الصليب التي تنجح في الأمرين وتموت وهي تعرف ذلك.

لكنَّ ريتشارد ميسنر لم يكن يستطيع التكلم بهدوء عن هذه الأمور. لذلك فقد بقي واقفاً وترك الدقائق تمرّ بينما يمسك بيديه صليب السنديان ويطلب منه أن يقول مالم يستطيع هو قوله: إنَّ الله لايهتم بكم وحسب، إنه أنتم.

فهل سيرون ذلك؟ هل سيرونه؟

بالنسبة لمن يستطيعون رؤية ذلك، كان وجه العريس يعكس عواطفه. فقد أخذ يرفع عينيه نحو الصليب الذي يمسك به المحترم

ميسنر ، ويمسك به ويمسك به. دون أن يقول شيئاً، كان يمسك به هناك وحسب، خلال زمن توقّف، بينما كان اللصمت الذي لا يطاق يعكّره بعض السعال أو نحنات التشجيع الخافتة. وأخذ حفل الزفاف هذا يجعل الناس عصبيين، لأنهم رأوا بعض الحوام تطير في شمال المدينة. والسؤال الذي تبادر إلى أذهانهم هو أن يعرفوا ما إذا كان هذا ينبيء بفأل سيء (كانت الطيور تحوم على شكل دائرة حول المدينة) أو بفأل حسن (فهي لم تحط على الأرض). راح يفكر: يالكُم من أغبياء، إذا كان الفشل مقدراً لهذا الزواج، فذلك لعلّاقه له بالطيور.

فجأة أصبحت النوافذ المفتوحة غير كافية، وراح العريس يتصب عرقاً في بزته السوداء المفصلة بشكل مدهش. واخترقه الغضب كرصاصة من عيار 32 . فلماذا يستغل الجميع زواجه، ويفسدون حفل زفافه لكي يستمروا في خصام، لايهتم به هو على الإطلاق؟ فهو يريد أن ينتهي ذلك، وأن يكف الجميع عنه مرة واحدة، لكي يخلق خالاه فَمَيَّهَما، ولكي يكف جف وفليت عن نشر الأكاذيب حوله، وليحتل مكانه بين الرجال المتزوجين والملاكين في روبي، وحتى يستطيع أن يحرق رسائل آرنيت جميعها. ولكن بشكل خاص لكي ينبذ نهائياً من حياته تلك العاهرة جيّجي. تماماً مثلما تتحول المتعة التي يحدثها السكر إلى عدو قاتل للجسم، كانت الرغبة التي يشعر بها نحوها قد سمّته، جعلته مصاباً بداء السكري، بليداً، يائساً. إذ بعد عدة شهور من العذوبة الخطيرة، أخذت تبدي اللامبالاة والملل، وحتى لأتطاق. فكم سبق له أن انتظرها بين قصبات الذرة الصفراء الطويلة، في ضوء القمر، وكم مرة زحف خلف أقنان الدواجن لكي يلتقي بها، وأنفق عليها نقوداً كثيرة ليست له. وقد كذب لكي يعيروه سيارة أخرى غير الشاحنة لكي يصطحبها في نزهات، كما أنه زرع الماريجوانا من أجلها، وجلب لها الثلج في عزّ شهر آب أي في عزّ الحرّ لكي تبرّد ما بين فخذيها. اشترى لها راديو يعمل على البطاريات كانت تحبه كثيراً، وستان سُنَّيل، ضحكته له. وعلاوة على ذلك، أحبها لعدة سنوات حباً مؤلماً، مذلاً،

لطالما احتقر نفسه بسببه، والذي تحول من توق إلى مخالسة.

لقد قرأ رسالة آرنيت الأولى، ولكنه رتب الرسائل الأخرى في علبه للأحذية في مستودع زوجة خاله. كان يشعر بأن عليه أن يتلفها بسرعة (أو ربما أن يقرأها) قبل أن يكتشف أحد ما الأحد عشر مغلفاً غير المفتوحة التي أرسلت من لنغستون في ولاية أوكلاهوما. فهو يفترض أنها كلها تتحدث عن الحب وعن الحزن والكآبة، عن الحب رغم الحزن والكآبة. أو عن أي شيء كان. لكن أنى لآرنيت أن تعرف أي الطريقتين أتبع؟ هل أمضت ليلاً بطوله في أجمة السنديان، لمجرد أن تلمح شيئاً ما؟ هل لحقت سيارة كاديلاك عتيقة إلى أن وصلت إلى دمبي لكي ترى وحسب؟ وهل طردتها بعض النسوة من أحد البيوت؟ وشتمنها؟ مع ذلك فهي لا تستطيع البقاء بعيداً كلاً، أخيراً، حتى يطلب منه خاله الجلوس ويحدثاه عن القانون والأمور المترتبة عليه.

إذن فقد كان هناك، أمام المذبح، مرفقه يسند رسغ عروسه الرقيق، وفي جيبه فرع من شعانين عيد الفصح أعطته إياه، كناية عن الحماية. أخذ يشعر بثقل تنفس الشاب الواقف إلى يمينه، الذي سيصبح ابن حميه عما قريب، وبعدها يبلي ديليا التي راحت نظراتها تخترق مؤخرة رأسه. كان متأكداً أن ذلك سيدوم إلى الأبد، لأن الصليب الذي يحمله ميسر يبدو قد جعله يلتزم الصمت.

هذا الصليب كانت تحديق به العروس وقد تملكها الرعب. ومع أنها كانت سعيدة جداً. أخيراً سعيدة جداً جداً، بعد أن تحررت من ذلك الحزن النازف الذي استولى عليها منذ عودتها من الكلية: الاختناق الذي لا يرحم في بيت أبويها، والقرف الجديد الذي يلازم العناية المقدمة إلى أولاد وبنات أخوتها، الضعفاء، قلة نومها التي راحت تقلق أمها، وتثير حفيظة زوجة أخيها وتغضب أخاها وأباها. بطالتها المطلقة التي لم تكن تقطعها إلا لكي تتساءل أو تبدي قلقها بشأن «K.D.». ورغم أنه لم يرد على رسائلها الاثنتي عشرة الأولى، فإنها استمرت في كتابة أربعين رسالة، دون أن ترسلها. أي رسالة كل أسبوع في السنة الأولى من غيابها. كانت

تعتقد أنها تحبه بشكل مطلق لأنه كان يمثل كل ماتعرفه عن نفسها - أي أنَّ كل ماتعرفه عن جسدها كان مرتبطاً به. وفيما عدا بيلي دبليو، لم يقل لها أحد أن هناك طريقة أخرى للتفكير بنفسها. لأمها ولزوجة أخيها. وفي العام الماضي، عندما كانت في السنة الأخيرة، وأتت لقضاء عطلة عيد الفصح وطلب أن يراها، أتت لتناول طعام العشاء مرتين، ثم اصطحبها إلى مزرعة ناثن دوبريس للمساعدة في النزهة التي أقيمت بمناسبة حفلة عيد الأطفال وهناك عرض عليها الزواج: وبدا ذلك بمثابة أعجوبة استمرت منذ ذلك اليوم الرائع من شهر نيسان. كل شيء كان تاماً: لقد وافقتها الدورة الشهرية وانتهت، وفستانها الذي ضنع بكامله من دانتيل سوان مورغان كان جميلاً بشكل مذهش، والحرفان الأولان من اسميهما كانا منقوشين متشابكين على المحبس الذهبي، المدسوس في جيب صدرية أخيها. لقد اندمل أخيراً جرح قلبها، والآن في آخر لحظة، هاهو القس يتصرف بصورة غريبة، ويحاول إيقاف عقد الزواج، تشويهه، بل ربما تدميره. فقد كان يقف هناك بوجه كالغرائيت، حاملاً صليباً كما لو أنَّ أحداً لم ير صليباً مثله. غرزت أصابعها في الذراع التي تستند عليها، لأنها تريد أن يتابع ميسنر الاحتفال: قلها، هيا قلها! «أخوتي الأعزاء، لقد اجتمعنا هنا... اجتمعنا هنا». وفجأة، دون إحداث أي صوت، وغبّر الصمت المطبق الذي فرضه ميسنر، انفتح شق صغير في مكان الجرح الذي كان في قلبها بالضبط. كتمت أنفاسها وشعرت بأنَّ الشق أخذ يتسع ويكبر، مثل جراب يكرّ. وعما قليل سيصبح الشق الصغير واسعاً، ثم ينفتح ويتسع أكثر فأكثر إلى أن يُنهك كل قواها، إلى أن يحصل على مايلزمه لكي ينغلق ويسمح للقلب بمتابعة الخفقان. هي معتادة على ذلك، وقد ظنّت أنَّ زواجها من «K.D.» سوف يشفيها تماماً وإلى الأبد. لكن الآن، بينما تنتظر عبارة: «لقد اجتمعنا هنا...» قلقاً، وتأمل سماع عبارة: «أريد أن تتخذ هذه...» أدركت بشكل أفضل، وعرفت تماماً ماكان ينقصها، ومايمكن أن يظلّ ينقصها إلى الأبد.

أخذت ترجوه وتتوسل إليه: «قلها من فضلك، راحت تلح، أسرع
أسرع! فلديّ أعمال أقوم بها».

نقلت ببلي ديليا باقة الزهر التي تحملها من يدها اليسرى إلى
اليمنى. كانت بعض الأشواك الصغيرة تخزها عبر قفازها القطني
الأبيض، وأخذت أزهار الفريزيا تغلق وريقاتها كما توقعت ببلي.
ورود الشاي وحدها ظلت ثابتة على الوعود التي يمكنك عدها
حرصاً عليها. وقد اقترحت إضافة زهور نسيم الطفل لتجميل
البراعم الصفراء لكنها دهشت عندما علمت أنّ هذه الزهور غير
موجودة في أية حديقة، ولا يوجد نبتة نسيم الطفل في أي مكان.
فقالت ليكن إذن من زهور الأخلية، ولكنّ العروس رفضت أن يجلب
إلى حفل زفافها نبات يأكل منه البقر. ولذلك فإنّ الاثنين كانتا
تمسكان بيديهما أزهار الفريزيا المتعطشة للماء ووروداً لم تنزع
أشواكها جيداً. وفيما عدا ماكانت تعانيه تلك الراحتان فإنها لم
تفاجأ ولم تنزعج من الانتظار الذي فرضه المحترم ميسز على
الجميع. كان قطعة أخرى من الغباوة التي جعلت هذا الزفاف الأحمق
يراه الجميع وقفاً لإطلاق النار. ولكنّ الحرب لم تكن بين آل مورغان
وآل فليتود وأولئك الذين يقفون في كل من الصفيين. حقاً لقد كان
جفّ يحمل الآن مسدساً، وستيوارد مورغان وأرنولد فليتود قد
تبادلا الشتائم في الشارع، وهناك أناس قد تجمعوا في قاعة أنا
فلود الخلفية وفي صالون مينوس للحلاقة، لا ليقضوا شعرهم بل
لكي يتذمروا من الإشاعة التي تروي أنّ أمراً معيباً قد ارتكب في
الدير، وأنّ المحترم بوليام ألقى موعظة، استناداً إلى الأقاويل التي
وردت في تلك الإشاعة، معتمداً فيها على تعاليم «إرميا» الإصحاح
الأول، الفقرة الخامسة: «قبلما صوّرتك في البطن عرفتك وقبلما
خرجت من الرحم قدّستك. جعلتك نبياً للشعوب». وكان المحترم
ميسز قد ردّ بكلام بولس في رسالته التقوية إلى الكورنثيين: «...
ولكن أعظمهم المحبة». ولكن بالنسبة لـ ببلي ديليا فإنّ المعركة

الحقيقية لم تحصل بشأن حياة طفل رضيع أو سمعة عروس، بل بشأن التمرد والعصيان، وهذا بالتأكيد يعني أن فحول الخيل كانت تتصارع لمعرفة من هو الذي يتحكم بالأفراس وبصغارها، كان الكتاب المقدس والتاريخ بجانب السنيور بوليام. وبجانب ميسنر الكتاب المقدس والمستقبل. والآن، كانت تفترض أنه جعل الناس تنتظر في ذلك الوقت إلى أن يفهم هذا الأخير موقفه.

تحولت بيلي ديليا عن نظرات الأب ميسنر المتفحصة، ووجهت نظرها نحو الدانتيل الثقيلة التي تغطي رأس العروس، ثم نحو نقرة العريس، وتذكرت في الحال حصاناً كانت تحبه فيما مضى. ورغم أن العريس هو الذي كان يحتفظ في اسمه بذكرى سباق أسطوري للخيل ولكن حياتها هي التي تشوّهت بسبب «هارد غودز» ذلك الحصان الفائز الذي امتطاه «K.D.»، عند الاحتفال بتأسيس روبي وكان يملكه السيد ناثن دوبريس. وبعد سنوات عديدة من ذلك السباق، لكن قبل أن تتعلم المشي، رفعها السيد ناثن على ظهر «هارد غودز» العاري وقامت بنزهة فرحت فيها لدرجة أن الجميع ضحكوا. ومنذ ذلك الحين، وفي كل شهر تقريباً، عندما كان يأتي إلى المدينة للتسوق، كان يترجل ويرفعها إلى ظهر الحصان لتقوم بنزهة حول باحة المدرسة القريبة من بيتها، ممسكاً خصرها براحة يده، وهو يقول: «اركبوا يا أطفال. نحن بحاجة لمزيد من الخيالة في هذا البلد الذي يبكي فيه الجميع للحصول على سيارة، يركبها أولادهم مبكراً أما: «هارد غودز» فلا يملك عجلة أبداً». واستمرت الحال على هذا المنوال إلى أن بلغت بيلي ديليا الثالثة من العمر - وكانت أصغر من أن ترتدي سروالاً داخلياً في معظم أيام الأسبوع، ولم يلاحظ أحد، أو ينتبه إلى كيفية التحام بشرتها بذلك الشكل التام على جسم الحيوان المتحرك بإيقاع. وعندما كانت تبذل جهداً لكي تعلق كعبها على بطن الحصان، وتحمل احتكاك عموده الفقري بجسمها، كان الكبار يبتسمون ويشعرون بالسرور لمشاهدة فرحها معتبرين السيد ناثن زنجياً رجعيّاً بحاجة أن يتعلم استخدام أداة تغيير السرعة لكي يستطيع الوصول في الوقت المحدد. وذات يوم،

وكان يوم أحد. سار «هارد غودز» خبيأ في الشارع وهو يتجه نزولاً وعلى ظهره السيد ناثن فرحضت بيلى ديليا التي لم تكن قد رأت الحصان وخيأله منذ زمن طويل، نحوهما، طالبة الركوب. فوعدها السيد ناثن بذلك، لكن بعد حضور الصلاة. فوقفت تنتظر في الباحة وهي بملايس الأحد. وحين لمحتة وهو يشق طريقه، بين جمهور المصلين، خارجاً من الكنيسة، اندفعت مسرعة إلى وسط الشارع المركزي، حيث نزعَت سروال يوم الأحد، قبل أن تمدّ نراعيها لكي تُرفَع على ظهر الحصان «هارد غودز».

بعدها بدا أن كل شيء قد انهار. انهالت عليها أمها ضرباً مبرحاً، وقد احتاج الأمر عدة سنين لفهم الخجل الذي شعرت به. عند ذلك بدأت المضايقات التي لاترحم، لأن أمها كانت معلمة المدرسة. فجأة التمع بريق داكن في عيون الشبان الذين شعروا أنهم مرتاحون للتحديق فيها، وفجأة بدر تشجيع غريب من النسوة، ونظرات تتحول إلى جهة أخرى بدرت من الرجال. ومراقبة دائمة تقوم بها أمها. منذ ذلك الحين لم يعد ناثن دوبريس يقترح عليها أن تمتطي حصانه. وهكذا فقدت إلى الأبد «هارد غودز» الذي لم يعد يذكر أحد عنه شيئاً سوى أنه الحصان الذي فاز بالسباق وعلى ظهره «K.D.»، هذا في المجال العام، أمّا في المجال الخاص، فيُنذكر باعتباره المسبب للعار لفتاة صغيرة. وظلّت السيدة دوفي مورغان وأختها سوان وحدهما تعاملانها باللطف نفسه - إذ توقفانها في الشارع لتسوية شرائط جدائلها، أو لتهنئتها على عملها في حديقتهما، وفي إحدى المرات، عندما أوقفتها السيدة دوفي مورغان لتمسح لها ماضنّت أنه ماكياج على شفتي بيلى ديليا الورديتين، لم تفعل ذلك مبتسمة، ولا وهي تلقي محاضرة عن الكراهية. بل لقد اعتذرت عندما رأت أن منديلها ظل نظيفاً، ولولاهما، ولولا عودة آنا فلود لكانت فترة مراهقتها صعبة لاتعاش. آنا والسيدات مورغان لم يجعلها تشعر أيضاً ماهي الغرابة في أن تكون الابنة الوحيدة - ربما لأنهما لم يرزقا أطفالاً، أو أنهما رزقا القليل منهم. حيث أن أكثر العائلات تفتخر بأنها

رزقت تسعة أطفال، أحد عشر، بل وخمسة عشر أيضاً، وكان أمراً حتمياً أن تصبح آرنيت التي لم يكن لها أخت، بل أخ واحد، أفضل صديقة لها.

كانت تعرف أنَّ الناس يعتبرونها شقية متمردة، هي التي منذ البداية، وبدون اهتمام، لم تكتفِ بلصاق عُزَّيها إلى حصان، بل أحببت ذلك كثيراً، لدرجة أنها خلعت سروالها الداخلي أمام الجمهور المحتشد يوم الأحد، فقط لكي تشعر بالإثارة بسبب ذلك. آرنيت هي التي ضاجعت (العريس) وهي في الرابعة عشرة من عمرها، لكن ببلي ديليا هي التي تحملت وذر الخطيئة، وقد تعلَّمت بسرعة كيف تعرف النظرات الحذرة في عيون الفتيات اللواتي حذرنهن أمهاتهن من مرافقة ببلي ديليا. والحقيقة أنها لم تُمسَّ. حتى ذلك الحين. كانت تعشق بشكل يائس أخوين، وعذريتها التي لم يكن يؤمن بها أحد أصبحت أشد صمماً من الصليب الذي كان يرفعه المحترم ميسنر.

الآن، أخذ يغمض عينيه. وأخذت عضلات فكيه تتقلَّص. وكان يمسك بالصليب كأنه مطرقة يحاول ألا يجعلها تسقط خشية أن تجرح أحداً ما. وكانت ببلي ديليا تأمل أن تراه يفتح عينيه من جديد، وينظر إلى العريس، ثم يلكم رأسه به. لكن لا، فذلك ربما أزعج العروس التي حصلت أخيراً على العريس الذي تحتقره إشبينتها. العريس الذي عرض الزواج على ببلي ديليا قبل وبعد فِغْلته مع آرنيت. العريس الذي عندما لم تكن آرنيت موجودة، ينساها تماماً، ويسعى وراء أية امرأة يقل عمرها عن الخمسين سنة. عريس ترك زوجته المقبلة حاملاً ووحيدة تماماً، وهو يعلم أنها ستكون في المستقبل أمّاً غير متزوجة (دون أن يكون هو أباً في المستقبل) وسوف تضطر إلى طلب المغفرة من كنيسة. لقد سمعت ببلي ديليا هذا النوع من الكلام، ولكن أئمة فتاة تصبح حاملاً في روبي تستطيع أن تأمل بالزواج وتعتمد عليه، سواء كان الشاب يرغب بذلك أم لا، لأنه سيكون مرغماً على الاستمرار بالعيش بجانب عائلة الفتاة وعائلته. ولا بد أن يلتقي بها في الكنيسة وفي كل مكان. لكن ليس

هذا العريس، فهذا قد ترك العروس تتعذب طيلة أربع سنوات، ولم يوافق على الزواج إلا بعد أن طرد من سرير امرأة أخرى بركة على مؤخرته. ركلة قوية جداً جعلته لم يعد يستطيع أن يركض بسرعة كي يذهب إلى المذبح. وهي تتذكر جيداً اليوم الذي أتت فيه تلك التي ركلته على مؤخرته وهي تنتعل الحذاء الذي ركلته به. حدثت كراهية بيلى ديليا للفتاة ذات السلوك الغريب بصورة فورية وكان من الممكن أن تصبح أبدية لو لم تجد هي نفسها ملجأ لها في الدير ذات يوم بارد جداً من شهر تشرين الأول بعد شجار مع أمها، تطور بشكل سيء. في ذلك اليوم تعاركت أمها معها كأنها رجل من ذلك الزمن. فهربت إلى بيت آنا فلود، وهذه طلبت منها آنذاك أن تنتظر في الطابق الأعلى بعض الوقت بينما تستطيع هي تسوية بعض الأمور مع أحد المتعهدين. بكت بيلى ديليا وحدها خلال الوقت الذي بدا لها ساعات، وهي تلحس شفتها المشقوقة وتتحسس عيناها المتورمة. وعندما لمحت شاحنة أبولو، نزلت على الدرج الخلفي، وبينما كان يشتري زجاجة صودا صعدت إلى السيارة. لم يعرف أحد منهما مايفعل. اقترح عليها أبولو أن يصطحبها إلى بيته ولكن، لأنها خجلت من اضطرابها أن توضح لوالديه سبب ماأصاب وجهها والتعرض لنظرات أخوته وأخواته الاثني عشر، فقد طلبت منه أن يوصلها إلى الدير. حصل ذلك في خريف عام 1973. ومارأته وتعلمته هناك أحدث لديها تحولاً أدياً. وإذا قبلت بأن تكون أشبينة لـ آرنيت فتلك آخر بادرة عاطفية يمكنها القيام بها في روبي. فقد وجدت عملاً في دمبي، اشترت سيارة، ربما كانت ستقودها إلى سان لويس لولا حبها المزدوج اليائس للأخوين.

لم يكن ستيوارد رجلاً صبوراً، سواء كانت مضغة التبغ في فمه أو لم تكن. ولذلك فقد دهش لهدوئه اللتام وهو يراقب تصرف ميسنير فقد أخذت الجماعة من حوله تغمغم متذمرة، وبدأ بعضهم يتبادلون النظرات، ولكن ستيوارد ظل يشعر أنه أقل حيرة وارتباكاً ممن

يحيطون به، رغم عدم وجود مضغة تبغ في فمه لتهدئته. فعندما كان صغيراً أصغى إلى «بيغ دادى» وهو يصف رحلة تزيد مسافتها على خمسة وستين ميلاً، قام بها ليجلب بعض المواد التموينية لـ هافن. حدث ذلك عام 1920. كان الحظر^(*) عاماً في ذلك الحين. وقد ضرب هافن وانتشر فيها مرض أطلقوا عليه اسم ذات الرئة الهزان. وظل «بيغ دادى» بين بعض قليلي العدد الذين يستطيعون السفر. فسافر بمفرده ممطياً صهوة جواده. اشترى ما يحتاجه من لوغان كونتي، لف الأدوية تحت معطفه، حزم مؤونته على حصانه، ثم بعد انطلاقه ضل الطريق، وبعد غروب الشمس لم يعد يعرف إلى أية جهة يسير. شعر بوجود نار في مكان قريب يقع إلى يساره دون أن يستطيع رؤيتها. ثم سمع، فجأة، إلى يمينه صراخاً وموسيقاً وعبارات نارية، لكنه لم ير أي ضوء. وقد حوصر في الظلام بين مجهولين لا يمكن رؤيتهم، منتشرين في كل الجهات، فكان عليه أن يقرر إما الذهاب نحو رائحة الدخان والشواء وإما إلى جهة الموسيقى والمسدسات. أو، ولا إلى أي منهما، فربما كانت تلك النار في مخيم يستدفئ عليها بعض اللصوص. والموسيقا ربما كانت تعزف لتسلية بعض الذين يتعقبون اللصوص والمجرمين. أخيراً حسم حصانه الأمر، فعندما شعر بوجود كائنات من أشباهه اتجه نحو نار المخيم. فوجد «بيغ دادى» ثلاثة هنود من قبيلتي ساك وفوكس^(**) جالسين حول نار مخبأة في حفرة. ترحل عن حصانه واقترب بحذر ممسكاً بقبعته بيده، وقال: «أسعدتم مساءً». استقبله الرجال وعندما عرفوا وجهته نصحوه بعدم الدخول إلى المدينة وقالوا له: إن النساء يتقاتلن فيها بقبضاتهن، والأطفال سكارى، والرجال لايتناقشون ولايتخاصمون ولايتكلمون إلا بأسلحتهم. والقوانين المتعلقة بالكحول لا تطبق فيها. وأنهم أتوا لإنقاذ أحد أفراد عائلتهم الذي يتناول المشروبات الكحولية منذ اثني عشر يوماً. لقد ذهب أحدهم إلى هناك للبحث عنه. فسألهم «بيغ دادى»: «وما هو اسم هذه المدينة؟» فأجابوه: «بورا سانغر».

(*) قانون حظر المشروبات الروحية الذي صدر في عام 1920 وسبب قيام المافيا.

(**) من القبائل المستوطنة الآن في أوكلاهوما.

هناك عند مدخلها الشمالي لافتة، كتب عليها: «لا زنوج» وعند مدخلها الجنوبي يوجد صليب. فأمضى «بيغ دادي» بضعة ساعات معهم، وقبل شروق الشمس، شكرهم وانصرف - عائداً أدراجه لكي يجد طريقه.

عندما سمع ستيوارد هذه القصة للمرة الأولى، لم يستطع أن يفلق فمه وهو يفكر بتلك اللحظة التي كان فيها والده وحيداً في الظلام الدامس، تحيط به المسدسات من اليمين، والغرباء من اليسار. لكنّ الراشدين ضحكوا وفكروا بأمر آخر: «لا زنوج من جهة، وصليب من الجهة الأخرى، وبينهما في الوسط الشيطان». لم يفهم ستيوارد: كيف يمكن أن يتواجد الشيطان بالقرب من الصليب؟ وماهي العلاقة بين الأمرين؟ لكنه بعد ذلك التاريخ رأى العديد من الصلبان بين حلقات العاهرات، وشاهد صلباناً عسكرية صفّت علي مسافة أميال عديدة، وصلباناً نارية في ساحة الزنوج، وصلباناً رُسمت بالوشم على سواعد بعض القتلة المحترفين. بل لقد رأى مرة صليباً معلقاً في مرآة إحدى السيارات التي كانت تغطّ بالشبان البيض الذين أتوا لإهانة الفتيات الصغيرات في روبي. وكيفما كان المحترم ميسر يفكر، فإنه يخطئ. فالصليب ليس أكثر قيمة من الذي يحمله. أخذ ستيوارد يداعب شاربه وقد شعر أنّ أخاه التوأم يحرك قدميه وقد استعدّ لرفع المقعد الموجود أمامه، ليضع حداً لتصرف ميسر.

كانت سوان الجالسة بجانب ديك تصغي لصوت تنفّسه الثقيل وأدركت خطورة غلطتها. وهمت بلمس ذراع زوجها لكي تمنعه من النهوض، عندما خفض ميسر أخيراً الصليب وتلقّظ بكلمات افتتح بها الاحتفال: فشعر ديك بالارتياح وتنفس الصعداء، لكنّ الشر قد وقع. وعادوا إلى نقطة البداية، عندما صوّب جفرسون فليتوود مسدساً إلى «K.D.» وحين اضطر مينوس للتدخل لوقف العراك والتدافع بين ستيوارد وأرنولد. وعندما لم ترسل مابل كعكاً إلى معرض الحلويات التابع لكل الكنائس. فالسلام والنية الحسنة اللذان

استعيدا بفضل الإعلان عن حفل الزفاف أصبحا الآن فُتاتاً. وسيكون حفل الاستقبال في بيتها تكثيفاً للمشكلة، والأمر الأكثر إزعاجاً هو أنَّ سوان، دون أن تخبر الآخرين، كانت قد ارتكبت خطأ بدعوتهما كوني وفتيات الدير إلى حفلة الاستقبال هذه. ولأنها لم تفهم التحذير فقد كانت على استعداد لاستقبال أكبر فوضى عرفتها روبي. راح طفلها اللذان توقياً يستندان على براد الكلفيناتور ويكسران قشور الفستق الإسباني. وسألها إيستر: «ماذا يوجد في حوض الجلي؟» ألقت نظرة فرأت ريشاً باللون زاهية ولماعة، ولكنها صغيرة كريش فراخ الدجاج، مكمواً أكداً في حوض جلي مطبخها. فتساءلت: إنها لم تذبح أو تنتف ريش أي طير من الدواجن، حتى وإن فعلت ذلك فإنها لا يمكن أبداً أن تلقي الريش في هذا المكان. لذلك أجابته: «لا أدري» فقال لها شكوت: «يجب أن تزيلها من هنا يا أمي، هذا ليس مكاناً يوضع فيه الريش كما تعلمين». وضحك الاثنان وتابعوا تكسير الفستق. استيقظت وهي تتساءل عن نوع الطيور التي لريشها هذه الألوان. وبينما كانت أزواج وأزواج من الحوام تطير فوق المدينة، تبادر إلى ذهنها أنَّ هذا هو تفسير الحلم: مهما فعلوا فإنَّ هذا الزواج لن يسوي أي أمر. ثم اعتقدت أنَّ ولديها حاولا أن يقولوا لها شيئاً آخر: لقد ركزت تفكيرها على الألوان، بينما كانت النقطة الأساسية هي «حوض الجلي»: «هذا ليس مكاناً يوضع فيه الريش كما تعلمين». فالريشات الغريبات التي دعته إلى الحفلة لم تكن في مكانها في البيت.

عندما ضغطت كيت غولايتلي أخيراً على مفاتيح الأرغن والتفتت الزوجان نحو الحشد، بكت سوان. من جهة بسبب ابتسامات العريسين اللامعة التي تنم عن الأسى، ومن جهة أخرى بسبب الرعب من الشر الذي كان يتجول ويطوف متجهاً نحو بيتها.

لوحظ منذ زمن طويل أنَّ الأخوين مورغان نادراً ما يتحدث أحدهما مع الآخر أو ينظران إلى بعضهما. وقد ظنَّ البعض أنَّ ذلك

سببه غيرة أحدهما من الآخر، وأنَّ لديهما فقط المفاهيم نفسها، بينما يوجد في أعماق نفسيهما حقد متبادل لا يطفو على السطح إلا بشأن الأمور الصغيرة. في خلافتهما بخصوص السيارات، على سبيل المثال: فأحدهما يفضل الشفروليه بحرارة، بينما يدافع الآخر عن الأولدزموبيل بعنف. والواقع أنَّ الأخوين ليسا متفقين تقريباً على كل شيء وحسب، بل كان يجري بينهما حديث دائم لكنه صامت. فكلُّ منهما يعرف أفكار الآخر تماماً كما يعرف وجهه، وتكفي نظرة واحدة للتحقق من ذلك.

هما يقيمان الآن في غرفتين مختلفتين في بيت ديك ويفكران بالأمور نفسها. ولحسن الحظ تأخر ميسز، ومينوس معتدل وبوليام منتصر وجف منهمك بسويقي. وما بل التي حضرت الاحتفال، ساعدت كنتها أثناء حفلة الاستقبال. كان العريسان يسيران الواحد وراء الآخر - وظلا يوزعان الابتسامات الصقيلة في مكانهما ليس جنباً إلى جنب، بل الواحد وراء الآخر. لم يكن أحد يساوي بقيمته القس كاري - الهاديُّ الودود - الذي هو أفضل من يحافظ على ثبات الأشياء. لأنه وزوجته ليلى من المرغوب بهما دائماً من أجل إنشادهما الثنائي، والموسيقا التي يعزفانها...

فتح ستيوارد البيانو بينما كان ديك يتنقل بين جمهور المدعوين، وعند مروره بقرب المحترم بوليام، الذي كان يهز برأسه ويبتسم لـ سويتي وجف ربت ديك على كتفه مُطمئناً. في قاعة الطعام كانت الموائد تثير تسمات المديح والاعجاب، قبل أن يجلس إليها المدعوون، عدا بعض الأطفال. بينما الهمهمات أمام طاولة الهدايا تبدو مغتصبة وثقيلة. وظلَّ ستيوارد ينتظر بجانب البيانو والانسجام تام بين شعره الرمادي الفولاذي وعينيهِ اللتين تشعُّ منهما البراءة. وقد تجمع حوله الأطفال يتلألؤون كالعقيق. كانت النساء تشعُّ منهنَّ البهجة، وهن مرتديات ملابس عيد الفصح الجديدة، ولكن هادئات. أما أحذية الرجال الجديدة التي تُرسل صريراً وطققة فتلمع كبذور

البطليخ. والجميع مُتَيَّسُونَ ومُلمَّعون أكثر من اللزوم. لابد أن ديك قد وجد صعوبة في إقناع آل كاري، هذا ما فكر فيه. بحث ستيفارد عن غلبته التي يضع فيها التبغ وهو يدفع بصمت شقيقه التوأم ليجد شخصاً آخر - جوقة الذكور، كيت غولايتلي - بسرعة قبل أن يفكر المحترم بوليام بأن يصلي لهم للعودة إلى مراكز المعركة أو، وليحمننا الرب من ذلك، فبدأ جف ينشد أنشودته أحزان المحاربين القدماء. وما أن يبدأ حتى يصبح «K.D.» الذي لم يذهب إلى الجندية، هدفه المقبل. وأخذ يتساءل: أين سوان؟ رأى ستيفارد دوفي وهي تنزع الدبابيس التي تعلّق حجاب العروس بشعرها، ومرة أخرى سحرت قامته زوجته عينيه البريئتين. وأياً كان لباسها - فستاناً عادياً، بزّة الكنيسة البيضاء أو حتى برنس الحمام - يظل شكل جسمها يبعث ابتسامة الرضى على شفثيه. لكنّ ديك أخرجته من شروده فكفّ عن تأمل دوفي بإعجاب ورأى نجاح جهود أخيه: فقد اقتربت كيت وجلست أمام البيانو، مسّدت أصابعها وأخذت تعزف. أولاً بعض الألحان السريعة المتتالية، رافقها مرافقة ودية بعض السعال وهمسات مشاركة في الأداء. ثم تقدّم سيمون وليلي كاري بدورهما وهما يندندان، يندندان ويبحثان عن شيء يبدأ به الغناء. كانا في المقطع الثالث من أنشودة: «أيها الرب العظيم، خذ بيدي» والابتسامات موجهة جميعها نحو الموسيقى، عندما سمع زُمور سيارة كاديلاك عتيقة.

لم تأت كوني، ولكنّ نزياتها استجبت للدعوة. كانت مافيس تقود الكاديلاك وجيجي وسينيك في المقعد الخلفي، وفتاة أخرى جديدة تجلس في المقعد الأمامي. لم تكن ملابسهنّ تدل على أنهن قادمات لحضور حفلة زفاف. وعندما نزلن من السيارة كان من يراهنّ يظنّ أنهن قد خرجن للتو من مرقص للروك: شورتات وردية،

بلوزات ميني، تنانير شفافة، عيون مكحلة، بلا حمرة على الشفاه، وكان واضحاً أنهم بلا ملابس داخلية وبلا جرابات. ويبدو أنهم نهب من مخزن جيزابيل لتزيين أذرعهم، آذانهم، أعناقهم، كواحلهم بل وأنوفهم أيضاً. تبادلنا مافيس وسوان التحية بانزعاج ظاهر وهما تقفان على المرجة الخضراء. ذهبت امرأتان أخريان وهما تتسكعان إلى غرفة الطعام وأخذتا تتفحصان الموائد. ثم قالتا: «مرحباً!» وتساءلتا بصوت عال فيما إذا لم يكن هناك أي مشروب آخر، سوى عصير الليمون والبش. لم يكن يوجد أحد، عند ذلك فعلتا كما فعل قبلهما شبان آخرون: خرجتا من باحة آل مورغان مرتا من أمام دكان آنا فلود وذهبتا إلى جوار الفرن، فانصرفتا بضع الفتيات المحليات اللواتي كنَّ هناك على شكل مجموعة وتركن المكان إلى أبناء بول: أبولو وبرود وهرستون، وإلى أبناء سيراي: تيموثي ج. ر. وسبايدر، وإلى أبناء ديستري: فان ورويال. ثم انضم إليهم مينوس دون أن يفعل ذلك جف الذي كان يتحدث معه. ولا العريس الذي كان يراقب المشهد. أزالنا دوقني الدهن عن قطعة من فخذ خجل، حين صدحت الموسيقى، فخرجت إصبعها بسبب الضجيج وأخذت تمص الدم، بينما صرخت أوتيس ريدينغ بصوت طفي على الأناشيد الهادئة: «أوووه، يافتاتي الصغيرة...» وكان التصفيق والهتافات الحماسية في الداخل والخارج وأسفل الطريق على أشده.

همس أحدهم من وراء المحترم بوليام: «أوه، إنهم يلهون، وحسب». فالتفت القس ليعرف من الذي تكلم، ولكنه لم يستطع تحديد موقعه فتابع النظر عبر النافذة. إنه يعرف أمثال هؤلاء النسوة، فهن كالأطفال، في سعي دائم للهو، يكرسن أنفسهن له ولكنهن بحاجة إلى فرصة من أجل الحصول عليه. بحاجة إلى مساعدة، إلى يد، إلى ورقة الخمسة دولارات، إلى شخص ما يعذرهن أو يذلّهن. وإلى شخص ما يغض الطرف ويسكت عندما يعكرن صفو الهدوء. تبادل نظرة مع زوجته التي أومات له برأسها وغادرت النافذة. كانت تعرف مثله، أن الراشدين الذين لا يفكرون إلا باللهو يشكلون أدلة أكيدة على انحطاط أصبح واضحاً. وعما قريب ستغرق البلاد

بالدمى، وثرَّفَق بالموسيقا الصاخبة والضحكات الجوفاء. لكن ليس هنا، فهذا لن يحدث في روبي مادام السنيور بوليام على قيد الحياة.

أخذت فتيات الدير يرقصن، رفعن أذرعهن فوق رؤوسهن وفعلن هذا وذاك ثم شيئاً آخر. إنهن يبتسمن ويصرخن ولكن دون أن ينظرن إلى أحد. أجسادهن تتمايل وحسب. والفتيات المحليات ينظرن إليهن من فوق أكتافهن ميديات عبارات الاستهجان. وبرود وأبولو وسبايدر، وهم شبان يعملون في المزرعة وعضلاتهم فولاذية وعيونهم خبيثة، أخذوا يتمايلون وهم يقطعون بأصابعهم. هرسون أخذ يغني في الوقت نفسه. مرّت فتاتان صغيرتان على دراجتين، فنظرتا إلى النسوة اللواتي يرقصن بعيون جاحظة. سألت إحدى النساء، وكان شعرها بحالة مذهلة، إذا كان يوسعها استعارة دراجة، وأنت امرأة أخرى فطلبت الدراجة الثانية. وانطلقت الاثنتان على الدراجتين في الشارع المركزي دون أن تبديا أي اهتمام بما تفعل الرياح بتنويرتيهما الطويلتين المطبوعتين بالزهور، ودون أن يدركن أن الضغط على دعسات الدراجة يضخم نهودهما. تركت إحداهما للدراجة العنان لتسير بحرية كما تريد، واضعة كاحليها على المقود والأخرى جلست على المقود تماماً، بينما جلس برود على السرج. فتاة أخرى ترتدي شورتاً وردياً، وهو أقصر شورت في العالم، كانت تجلس على أحد المقاعد، وقد ضمت ذراعيها حول جسدها. ويخيل لمن يراها أنها ثملة. فهل كنّ جميعهن ثملات؟ أخذ الشبان يضحكون.

أخذت أنا وكيت صحنيهما إلى آخر حديقة سوان.

تمتعت أنا: «أيّ منهن؟».

أجابتها كيت: «تلك، هناك، التي تضع خرقة تعتبرها بمثابة بلوزة».

فقالت آنّا: «هذه ليست سوى حمالة نهدين».

«حمالة نهدين؟ إنها تبدو مثل مقلع السيارة؟».

«هل هي التي كان يركض وراءها «K.D.»؟».

«نعم».

«أنا أعرف تلك التي هناك، فهي تأتي إلى المخزن، ومن هما الاثنان المتبقيتان؟».

«هذا يتجاوز علمي».

«انظري. ها هي بيلي ديليا تذهب».

«طبعاً».

«أوه، هيا كيت دعي بيلي وشانها».

تناولتا ملحقة سلطة بطاطا. وصلت أليس بوليام وراءهما وهي تتمتم: «يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي».

قالت كيت: «مرحباً يا خالتي أليس».

«هل سبق أن رأيت مثل هذا المشهد؟ أنا أراهنك بأنك لن تستطيعي أن تجدي حمالة نهدين واحدة في كل تلك الزمرة». ورفعت أليس قبعتها في النسيم «لماذا تبترسين؟ أرى أن هذا ليس طريفاً على الإطلاق».

فقالت كيت: «لا، بالتأكيد لا».

«تذكرني أنها حفلة زفاف».

«أنت على حق ياخاله أليس، لقد قلت إنك على حق».

«وهل تحبين أن يأتي أناس يرقصون بصورة معيبة في حفلة زفافك؟» كانت أليس تحملق في شعر آنّا بعينيهما السوداوين البرّاقتين.

هزّت كيت رأسها بصورة تنمّ عن التعاطف وهي تزُم شفيتها

لكي لا تثقلت منهما ابتسامته. وحاولت أنا أن تبدو منزعة بشدة أمام زوجة القس القاسية هذه: عزيزي يسوع، إنني لن أبقى ساعة واحدة في هذه المدينة لو تزوجت من ريتشارد.

قالت أليس وتوجهت بخطوات ثابتة نحو بيت سوان: «إنني ذاهبة للبحث عن القس نفسه ليضع حداً لكل هذا».

انتظرت أنا وكيت سماع عدة ضربات إيقاعية قبل أن تنفجرا بالضحك. وفكرت أنا إنه مهما كان الأمر فإن نساء الدير قد أنقذن المناسبة. فلاشيء كخطايا الآخرين للتسلية. لقد كان الشبان مخطئين. كونوا غضبتهما. ولكن بالمناسبة، أين هو ريتشارد؟

لقد كان ريتشارد ميسر راكعاً على ركبتيه، غاضباً لأنه غضب ولم يستطع السيطرة على نفسه. ولأنه معتاد على تخطي العوائق وخبير بأمور الخلافات فإنه لم يكن يتوصل إلى التوفيق بين مستوى غضبه الحالي وبين ما كان يبدو أنه مصدره. وهو يحب الله كثيراً لدرجة التألم، حتى وإن كان هذا الحب يجعله أحياناً ينفجر ضاحكاً. وهو يحترم زملاءه كثيراً. لأنهم قاوموا قروناً عديدة. فقد صلوا وصاحوا ورقصوا وغنوا وقبضوا نقوداً وناقشوا ونصحوا وتوسلوا وأمروا. وكثيراً ما كان حماسهم يشتد أو يخمد ببطء في بلد شتّى عليهم الحرب، عليهم وعلى أتباعهم، دون هوادة. حرب جبناء بلا شرف ولا عقل ودون مكافأة. حرب بلا مبادئ تعتمد على نذالة المنتصر كما تعتمد على زيفه. وعلى المسارح وفي الكتب، كان هو وأخوته في قلب المهزلة، ظهورهم معرضة لخناجر المحاكاة الساخرة. يلعنهم المحكومون بالإعدام، ويهزأ منهم القوادون. كان البعض يعطيهم على مضض مبالغ زهيدة عند جمع التبرعات، ومع ذلك، عبر كل هذا إذا بدت «الروح» أنها تهرب، فإنهم يتعلقون بها بأسنانهم إذا لزم الأمر، ويشدون عليها بقبضاتهم إذا كان ذلك ضرورياً. لقد حملوها إلى أبنية صدر بها قرار هدم، وإلى كنائس

هجرها البيض، وإلى خيام منجّدة. إلى بعض الوديان، أو إلى وسط
فرجة تقع بين أشجار إحدى الغابات. وشَوْشَوْها في أكواخ ينيرها
ضوء القمر، خوفاً من أن يراهم رجال القانون. وصلّوا لها وراء
الأشجار وفي بيوت تقع على المروج، دون أن يجعل زئير الرياح
أصواتهم ترتجف. ومنذ عهد الأثيوبيين إلى واجهات المخازن
السوداء، منذ عهد المعمدانبيين الحجاج إلى زمن دور السينما
المهجورة، بأحذية ملمعة وجزمات بالية، بسيارات خربة وأخرى من
نوع لينكولن كورتيكتال فارهة، بعضهم جيّدو التغذية، وآخرون
سيئو التغذية، كانوا يتركون أضواءهم الضعيفة المرتعشة أو
المبهرة للنظر كالشهاب لتخترق ظلام الأيام. كانوا يمسحون بصاق
البيض عن وجوه الأطفال السود، يخفون بعض الغرباء عن
الميليشيات والشرطة، وينقلون معلومات تنقذ حياة بعض الناس
بسرعة تفوق سرعة الصحف وبشكل أفضل من الراديو. وعند أسرة
المرضى كانوا ينظرون إلى الموت في العين والقم. ويضمّون
رؤوس الأمهات الباكيات إلى أكتافهم ويحملون إلى المقبرة فتيات
انتزعت منهن الحياة. ييكون على المحكومين بالأشغال الشاقة
المقيدين بالسلاسل، ويتجادلون مع القضاة. يجعلون مجموعة كاملة
من المؤمنين تزاو بالدعاء وبالصلاة، وتصيح مدفوعة بالنشوة
والإيمان: أن الموت هو «الحياة» وأنتم لاتعرفون، وأن كل حياة،
«مقدّسة» في «نظره» وأنتم لاتعرفون. ولاعتيادهم على رؤية الشر،
فقد أصبح خطمهُ مألوفاً لديهم. ومع ذلك فقد كان هناك شيء مدهش
حقاً في الصيغ والأشكال التي تتخذها نعمة الله ويتجلى بها عفوهِ:
الإنجيل في زمن التعذيب، الانتصارات التي يحققها أناس كان
الآخرون يُمنعون من تأييدهم ومساعدتهم. الاستقامة التي لاغبار
عليها. لدى أولئك الذين لايدعون أية جزمة تلقّيهـم على الأرض -
أناس يعتبرون صبر أيوب ضرباً من القلق، ومن الأناقة عندما يكون
كل شيء حولهم رثاً.

يعرف ريتشارد ميسنر كل هذا ومع ذلك، حتى وإن كانت
معرفته واحترامه سليمين لم يمسا، فإنّ الرجفة التي كان يشعر بها

ظلت مستمرة. فقد لامس بوليام غشاءً رقيقاً يحتجز رغبة متعطشة للانتقام، رغبة هو بحاجة لفهمها لكي يُخضعها. فهل استطاع ذلك العصر التأثير عليه أخيراً؟ والحزن الذي حصل بعد اغتيال مارتن لوثر كينغ هذا الحزن الذي انتشر وتصادد ببطء كمد البحر، هل غمره الآن؟ أم كان ذلك فاجعة مشاهدة الانحطاط الطويل الأمد لرئيس مونرو؟ وهل أفسدته تلك الحرب الطويلة التي لا يمكن فهمها؟ هل كان يجري كالفيروس الهاجع زمن الازدهار والآن وصل إلى النهاية الممزقة؟ جميع أعضاء فريق كرة القدم في جامعتهم قتلوا في تلك الحرب. أحد عشر شاباً ذوو أكتاف عريضة. هم الوحيدون الذين أعجب ورغب بأن يكون شبيهاً بهم. فهل كان الآن فقط مشكوك اللسان أمام موتهم العقيم؟ وهل كان هذا أصل الجوع البدائي إلى العنف؟

أم كانت روبي؟

ماذا كان يحدث في هذه المدينة، وهؤلاء الناس الذين يثيرون غضبه؟ إنهم لا يختلفون عن الجماعات الأخرى إلا بأمرين: الجمال والعزلة. كانوا يتصفون بالجمال جميعهم، وجمال بعضهم استثنائي. وفيما عدا ثلاثة أو أربعة، كانوا سوداً كاللحم، رياضيين بنظرات جامدة، يبدي جميعهم شكوكاً جليدية من الغرباء، فيما عدا ذلك، فإنهم كانوا يتصرفون كما لو أنهم في جماعات صغيرة من السود: يحتاجون للحماية، أتقياء، مقتصدون دون أن يكونوا بخلاء. يوفرون ويُنفقون، يحبون أن يكون لهم نقود في المصرف وأن يملكوا أشياء جميلة. وعندما وصل ظن أن لديهم عيوباً طبيعية، وخلافات عادية. كانت نجاحات جيرانهم تعجبهم وعندما يسخرون من الكسالى أو من العاطلين عن العمل كانوا يضحكون أيضاً. على أية حال، كان هذا فيما مضى. أما الآن فيبدو أن حذرهم الشديد السابق من الغرباء أخذ يتبدى شيئاً فشيئاً وبشكل متزايد فيما بينهم، وكل منهم يبديه نحو الآخرين. فهل ساهم هو في ذلك؟ لم يستطع أن يمنع نفسه من اللظن بأنه لولا وجوده لما كان هناك، دون شك، أي جدل أو شجار، ولا قبضات مرسومة، أو

خصومات بشأن بعض الكلمات الناقضة على فؤة الفرن. ولا تحذيرات بخصوص الاجتماعات التي يعقدها بعض الشبان. وبالتأكيد لم تحصل مجابهاة عامة ولاجسدية بين رجال الأعمال. لم يكن أحدٌ يهرب ولا أحد يشرب. وحتى مع اعترافه بنصيبه من المسؤولية في تخريب العلاقات في المدينة، فإن ميسز ظل غير راضٍ. فلماذا هذا العناد، وهذه التهجّات على القيام بالمطالبة ببعض الحقوق، وبطلب الحصول على دور أكثر أهمية في قضايا وشؤون السود؟ كانوا يعرفون أكثر من أي أحد ضرورة توافر إرادة موحدة، ومكافأة الشجاعة والولاء. ويدركون أكثر من الجميع آلية القوة المصارعة. أليسوا كذلك؟

ففي مرات عديدة، ودون أقل استفزاز، كانوا يُخرجون من مخزون قصصهم حكايات عن الأقدمين، أجدادهم، وأجداد أجدادهم وأبائهم وأمهاتهم. مجابهاة خطيرة، مناورات ماهرة، شهادات على التحمل، على الذكاء والمهارة والقوة. حكايات عن ضربات الحظ وعن الإهانات. لكن لماذا لم يكن لديهم حكايات تتحدث عنهم بالذات؟ كانوا يلتزمون الصمت بشأن كل مايتعلق بحياتهم، ليس لديهم مايقولونه عنها، بل يحولون مجرى الحديث إلى موضوع آخر، كما لو أنّ بطولة الماضي تكفي للعيش في المستقبل. كأنهم يريدون نسخاً وليس أطفالاً.

راح ميسز وهو راكع على ركبتيه يأمل بالحصول على أجوبة، وليس على قائمة أسئلة تزداد طولاً. عند ذلك فعل ماكان يفعله عادة: طلب «منه» أن يرافقه في مسيرته وهو متأخر وثائر الأعصاب إلى حفلة الزفاف. ولكونه «برفقته» هدأ ثورة غضبه. غادر منزله وسار باتجاه الشارع المركزي وهو يسمع صوت تنفّس «رفيقه» الخافت، ولكن دون أية كلمة للنصيحة أو للمواساة. مرّ من أمام مخزن أدوية هاربر ومن هناك رأى تجمعاً يقرب الفرن. ومع سماعه ضجيج محرك بحاجة للإصلاح انطلقت سيارة كاديلاك. وفي أقل من دقيقة مرّت بقربه، وعرف من الراكبات فيها اثنتين من نساء الدير. وما أن وصل إلى باحة آل مورغان حتى كان الجمع قد تفرّق.

الأطفال المنتشون من أكل الحلوى والساكر يركضون ويتعثرون بكليتي ستيوارد. لم يبق أحد قرب القرن. وفي اللحظة التي دخل فيها إلى بيت سوان وديك رأى كل شيء مؤثلاً. تقدم مينوس وضمه بين ذراعيه. وقطع بوليام وديك وأرنولد نقاشهم الحاد لكي يضافوه. كاري وزوجته كانا يغنيان معاً ترافقهما جوقة من المرددين. كما أنه لم يدهش لرؤيته جف فليتيود يضحك بصورة ودية مع الرجل نفسه الذي صوب إليه سلاحاً قبل بضعة أسابيع - العريس المتزوج حديثاً. العروس وحدها كانت تنظر شذراً.

لم يكن الصمت الذي يخيم في الكاديلاك ينم عن الانزعاج. ولم تكن راكبات السيارة ينتظرن الشيء الكثير من الرجال الذين يرددون الملابس الأنيقة، فلم يدهش عندما طُلب منهن مغادرة المكان. قال أحدهم: «ارجعن الدراجات إلى هؤلاء الفتيات الصغيرات»، وقال آخر: «انصرفن من هنا» وفمه ممتلئ بالتبغ الذي يمضغه. ودون أن يتلفظ أحد بكلمة أبعادوا الشبان الذين ضحكوا معهن وصفقوا لهن. من أجل هذا كان يكفي أن يوجه رجل، بطول سبعة أقدام، نظرة، أو يبيدي إشارة برأسه. كما أنهن لم يكنن غاضبات من الطريقة التي طردن بها - ربما انزعجن قليلاً، ولكن الأمر لم يكن جاداً. إحداهن، تلك التي كانت تقود السيارة، لم يسبق لها أبداً أن رأت رجلاً لا يبدو كأحد المتفجرات التي لم تشتعل. والأخرى التي تجلس بجوارها راحت تفكر بالصور الجنسية الباعثة على الملل التي لاشك أنها قد أثارتها وقررت ثانية الذهاب لتتسكع في مكان آخر. الثالثة التي تجلس على المقعد الخلفي، والتي سرها مآرته هناك، أخذت تفكر بأنها رغم معرفتها ماهو الغضب فهي لم يكن لديها أية فكرة عن الإحساس الذي يحدثه. كانت تنفذ دائماً كل ما يطلب منها، ولذلك عندما قال أحد الرجال: «ارجعن الدراجات...» فعلت ذلك وهي تبتسم. وكانت المسافرة الرابعة مسرورة جداً لأنهن طردن. كان هذا

يومها الثاني في الدير واليوم الثالث الذي لم تتحدث فيه بكلمة واحدة مع أحد، فيما عدا اليوم، عندما اقتربت بيلى «كذا» منها، لتقف بجوارها.

«هل أنت بخير؟» كانت ترتدي فستاناً وردي اللون، وعوضاً عن قبة الحمام، شكّت وروداً صغيرة صفراء في شعرها. «بالاس؟ هل أنت بخير؟»

هزت رأسها وحاولت ألا ترتجف.

«هل أنت بأمان هناك، ولكني سأحضر لأرى إذا كنت بحاجة إلى شيء، موافقة؟»

همست بالاس: «نعم»، ثم: «شكراً».

هذا ماجرى. فقد انفرجت شفتاها قليلاً لتتلفظ بكلمتين دون أن يدخل ماء أسود إلى فمها. كان البرد ما يزال يجمّد عظامها، ولكنّ الماء الأسود انحسر حالياً. والليلة، من المؤكد أن يعود الماء وتجذ نفسها غائصة فيه - وسحاول ألا تفكر بما كان يسبح تحت عنقها. ستركّز على سطح الماء وعلى البريق الوامض الذي يلامس جوانبه ثم يندفع إلى ما وراء البريق المظلم. وظلت تأمل، وتأمل أن تكون الأشياء التي في الأسفل، أسماكاً ذهبية، مثل تلك التي كانت في الحوض الذي اشتراه لها والدها في الخامسة من عمرها. السمك الصغير الملون، السمك الملائكي. لاتماسيح أميركية ولا أفاع. كانت تلك بحيرة وليست مستنقعاً أو حوض حديقة حيوانات سان دييغو. وصلت الهمسات العائمة فوق الماء إلى مدى أقرب من نداءاتهم التي ترددت بعيداً. «هنا، هنا، بس بس، يا قطلتي الصغيرة، يا قطلتي الصغيرة». ولكن نداء «امنحني مصباح النور، فوق المقعد، أهذه هي، هيا نرحل، قد تكون غرقت، لا محال» اندست في الجلد خلف أذنيها.

حدقت بالاس عبر نافذة السيارة إلى السماء شديدة الهدوء والمنظر شديد الرتابة لدرجة أنها لم تشعر أنها في سيارة تسير.

كان عطر علكة جيبي الذي يمتزج برائحة دخان سيجارتها يسبب لها الغثيان.

«هنا، هنا، بس بس، يا قطني الصغيرة!» سمعتُ بالاس هذا النداء منذ الأزل، وهو أجمل يوم في حياتها. على الدرج المتحرك، في عيد الميلاد الماضي. تَلَقَّظت به المجنونة، التي تستطيع أن تراها الآن بتفاصيل أكثر مما في المرة الأولى التي لمحتها بها.

كان الشعر على رأسها ينفرق بواسطة مشبك أحمر من البلاستيك يمكن أن يشكل تسريحة مرتفعة أو تجعيدة لو كان أطول بوضع بوصات. ولكنه لم يكن كذلك. بل مجرد باقة تبقّيها منتصبّة شريطة ولّادية. ومشبكان آخران، أحدهما أصفر والآخر بنفسجي مشع، يمسكان بخصلتين من الشعر عند صدغيها. وكان مخمل بشرة وجهها الأسود يمنع رؤية الاستدارتين الحماوين اللتين كانتا بحجم البسكويت، وأحمر الشفاه الذي يتجاوز حواف شفّتيها، وخط حاجبيها الأسود المنحدر نحو أعلى وجنتيها. كلّ ماتبقى بدا اصطناعياً وسوقياً: أقراط البلاستيك البيضاء، الأساور النحاسية، لأكّى الباستيل حول عنقها، والمزيد المزيد غيرها في الحقائق التي تنقلها: حقيبتان للحمل ماركة (BOAC) ومحفظة نقود معدنية مجدولة بشكل علبة السيجار. كانت ترتدي بلوزة قطنية بيضاء قصيرة وتنورة حمراء قصيرة جداً. وعلى ساقها القصيرتين جواربها التي بلون القرفة هذا اللون الذي يعتبر مناسباً جداً لسيقان النساء السوداوات، وهي تشكل عبئاً أثناء الركض بمقدار مايسبب كعب حذاءها أثناء القفز. تهذّل جلد ذراعيها وبطنها المدور الصغير، يحملان على الاعتقاد بأنها في الأربعين من العمر، ولكن يمكن أن يكون عمرها عشرين أو خمسين سنة. ورقصتها على الدرج الآلي الصاعد، مشيتها المتخلعة، وتأرجح رأسها، كل ذلك يذكر بزمان مضى، وبأزواج حركاتهم بطيئة في قاعة سيئة الإضاءة. وليس التنوير الكهربائي السريع لعام 1974. ويمكن أن تكون أسنانها قد أصلحت في أي مكان: في كنغستون أو جامايكا، أو في باس

كريستيان في ولاية المسيسيبي في أديس أبابا أو وارسو، وهي أسنان تبهر الأنظار بذهبها، وتعطيها ابتسامة قديمة الزي، وطابعا جدياً ترفضه بقيّة هندامها.

جميع الأنظار، تقريباً، تحوّلت - اتجهت إلى الأسفل نحو الدرجات المعدنية العائمة تحت الأقدام، أو إلى الأعلى نحو تزيينات عيد الميلاد التي كانت تضفي البهجة على المخزن الكبير. أما الأولاد وبالاس ترولاف فكانوا يحدقون.

أعياد الميلاد في كاليفورنيا على الدوام تشكّل متعة، وعيد هذه السنة كان يعد بأنه سيصير أعجوبة. فالسماء الساطعة والحرارة زادت بريق الثلج الاصطناعي اللامع والأكاليل الخضراء والذهبية والفضية والوردية. وبالاس التي أربكتها الرزم الكثيرة بالكاد أفلحت في منع قدميها من أن تعلقا في الدرج المتحرك النازل. ولم تفهم لماذا تستهويها المرأة ذات أحمر الشفاه والأسنان الذهبية. إذ لم يكن بينهما شيء مشترك فالأقراط المعلقة في أذني بالاس من عيار 18 قيراط. والحذاء الذي تضعه في رجلها صنّع باليد، والجينز الذي ترتديه كان قد فضّل على قياسها، وإبزيم حزامها الجلدي من الفضة الدقيقة الصنع.

غانرت بالاس الدرج المتحرك وهي تتعثر، وقد شعرت ببعض الذعر، واندفعت نحو الأبواب، حيث ينتظرها كارلوس. كان النغم الرتيب المثير للغثيان للمرأة، يختلط في المخزن مع الأصوات الحنونة التي تردد أناشيد عيد الميلاد: «هنا، هنا، بس بس، يا قطتي الصغيرة أتريدين بعضاً منه، يا قطتي الصغيرة، يا قطتي الصغيرة؟».

«م - ا - ا - فيس!»

لم تكن مافيس تنظر إليها. اعتادت جيغي أن تشوه اسمها على الدوام بقطه كالعلكة البالونية.

«ألا تستطيعين السير بأسرع من عشرة أميال في الساعة؟
ياللمسيح!».

«يجب تغيير قِشَاط المروحة. ولن أسرع أكثر من أربعين». أجابتها مافيس.

فتنهت جيبي: «بسرعة عشرين أو أربعين، فكأننا نمشي سيراً على الأقدام».

«ربما أتوقف هنا لكي تري ماذا يعني السير على الأقدام، أهذا ماتريدين؟».

«كفاك غلاظة. أبعديني عن هؤلاء المتسكعين البائسين... سين هل رأيت الفتى مينوس ذلك الذي تَبَرَّز في بنطاله عندما كان معنا؟». أومات سينيكا برأسها موافقة. «لاحظي أنه لم يتفوه بكلام سني».

فأجابتها جيبي: «ولكنه لم يتوقف عن ذلك أيضاً: كل قيئه وبرازه اللذين نظفتهما».

فقالت مافيس: «كوني قالت إنه يمكنه أن يبقى. وجميعنا عملنا في التنظيف، ولست وحدك وحسب. لم يجبرك أحد على ذلك، لم يكن عليك الذهاب».

«لقد كان مصاباً بالهذيان المرضي، يزعم عالياً». فسألتها سينيكا: «من فضلك مافيس أتعطّيعين إغلاق النافذة؟».

«هل الريح قوية في الخلف؟».

«إنها ماتزال ترتجف، أعتقد أنها تشعر بالبرد».

«درجة الحرارة تزيد على تسعين درجة فهرنهايت! ولكن ماذا أصابها؟ بحق الجحيم!». أخذت جيبي تفحص الفتاة التي ترتجف. فتساءلت مافيس: «أيجب أن أتوقف؟ ربما تريد أن تنقياً أيضاً».

«لا، لا تتوقفي. سأمسك بها». ضمت سينيكا بالاس بين ذراعيها وأخذت تفرك ساعديها المقشعري البشرة. «ربما أصابها دوار السفر. كنت أظن أن الحفلة سترفع من معنوياتها قليلاً، ولكن يبدو أن حالتها ساءت».

«تلك المدينة البليدة المسافدة، تجعل جميع الناس يتقيؤون. لأستطيع أن أصدق أن ماجري يمكن أن يسمى حفلة: أناشيد دينية تجعلك ثولولين!» وانفجرت جيجي بالضحك.

«كان لك زفافاً ولم يكن ديسكو». أخذت مافيس تجفّف العرق الذي يسيل على عنقها. «وعلاوة على ذلك فقد أردت فقط رؤية «فُخْلك» الصغير».

«ذلك الحمار المبتذل؟».

«نعم، هو بالذات». ابتسمت مافيس «الآن وقد تزوج، تريدين استرجاعه».

«لو أردت استرجاعه، فإنني أستطيع ذلك. ولكن كل ما أريده هو الخلاص من حفرة القذارة هذه».

«إنك ترددين هذه الأقوال منذ أربع سنوات... أليس هذا صحيحاً يا سين؟».

فتحت جيجي فمها وتوقفت. هل مضى على ذلك أربع سنوات؟ كانت تعتقد أنهما سنتان. ولكنها أضاعت سنتين على الأقل مع «K.D.» ذلك القضيبي. هل أرغمته على الوفاء بوعده الطويل الأمد بأن يكسب ما يكفي من المال لكي يصطحبها بعيداً من هنا؟ أم أنها بقيت بسبب وعد آخر؟ وعد بأشجار متشابكة قرب الماء البارد. «نعم، حسناً، الآن إن هذا صحيح»، قالت ذلك لـ مافيس آملة أن تكون هكذا.

بدرت من مافيس غممة تنم عن الشك وخيم الصمت من جديد في السيارة. وضعت بالاس رأسها على صدر سينيكا، متمنية لو أنهن رحلن وأن يكون عوضاً عنهما صدر كارلوس الصلب والأملس ليسند لها خدها، مثلما حدث عندما أرادت ذلك طيلة مسافة السبعمئة

ميل. كانت هدية عيد ميلادها السادس عشر، تويوتا حمراء مليئة بالهدايا، ومسجلة كبيرة مزودة بثمانية أمكنة لوضع الأشرطة. أشياء تحبها أية أم، ولكنها متنوعة الألوان والأساليب، لأنها لم تكن تستطيع المجازفة بحياسة شيء يمكن ألا يعجب أمها التي لم ترها منذ ثلاث عشرة سنة. أن تسافر مع كارلوس على أن يكون هو السائق قبل عيد الميلاد تماماً، هو رحلة إجازة لرؤية أمها. لم يكن ذلك هرباً من أبيها، ولا سمحاً لأبرد رجل وأروع رجل في العالم بأن يختطفها.

كل شيء قد رُتّب بعناية: الأمتعة حُبِّت، والتحركات مُهت، خشية أن يلاحظ أخوها جيروم أو المربية بروفيدانس صاحبة عين النسر شيئاً. وأبوها لم يكن حاضراً بما يكفي لكي يلاحظ أي شيء. إنه محام قليل الموكلين، ولكن اثنين منهم من نجوم المغنيين السود. وطالما أن ميلتون ترولاف سيحافظ على بقائهما في القمة، فإنه لن يكون بحاجة للبحث عن موكلين آخرين، رغم أن عينه تظل متجهة إلى بعض الشبان الذين يمكنهم الوصول إلى المراتب الأولى في سباق الأغاني والبقاء فيها.

وبمساعدة كارلوس كان الأمر سهلاً ومسلية في آن واحد: والأكاذيب التي تُروى للصديقات لا بد أن تكون متينة، والأمتعة التي تُركت في البيت يجب أن تدل على العودة وليس على الهروب، (رخصة قيادة السيارة - نسخة ثانية عنها - ديبها المصنوعة من القطيفة، ساعتها، بعض أدوات الزينة - بعض الحلوى - بطاقات انثمان). وهذه الأخيرة أرغمتها على القيام بكثير من المشتريات والدفع نقداً في اليوم نفسه الذي سافروا فيه. ورغبت بشراء المزيد من الحاجيات وأكثرها لكارلوس ولكنه رفض ذلك. لم يقبل مطلقاً هداياها طيلة الفترة التي قضاها معها - أربعة أشهر. ولم يدعها تدفع حتى قيمة الوجبات. كان يغمض عينيه الجميلتين ويهز رأسه كما لو أن ماتقدمه له يحزنه. لقد التقت به بالاس في مرآب مدرستها، يوم امتنعت سيارتها التويوتا عن الإقلاع. والحقيقة أنها التقت به ذلك اليوم لكنها رآته في السابق. إنه مستخدم الصيانة في مدرستها

الثانوية، وهو يشبه نجوم السينما. وجميع الفتيات يَدْبُرْنَ أمامه. وفي اليوم الذي أُلصق فيه دُؤاسة البنزين على الصاج، في سيارة بالاس، قائلاً لها بأنَّ محركها غارق (مخنَّق)، كانت البداية. اقترح عليها أن يتبعها بسيارته الفورد حتى منزلها لكي يتأكد بأنَّ سيارتها لن تتوقف فجأة مرة ثانية. ولم تتوقف. فودَّعها بإشارة من يده. جلبت له بالاس هدية - ألبوم - في اليوم التالي، ووجدت صعوبة في إقناعه بقبولها. وقال: «فقط إذا سمحت لي أن أقدم لك سندويشة نقانق حارة». وبثأثير الانفعال جَفَّ فمُ بالاس. بعدها التقيا في عطلة نهاية كل أسبوع. وتصورت كل ما استطاعت تصويره لكي يمارس معها الحب، فيستجيب بولٍ عندما يتبادلان المداعبات، ولكنه رفض الذهاب إلى أبعد من ذلك طيلة عدة أسابيع. وهو الذي قال: «عندما نتزوج».

لم يكن كارلوس بولاً تماماً. كان نحائلاً. وعندما حدَّثته بالاس عن أمها الرشامة وعن المكان الذي تعيش فيه، ابتسم وقال إنه مكان يحلم به أي فنان. رُبِّت الأمور، ووضِع كل شيء في مكانه. كارلوس يستطيع مغادرة موقع عمله دون احتجاجات كثيرة أثناء العطل. سينشغل ميلتون ترولاف (والد بالاس) أكثر مما ينبغي بحفلات موكلية، وبمهرجانات ومسابقات التفوق وعقود التلفزيون. فنُشِت بالاس بين بطاقات الأعياد السنوية وأعياد الميلاد التي أرسلتها لها أمها عن أحدث عنوان، وسافر العاشقان دون أن يعيقهم شيء، فيما عدا العجوز السوداء المجنونة التي أفسدت أغاني عيد الميلاد.

تجمعت بالاس وانحشرت في صدر سينيكاً وإن لم يكن مريحاً، فقد خفَّف البرد الذي يسبب لها الألم. وفي المقدمة أخذت النسوة يتشاجرن من جديد، بأصوات مرتفعة جعلتها تشعر بالأم في رأسها:

«أيتها العاهرة الاستعراضية! سوان هي صديقتنا. ماذا سأقول لها الآن؟».

«إنها صديقة كوني. ولا علاقة لها معك».

«أنا التي تبيعها الفليفة، والتي تحضّر لها شرابها المقوي...».

«وهل هذا يجعل منك كيميائية؟ ليس ذلك سوى إكليل الجبل وقليل من النخالة، تُمزج مع الأسبيرين».

«مهما كان ذلك، فأنا المسؤولة عنه».

«فقط عندما تكون كوني ثملة».

«كفي عن الكلام عنها هكذا بفمك القذر، إنها لم تكن تشرب أبداً قبل أن تأتي أنت».

«هذا رأيك. إنها تنام حتى في قبو النبيذ».

«غرفة نومها هناك! حقاً إنك بلهاء».

«لم تعد خادمة الآن. ويمكنها أن تنام «في الطابق العلوي» لو رغبت بذلك. ولكنها تريد أن تظل بجانب الكحول وحسب، وهذا كل ما هناك».

«يا إلهي، أكره وقاحتك».

فقاطعتهما سينيكا بصوت ينم عن محاولة إعادة التفاهم والانسجام: «كوني ليست سكيرة. إنها بائسة، ومع ذلك كان يجب أن تأتي معنا. ربما سارت الأمور بشكل مختلف».

قالت جيبي: «كان ذلك على مايرام، على أحسن مايرام! إلى أن تدخلت جماعة ذلك القس من الديوثين». وأشعلت سيجارة من عقب سيجارتها السابقة.

فسألتها مافيس: «ألا تستطيعين التوقف عن التدخين دقيقتين؟».

«لا!».

وتابعت مافيس: «إنني لأرى ماذا يجد فيك ذلك الزنجي، بل ربما كنت أرى، لأنه يبدو أنك لاتستطيعين إخفاء ذلك».

«هل أنت غيورة؟».

«كالجحيم».

«كالحجيم، كالحجيم. لم يضاجعك أحد منذ عشر سنوات، أيتها القشرة الجافة».

فصاحت مافيس وهي تشد على مكابح السيارة لتوقفها:

«انقلعي، انقلعي من سيارتي!».

«أنت التي تريد أن تطردني؟ سأقتلع وجهك إذا لمستني أيتها المجرمة القذرة!» وأطفأت سيجارتها على ذراع مافيس.

لم تستطيعا بالحقيقة أن تتعاركا في الحيز المتاح لهما. ولكنهما حاولتا. ضمت سينيكا بالاس بين ذراعيها وأخذت تنظر. فيما مضى كان يمكن أن تحاول الفصل بينهما، ولكنها الآن لم تعرف أفضل من ذلك. فحين تتعبان تكفان عن العراك ويسود السلام لزمن أطول مما لو تدخلت بينهما. كانت جيغي تعرف نقاط مافيس الحساسة: كل ما يسيء إلى كوني ويسبب لها الإهانة، وكل إشارة إلى وضعها كهارية. وقد علمت مافيس خلال رحلتها الأخيرة من أمها أن مذكرة توقيف قد صدرت بحقها بتهمة سرقة كبيرة وهجران الزواج وللإشتباه بأنها قتلث اثنين من أطفالها.

أخذت الكاديلاك تتأرجح. جيغي تعرف كيف تعارك، ولكن جهودها كانت بلا جدوى - فهي لا تريد أن يصطبغ وجهها الجميل بالكدمات الزرق أو بالخرمشات، وهي تشعر دائماً بالقلق من أجل شعرها. كانت مافيس تلکم ببطء ولكن بصورة دقيقة وبسرور. وعندما رأت جيغي دماً ظننت أنه دمها، غادرت السيارة وهي تزحف على أربع ولحقت بها مافيس. وتحت سماء حارة كالمعدن المحمى، خالية حتى من رق عصافير، تابعن العراك على الطريق، وعلى جانبه المنخفض.

نهضت بالاس، منبهة بالجسدين المتدحرجين في الغبار واللذين يسحقان الأعشاب السامة. جسدان نشيطان يتجاهلان من ينظر إليهما، تحت سماء أوكلاهوما الخاوية، وتحت سماء ملونة في مهيتا في نيومكسيكو. بعد عدة شهور من العناق والقبلات المثيرة

مع دي دي ترولاف: شهور أمضتها منذهلة بالمناظر الرائعة أمام نوافذ أمها، شهور تناولت خلالها مأكولات شهية، شهور من أحاديث الفنانين مع أصدقاء دي دي - كل أنواع الفنانين: هنود، نيويوركيون، عجائز، هيئوون، مكسيكيون، وسود - وبضعة شهور أمضوها بالنقاش، هم الثلاثة، تحت نجوم ليل كانت بالاس تعتقد أن والته ديزني هو الذي رسمها. بعد كل هذه الشهور قال كارلوس: «أنا أنتمي إلى هذا المكان» وأرسل تنهدة عميقة. «إنه المكان الذي أبحث عنه». نظرت بالاس إلى وجهه الذي يغمره ضوء القمر وتوقف قلبها. تتأبى أمها، وأضافت دي دي ترولاف: «هذا مؤكد». وتتأبى كارلوس هو أيضاً، وفي تلك اللحظة لا بد أنها لاحظت - التثاؤبات المتزامنة والأصوات الهادئة. وكان عليها أن تجري بعض العمليات الحسابية الصغيرة. فكارلوس أقرب سناً إلى دي دي منه إليها. لو أنها لاحظت ذلك لاستطاعت ربما أن تمنع حدوث تشابك الجسدين اللذين يتبادلان الأنين على العشب، متجاهلة كل من يراقبها. وعندها ما كان هناك سباق لاهت نحو التويوتا ولاقيادة عمياء على الطرقات دون هدف، ولااصطدامات ولاالضربات الجانبية للشاحنات. ولاماء تحته أشياء رخوة.

وشعرت بالاس من جديد بأشمزاز، بدغدغات ومداعبات المجسّات والحرشف غير المرئية، فحولت نظرها عن مشهد المرأتين اللتين كانتا تتعاركان ورفعت ذراعيها لتطوق سينيكا وتجعل وجهها يغوص أكثر في صدرها الصغير.

سينيكا وحدها رأت الشاحنة قادمة. أبطأ السائق في سيره، ربما لكي يتجاوز الكاديلاك التي تغلق الطريق، وربما ليعرض المساعدة، ولكنه ظل لبعض الوقت ينظر إلى امرأتين مجرمتين تتدحرجان على الأرض باللبسة ممزقة وعري باد للعيان. ويرى أيضاً امرأتين أخريين متعانقتين، تحتضن إحدهما الأخرى على مقعد السيارة الخلفي، خلال فترة طويلة ظل يتأمل بعينين جاحظتين هذا المشهد. ثم هز رأسه وأطلق العنان لمحرك سيارته.

وأخيراً بقيت جيغي ومافيس مستقلتين، لاهتتين، ثم جلست إحداهما بعد الأخرى لكي تتحسّسا نفسيهما وتحصيا جروحهما. أخذت جيغي تبحث عن حذائها الذي فقدته ومافيس عن المشبك البلاستيكي الذي كان يضم شعرها، ورجعتا إلى السيارة دون أن تتلفظا بكلمة. أخذت مافيس تقود بيد واحدة. وغرست جيغي سيجارة في زاوية فمها التي لم تكن متورّمة.

في عام 1922 ضحك العمال البيض فيما بينهم - بيت ضخم من الحجارة وسط لاشيء. لم يضحك الهنود. في ظل مناخ سيء، وفي منطقة قليلة الأشجار حيث تعتبر التدفئة بالحطب خرقاً للمقدسات، والفحم غالي الثمن وروث البقر كريه الرائحة، بدا السكن في هذا البيت غير معقول. أوصى المختلس على عدة أطنان من الفحم - لم يستهلكوها. أما الراهبات اللواتي استعذن ملكية البيت فقد توافرن لديهنّ قوة التحمل والكبروسين والملابس الكثيفة متقنة الصنع للغاية. ولكن في فصل الربيع والصيف وفي بعض فصول الخريف الحارة كانت الجدران الحجرية توفر برودة محببة.

صعدت جيغي الدرج، وسبقت مافيس إلى ماء الحمام. وبينما كان الماء يجري في الأنابيب، خلعت ملابسها ونظرت إلى نفسها في المرآة الوحيدة التي لم يُغطها الدهان. فيما عدا مرفقيها وإحدى ركبتيها، لم تكن هناك إصابات كثيرة: بالتأكيد هناك بعض الأظافر المكسرة، ولكن لاعين متورمة، ولا أنف مكسور. مع ذلك فإن الازرقاق لن يظهر إلّا في اليوم التالي. شفتها المتورّمة هي التي أقلقته، لأنها كانت مشقوقة أيضاً. وعندما ضغطت عليها انبثق منها خيط من الدم، وفجأة أخذ الجميع يركضون في شوارع أوكلاند بكاليفورنيا. صفارات - شرطة؟ سيارات إسعاف؟ سيارات إطفاء؟ - تصمّ الأذان. وجدار من رجال الشرطة الذين يتقدّمون، أخذ يسدّ كل ممرّ نحو الشرق والغرب. وأولئك الذين يركضون أخذوا يلقون بما جلبوه أو وجدوه ويهربون. في البداية كانت هي وميكي يممسك أحدهما بيد الآخر ويتجهان نزولاً، راكضين في شارع جانبي وراء

حشد في حالة من الفوضى. شارع ذو بيوت صغيرة ومروج خضراء. لم تكن هناك عيارات نارية - ولا أية رشقات من النيران. كان هناك فقط صرخات الفتيات الموسيقية، وهدير الرجال المنتظم بوجوههم الفظّة. صفارات انذار، نعم، ومكبرات صوت بعيدة، ولكن لأصوات لزجاج يتحطم، أو لجسد يسقط، أو رصاص ينطلق. إذن لماذا أخذت بقعة حمراء تنتشر على القميص الأبيض للصبي الصغير؟ لم تكن ترى جيداً. تكاثف الحشد ثم توقف، وقد منعه شيء ما من التقدم إلى الأمام. كان ميكي قد ابتعد قليلاً عنها، وأصبح بينه وبينها عدة أكتاف، وهو يحاول المرور. نظرت جيبي مجدداً إلى الصبي الصغير الملقى على المرج الأخضر الذي قُصّت أعشابه حديثاً. كان حسن الهندام جداً: ربطة عنق فراشة، قميص أبيض، حذاء لماع برّباط. ولكنّ القميص أصبح الآن وسخاً، ملطخاً ببقع حمراء. ارتجف، فتدفق الدم من فمه. مَدَّ يديه بحذر لكي يلتقطه حتى لا يلوّث حذاءه كما لوّث قميصه.

قالت الصحيفة: أكثر من مئة جريح، ولكن دون أية إشارة لإطلاق النار أو لصبي صغير مصاب. لا نذكر لصبي ملوّن صغير أنيق يحمل دمه بين يديه.

خيط رفيع من الماء يسيل في حوض الحمام. وضعت جيبي بعض اللقافات في شعرها. ثم تمددت على بطنها لتتبيّن مرة أخرى التقدم الذي أحرزته بشأن العلبة المخبّأة تحت حوض الحمام. كانت البلاطة التي تعلوها قد انتزعت تماماً، ولكنّ العلبة المعدنية تبدو مثبتة في مكانها بالإسمنت. والمشكلة هي في الوصول إليها. فلو أنها تحدّثت مع «K.D.» عنها لساعدها، ولكن في هذه الحالة يجب عليها أن تتقاسم معه محتوياتها: ربما كانت من الذهب، من الماس، أو رزماً ضخمة من أوراق النقد. وأياً كانت فإنها لها - ولـ كوني إذا أرادت شيئاً منها. ولكن ليس لأي شخص آخر، وبشكل خاص، ليس لـ مافيس. وسينيك لا تريد شيئاً، وتلك التي وصلت أخيراً بعينيها اللتين تشبهان الزجاج المتشظي وشعرها الكثيف الملفوف

حول رأسها، كيف يمكن معرفة من وماذا كانت؟ نهضت جيغي، فمسحت التراب والأوساخ التي التصقت ببشرتها ثم غطست في الماء. ظلت جالسة تفكر بالاحتمالات المختلفة. كوني، فكرت، كوني.

ثم تمددت لكي تصل الرغوة إلى ذقنها وأخذت تفكر بأنف سينيكا، وبالطريقة التي يتحرك بها منخراها وهي نائمة. بشفتيها البارزتين قليلاً، سواء ابتسمت أم لا، بحاجبيها المقوسين بشكل رائع. بصوتها - الرخيم - والمتلهف بعض الشيء، كالقيلة.

وفي الحمام الكائن في الطرف الآخر من الرواق، كانت مافيس المبهجة تتخطف معلق بها على المغسلة. ثم غيرت ملابسها قبل أن تنزل إلى المطبخ لتحضير العشاء: بقايا من لحم الدجاج مقطعة قطعاً صغيرة مع القليفل، بصل وطرخون ومرق، وربما قليل من الجبن، وكل هذا ضمن تلك القطيرة التي علمتها كوني طريقة صنعها. هي تحب هذا الطعام، ستحمل طبقاً منه إلى كوني في الأسفل وتحدثها بما حصل، دون أن تذكر لها شيئاً عن المشاجرة، التي لم يكن لها أهمية تذكر. والواقع أن ذلك أمتعها. لقد نشطها أن تلکم، وتلکم وحتى أن تعض جيغي، مثلما ينشطها تحضير الطعام. وكان هذا دليلاً إضافياً أن مافيس القديمة قد ماتت فعلاً. تلك التي لم تكن تستطيع الدفاع عن نفسها بمفردها حيال فتاة في الحادية عشرة من عمرها، وتبدو أقل قدرة على ذلك أيضاً أمام زوجها. تلك التي كانت فيما مضى عاجزة عن أن تتصور أو تحضر أبسط الوجبات، وتعتمد على المحلات التي تباع وجبات جاهزة أو على الموزعين الذين يجلبون هذه الوجبات بالسيارة، أصبحت الآن تبتكر وصفات لمأكولات شهية دون أن تتسوق كل يوم.

ولكن إشارة جيغي إلى غياب حياتها الجنسية قد جرحها - وكان هذا طريفاً بمعنى من المعاني. فهي عندما تزوجت من فرانك كانت تحب ذلك كثيراً بطريقة ما. ثم أصبح الأمر عبارة عن تعذيب مفروض يدوم وقتاً أطول ولكنه لا يختلف كثيراً عن الزمن اللازم لسقوطها عن كرسيها بسبب صفة. ولم يكن هناك شيء يشبهه

خلال السنوات التي قضتها في الدير، ومع ذلك فعندما كان ذلك يحدث في الليل فإنها لم تعد تقاومه. فيما مضى كان هذا عبارة عن كابوس يحدث عرضاً - شبل أسد يقضم عنقها. ولكنه اتخذ مجدداً شكلاً آخر - مخلوقاً بشرياً - يستلقي فوقها، أو يلتصق بها من الخلف. فقالت لها كوني: «إنها الحُصون»^(٥)، قاتليها». ولكن ما فيس لاتستطيع أو لاتريد أن تفعل ذلك. والآن هي بحاجة لأن تعرف إذا كان ماقالته جيبي عنها يفسر استقبالها له بسرور. فهي تسمع ميرل وبيرل على الدوام وتشعر بهما يتحركان في جميع غرف الدير. وربما ينبغي عليها أن تُقَرَّ وتُعترف لكوني بأن الزيارات الليلية، مضافة إلى الأولاد الذين يضحكون وإلى «أم» تحبها، هم أشبه بأسرة سعيدة. بل وأكثر من ذلك: عندما ستحمل طعام العشاء إلى كوني ستروي لها ماحدث في حفلة الاستقبال، وكيف أن جيبي أربكت الجميع، وخاصة سوان، ثم قد تسألها ماذا يجب أن تفعل بشأن الزيارات الليلية. كوني ستعرف. كوني.

تبين مرة أخرى أنَّ شال نورما فوكس المصنوع من الكشمير مفيد جداً. فقد لفتته سينيكاً حول بالاس وسألتها عما إذا كانت بحاجة لأي شيء: ماء؟ شيء تأكلينه؟ أشارت بالاس بالنفي. ففكرت سينيكاً بأنها ماتزال لاتستطيع البكاء. فالألم عميق جداً، وعندما يصعد ستتبعه الدموع، وتريد سينيكاً أن تكون كوني هناك عندما يحدث ذلك. لذا دفأت الفتاة بقدر ما استطاعت، وحاولت أن تسرح لها شعرها الكثيف، وأشعلت شمعة تستنير بها واقتادتها إلى جوار كوني.

في قسم من القبو، كانت جدران غرفة كبيرة باردة مقوَّسة السقف، مغطاة برفوف مقسَّمة إلى كوى صغيرة لوضع الزجاجات.

(٥) الحُصون: روح شريرة يُزعم بأنها تحتضن النساء وهنَّ نيام.

نبذ معتق يعادل عمره عمر كوني. لم تَكُذِّ الراهبات يلمسُهُ، هذا ماقالته لها كوني، إلا عندما ينجح في إحضار أحد القساوسة ليقم القداس الذي كُنْ محرومات منه. وأحياناً كُنْ يصنعن في عيد الميلاد كاتو يغرقة بنبيذ «فوف كليكو» الذي يعود صنعه لعام 1915 ، عوضاً عن الروم. ومن كل جهة، تبدو في الظل صناديق كبيرة وصناديق أخرى خشبية صغيرة، وقطع أثاث محطمة لاتصلح للاستعمال. تماثيل لنساء عاريات صنعت من الرخام المصقول، وأخرى لرجال نحتت من الحجارة الخشنة، وفي أعماق القبو هناك غرفة كوني. وكما تقول مافيس فإنها وإن لم تُبَيِّنْ لخدمة، لكنه ليس واضحاً لأي شيء هي مخصصة أصلاً. احتلتها كوني وأحببتها بسبب عتمتها، لأن ضوء الشمس فيها لايشكل تهديداً لعينها.

قرعت سينيكا الباب فلم تتلقَ جواباً، فتحت: كانت كوني جالسة على كرسي هزاز مصنوع من القصب تشخر قليلاً. فاستيقظت في الحال عندما دخلت سينيكا.

«من يحمل هذا النور؟»

«أنا سينيكا وبرفقتي إحدى الصديقات.»

«ضعيه هناك.» وأشارت إلى خزانة صغيرة موجودة وراءها.

«هذه بالاس. لقد وصلت منذ يومين. وقالت إنها تريد

مقابلتك.»

فسألتها كوني: «حقاً؟»

كانت الرؤية سيئة بسبب لهب الشمعة، ولكن سينيكا تبينت مريم العذراء، وزوجاً من الأحذية الصغيرة العائدة للراهبات، والمسبحة، وعلى طاولة الزينة رأت شيئاً يرسو في قاع جرة ماء.

سألت كوني: «من أساء إليك، يا صغيرتي؟»

جلست سينيكا على الأرض. كانت قد تخلت عملياً عن أي أمل في أن تتكلم بالاس الكثير هذا إذا قالت شيئاً على أية حال. ولكن كوني كانت سحراً. إذ أنها مدت يدها ببساطة، فتقدمت بالاس

نحوها وجلست على ركبتيها ثم أخذت تتكلم، وهي تبكي في بداية الأمر، بينما تقول لها كوني: «أشربي قليلاً من هذا» و: «ما أجمل هذين القرطين» و: «أيتها الصغيرة المسكينة، يا للصغيرة المسكينة المسكينة. لقد أسأؤوا إلى صغيرتي المسكينة».

كانت القصة مشبعة بالنيذ واستغرق ذلك ساعة، وحدثت عودة إلى الماضي، الناقص والمليء بالفجوات - تلك القصة الصغيرة عن أولئك الذين أسأؤوا إليها رُويت.

قالت إنها فقدت حذاءها، وفي البداية لم يشأ أحد أن يتوقف من أجلها، وقالت، ثم توقفت الهندية ذات قبعة اللباد الطرية، أو بالأحرى توقفت لأجلها شاحنة تغص بالهنود، بينما كانت تعرج حافية القدمين مرتدية الشورت على جانب الطريق. كان رجل يقود الشاحنة، وبجانبه امرأة على ركبتيها طفل. لم تستطع بالاس القول هل هو صبي أم بنت. ستة شبان كانوا يجلسون في المؤخرة. وبدا وجود المرأة هو الذي جعل قبول العرض ممكناً. تحت طرف قبعتها كانت عيناها الشهلأوان كالزجاج لاتنمان عن أي تعبير، ولكن وجودها بين الرجال جعلهم يبدون بمظهر متحضر - كالطفل الذي على ركبتيها.

سألتها: «إلى أين تذهبين؟».

في تلك اللحظة اكتشفت بالاس أن حبالها الصوتية لاتعمل. وفيما يتعلّق بالقدرة على إرسال الأصوات لم تكن قادرة على منافسة طاحون الهواء الوحيدة التي راحت ترسل أزيزها في الحقل الذي يقع خلفها. عند ذلك أشارت بإصبعها إلى الاتجاه الذي تسير فيه الشاحنة.

قالت المرأة: «اصعدي إلى الخلف».

فتسلّقت بالاس بين الرجال - أكثرهم في مثل سنّها - وجلست في أبعد مكان ممكن عنهم، وهي تصلي وتطلب من الله أن تكون المرأة أمّهم، أختهم، خالتهم - أو أن يكون لها تأثير كافٍ عليهم لكي تستطيع السيطرة عليهم.

أخذ الهنود يحدقون بها دون أن يتلفظوا بكلمة، واضعين سواعدهم على ركبهم، وهم ينظرون إلى شورتها الوردية، وإلى قميصها الـ «تي شيرت» اللباس. وبعد برهة فتحوا أكياساً ورقية وأخذوا يأكلون. قدموا لها سندويشة سحج ضخمة وإحدى البصلات التي كانوا يقضمونها كأنها تفاح. وقبلت بالاس شريحة خشية أن يعتبروا رفضها لها إهانة، ثم اكتشفت أنها تأكل بنهم مثل كلب وقد فاجأها جوعها. وراحت تستسلم للنوم من وقت لآخر بسبب اهتزاز الشاحنة، وفي كل مرة تستيقظ وهي تتخبط في حلم من المياه السوداء التي تدخل إلى فمها وإلى أنفها. اجتازوا مناطق ذات منازل مبعثرة، ومحطة أغوايز لبيع المحروقات، ولكنهم لم يتوقفوا إلا حين وصلوا إلى مدينة أكثر أهمية. كان الوقت نهاية العصر. فأتجهت الشاحنة نزولاً في شارع خالٍ، وأبطأت في سيرها أمام كنيسة معمدانية، ذات لوحة كتبت عليها كلمة: «بدائي».

قالت المرأة: «عليك أن تنتظري هنا، سيأتي شخص ليهتم بك». ساعدها الشبان على النزول، وانصرف الشاحنة.

انتظرت بالاس على درج الكنيسة. لم تكن ترى أي منزل ولا يوجد أحد في الشارع. وعندما غربت الشمس أصبح الهواء بارداً جداً وراح باطن قدميها العاريتين والملتهبتين وحده ينسبها البرد الذي يجمدها حتى النخاع. سمعت أخيراً صوت محرك وعندما رفعت نظرها رأت الهندية - ولكنها وحدها هذه المرة - خلف مقود الشاحنة نفسها.

قالت: «هيا، اصعدي!». أخذتها عبر عدة شوارع من هناك، وتوقفت أمام منزل منخفض، سقفه من التوتياء المتموجة، وقالت لها: «هيا، ادخلي، هذا مستوصف، لأدري إذا كنت تعانين من بعض المشاكل أو أي شيء آخر، في رأيي أن شكلك يدل على ذلك. لك شكل فتاة لديها مشكلة. ولكن لا تقولي لهم شيئاً. لأدري إذا كان هذا صحيحاً، لكن لا تتحدثي عنه، أسمعيني، الأفضل ألا تفعل ذلك. ماعليك إلا أن تقولي بأنك ضربت أو طردت، أو شيئاً من هذا القبيل».

ابتسمت عند ذلك، مع أن عينيها كانتا حزنتين. «شعرك فيه كثير من طحالب الأنهار». نزعت قبعتها ووضعتها على رأس بالاس قائلة: «هيا!».

جلست بالاس في قاعة الانتظار مع مرضى آخرين يلوذون بالصمت مثلها. امرأتان عجوزان تضع كل منهما وشاحاً على رأسها، طفل محموم على ذراعي أمه النائمة. نظرت موظفة الاستقبال إليها بفضول ينم عن الريبة، ولكنها لم تقل شيئاً. كان الظلام قد بدأ يخيم عندما دخل رجلان، أحدهما يده متأذية جزئياً. لم يكن أحد قد أولى بالاس أو الأم النائمة عناية بعد، ولكن الرجل الذي كان دمه يبلل منشفة حظي بالأولوية. وعندما اصطحبته موظفة الاستقبال خرجت بالاس مسرعة، دارت حول البناء وتقيأت كل لقمة من البصلة والسجق. وبينما كانت تشعر بغثيان شديد سمعت امرأتين تقتربان منها قبل أن تراهما. كانت الاثنتان ترتديان برتزين زرقاوين، وتضع كل منهما قبعة الحمام على رأسها.

قالت إحدهما: «انظري إلى تلك».

تقدّمتا نحو بالاس وتوقفتا، وقد أمالتا رأسيهما، وهما تنظران إليها وهي تلهث.

«أتدخلين أم تخرجين؟»

«لا بدّ أنها حامل».

«هل تحاولين أن تقابلي الممرضة يا حبيبتي؟»

«الأفضل لها أن تسرع لتفعل ذلك».

«اصطحبيها لترى ريتا».

«اصطحبيها أنت يا بيلي. يجب أن أذهب».

«إنها تضع قبعة، ولكنها بدون حذاء، حسناً، هيا بنا. إلى الغد».

انتصبت بالاس واضعة يدها على معدتها وهي تتنفس بصعوبة من فمها.

«اصغي إليّ. المستوصف مغلق، إذا لم تكن الحالة إسعافية. هل أنت متأكدة بأنك لست حاملاً؟».

حاولت بالاس أن تكتم رغبة أخرى بالتقيؤ وارتعشت.

التفتت ببلي لتلقي نظرة على سيارة صديقتها وهي تغادر الموقف ثم خفضت بصرها نحو القيء. ومن غير أن تدير وجهها رفست القذارة بقدميها حتى لم يبق منها شيء.

سألت بالاس وهي تبتعد عنها عن مرضها الدفين في التراب: «أين حقيبة يدك؟ أين تسكنين؟ وما اسمك؟».

أشارت بالاس بيدها إلى حلقها وأحدثت صوتاً يشبه صوت مفتاح يحاول أحدهم أن يديره في قفل ليس له. ولم تستطع سوى أن تهزّ رأسها. وبعد ذلك كتبت اسمها في التراب، بإصبع قدمها، كما تفعل طفلة وحيدة في باحة المدرسة المهجورة. وببطء غطته تماماً بالتراب الأحمر. بعد أن محت الحروف بقدمها، مقلدة الفتاة عندما طمرت قبيها.

خلعت ببلي قبعة الحمام خاصتها. كانت أطول من بالاس بكثير وكان عليها أن تنحني لكي تنظر في عينيها الرانيتين إلى الأسفل. ثم قالت ببلي: «تعالني معي يا صغيرتي، أنت حالة محزنة لو لم أُرّ غيرها. لكنني رأيت أشباهها».

انطلقت تقود السيارة في جو المساء الأزرق وهي تتكلم بصوت هادئ يبعث على الثقة: «إنه مكان يمكنك أن تبقي فيه لبعض الوقت، لأسئلة. لقد ذهبت إليه مرة وكُنّ لطيفات معي. أكثر لطفاً من... لا بأس، لطيفات جداً. لاتخافي. أنا خفت. أقصد أنني خفت منهنّ. فلا يوجد كثير من الفتيات مثلهنّ في المنطقة». أخذت تضحك. «ربما كنّ طائشات قليلاً، ولكنهن سهلات، فهن هادئات أو شيء من هذا القبيل. ولاتندھشي إذا كن دون أية ملابس. أما أنا فقد أدھشني ذلك في بداية الأمر، ولكنّ ذلك كان، لأدري، لم يكن شيئاً يذكر. كانت أمي ستقرعني لأسبوع آخر لو رحت أطوف مثل ذلك الطواف، يمكنك أن تتراحي قليلاً هناك، وأن تفكري بالأمور جيداً دون أن يكون هناك

شيء أو أحد ليزعجك طيلة الوقت. إنهن سوف يعتنين بك. أو يدعنك وشأنك... كما تريدن أنت».

أخذ الجوَّ الأزرق يظلم حولهما، سوى خطِّ فضي كان يبدو بعيداً. بدت الحقول تتموج بتأثير الرياح الدافئة، ولكنَّ بالاس كانت ترتعش عندما وصلتا إلى الدير.

وعندما سلَّمت الشابة بالاس إلى مافيس، قالت: «سوف أحضر ثانية لأطمئن عليك، اتفقنا؟ اسمي بيلي كاتو».

أصبح طول الشمعة لايزيد عن بوصة، لكنَّ شعلتها عالية. مسحت بالاس فيها بظاهر يدها. الكرسي الهزاز يتأرجح. وأنفاس كوني عميقة لدرجة أن بالاس اعتقدت أنها نائمة. كانت ترى سينيكا وقد أمسكت ذقنها بيدها وأسندت مرفقها على ركبتيها وأخذت تنظر إليها، ولكنَّ لهب الشمعة، مثل ضوء القمر في مهيتا، يشوِّه الوجوه. استثيرت كوني.

«سألتكِ عنَّ أساء إليك، وأنتِ تحدثينني عنَّ ساعدك. أتريدن إبقاء ذلك الجزء سرّاً لفترة أطول قليلاً؟».

لم تجب بالاس.

«كم عمرك؟».

همتَّ بأن تقول ثمانية عشر عاماً، ولكنها اختارت الحقيقة: «ستة عشر عاماً. أُنقل إلى السنة الأخيرة في العام القادم».

كان يمكن أن تبكي من جديد على هذه السنة الضائعة ولكنَّ كوني وجهت لها ضربة قوية بمرفقها: «انهضي، لقد أتعبتِ ركبتي» ثم، بصوت أكثر عذوبة: «أذهبي ونامي قليلاً. ابقِي هنا الوقت الذي يحلو لك، واحكي لي بقية القصة عندما ترغبين بذلك».

نهضت بالاس وترنَّحت قليلاً بسبب الهزِّ والنبذ.

«شكراً. ولكن. يجب عليَّ أن أهتف لأبي على ما أعتقد».

فقالت سينيكاً: «سأصطحبك، أعرف أين يوجد هاتف. ولكن يجب أن تكفّي عن البكاء، أأسمعين؟».

عند ذلك ذهبتا، وهما تسيران يحذر في الظلام، بعد أن اعتادت عينا كل منهما على الضوء اللضعيف الذي تنشره شلعة الشمعة. كانت بالاس التي نشأت تحت شمس لوس أنجلوس الساطعة في بيوت بلا أقبية تُقَرَّنُهُنَّ بالشر، والقمامة، واللزاحف، كالتي نراها في الأفلام. أمسكت بيد سينيكاً وتنفست من فمها. كانت حركاتها تعبيراً عن قلق قبل أوانه، ولكنه غير محسوس بشكل حقيقي. والواقع، أنهما عندما صعدتا الدرج، هدأتها صورٌ جدّة تتمايل باطمئنان، بذراعيها وركبتيها، وبصوتٍ يغني. البيت بكامله كان يبدو مطبوعاً بغياب الذكور المبارك، كمجال محمي، بدون صيادين، ولكنه مثير للاهتمام أيضاً. ربما استطاعت بالاس التواجد هنا ثانية في إحدى غرف هذا البيت العديدة - بالاس حرّة وحقيقية، ولكنها تتصورها «باردة».

كان طبق من فطائر التورتيلاً موضوعاً على المائدة. وجيجي، أنيقة وهادئة، سوى أن شفتها متدلّية جانبياً تشوه ماكياجها. راحت تقلب موجات جهاز الراديو، محاولة أن تجد محطة تبث الموسيقى التي تحب سماعها - لا الأخبار الزراعية، أو موسيقا الكانتري، أو أشياء لها صلة بالكتاب المقدس. ومافيس التي كانت تتمم لنفسها وصفة أكلتها تقف أمام الموقد.

سألتها مافيس عندما رأتهما تدخلان:

«هل كوني بخير؟».

«بالتأكيد، وكانت لطيفة مع بالاس، أليس كذلك يا بالاس؟».

«نعم، إنها لطيفة، وأشعر بأنني أحسن حالاً».

قالت جيجي: «واو! إنها تتكلم».

فابتسمت بالاس.

«ولكن هل ستعود إلى التقيؤ؟ هذا هو السؤال».

«جيجي، أغلقي فمك بحق الجحيم» ونظرت مافيس إلى بالاس

بلطف وسألتها: «أتحبين الكريب؟».

أجابتها بالاس: «هم! إنني أموت جوعاً».

«لدينا منها الكثير. لقد احتفظت ببعضها لكوني، وأستطيع أن أصنع أيضاً غيرها إذا أردت».

أخذت جيبي تنظر إلى بالاس عن قرب وقالت: «إن هذه بحاجة لبعض الملابس، وليس لدي شيء يناسبها».

«كفي عن قول «it» كأنك تتحدثين مع غير العاقل».

«ليس لديها شيء ذو قيمة سوى قبعة. أين وضعتها؟».

قالت سينيكا: «لدي ملابس جينز تستطيع ارتداها».

فقالت جيبي ضاحكة: «تأكدي أولاً أنك قد غسلتها».

«بالتأكيد».

«بالتأكيد؟ لماذا تقولين: «بالتأكيد»؟ إنني لم أرك تغسلين شيئاً على الإطلاق منذ وصولك إلى هنا، بما في ذلك جسمك».

قالت مافيس وهي تكرر على أسنانها: «كفي هكذا يا جيبي».

«حسناً، لم أفعل!» انحنى جيبي على المائدة وقالت لسينيكا: «ليس لدينا أشياء كثيرة أما الصابون فلدينا منه».

«لقد قلت إنني سأغسلها، أليس كذلك؟» وجففت سينيكا العرق المتصبب تحت ذقنها.

قالت جيبي: «لماذا لا تشمري كمئك؟ إنك تشبهين بائع مخدرات».

قالت مافيس وهي تقهقه: «انظروا من التي تتكلم».

«أنا أتكلم عن مخدرات يافطة، وليس في كلامي أي استخفاف».

أخذت سينيكا تنظر إلى جيبي: «أنا لا أدخل الكيماويات إلى جسدي».

«ولكنك اعتدت عليها، أليس كذلك؟».

«لا، على الإطلاق».

«إذن، أرني ذراعيك».

«دعيني وشأني!».

صرخت مافيس: «جيجي!». بدت سينيك متأذية.

قالت جيجي: «حسناً، حسناً».

سألته سينيك: «لماذا أنت هكذا؟».

«آسفة، هل هذا جيد؟». كان ذلك اعترافاً نادراً، ولكنه صادق بشكل واضح.

«لم أتناول المخدرات مطلقاً، مطلقاً».

«قلت إنني آسفة. وحق المسيح آسفة ياسينيك».

«إنها ضربة إبر يا سين. وهناك دائماً من تغرزه بإبرة». كانت مافيس تنظف صحنها. «لاتدعيها تتغلغل تحت جلدك. فهناك يكون الدم».

«أغلقني فمك القذر!».

انفجرت مافيس بالضحك. «غدنا إلى ذلك. كل هذا من أجل كلمة: آسفة».

«لقد اعتذرت من سينيك وليس منك».

تهدت سينيك: «دعيك من ذلك، أتوافقين على فتح الزجاجاة يامافيس؟».

«لست موافقة وحسب، إنني أمرك بذلك. على شرف بالاس، أليس كذلك؟».

ابتسمت سينيك: «وصوتها».

«ولشهيتها، انظري إليها».

كانت بالاس قد انقطعت عن الأكل بسبب كارلوس. عندما كان يحبها (أو يتظاهر بذلك)، كان الطعام يزعجها، فيما عدا سندويشة النقانق الحارة الأولى، ولم يكن ذلك سوى ذريعة لشرب الكوكا أو مبرر للخروج. والباوندات التي كافحت لإزالتها منذ المدرسة

الابتدائية ذابت كلها. لم يحدثها كارلوس أبداً عن وزنها، ولكن بما أنها منذ البداية أعجبت، وهي سمينة ومربوعة - اختارها ومارس معها الحب - وجعلها تثق به. أما خيانة كارلوس في الوقت الذي لم يسبق لها أن كانت نحيفة إلى هذه الدرجة، فليس له أثر إلا إنكاء خجلها. كان الكابوس الذي أرغمها على الاختباء في قاع إحدى البحيرات، قد دفع الخيانة والألم للذين جعلها تهرب من بيت أمها إلى المقام الثاني لبعض الوقت. لم تكن قادرة أن تهمس بذلك حتى في غرفة لاينيرها سوى ضوء شمع خافت. عاد لها صوتها، ولكن الكلمات اللازمة للتعبير عن خجلها بقيت عالقة مثل بوليبيات في حلقها.

كان للجبين الذائب الذي يغطي فطيرة الكريب - تورتيلا طعم متميز، ولقطع الدجاج طعم طيب حقيقي كاللحم. والزبدة الشاحبة شبه البيضاء، التي تسيل عن الذرة الصفراء الغضة لم تكن تشبه شيئاً تعرفه، فهي ذات طعم قشدي يميل إلى الحلاوة. وقد سكب مرق حلو ودافئ على بودينغ الخبز. والنبيد: كأس تتلو كأساً. الخوف، المشاجرات، الغثيان، العراك الفظيع في الغبار، البكاء في الظلام - مأساة النهار الجنوبية تبددت في متعة مضغ الماكولات. عندما عادت مافيس، بعد أن حملت إلى كوني عشاءها، كانت جيجي قد وجدت محطتها، وأخذت ترقص، بعد أن وضعت جهاز الراديو أمام الباب المفتوح لتحصل على استقبال أفضل. ظلت ترقص إلى أن وصلت قرب المائدة، فصبت لنفسها كأساً آخر من النبيذ. وطوّقت بذراعيها عنق شريك رقص مُتَحَيِّل وقد أطبقت جفניה وأخذت تؤرجح ركبها. بقية النسوة رحن ينظرن إليها وهن ينهين وجبتهن. وحين سمعن أغنية: «اقتليني بنعومة» التي لاقت نجاحاً كبيراً في العام المنصرم، لم يلبثن حتى لحنن بجيجي، جميعهن، حتى مافيس. فرادى في بداية الأمر، وكل منهن تتخيل للشريك. ثم أزواجاً، كل منهن تتخيل الأخرى شريكاً.

نامت النسوة تلك الليلة نوماً عميقاً كالموتى، بتأثير النبيذ الذي شربنه: جيجي وسينيكاف في غرفة واحدة. مافيس بمفردها في غرفة

أخرى. وبالاس التي كانت نائمة على الأريكة في المكتب / غرفة الألعاب. هي التي سمعت الباب يُقرع.

كانت الفتاة تنتعل حذاءً من الحرير الأبيض وترتدي فستاناً قطنياً. وتمسك قطعة كاتو من النوع الذي يُقدّم في حفلات الزفاف، على طبق صيني جديد تماماً، وكانت ابتسامتها ملكية.

قالت: «لقد تزوّجت الآن، أين هو؟ أم أنه هي؟».

وفيما بعد، تلك الليلة، قالت مافيس: «كان يجب علينا أن نعطيها إحدى الدمى، أي شيء».

قالت جيجي: «إنها مجنونة، أنا أعرفها. لقد روى لي «K.D.» كل شيء عنها، إنها مأوى مجانيين بكامله. وزوجها يتخبط في وضع سيء».

سألت بالاس: «لماذا تأتي إلى هنا ليلة زفافها؟».

«إنها قصة طويلة». أخذت مافيس تدهن ذراعها بالكحول، مشبهةً الخدوش التي تتزف بتلك التي أحدثتها جيجي قبل قليل. «لقد أتت إلى هنا منذ عدة سنوات. وقد ولّدتها كوني، لكنها لم تُرد الوليد».

«وأين هو الآن؟».

«إنه مع ميرل وبيرل على ما أعتقد».

«مَنْ؟».

رشقت جيجي مافيس بنظرة مخيفة: «لقد مات».

سألتها سينيكاً: «وهل تعرف ذلك؟ لقد قالت إنكّن جميعاً قد قتلتموه».

«لقد قلت لك للتوّ بأنها مأوى مجانيين بكامله».

فقالت مافيس: «لقد ذهبت بعد ذلك تماماً، وأنا لا أعرف ما الذي تعرفه. فهي حتى لم تنظر إليه».

لَزِمْنَ الصمت وهن يستعِذْنَ المشهد: وجه ملتفت إلى جهة أخرى، واليدان على الأذنين كيلا يسمع ذلك البكاء الجديد ولكن

الحزين. لن يكون هناك إرضاع إذن ولا شيء يوضع في الفم الصغير. ولاكتف أم يستند إليه رأسه. ولم تشأ أية واحدة منهم أن تتذكر ولأن تعرف ماذا حدث بعد ذلك».

قالت جيجي: «ربما لم يكن الطفل ابن «K.D.»، ربما كانت تخونه».

بدا صوت سينيكا مجروحاً:

«وماذا في ذلك؟ إن لم يكن ابنه فهو ابنها».

اقتربت بالاس من الموقد حيث يوجد ماتبقى من بودينغ الخبز: «إنني لأفهم».

تنهدت مافيس: «أما أنا فأني أفهم، بطريقة ما، أنا ذاهبة لتحضير القهوة».

تساءلت جيجي «ليس لي، سأعود لأنام».

«حقاً لقد كانت مجنونة، أظنّون أنها ستعود الآن بحالة جيدة؟».

«قديسة سينيكا. من فضلك».

قالت سينيكا وهي تحقق إلى جيجي: «لقد كانت تصرخ».

وضعت مافيس مكيالاً من المسحوق في جهاز تحضير القهوة. «ونحن أيضاً».

«نعم! ولكننا لم نطلق عليها أسماء».

مضت جيجي أسنانها: «ماذا تريدان أن تسمي مريضة نفسية ليس لديها ماتعمله ليلة عرسها أفضل من التجول بحثاً عن طفل ميت؟».

«أسميها آسفة».

أجابت جيجي: «آسفة، أستي. كل ماتريده هو أن تتعلق بالفتى الصغير الذي تزوجته لتوها».

«ألم تقولي إنك ذاهبة لتنامي؟».

«إنني ذاهبة. تعالي ياسينيكا».

تجاهلت سينيكا رفيقتها في الغرفة: «أيجب أن نخبر كوني بذلك؟».

ردت مافيس فجأة:

«ولماذا؟ اصغي جيداً، لأريد أن أرى هذه الفتاة تحوم حول كوني».

«أعتقد أنها عضتني». بدت بالاس مندهشة، «انظري، أليست هذه آثار أسنان هنا؟».

«ماذا تريدان؟ لقاءاً ضد داء الكلب؟» ثاءبت جيغي «هيا، سين هيه بالاس اشعلي المصباح».

حقت بالاس بها: «لأريد النوم، تحت، بمفردي».

«من قال لك إن عليك أن تفعلي ذلك؟ إنها فكرتك».

«لم يعد هنالك أسرة، في الطابق العلوي».

«أوه، يا للمسيح». مشت جيغي باتجاه المدخل تتبعها سينيكا. «يالها من طفلة».

قالت لها مافيس: «قل لك ذلك. بقية الأسرة مخزنة في القبو، سأعمل على نقل أحدها غداً إلى فوق، بإمكانك أن تنامي معي الليلة، لا تقلقي. إنها لن تعود». ثم أغلقت الباب الخلفي بالمفتاح وعادت فوقفت أمام جهاز تحضير القهوة. «بالمناسبة، ماهي كنيك؟ أعني اسم أسرتك».

«ترولاف»^(٥).

«بلا مزاح، وأمك أعطتك بالاس كإسم أول؟».

«لا. إنه أبي».

«وماهو اسم أمك الأول؟».

«دي دي وهو اختصار لـ ديقاين»^(٥٥).

(٥) ترولاف Truelove حب حقيقي.

(٥٥) ديقاين Divine: الإلهية.

«أوه! أحبه. جيجي! جيجي! أسمعين؟ إنها تدعى: ديثاين.
ديثاين ترولاف».

عادت جيجي مسرعة، ومدت رأسها من الباب، ومثلها فعلت
سينيكا.

«ليس هذا صحيحاً! إنه اسم أمي».

قالت جيجي: «هل تعمل في الستريبتيز»^(*) وابتسمت ابتسامة
متهالة.

«فنانة».

«جميعهن كذلك يا حبيبتي».

تمتت سينيكا: «لاتغظيها، لقد أمضت نهاراً طويلاً».

«حسناً، حسناً، طابت ليلتك... يا ديثاين» خرجت جيجي
من الباب واختفت.

فقالت سينيكا: «لاتوليها انتباهك»، ثم أضافت بصوت خافت
وهي تنصرف: «إنها بلهاء».

صبت مافيس، التي ظلت تبتسم دائماً، القهوة وقطعت بودينغ
الخبز. قدّمت بعضها إلى بالاس ثم جلست بجانبها وهي تنفخ على
بخار فنجانها. تناولت بالاس حصة ثالثة من البودينغ.

قالت مافيس: «أرني أثر الأسنان».

أدّرت بالاس رأسها وشدت قميصها الـ «تي شيرت» لكي تُظهر
كتفها.

غمغمت مافيس: «أوه!».

سألته بالاس: «أكل يوم يشبه هذا اليوم هنا؟».

مسّحت مافيس فوق الجلد المجروح وهي تقول: «أوه، لا، إنه
أهدأ مكان في العالم».

(*) ستريبتيز: عمل يقوم على تعرية الجسد أمام المشاهدين.

«هل سترافقيني لكي أهاتف أبي غداً؟».

«نعم. أول شيء نفعله». كَفَّت مافيس عن مداعبتها: «أحب شعرك».

أنهيتا الوجبة الليلية الخفيفة بصمت. حملت مافيس المصباح وتركتا المطبخ غارقاً في العتمة. وعندما أصبحتا أمام باب غرفتها، لم تفتح مافيس الباب. بل جمدت في مكانها قائلة:

«أتسمعين؟ إنهنَّ سعيدات»، ورفعت يدها إلى شفتيها الضاحكتين: «كنت أعرف ذلك. إنهنَّ يحبين ذلك الطفل الرضيع، يحببانه حقاً». التفتت نحو بالاس: «ويحببك أنت أيضاً. إنهن يعتقدن أنك «مقدسة»».

باتريسيا

أجراس وشجيرات صنوبر قُصّت من ورق أخضر وأحمر كانت مصفوفة بعناية على مائدة غرفة الطعام. كل شيء جاهز. ولم يبق سوى زخارف الزينة. لقد ارتكبت خطأ في العام الماضي بتركها أصغر الأطفال يقومون بهذا العمل. فبعد أن نظّفت لهم أصابعهم ومرافقهم المليئة بالصمغ، وأزلت بقع الدهان الفضي عن شعرهم، كان عليها، مع ذلك، أن تقوم بعمل أكثر التزيينات. أمّا هذه المرة فهي ستوزع الأجراس وشجيرات الصنوبر، مشرفة بنفسها على كل نقاط الصمغ. كانت كل المدينة تساعد أو تتطفل لتنظيم مسرحية الميلاد في المدرسة. أكبر الرجال سنّاً يصلحون المنصة، وقيمون المذود، والشبان يصنعون تماثيل جديدة لأصحاب الثُرُل ويعيدون طلاء الأقنعة. النساء يصنعن دُمى للأطفال والأولاد يرسمون صوراً ملونة لأطباق عيد الميلاد، وخاصة أطباق التحلية - كاتو، فطائر، سكاكر، فواكه - لأنّ الديوك الرومية المشوية كانت تشكل تحدياً حقيقياً لأصابعهم الصغيرة. وعندما يدهن الشبان الأجراس وشجيرات الصنوبر بالصباغ الفضي، لا يتقن على باتريسيا إلا أن تضع حلقات صغيرة في أعلاها. أمّا نجمة الصبح فتأتي من مخزن هاربر. كان يتفحصها كل عام لكي يتأكد أنّ رؤوسها حادة تماماً وأنها سوف تتلألأ كما ينبغي في السماء ذات النسيج المعتم. كانت تفترض أنّ العجوز ناثن دوبريس سوف يلقي كلمة الافتتاح. إنه

رجل لطيف، ولكنه لا يبقى عند نقطة واحدة لتنفذه. كانت برامج الكنيسة أكثر شكلائية - مواعظ، تراتيل، أناشيد يردها الأطفال، وجواز لمن يقومون بذلك دون ثمن أو دون بكاء، أو دون استياء - ولكن برنامج المدرسة، الذي كان يمثل مسرحية ميلاد السيد المسيح، وتشارك كل المدينة فيه هو أكثر قدماً لأنه بدأ حتى قبل بناء الكنائس.

وعلى نقيض السنوات الأخيرة، كان شهر كانون الأول: عام 1974 حاراً وشديد الرياح. والسماء تتصرف كإحدى فتيات الاستعراض راحت تبدل شحوب وكآبة صباحاتها بشرائط مساءاتها صارخة الألوان. وفي الهواء تنتشر رائحة معدنية، قادمة من سفير التكوين عندما كانت البراكين ثائرة والحمم تبرد بسرعة عبر الرياح العاتية. رياح تصقل الحجارة الباردة، تنحتها، وتفتتها أخيراً إلى قطع صخرية تحبها كلاب الصخر. الرياح نفسها التي كانت في الماضي تملأ شعور هنديات الآراباهو الغزيرة، وتفرق خصل الشعر المتلبد على أكتاف ثيران البيسون، فتخبر الواحد بزمان اقتراب الآخر.

ظلت تشعر بتلك الرائحة المعدنية طيلة النهار، والآن وقد أنجزت تدريج الورق والتزيينات، تفحصت سماء فتاة الاستعراض لتشهد عرضاً جديداً. ولكن لقد انتهى كل شيء، كان هناك بعض التشكيلات الليكسية تتراكم وراء شمس ساطعة.

ذهب والدها لينام باكراً، بعد أن أنهكه حديثه الطويل مع نفسه الذي استرسل فيه عن مشروعه لإقامة محطة لبيع المحروقات وخدمة السيارات - فقد شجعت شركة أيجل أويل - ولا جدوى من المناقشة مع شركات البترول الكبرى. وقد اهتم ديك وستيوارد بتصديق القرض، شريطة أن يتمكن من إقناع أحد الناس بأن يبيعه الأرض. فالمسألة كانت في الموقع. أمام مخزن آنا؟ موقع جيد، ولكن كنيسة «هولي ريديمر» لن ترى الأمر بهذا الشكل. إلى الشمال إن؟ بجانب مخزن الأغذية والبذار العائد إلى سارجنت؟ سيكون هناك زبائن كثيرون - لن يضطر أحد بعد ذلك لأن يقطع مسافة

تسعين ميلاً لجلب الوقود، ولا لأن يحتفظ بمخزون منه في منزله. الطرقات؟ يمكن عمل شيء للدربين الترابيين اللذين يتصلان شمالاً وجنوباً بشوارع روبي المعيّدة ويلاقيان طريق المقاطعة الرئيسية. وإذا حصل على الترخيص، فربما فرشتهما إدارة المقاطعة بالإسفلت. ولكن سيكون من الصعوبة بمكان إقناع الناس المحليين هنا بتأييد المشروع - إذ أن المسنين يمكن أن يعارضوه. فهم يحبون أن يظلوا في منأى عن طريق المقاطعة الرئيسية التي يسلكها التائهون فقط وأولئك الذين يعرفونها. «ولكن فكري قليلاً يا باتسي، فكري وحسب. ربما استطعت العمل بإصلاح السيارات، والمحركات، وبيع الإطارات والبطاريات، وسيورة المرواح، وشراب الصودا أيضاً. وأشياء لاتخزنها أنا إذ لافائدة من إغضابها».

وافقت باتريسيا على كلامه بإشارة من رأسها، وفكرت، إنها فكرة جيدة كجميع أفكاره. نشاطاته كبيطري (وهي غير مشروعة - فهو لا يحمل ترخيصاً، ولكنه يعرف الكفاية في هذا العمل، ويتمتع بإخلاص دفعه لأن يقطع مسافة مئة ميل لكي يساعد الرجل الأبيض ويزدوم بول علي إخراج عجل استعصى في بطن أمه)، وعمله كجزّار (أحضّر له عجلاً مذبوحاً فيسلخه ويقطعه ويفرم لحمه ويضعه لك في البراد) وبالتأكيد. هناك سيارته التي تصلح للإسعاف ولنقل الموتى. أراد أن يصبح طبيباً ويقوم بالدراسة الضرورية، ولذلك فإن معظم مشاريعه لها علاقة بالمرضى وبالأموات. وفكرة محطة الوقود هي أول اقتراح تذكره باتريسيا، ليس له علاقة بالجراحة (حتى وإن كانت عيناها تبرقان عندما يتحدث عن تفكيك المحركات) فلكم ودّت أن يكون طبيباً، وأن يقبلوه في إحدى كليات الطب، وتشاء المصادفات أن تظل أمها على قيد الحياة حتى اليوم، وربما لا. ربما وجد نفسه بعيداً في ميهاري بدلاً من مدرسة الدفن عندما ماتت ديليا.

صعدت بات الدرج الذي يؤدي إلى غرفتها وقررت أن تمضي بقية الأمسية على مشروعها المتعلق بالتاريخ أو بالأحرى على

ماكان مشروع تاريخ، والذي لم يعد كذلك الآن. فقد بدأ هذا كهدية مخصصة لمواطني روبي - مجموعة من أشجار النّسب، الخاصة بكل عائلة من الخمس عشرة عائلة. أشجارٌ مقلوبة جذوعها في الهواء وأغصانها متدلّية إلى الأسفل: وعندما أنجزت أشجار النّسب، بدأت تضيف ملاحظات على الأغصان لكي توضح مَنْ وُلِدَ مَنْ: ومثلاً، ماذا كانت مهنتهم، أين عاشوا، إلى أية كنيسة ينتمون. وبعض النقاط الأكثر أهمية («ميسي ريفرز، زوجة توماس بلاكهورس، هل ولدت بالقرب من الميسيسيبي؟ اسمها يبدو كأنه يوحى بذلك...») وقد انقطعت هذه المعلومات من مواضيع الإنشاء التي تحدّث فيها تلامذتها عن سيرة حياتهم الذاتية. ولكنها لم تعد تفعل ذلك الآن. فقد اشتكى أهالي التلاميذ من أن يُطلب من أبنائهم نقل «شرائح»، ونشر مايمكن أن يكون معلومات خاصة، وحتى أسرار. بعد ذلك جاءت أغلب ملاحظاتها من المناقشات مع الناس، ومن الرجوع إلى الكتب المقدسة لبعض العائلات، ومن تفحص سجلات الكنائس، وقد أفلت الزمام من يدها عندما طلبت أن ترى بعض الرسائل وشهادات الزواج. فقد أسبلت النساء عيونهن قبل أن يبتسمن ويقترحن الانتعاش بشرب قهوتها. وأغلقت أبواب غير منظورة، وتحول مجرى الحديث إلى المطر والطقس الجميل. ولكنها لم تعد تريد، أو تتمنى، بعد ذلك القيام بأبحاث جديدة. أما أشجار النّسب فكانت تطالب دائماً بإضافات في المناسبات - ولادات زيجات وفيات - ولكن اهتمامها بالملاحظات التكميلية ازداد مع ازدياد الملاحظات نفسها، وتخلّت عن كل مظهر أو تحليل موضوعي. أصبح المشروع غير لائق في نظر أي كان ماعدا نظرها. وقد بلغ الدرجة التي أصبح فيها حرف (م)^(٥) - للزوج أو الزوجة - مزاحاً، حلماً، خرقاً للقانون دفعها لِقَضَم ظفر إبهامها غيضاً بسبب الحرمان والكبت. من هنّ أولاء النسوة اللواتي كنّ كامها، ليس لهنّ سوى الاسم الأول؟ سيلست، أوليف، سوزو، إيفلين، بنسي. ومن هن صاحبات أسماء العائلات العامة جداً؟ براون، سميث، ريفرز، ستون، جونز. نساء

(٥) م: كاول حرف من متزوج أو متزوجة من.

تستند هوياتهن على الرجال الذين تزوجنهن - إذا كان قد حصل زواج: مورغان، فلود، بلاكهورس، بول، فليتوود. دوفاي زوجة ستيوارد مورغان تركت لها كتاب آل مورغان المقدس، طيلة عدة أسابيع، ولكن العشرين دقيقة التي أمضتها بمراجعة كتاب آل بلاكهورس المقدس، هي التي أقنعتها بأن شجرة نسب من نوع جديد أصبحت ضرورية للمضي أبعد من أجل كشف العلاقات بين الخمس عشرة عائلة التي يتألف منها سكان روبي وأجدادهم الذين سكنوا هافن عن طريق التوغل إلى أبعد من ذلك، إلى المسيسي ولويزيانا. هذا النشاط الذي فكرت فيه أصلاً لكي تملأ ساعات فراغها أصبح عملاً مكثفاً تشوبه مشاعر سيئة تغلف الجلد مثل غبار الطلع عندما نعرف أكثر مما ينبغي عن جيراننا. تميز تاريخ المدينة الرسمي، الذي وُضع على المنبر، في صفوف مدرسة الأحد، وفي الخطابات التي أُلقيت أثناء الاحتفالات، بحياة عامة قوية، ووضع أية ملاحظة هامشية وأية ثغرة، وأي سؤال كان يلهب المخيلة ويثير ذهنًا لا يرتاح للتواريخ الشفهية. بحثت بات عن أدلة في الوثائق المتوافرة لكي تضع تابعاً متمماً للقصص، وعندما تعذر الوصول إلى الأدلة، لجأت إلى التأويل - بكل حرية، ولكن ببصيرة نافذة كما تظن، لأنها وحدها من امتلكت المسافة العاطفية المطلوبة. وهي وحدها تستطيع أن تفهم لماذا شُطب اسم إيتان بلاكهورس المقدس في كتاب آل بلاكهورس، ولماذا اختفى تقريباً اسم زكريا في سجل آل مورغان تحت بقعة حبر كبيرة. لقد قال لها والدها، روجر بيست، أموراً، لكنه رفض الكلام عما تبقى. بعض الصديقات مثل كيت وأنا كنَّ منفطات، ولكن النسوة المتقدمات بالسن - دوفاي، سوان ولون دوبريس - يلمحن بالحد الأقصى ولا يذكرن سوى الحد الأدنى: «أوه، أعتقد أنه قد حدث نزاع بين الأخوة على شيء ما» هذا كل ما قالته سوان بخصوص اسم عم أبيها المشطوب، دون أن تزيد على ذلك كلمة واحدة.

تسع عائلات كبيرة بكاملها قامت بالرحلة الأصلية، بعد أن طُردت من فيرلي في أوكلاهوما وتابعت سيرها لكي تؤسس هافن.

أسماءهم كانت أسطورة: بلاكهورس، مورغان، بول، فليتود، بوشامب، كاتو، فلود، وأسرتا دوبريس. ويصل عددهم مع إخوانهم وأخواتهم ونسائهم وأبنائهم إلى تسع وسبعين، أو إلى واحد وثمانين إجمالاً (إذا حسبنا أو لم نحسب الطفلين اللذين سرقا). وقد رافقتهم جماعات من عائلات أخرى: أخت وأخ، أربعة من أبناء الأعمام. وزمرة من العمات والخالات اللواتي يسهرن على أبناء أخوتهن وأخواتهن المتوفين. وظهرت قصص عن هذه الجماعات التي يصل عدد أفرادها إلى خمسين شخصاً، في مواضيع الإنشاء الكتابية التي يكتبها تلاميذ بات، وفي الثروات والذكرات أثناء النزعات، أثناء وجبات الغداء في الكنيسة، وفي أقاويل النساء وهن يقمن بأعمالهن أو يتزيّن. كما كان يطيب للجذات اللواتي يجلسن على الأرض، بينما تحكّ لهن حفيداتهن فروة رؤوسهن سردّ ذكرياتهن. عند ذلك تنبثق تنف من الحكايا فتتير كالشرارات الأجواء الغامضة العالقة فوق طفولتهن، وتبدّد الظلمات التي تكتنف فترة شبابهن. ملأت النوادر الحيز المحيط بهن أمام نيران المخيم - وأضاءت الدعابات الأشياء - خاتم، ساعة جيب - التي يمسكن بها بقبضة أيديهن وهنّ نائمات، ووصف الملابس التي يرتدينها. حذاء كبير جداً يعود لأحد الأخوة. خمار خالة متقدمة في السن. وقبعة مزينة بالدانتيل لأخت أصغر سناً. كنّ يتحدثن عن أيتام، صبيان وبنات، تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والسادسة عشرة، وعن الذين رأوا المسافرين وطلبوا الانضمام إليهم، وعن الطفلين الصغيرين اللذين بالكاد يستطيعان المشي، وقد أخذتهما لأن الظروف التي وجدتهما فيها لم تسمح لهن بأن يفعلن غير ذلك. فازداد العدد ثمانية، وهكذا أصبح مجموع الذين أكملوا الرحلة مئة وخمسة وثمانين.

عندما وصلوا إلى مشارف فيرلي، اتفقوا على أن يذهب دروم بلاكهورس وريكتور مورغان وأخواه بريور وشيفرد ليقدموا أنفسهم، بينما ينتظر الآخرون مع زكريا، الذي كان في ذلك الوقت يعرج بشدة على نحو لا يستطيع معه الوقوف منتصباً دون مساعدة

أمام أناس مجهولين يريد نيل احترامهم، والذين قد تؤدي شفقتهم إلى تحطيمه. فقد أطلقت رصاصة على قدمه - من الذي فعل ذلك، ولماذا، لأحد يعرف ولا أحد يعترف به، لأن مفتاح القصة على ما يبدو هو أنه لم يصرخ ولم يعرج عندما أصابته الرصاصة. وقد أرغمه هذا الجرح على البقاء في المؤخرة وجعل صديقه وأبنائه يتكلمون نيابة عنه. على أية حال، فقد بدا أن ذلك كان نعمة وبركة، لأنه لم يشهد عملية «الرفض» الحقيقية، ولم يسمع الكلمات التي لا تصدق وقد خرجت من أفواه رجال موجهة إلى رجال آخرين، رجال شبيهين بهم في جميع النقاط فيما عدا واحدة. بعد ذلك لم يعد هؤلاء الناس تسع عائلات وبضعة أفراد. بل تحولوا إلى مجموعة متحدة من المسافرين تربط بينهم فداحة ما أصابهم. كان خوفهم المجرد من البيض تشنجياً ولكنه مجرد. وقد حافظوا على وضوح كرههم للرجال الذين شتموهم بطريقة تقصر اللغة عن التعبير عن مدى إثارتها للقلق: أولاً بنبذهم، ثم بإعطائهم المقومات الضرورية للبقاء في هذا النبد نفسه على قيد الحياة. وأي شيء يريد أي فرد أن يعرفه عن مواطني هافن أو روبي يجده في تفرعات ذلك الرفض بين حالات كثيرة منه. ولكن فروع هذه التفرعات تشكل قصة أخرى.

ذهبت بات إلى النافذة وفتحتها. قبر أمها موجود عند طرف الباحة. والرياح تئن كما لو أنها تحاول اقتلاع الشذرات المعدنية من سماء من الكريب الأسود، وشجيرات الليلك الكثيفة تحتك على جدار البيت. وبقايا الرائحة المعدنية تضيق بين روائح الطعام العالقة في الهواء. أغلقت بات النافذة وعادت إلى مكتبها لكي تسجل ملاحظات أخرى في سجلاتها.

آرنيث و «K.D.» اللذان تزوجا في نيسان الماضي، ينتظران مولوداً في آذار المقبل. هذا على كل حال ماقالته لون دوبريس التي لا بد أنها تعرف. ولون كانت أحد الأطفال الذين سرقوا، فقد لمحتها فيري دوبريس جالسة، جامدة كأنها حجر، عند باب بيت بائس ومهم. كان يمكن أن يظل منظر هذه الطفلة الصامتة ذات الأقمطة الورسفة إحدى صور العزلة التي أثرت بهم، لكن الأسى المخيم على

ذلك المكان بدا لايفتقر. كانت فيري حينذاك في الخامسة عشرة من عمرها وهي عنيدة. دخلت هي وميسي ريفرز لتريا ماذا يوجد في الداخل فوجدتا الأم ميتة ولايوجد في البيت كسرة خبز واحدة. أطلقت ميسي أنيناً قبل أن تبصق. أما فيري فقالت: «يالعنة الرب، اعفُ عني أيها الرب» ثم التقطت الطفلة. وعندما روتا للآخرين ماوجدتاه تناول الرجال رفوشهم: دروم بلاكهورس ولداه: توماس وبيتر، ريكتور مورغان، آبل قلود، وبرود بول، سينيور، وجوفينال والد نااثان دوبريس. وبينما كانوا يحفرون القبر أعطت فيري للطفلة قطعة كعك مبللة بالماء. وشقت برايز كومبتون تنورتها ولقتها بها. وصنع فولتون بيست صليباً متيناً. صلى زكريا يساعده ولداه شيفرد وبريور مُسنداً رجله الجريحة على كعبه. وقطفت بناته: لافينغ، إيلاً وسيلاني بعض أغصان القرنفل لوضعها على القبر. ثم حصل نقاش حاد لمعرفة ماذا يجب أن يفعلوا بالطفلة التي التقت - أين يمكن وضعها - إذ يبدو أن الرجال لم يريدوا إضافة طفلة نصف ميتة من الجوع إلى أطفالهم ريع الجائعين. وخاضت فيري معركة صعبة حتى استطاعت أن تقضي على مقاومتهم، ثم تشاجرت مع بيتي كاتو بشأن الاسم الذي يجب أن يعطى للطفلة. ومرة أخرى فازت، وسُمّت الطفلة: لون^(٥) لأنها هكذا وجدتها وظلت على الدوام «لون» لأنها لم تتزوج أبداً. وحين توفيت فيري التي ربّتها وعلمتها كل ماتعرفه عن مهنة التوليد، حلّت هي محلها. وقامت بتوليد جميع النساء، فيما عدا آرنيت التي تريد الآن الذهاب إلى مشفى مدينة دمبي لكي تلد هناك، الأمر الذي جَرَّح لون (لأنها اعتقدت على الدوام أن النساء المحتشمات يلدن في بيوتهن، وأن اللواتي يرتدن الحانات هنّ وحدهن يذهبن إلى المشفى). ولكنها تعرف أن آل فليتود مازالوا يعتبرونها إلى حدٍ ما مسؤولة عن ولدي سويتتي وجف، رغم أنها قد سبق لها وولدت اثنين وثلاثين طفلاً يتمتعون بكامل الصحة، من أمهات يتمتعن بصحة تامة منذ

(٥) lone: وحيدة.

ولادة طفل آل فليتوود الكسيح الأخير. لذا لم تقل شيئاً سوى أن موعد وضع آرنيث هو آذار 1975 .

أخرجت بات ملف مورغان، وألقت نظرة على القسم الذي لم يكن حتى ذلك الحين يحتوي إلا على مايلي:
كوفي سميث (الذي يدعى أيضاً «K.D.» اختصاراً لـ كنتاكي ديربي) م. من آرنيث فليتوود.

تساءلت مرة أخرى من هو ذلك الشاب الذي تزوج روبي مورغان؟ قيل إنه أحد رفاق أخوتها في الجيش. ولكن، من أين أتى؟ اسمه الأول: كوفي هو اسم زكريا بالذات قبل أن يغيّره هذا الأخير لكي يصبح نائب حاكم الولاية. وكنيته كانت شائعة ومنشرة على أوسع نطاق. وقد قتل في أوروبا، لذلك فإنّ أحداً لم يعرفه جيداً، ولا حتى زوجته. واعتماداً على صورته يمكن القول إنه لا يوجد أقل أثر لـ الجندي سميث في ابنه. وإنّ «K.D.» يشبه بخاصة آل بلاكهورس وآل مورغان.

لم يكن قد بقي كثير من الفراغ تحت مدخل آرنيث - «K.D.» ولكنها فكرت بأنهما لن يحتاجا لأكثر من ذلك بالتاكيد. فالوليد الذي ينتظرانه إذا عاش سيكون دون أي شك طفلهما الوحيد. فأمّ آرنيث لم ترزق سوى ولدين، أحدهما لم ينجب سوى أطفال غير أسوياء. وعلاوة على ذلك فإنّ الأخيرين من آل مورغان لم يكونوا ولودين كالأولين منهم. فلم يكونوا مثل:

زكريا مورغان (الذي لقّب بـ «بيغ بابا»^(٥)، وسمّي كوفي عند ولادته) تزوج من ميندي فلود (ملاحظة: عمة أب أنا فلود).

عاش تسعة من أولادهما من أصل أربعة عشر، تتبعت بات أسماءهم بإصبعها: بريور مورغان، ريكثور مورغان، شيفرد مورغان، إيلا مورغان، لافينغ مورغان، سيلاني مورغان، غوفرنور مورغان، كوين مورغان وسكوت مورغان. إحدى الملاحظات الأولى، المكتوبة دون عناية على الهامش بالحبر الأسود من نوع

(٥) يعني الجد الأكبر.

«سكريب»، جاء فيها: «لقد احتاج الأمر لسبع ولادات لكي يتمكنوا من إعطاء إحدى البنات اسماً إدارياً، ذا وقع تسلطي، وأراهن أنهم كانوا ينادونها «كوبيني». وتعليق آخر يتصل باسم زكريا بسهم، مكتوب على ظاهر الصفحة: «لقد غيّر اسمه. كوفي هو الاسم الذي أعطي له عند الولادة - لاشك أن هناك خطأ إملائياً، إذ أن الاسم كُتب: «Coffee» بدلاً من «Kofi». وبما أن أي فرد من أسرة مورغان من لويزيانا ولا أحد من هافن اشتغل عند أبيض يحمل اسم مورغان، فلا بد أنه اختار اسم عائلته واسمه الأول تيمناً بشيء أو مكان يحبّه. هل هو زكريا والد يوحنا المعمدان في الإنجيل؟ أم زكريا صاحب الرؤى؟ ذلك الذي رأى لفائف اللعنات والنساء في السلال، الذي رأى ملايس «يَشُوع» القذرة تتحول إلى حلل فخمة، الذي رأى نتيجة العصيان: العقوبة على عدم إبداء أية شفقة ولارحمة هي التشتت بين جميع أمم الأرض، وأرض طيبة تصبح مقفرة. كل هذا كان من الممكن أن يناسب زكريا مورغان تماماً: اللعنة، والنساء المكذبات في سلة غطاؤها من الرصاص، مخبأة في أحد البيوت، وبشكل خاص التشتت. ربما أخافه التشتت. وتفرّق الجماعة أو العشيرة أو رابطة العائلات، أو في حالة كوفي تشتت مجموعة عائلات سبق أن عاشت مع الآخرين أو بقرب الآخرين حتى قبل بنكر هيل^(٥). ولا بد أنه لم يجد صعوبة في تصوّر الخوف لدى رؤية جميع الذين كان يعرفهم وقد تشتتوا في أماكن مختلفة، في بلاد مجهولة ليصبحوا غرباء عن بعضهم، ولا بد أنه خاف من عدم معرفته شكل الفك الذي يميز أسرة ما، أو حول العين، أو طريقة المشي التي توضح هوية أحد الأشخاص من ألا يكون قادراً على رؤية نفسه وقد تكون ثانية في أحد أحفاده من الجيل الثالث أو الرابع. من عدم معرفته أين دُفنت الأجيال السابقة، ولا كيف يمكن الاهتداء إليهم إذا لم يكن ذلك معروفاً. هذا هو زكريا الذي ربما اختاره كوفي لنفسه. ربما أيقظ خياله سماع قس يروي له قصة «يَشُوع» المتوّج. لم يكن ليطلق على

(٥) «Bunker Hill» معركة حدثت سنة 1775 (في بوسطن، بولاية «ماساشوسيتس») انتصرت فيها القوات البريطانية على المعتمرين الأميركيين.

نفسه اسم «بَشُوع» (الملك) بل اسم الشاهد الذي كان يتحدث إليه الرب والملائكة بانتظام عن الأمور التي عرفها كوفي».

عندما سألت ستيوارد من أين أخذ جدّه اسم أسرته، غمغم وقال إنه يعتقد أنّ الاسم كان بالأصل «موين» وليس «مورغان»، أو «الموين»، شيء من هذا القبيل، والبعض كانوا يدعونه القهوة السوداء. نحن كنا ندعوه: «بيغ بابا» وكانوا ينادون أبي: بالـ«بيغ دادى»، كما لو أنّ ذلك ينهي القضية. كان كمن يشعر بالإهانة لأنه هو نفسه لم يكن أباً ولا جدّاً، ولا كبيراً ولا أي شيء آخر. أسرة كانت هزيلة الذرية. أنجب ريكثور أحد أبناء زكريا «بيغ بابا»، سبعة أطفال من زوجته: بيك ولكن أربعة منهم فقط ظلوا على قيد الحياة: ايلدر، التوامان: ديكون وستيوارد والدة «K.D.» روبي. وتوفي ايلدر تاركاً زوجته سوزانا (سميث) مورغان وستة أطفال - جميعهم غادروا هافن قاصدين الولايات الشمالية. وكما كان زكريا سيكره ذلك، فهو يرى أنّ الانتقال يعني «التشتت». وهو بالتأكيد مصيب في هذا الرأي، لأنّ الخصوبة تناقصت منذ ذلك الحين، حتى عندما ازدادت الثروات. وكلما ازدادت الأموال، تناقص عدد الأطفال، ومع تناقص عدد الأطفال، ازدادت الأموال التي يمكن أن تعطى إلى عدد أقل من الأطفال. مفترضين أنهم يجمعون منها الكفاية، الأمر الذي يُفسّر لماذا اهتم ديك وستيوارد الأكثر غنى بزواج «K.D.» أو هذا ماظنّته بات.

على أية حال، فإنهم جميعاً، وكلّ فردٍ من العائلات التسع بكاملها، لديهم العلامة الصغيرة التي يضعونها بعد أسمائهم، وقد اختاروها كلهم، وهي: (R-8) اختصاراً لكلمة «الصخرة الثامنة»: عمال المناجم الذين ينزلون إلى أعماق عرق في مناجم الفحم. وهم جماعة لونهم أسود ضارب إلى الزرقة، أجسامهم طويلة وقاماتهم ممشوقة، عيونهم الواسعة الصافية لاتدع شيئاً يظهر ممّا يشعرون به في أعماقهم حيال من لم يكونوا من جماعة (R-8) مثلهم. المنحدرون من أولئك المتولّجين في منطقة لويزيانا عندما كانت فرنسية، وعندما أصبحت إسبانية، ثم عندما عادت فرنسية من جديد، قبل أن

تباع إلى جفرسون وتصبح ولاية عام 1812 . الذين كانوا يتكلمون لهجة محلية، هي خليط من الإسبانية والفرنسية والانكليزية، وهي بمجموعها لغتهم الخاصة. المنحدرون من أولئك الذين اختبؤوا، بعد الحرب الأهلية أو تحدوا البيض الذين عملوا المستحيل لإرغامهم على البقاء والعمل كإجراء. المنحدرون من أولئك الذين تمتعوا بكفاءة عالية أهلت ثلاثة من أبنائهم للفوز بعضوية مجلس الولاية، وفي إدارة المقاطعة. الذين عندما طردوا ببساطة ودون أي دليل على ارتكابهم إحدى المخالفات، رفضوا التصديق أن ما يشتبهون به هو السبب الحقيقي الذي لأجله أصبح من المستحيل بالنسبة إليهم إيجاد عمل فكري آخر. فجميع الزوج على وجه التقريب الذين طردوا من المكاتب أو سُرحوا (في ولاية المسيسيبي، لويزيانا، وجورجيا) وجدوا عملاً أقل أهمية، ولكنه عمل وظيفي نظيف دوماً، على أثر عمليات التطهير عام 1875 . وقد أنهى أحدهم، وأصله من كارولينا الجنوبية، حياته ككناس شوارع. هؤلاء وحدهم: (زكريا مورغان وجوفينال دوبريس في لويزيانا، ودروم بلاكهورس في المسيسيبي) دُفعوا إلى البؤس و/أو إلى العمل في الحقول. خمسة عشر عاماً من تسوّل العمل المتعب في حقول القطن والأرز أو قطع الأشجار بعد خمس سنوات مجيدة قضوها في إعادة بناء البلد. لا بدّ أنّهم شكوا، ولكنهم لم يجرؤوا على التصريح بأنّ سوء حظهم المطلق سببه المظهر الوحيد الذي يميزهم عن نظرائهم الزوج. «الصخرة الثامنة». في عام 1890 ، مضى على تواجدهم في البلاد مئة وعشرون سنة. وهكذا، فقد حملوا هذا التاريخ، كل تلك السنوات، مع كفاءتهم التي لا يتطرق إليها الفساد، وانضموا إلى «الهروب». انطلقوا سيراً على الأقدام من ولاية المسيسيبي ومن ولاية لويزيانا إلى ولاية أوكلاهوما، اتجهوا إلى الأماكن الموصوفة في الاعلانات التي طويت بعناية وخُبئت في أحذيتهم أو في قبعاتهم، لكي يُطردوا بعيداً. هذه المرة أصبحت الأمور واضحة: عبر عشرة أجيال، ظلوا يعتقدون أنّ الانقسام الذي حاربوه كان وقوف رجلٍ حرٍّ ضد العبد، الرجل الغني ضد الفقير، وبصورة عامة وليس دائماً، الرجل ذو الجلد الأبيض ضد الرجل ذي

الجلد الأسود. وقد اكتشفوا الآن انفصلاً جديداً: الرجل ذو الجلد الفاتح ضد الرجل ذي الجلد الأسود. أو، كانوا يعلمون بوجود فرق في ذهن البيض. ولكن لم يكونوا قد ذُهِلوا بعد من أن لهذا الأمر نتائج، وأن هذه النتائج خطيرة بالنسبة للزواج أنفسهم. خطيرة إلى الحد الكافي لكي يتحاشى الآخرون الزواج من بناتهم، ولكي يكون أبنائهم آخر من يختارون، وليسعر الرجال الملونون ذوو الجلد الفاتح بالحرج إذا شوهوا وهم يحتفلون مع أخواتهم. أما علامة النقاء العرقي التي كانوا يعتبرونها كضمانة فأصبحت وصمة. كما أن التشتت الذي أخاف زكريا لاعتقاده أنه يبذل قواهم، بلغ الآن مستوى من السوء أكثر خطورة، لأنهم إذا تفرقوا وإذا قتل ذوو العرق غير النقي من قيمتهم، عندها، فإن الأمر اليقيني كالموت هو أن هذه الأجيال العشرة ستعكر سلام أبنائهم إلى الأبد.

كانت بات مقتنعة أنه عندما تشتت الأجيال التالية من ذكور الـ (R-8) فعلاً في الجيش، تماماً كما كان يخشى زكريا، فهذا يمكن أن يقضي عليها، بل لابد أن يكون قد قضى عليها. والنبد الذي كانوا يسمونه: «النقض» هو حرق بات نسيجه المتندب منكشاً بما حصل عام 1949، أليس كذلك؟ أو، كلا فأولئك الذين نجوا من تلك الحرب الخاصة عادوا مباشرة إلى منازلهم ورأوا ماذا حل بـ هافن، وسمعوا الأحاديث تروى عن غياب خصيات الجنود الآخرين الملونين، وعن الأوسمة التي انتزعتها زمر من «الردنك» وأبناء الاتحاد. واعترفوا بـ «النقض» في فصله الثاني. ربما كان ذلك كالنظر إلى راية عرض عسكري كتب عليها: «أيها الجنود الذين أنهكتكم الحرب! لأحد يرحب بكم في موطنكم!». عند ذلك استأنفوا السير، وكما لم يبحث مسافرو الزمن الماضي أبداً عن مدينة أخرى ملونة بعد أن أولت لهم الأولى ظهرها، فإن رجال هذا الجيل لم ينضموا لأية منظمة، ولم يشتركوا في أية معركة مدنية. حافظوا على دم جماعة الـ «الصخرة الثامنة»، ثم اتجهوا نحو الغرب محتفظين بالقدر نفسه من الأثقة. إنهم الآباء الجدد: ديكون مورغان، ستيوارد مورغان، ويليام كاتو، إيس فلود، آرون بول، ناثان دوبريس، موس

دوبريس، أرنولد فليقتود، أوسي بوشامب، هاربر جوري، سارجنت بيرسون، جون سيرايت، ادوارد ساندز وروجر بيست والد بات الذي كان أول من خرق قانون الدم، الذي لم يكن أحد يعترف بوجوده. والذي وُضع عندما لاحظت مجموعة المسيحيين وتذكرت أنَّ «النقض» يأتي من قبل الرجال الملونين ذوي الجلد الفاتح. رجال صفر بعيون زرقاء أو رمادية، ويرتدون بزات جميلة. ومع ذلك، فإنَّ التاريخ يروي بأنهم كانوا ودودين: قدّموا لهم الطعام والأغطية، وجمعوا لهم التبرعات، ولكنهم ظلوا متمسكين برفضهم السماح لجماعة (R-8) بأن يرتاحوا أكثر من ليلة واحدة. ويقول التاريخ إنَّ زكريا مورغان ودروم بلاكهورس منعوا النساء من تناول الطعام، وإنَّ جوب كاتو ترك الأغطية في الخيمة وفوقها الثلاثة دولارات والتسعة سنقات من التبرعات، ولكنَّ سوان تقول إن جدتها سبست بلاكهورس، عادت أدراجها خلسة، وأخذت المأكولات (دون النقود) وأعطتها بالسَّ إلى أختها سالي بلاكهورس وبيتي كاتو، وإلى برايز كومبتون، لتوزيعها على الأطفال.

لذلك وُضعت القاعدة وعاشت حياةً هادئةً وناضجةً لأنَّ أحدًا لم يتحدث عنها أبدًا، إلا تلميحاً في الكلمات التي ابتكرها زكريا من أجل الفرن. فهي أكثر من قاعدة. إنها لغز: «احذروا غضبة الله» الذي فيه «أنتم» (مضمرة) نداء، لم تكن أمراً موجهاً إلى المؤمنين، بل تهديداً موجهاً إلى أولئك الذين رفضوهم. ولا بدَّ أن ذلك قد استغرق معه عدة شهور لكي يتصوّر أن هذه الكلمات - بهذه الصيغة ذات عدة معانٍ: إنها تبدو صارمة وهي تطلب إطاعة الله، ولكن على نحو حاذق دون تحديد اسم العلم المضمّر، ودون أن يوضح ماذا يمكن أن تسببه الغضبة ولا لمن. لذلك فإنَّ المراهقين الذين كان ميسنر يتولى تنظيمهم والذين أرادوا تغيير الجملة وجعلها: «كونوا غضبته» كانوا أكثر بعد نظري مما يتصورون. انظروا ماذا فعلوا بـ مينوس، عندما أرغموه على إرجاع المرأة التي أتى بها ليتزوجها. تلك الفتاة الجميلة ذات الشعر الرملي، القادمة من فيرجينيا، وفقد مينوس (أو أنه أرغم على أن يهجر) البيت الذي اشتراه من أجلها،

ولم يكفَ بعد ذلك عن الشراب. ولكنهم كانوا يَغزون سَكْرَهُ في عطلة نهاية كل أسبوع إلى نكرياته في فييتنام، حتى وإن كانوا يمازحونه عندما يقص لهم شعورهم، إلا أن بات عرفت الحب في مرحلته اليائسة عندما رآته. وقد اعتقدت أنها رآته في عيني مينوس كما في عيني أبيها الذي كان يحاول تمويهه على نحو بائس بمشاريعه التجارية.

كتبت بات على الهامش، قبل أن تصنّف صفحات «K.D.»: «لقد ضرب أحدهم أرنيث بشدة. هل هنّ نساء الدير اللواتي فعّعن ذلك، كما يقول الناس؟ أم أنه «K.D.» حتى وإن لم يتكلم أحد عن هذا؟». ثم تناولت ملف بيست وروجر، حيث يمكن أن يُقرأ على ظاهر الغلاف: «روجر بيست، متزوج من ديليا».

فكتبت: «دادني، إنهم لا يكرهوننا لأنّ أمي هي زبونتك الأولى. إنهم يكرهوننا لأنها تبدو كالخرقاء ومهيئة لإنجاب أطفال خرقى مثلي، ورغم زواجي من بيلي كاتو، الذي ينتسب مثلك ومثلهم إلى عائلات الـ (R-8)، فقد أعطيت لون بشرتي إلى ابنتي، والجميع كانوا يعرفون أنني سأفعل ذلك. لاحظ كيف أن الكثيرين من آل ساندز هؤلاء ممن تزوجوا من آل سيرايث يحرصون كثيراً على أن يتزوج أبناؤهم من عائلات أخرى من جماعة (R-8). لقد كنا أول خلل ظاهر، ولكن حدث خلل آخر غير منظور لا علاقة له بلون الجلد. أنا أعرف أنّ جميع الأزواج أرادوا حفل زفاف يرأسه القسّ، وقد حصل الكثيرون منهم على ذلك. ولكن هناك كثيرين غيرهم مارسوا ماتسميه فيري دوبريس: «استيلاءات»: أرملة شابة يمكنها أن تستولي على منزل رجل عازب. رجل «أرمل» يمكنه أن يطلب من صديق له أو من قريب بعيد الاستيلاء على فتاة شابة ليس لها أمل بالزواج كاسرة بيلي. أمه: فاون من عائلة بلاكهورس استولى عليها عم جدتها: أوغست كاتو. أو بعبارة أخرى، أم بيلي كانت زوجة عم جدتها. أو أيضاً: والد زوجي أوغست كاتو هو أيضاً عم جدتها (بيتي كاتو بلاكهورس). وبالتالي فإنّ شقيق جد جد بيلي (والد بيتي كاتو، ستيرل كاتو استولى على امرأة تدعى أونستي جونز) ولا بد أنها هي

التي أصرت على تسمية ابنتها: فريند شيب: (الصداقة) ولاشك بأنها انزعجت لسماعهم طيلة ما بقي من أيامها ينادون الطفلة بيتي. وبما أن بيتي كاتو تزوجت بيتر بلاكهورس وبما أن ابنتها فاون بلاكهورس أصبحت زوجة عم بيتي وبما أن بيتر بلاكهورس هو جد بيلي كاتو - حسناً، أنت ترى المشكلة مع قواعد الدم. هذا يعود إلى عهد بعيد، أعرف ذلك، وأوغست كاتو كان رجلاً متقدماً في السن عندما استولى على الصغيرة فاون بلاكهورس. ولم يكن ليفعل ذلك دون إذن بلاكهورس. وما كان ليحصل على هذا الأذن لو كان سيء السمعة، لأن العلاقات خارج نطاق الزواج، أو الاستيلاء لم يكن ينظر إليها نظرة سيئة وحسب، بل كان المجتمع ينذ الزناة لدرجة أنهم يضطرون إلى حزم حوائجهم والرحيل بعيداً. كما كان الحال بالنسبة لـ ايتان بلاكهورس (وهذا يمكن أن يفسر شطب اسمه) - أصغر أخوة دروم - وامرأة تدعى سولاس، وقد ظن أن تلك كانت أيضاً الحال بالنسبة لـ مارثا سوان، والدة مينوس (وإن كان هاربر جوري عاجزاً عن أن يحدد مع من يعتقد أن امرأته خانتته). ولذلك رفض أوغست كاتو كل محاولة أو فكرة للنظر خارج نطاق العائلات، وطلب من توماس وبيتر بلاكهورس فاون ابنة بيتر وربما يفسر تقدم أوغست كاتو بالعمر لماذا لم ترزق فاون إلا بطفل واحد، هو زوجي بيلي. ومع ذلك فإن دم آل بلاكهورس موجود تماماً هنا، وهذا يجعل من ابنتي بيلي ديليا ابنة عم، من الدرجة الخامسة (٩) لسوان ودوفي، لأن بيتر بلاكهورس كان شقيق توماس بلاكهورس وسالي بلاكهورس، وكان توماس بلاكهورس هو والد سوان ودوفي. والآن تزوجت سالي بلاكهورس من آرون بول وأنجبت ثلاثة عشر طفلاً. أراد آرون تسمية أحدهم: ديب، فأصبحت سالي بنوبة. عند ذلك، عمد آرون بسخرية لاذعة لم يكن أحد يعتقد أنه قادر عليها، إلى تسميته: «ديبر»^(٥). ولكن بيلي ديليا تحب اثنين آخرين من الأبناء الثلاثة عشر، وعلاوة على العدد وقواعد الدم هناك شيء ليس على مايرام في هذه القصة، ولأدري ماهو».

(٥) «ديب» (Deep): عميق، «ديبر» (Deeper): أعمق.

وضعت بات خطأً تحت الكلمات الخمس الأخيرة ثم كتبت اسم
أماها ووضعت أيضاً خطأً تحته ورسمت حوله قلباً، قبل أن تتابع:

«لقد حاولت النساء فعلاً ياماما، حقاً لقد حاولن. أم كيت
كاترين جوري أنت تذكرينها، وفيري دوبريس (وهي ميتة الآن)
وكذلك لون ودوفي مورغان وشاريتي فلود، ولكن أياً منهن لم تكن
تجيد القيادة في ذلك الحين. لابد أنك ظننت أنهن يكرهنك في قرارة
نفوسهن، ولكنهن لا يكرهنك جميعهن، بل ربما ولا واحدة منهن
تكركه، لأنهن توسلن إلى الرجال كي يذهبوا إلى الدير. ويأتوا
بالمساعدة. أنا سمعتهن. دوفي مورغان كانت تبكي وهي ذاهبة
تبحث عن أحد ما من بيت إلى بيت: إلى هاربر جوري وزوج كاترين
وإيس فلود وزوج شاريتي، وإلى سارجنت بيرسون (كيف لا يعرف
هذا الزنجي الجاهل أن اسمه هو بييرسون؟) جميع الأعداء كانت
جيدة ومعقولة. وقد استخدموها حتى مع زوجاتهم اللواتي توسلن
إليهم، لأنهم كانوا يحتقرونك يا ماما، أعرف ذلك، ويحتقرون أبي
لأنه تزوج من امرأة ليس لها كنية، امرأة بلا عائلة، امرأة بشرتها
بلون الشمس، امرأة أصولها العرقية مختلطة. كانت القابلتان قلفتين
(كان الوليد يأتي بأسرع مما ينبغي، وساقاه مطويتان تحته) وكل
ماتريدانه هو أن يذهب أحدهم ليأتي بإحدى راهبات الدير. قالت
الآنسة فيري إن إحداهن سبق أن عملت في أحد المشافي. ذهبت
كاترين جوري إلى بيت سوان لترى إذا كان ديك موجوداً هناك.
ولكنه كان غائباً. كانت هناك دوفي وهي التي ذهبت إلى بيت
سيرايث، ثم إلى بيت فليتود. وإلى كل بيت يمكن الذهاب إليه سيراً
على الأقدام. كانت عائلة موس دوبريس تسكن بعيداً، بعيداً جداً،
وكذلك ناثن (الذي ربما أَسْرَجَ حصانه «هارد غودن»، وذهب
مسرعاً ليجد «المسيح» ويحصل على المساعدة). وكذلك ستيوارد
وآل بول وآل ساندز والآخرون. أخيراً حصلتا على موافقة سنيور
بوليام، ولكن بينما انتعل حذاءه كان قد فات الأوان، اندفعت الآنسة
فيري من جانب سريرك، إلى قرب بوليام وصاحت عبر الباب - كانت
أكثر تعباً من أن تفرعه، وأكثر غضباً من أن تدخل - : «سنيور

بإمكانك أن تخلع حذاءك! وتستطيع أن تهَيء ثوبك الكهنوتي، وهكذا ستكون في الموعد المحدد للدفن!». ثم انصرفت.

«عندما عاد دادي كان الجميع مرضى من القلق الذي ساورهم بشأن ما يجب عمله، وكم من الوقت يمكن إبقاء جسدكهما بدون دفن، سواء بوجود أب أو عدم وجود أب، ووجود زوج أو عدم وجود زوج. ولكنَّ أبي عاد في اليوم التالي. لم يكن هناك وقت لترتيب سهرة مناسبة. ولذلك كان دفنك أول عملية دفن يقوم بها. وقد نفَّذها بصورة مدهشة. كنت جميلة. وأنت تضمين المولودة بين ذراعيك. لا بد أنك كنت فخورة جداً بأبي.

«إنَّه لا يلوم أحداً إلَّا نفسه هو بالذات، لأنَّه ذهب ليقدم فحص التخرج لمهنة دفن الموتى. وقد تخاصمنا بشأن ذلك، وهو لم يوافق معي عندما قلت بأنَّ الرجال من جماعة (R-8) لم يرغبوا أن ينقلوا امرأة يضاء إلى المدينة، أو أنهم لم يشاؤوا الذهاب لطلب المساعدة من بيت جماعة من البيض، أو أنهم كانوا يحتقرون شحوب بشرتك لدرجة أنهم اختلقوا الأعذار كيلا يذهبوا. قال دادي بأنَّ أكثر من امرأة ماتت بالولادة، فقلت له، من؟ وهكذا ماتت أيضاً الأم التي لم تلد. مات أيضاً المولود الذي كنت تريدين تسميته فوستين إذا كان بنتاً، وريتشارد إذا كان صبياً كاسم الأخ الأكبر لأبي. لقد كانت بنتاً يا ماما: فوستين أختي الصغيرة. كان يمكن أن نكبر معاً: باتريسيا وفوستين ربَّما بدا لونا فاتحاً أكثر مما ينبغي، ولكن لأهمية لذلك ونحن معاً. كان يمكن أن نشكل فريقاً. ليس لي أعمام ولا عمَّات، أنت تذكرين ذلك، لأنَّ جميع أخوات وأخوة أبي ماتوا بالمرض الذي يسمونه ذات الرئة الهزاز، ولكن لا بد أنه ويا الانفلونزا الذي انتشر عام 1919. لذلك تزوجت ببلي كاتو، من جهة لأنه جميل، ومن جهة أخرى لأنه يُضحكني - وعلى الأغلب - لأنَّ لون بشرته بسواد منتصف الليل، لون أفراد أسرتي كاتو وبلاكهورس وشعره يشبه شعر آل بلاكهورس المنتصب كالعيدان، كشعر سوان ودوفي وإيستِر وسكوت. ولكنَّه مات، فعلها ببلي، فحملت طفلي فاتحة اللون ولكنها لا تميل إلى البياض، وعدت إلى منزلك الصغير الجميل،

بصالونه الذي لفظت فيه أنفاسك الأخيرة، وشاهدة قبرك في الخلف. وأصبحت المعلمة التي أخذت تنحل وتجف. وراح الأولاد ينادونني آنسة بيست مستخدمين اسم دادي كما يفعل الآخرون جميعاً، لأن الزمن الذي دُعيت خلاله بات كاتو كان قصيراً جداً.

كانت الكلمات قد ملأت ظاهراً الصفحة منذ وقت طويل فأخذت تستعمل أوراقاً جديدة لكي تتابع:

«ربما استطعت أن أقول لك أيضاً إنه فيما عدا أم «K.D.» وأنت فإنه لم يمت أحد في روبي. لاحظي جيداً أنني قلت في روبي، وسكانها فخورون حقاً بذلك لأنهم يعتقدون أنهم مباركون، وكل هذا لأنه بعد عام 1953 كل الذين ماتوا، ماتوا في أوروبا، في كوريا، أو في مكان ما خارج هذه المدينة. حتى أبناء سويتي مازالوا على قيد الحياة، ويعلم الله أنه ليس هناك أي مبرر لذلك. حسناً، فمهما بدا هذا جنونياً، أعتقد أن هذا الطموح إلى الخلود هو طريقة المدينة بإدانة صالون دادي الجنائزي، لأنه كان عليه أن ينتظر رجالنا الذين قتلوا أثناء العمل، أو في الدير أو حادث في مكان ما، وإلا لما استخدمت سيارته المخصصة للإسعاف كسيارة لنقل الموتى أبداً. (عندما مات بيلي لم يبق شيء يجب دفنه، عدا بعض «الأشياء الشخصية» منها مَحْبَس ذهبي ملتبس جداً بحيث لا يمكن إدخال الإصبع فيه). هم يظنون أن أبي يستحق هذه الإدانة لأنه كان أول من خَرَق قاعدة الدم. وأعتقد أنهم مستعدون تماماً أن يرفضوا الموت فقط لكي لا ينجح دادي. والذي حصل هو أن الموتى في الحرب وفي الحوادث التي تحصل في مدن أخرى (الآنسة فيري توفيت وهي عائدة إلى هافن، إيس فلود مات في مستشفى دمبي ولكنه دفن في هافن) يمثلون كل العمل الذي أتيح لأبي القيام به. وهذا أمر بالغ الصعوبة. وعمل سيارة الإسعاف لايسير بشكل أفضل، ولذلك أبذل كل جهدي لإقناعه بأن ماتدفعه لي المدينة لقاء تعليم الأطفال ننفقه على المنزل، وأنه ليس مضطراً للاقتراض على أسهمه من مصرف ديك وأن عليه أن يتناسى قصة محطة بيع المحروقات وكل ذلك المشروع».

انكأت بات على مسند كرسيها وضمت يديها خلف رأسها وتساءلت ماذا سيحدث عندما يتكاثر عدد الذين سيصبحون بمثل سن ناثن أو لون. هل سيتوجهون إلى والدها، أم أنهم سيفعلون كما فعلوا عند الرحيل من لويزيانا؟ عندما كانوا يدفنونهم في المكان الذي يسقطون فيه. أم أنهم كانوا على صواب بأن الموت لا يستطيع الدخول إلى روبي؟ شعرت باتريسيا بأنها متعبة ولديها رغبة بالنوم، ولكنها لا تستطيع أن تترك ديليا تغادر الآن.

«الطريق طويلة يا ماما من هافن إلى هنا. أنت وأنا ياماما وسط كل هؤلاء العمالقة ذوي البشرة السوداء المزرقّة، دون أن ينظروا هم ونساؤهم إلى شعرك الطويل البني وإلى عينيك العسليتين. هل قال لك دادي لاتقلقي، كل شيء سيمضي على مايرام؟ أتذكرين كم كانوا بحاجة إليك، وكم استخدموك للدخول إلى أحد المخازن من أجل شراء بعض المون أو الحليب، بينما ينتظرون بعيداً بعض الشيء؟ لقد كان هذا الأمر هو الشيء الوحيد الذي تصلح له بشرتك، وفيما عدا ذلك كانت تسبب لهم الإزعاج. فهي تذكرهم بالسبب الذي وجدت هافن من أجله، ولماذا يجب أن تحلّ محلّها مدينة جديدة. كان العيش مع القانون الموحد الذي ابتدعه البيض صعباً إذ لم يكن أحد يستطيع القول بأنه موجود. عندما كنّا نعبّر مدينة أو تقترب منّا سيارة «الشريف» يطلب منّا دادي أن ننحني وأن نستلقي على أرضية العربة، لأنه لم يكن هناك جدوى من أن يقول لرجل مجهول بأنك ملوّنة، وأسوأ من ذلك أيضاً أن يقول له بأنك زوجته. سوان ودروشي اللتان كانتا حديثتي الزواج أيضاً، هل كانتا تبادلاتك الأحاديث النسائية؟ كنت تعتقدين بأنك حامل، وهما أيضاً. ولكن هل تحدثنّ عما تشعرن به؟ وهل كنتنّ تحضرن الشاي لمعالجة البواسير، وهل كانت إحداكن تعطي الملح للأخرى لكي تلحسه أو النحاس الزنخ لتأكله بالسّر؟ كنت، أنا، أشعر برغبة شديدة لـ كربونات الصوديوم عندما كنت حاملاً بـ: بيكي ديليا. هل كنت كذلك وأنتِ تنتظرين ولادتي؟ وهل قدّمت لك النصائح من قبل النسوة الأكبر سناً ممن سبق أن أنجبن الأطفال، مثل سالي بلاكهورس

زوجة آرون بول التي أنجبت أربعة أطفال؟ وماذا عن أليس بوليام - زوجها لم يكن قسّاً بعد، ولكن كانت لديه الكفاءة اللازمة، وقرّر أن يصبح كذلك، ولذلك كان عليهما أن يُظهرا بعض المحبة وبعض مشاعر التقوى وهما في سن الشباب. هل استقبلوك في الحال، أم أنهم جميعهم انتظروا أن يُعاد بناء القرن، أو هل عمدوك في السنة التالية، عندما امتلأ الجدول، لكي يستطيعوا التحدّث إليك مباشرة والنظر إلى عينيك؟

«ماذا قال لك دادي في نزهة كنيسة صهيون AME التي نُظمت للجنود الملونين المقيمين في قاعدة تينسي وكيف استطاع أحدكم أن يروي ما كان يقوله الآخر؟ كان هو يتحدث بلهجة لويزيانا، وأنت تتحدّثين بلهجة تينسي. موسيقا مختلفة جداً، صوت قادم من جزء آخر من الجسم. كان يجب أن يشبه ذلك الاستماع إلى أغاني وضع موسيقاها ملحنان مختلفان. لكن عندما مارستما الحب، لابدّ أنه قد قال لك: «أحبّكِ» وهذا القول فهمته وكان صحيحاً أيضاً، لأنني منذ ذلك الحين رأيتُ اليأس في عينيه - أيّاً كانت المهنة التي يفكر فيها».

توقّفت بات وفركت مفصل إصبعها الوسطى. كانت تشعر بال ألم في مرفقها وكتفها لأنها شدّت على قلمها بهذه القوة. وفي الجانب الآخر من القاعة راحت تسمع شخير أبيها عبر باب الغرفة المفتوح. وكعادتها دائماً تمنّت له أحلاماً جميلة - شيئاً يمكنه من تلطيف بؤس أيامه، أيام قضاها محاولاً نيل الإعجاب والتعويض عما فاتته. وفيما عدا زواجه من أمها، لم تتمكن بات من معرفة القاعدة التي انتهكها مما كان يجعله يتقصى بكثير من الحماسة رضى وتأييد أولئك الذين لا يولونه الاحترام الكافي. لقد وصف لها ذات مرة هاقن وماذا كانت تشبه عندما ترك الجيش. قال إنه كان يظل جالساً أمام المنزل، ويسعل كيلا يعرف أحد أنه يبكي من أجلنا. وفي الداخل كان أبوه فولتون بيست وأمه أوليف يقرأن، محطّمي القلب، الطلبات التي تقدّم بها إلى صندوق الرّيع العام. كان يريد الذهاب إلى الجامعة والدخول إلى كلية الطب، ولكنه كان أيضاً ولدهم الأخير الذي بقي على قيد الحياة. لأنّ كل الآخرين ماتوا بوباء الانفلونزا. ولم يكن

والداه يطيقان لا فكرة سفره من جديد ولا فكرة البقاء في مدينة تتهاوى نحو الامحاء إلى الأبد في كل مكان ماعدا القلب. كان يتأمل الإسمنت المتشقق في ماين ستريت، عندما أتى إيس فلود وهاربر جوري لمقابلته ليقولا له بأن هناك مشروعاً. ديك وستيوارد مورغان لديهما مشروع. عندما علم بماذا يتعلق الأمر أول شيء فعله هو الكتابة إلى الفتاة ذات العينين الكستنائيتين والشعر البني الفاتح التي أنجبت له طفلاً أثناء الحرب. ولحسن الحظ أنه لم يحدثهم عنّا وإلا لكانوا ردعوه عن الزواج، كما فعلوا مع مينوس لاحقاً. ربما كان يعرف هذا، ولذلك أرسل يطلب حضورنا: «حبيبتي ديليا، أحضري في الحال، أرسل لك في طيه حوالة. تواجهني بعض المشاكل التي تبقي قلبي هادئاً. وبانتظار وصولكما أنتما الاثنتان سأظل كالمجنون...» لا بد أنهم فغروا أفواههم عندما وصلنا، ولكن عدا ستوارد فإن أحداً لم يتكلم بشكل مباشر لأنهم لم يحتاجوا لذلك. فأوليف أوت إلى السرير. ولم يكف فولتون عن الغمغة وتفريك ركبتيه. ستوارد وحده كان لديه التهور الكافي ليقول: «إنه يعيد روث البقر الذي تركناه وراءنا». فأسكتته دوفي، وكذلك سوان، ولكن فيري دوبريس لعنته وقالت له: «إنّ الله لا يحبّ الذين يسيئون التصرف. أحذر من أن ينتزع منك ماتحبه أنت أيضاً». وهي ملاحظة لا بد أن دوفي فكرت بها كثيراً حتى عام 1964 عندما حدثت المصيبة. لكنهن كنّ مجرد نساء وما يقلنّه يمكن أن يتجاهله بسهولة الرجال الطيبون والشجعان، وهم في طريقهم نحو الفردوس. وقد ذهبوا إلى هناك وتحققت لهم أخيراً المسرة برؤية الروث مدفوناً. معظمه على كل حال. فقد بقي قليل منه فوق الأرض، وهو يعطي لأبنائهم مستوى من التعليم لن يبلغه ذووهم مطلقاً.

مصّت بات أسنانها ودفعت ملف بيست. اختارت دفترأ، ودون أن تضع عنواناً ولا مقدّمة، تابعت الكتابة:

«إنها لن تصغي إليّ. ولا كلمة. هي تعمل في عيادة بمدينة دمبي - عاملة تنظيفات على ما أعتقد - ولكنها تريد أن يظنّ الناس بأنها ممرضة مساعدة بسبب البزة الرسمية التي ترتديها. لأدري كيف

تعيش. فهي تقول بأن لديها غرفة في منزل إحدى العائلات المحترمة. أنا لأصدق هذا. ليس كله. أحد ابني بول يقوم بزيارتها - الاثنان دون شك -. أعرف ذلك لأن الأخت الصغرى دينا تحدثت في الصف بأن أخاها الأكبر اصطحبها ليربها بيتاً على عتبه تمثال سانتا كلوز ومصابيح عيد الميلاد. حسناً، هذا لم يكن في روبي بالتأكيد. فهي تكذب، وأنا أفضل أن تلدغني أفعى على أن يكون لدي فتاة تكذب. لم أرغب بضربها بقوة إلى ذلك الحد، فانا لم أنتبه لذلك، أردت فقط أن أغلق فم هذه الكذابة التي راحت تقول لي بأنها لم تفعل شيئاً. لقد رأيتهم ثلاثتهم وراء الفرن وهي في الوسط. بالإضافة إلى ذلك فإنني أنا التي تغسل الأغذية هنا».

توقفت بات، وضعت قلمها، وبعد أن غطت عينيها بيدها، حاولت أن تفصل مآرأته عما كانت تخشى رؤيته، وماعلاقة الأغذية في هذا الموضوع؟ هل كان يوجد دم حيث يجب ألا يكون، أم أنه لم يوجد دم حيث كان يجب أن يوجد؟ يعود هذا إلى أكثر من عام مضى، كانت تظن أن كل ذلك قد انطبع في ذاكرتها. حدثت المشاجرة في تشرين الأول 1973. بعد ذلك هربت بيلي ديليا ومكثت في الدير أسبوعين ويوماً واحداً، وعادت أثناء الدروس الصباحية، بينما كانت بات تعطي درساً لأطفال صغار دون سن الثانية عشرة، وظلت زمناً طويلاً حتى قالت إنها لم تعد تحتل. تبادلنا كلاماً فظيعاً يطفح بالكرهية، ولكن خشيت كل منهما أن تقترب من الأخرى خوفاً من تحول المشادة إلى مشاجرة كما حدث من قبل. ذهبت مع أحد أبناء بول ولم ترجع إلا في مطلع هذه السنة لكي تتحدث عن عملها وتعطيها عنوانها. ومنذ ذلك الحين لم ترها بات سوى مرتين: في شهر آذار، وفي حفل زفاف آرنيت حيث كانت إشبينتها وصيفتها في آن معاً، لأن آرنيت ماكانت تريد أحداً غيرها، ولأن أية فتاة بطبيعة الحال لم ترغب بأن تحظى بشرف نزول ممر الكنيسة بجانب بيلي ديليا. أو هذا ماكانت تظنه بات. فقد ذهبت إلى حفل الزفاف ولم تذهب إلى حفلة الاستقبال، لكنها لم تفوت شيئاً لأن لديها إطلالة لا يحجبها شيء على كل ماحدث حول الفرن مع فتيات الدير. لقد

رَأَتْهُنَّ. ورأت ابْنَيْ بول. ورأت بيلي ديليا وهي تجلس وتحدث مع إحدى الفتيات وكأنها صديقة قديمة لها. ورأت المحترم بوليام وستيوارد مورغان يتناقشان مع الفتيات، وعندما ذهبن بالسيارة رأت بيلي ديليا تلقي باقة زهورها في حاوية قمامة أنا قبل أن تبتعد مع أبولو وفي أثرهما برود بول.

رحلت بيلي ديليا في اليوم التالي بسيارتها دون أن تقول لها كلمة عن الزفاف، عن حفلة الاستقبال، عن فتاة الدير أو عن أي شيء آخر. حاولت بات أن تتذكر كيف وصلت تلك المكواة إلى يدها، وما الذي قيل وجعلها تصعد الدرج حاملة مكواة كهربائية (GE 1950) تسمى «رويال إيز» تمسكها بأصابعها لتقتل ابنتها فأخطأتها ببوصات فقط. هي، التي تحب الأطفال وتحميمهم ليس من بعضهم البعض وحسب بل من أهلهم أيضاً عندما يببالغون بالقسوة عليهم، انقضت على ابنتها بالذات. هي التي عودت نفسها على التفكير والأساليب اللطيفة وعلى التكتّم والوقار، تتسحرج على الدرج وتجرّح لدرجة أنها تغيبت يومين عن المدرسة. هي التي علّموها، والتي تعلّمت بمفردها أن تجعل الجميع يعرفون أنّ ابنة الزنى التي أنجبتهَا المرأة التي بشرتها بلون الشمس وليس لها كنية، لم تكن محبوبة جداً وحسب، بل تتمتع أيضاً بكفاءة عالية وبقيمة لا تقدّر بثمن. وبينما كانت بات تحاول أن تفهم كيف حدث أن استطاعت الإمساك بتلك المكواة، تبين لها أنه منذ أن كانت بيلي ديليا طفلة صغيرة، اعتبرت نفسها مسؤولة عنها على نحو ما. وكانت تتحسس من احتمال ألا تكون سيّدة بما فيه الكفاية مثل باتريسيا كاتو. هل كان هذا بسبب قصة انزالها سروالها الداخلي وسط الشارع؟ لم تكن بيلي ديليا قد تجاوزت الثالثة من عمرها في ذلك الحين. وتعرف بات لو أنّ ابنتها من جماعة (R-8)، لما احتفظوا بهذه القصة ضدها. بل كانوا اعتبروها كما هي بالفعل - يمكن لطفلة صغيرة بريئة فقط أن تفعل ذلك، بالتأكيد. هل فانتني شيء؟ أم هناك شيء آخر؟ ولكن السؤال الذي كانت تطرحه على نفسها الآن في سكّون هذا الليل، هو أن تعرف هل دافعت عن بيلي ديليا أم ضكت بها. وهل ماتزال تضحي بها؟ كانت

تصعد الدرج ومكواة «رويال إيز» بيدها لتضرب بها الفتاة التي كانت تعيش في ذهن جماعة الـ (R-8) ، وليس الفتاة التي كانت ابنتها.

لعلّت بات شفتها السفلى، فوجدتها مألحة وتساءلت على من بالضبط كانت تذرف الدموع.

رحب ناثان دوبريس بالحضور، لأنه يُعتبر أكبر الذكور سنّاً في روبي. كان يعترض على هذه الأولوية التي تستند إلى السنّ كل عام، ويرشح ابن عمه موس، ثم يقول إن المحترم سيمون كاري يناسب أكثر. ولكنه ينصاع أخيراً لرأي المدينة لأنّ المحترم كاري يطيل الحديث جداً، وعلاوة على ذلك فهو لا ينتمي للعائلات الأولى، ووصوله لا يتزامن مع الحرب العالمية الثانية، بل مع حرب كوريا. وناثان الذي كان قوي البنية وطيب القلب ومحباً لدرجة أنّه حتى ستيفارد نفسه يعجب به، تزوج من ميرث ابنة ايلدر مورغان. ولأنّه لم يبق أحد من أولادهم على قيد الحياة، كان يحبّ كثيراً أولاد الآخرين: يستقبل النزهة السنوية التي تُنظم في عيد الأطفال ويشرف على تدريبات الجوقة ويحمل دائماً في جيوبه أقراصاً ضدّ السعال وبعض المفرقات ليوزعها.

الآن ماتزال تُسْتَمُّ منه رائحة الحصان الذي ترجّل عنه للتو، صعد درجات المنصة وتأمّل المجلس. ثم تنحّج وهو مندهش لأنّه نسي محاضره والكلمات التي تلقّظ بها بدت له مناسبة لحدث آخر.

قال: «كنت في الخامسة من عمري عندما غادرنا لويزيانا وفي الخامسة والستين عندما قفزت إلى الشاحنة التي غادرت هافن لتأتي إلى هذا المكان الجديد، هنا. أعرف أنني لم أكن لأفعل ذلك لو أن ميرث على قيد الحياة أو لو بقي أحد أبنائنا في هذا العالم. تعلمون جميعكم أنّ أطفالنا - كلهم - قضى عليهم إعصار عام 1922. وجدناهم أنا وميرث في حقل للقمح يملكه شخص غريب. ولكني لم

أندم أبداً على مجيئي إلى هنا، أبداً. فقي هذا البلد يوجد عسل أحلى من أي عسل ذقته في حياتي، وقد قطعت قصب السكر في أماكن كان للأرض نفسها طعم السكر، وليس هذا بالأمر البسيط. لا، لم أشعر لحظة واحدة بالندم. ولكّني اليوم أحسّ بالحزن في قرارة نفسي. ربما أعرف في فصل ميلاد سيدي هذا، ما هذا الجفاف في حلقي. هذا الماء الذي يظلّ في عيني. أعرف أنني رأيتُ من السنوات أكثر مما يسمح به الله عادةً لرجل، ولكنّ هذا الجفاف جديد. وكذلك ماء العينين. وعندما أفتش في ذهني فإن كل ما أجده ليس سوى حلم رأيتُه منذ بعض الوقت».

في الصف ماقبل الأخير كانت لون دوبريس جالسة بجانب ريتشارد ميسنر، وأنا في الجانب الآخر. انحنت لتلقي نظرة على أنا لتعرف إن كانت هي أيضاً تكاد تجنّ. ابتسمت أنا ولكنها لم تبادلها نظرتها، عند ذلك عادت فجلست ثانية لتستمر بتحمّل المزيد من أحلام ناثان المشوشة.

مرّ ناثان بأصابعه على رأسه وأغمض عينيه كما لو أنه يستعيد كل التفاصيل:

«كان أحد الهنود قادماً نحوي قرب خط مزروع بالفاصولياء إنه من الشايان علي ما أعتقد. بدت العرائش خضراء طرية وقد تفتحت الأزهار في كل مكان. نظر إلى صف الفاصولياء وهزّ رأسه بحزن. ثم قال لي إن المياه سيئة للأسف، قال إنها غزيرة ولكنها فاسدة. قلت له: ولكن انظر هنا، انظر إلى كل هذه الأزهار. يبدو لي محصولاً ممتازاً. فقال لي: نبتة القطن الأطول لاتغطي المحصول الأفضل، وبالإضافة إلى ذلك فإنّ هذه الزهور ليست ذات لون جيد، فهي حمراء. عند ذلك نظرت إليها فتبيّن لي أن هذا صحيح. لقد كانت وردية، ثم صارت حمراء كنقاط الدم فأخافتني. لكن عندما نظرت ثانية لم أجده، لم يكن هناك، وبتلات الأزهار أصبحت بيضاء من جديد. وبرأيي أنّ هذه الرؤيا هي مثل القصة التي ستروى هذا المساء. وهي تبيّن قوة محصولنا إذا أحسنا استخدامه. ولكنها يمكن أن تُدمينا إذا لم نُحسن. وتجلب لنا اللعنة أيضاً. فليبارك الله

الطاهرين والمقدسين وليوحد بيننا ولايفصل بعضنا عن الآخر،
ولاعن ذلك الذي يباركنا. آمين».

عندما غادر ناثن المنصة، عبر تلمات الملاطفة في غياب
عبارات الشكر، استغل ريتشارد ميسر فترة التوقف ليهمس شيئاً في
أذن آنّا وليغادر مقعده. كان يأمل أن يتحرر من رهاب الاحتجاز
الذي تولّد لديه، والذي لم يعان منه منذ أن كان سجيناً مع ثمانية
وثلاثين آخرين في زنزانة ضيقة في ألاباما، حيث يشعر أنه مرتبك
جداً لأنّ العرق والغثيان يثبتان لرفاقه أنه خائف. وإنه لدرس قاس
معرفته أنها مهما كانت الأخطار التي يتعرض لها، وكيفما كانت
حماسته في المجابهات الخطرة، فإنّ زنزانة مزدحمة تستطيع إذلاله
دون شفقة أمام المراقبين. وحين شعر بأنه يكاد يختنق في قاعة
الصف المزدحمة تلك، لحق به بات بيست التي تقف في المدخل
وتنظر إلى الحاضرين عبر الباب. كان هناك مائدة كبيرة مغطاة
بالكاتو، بالكعك والحلويات وشراب البنش وضعت قرب الجدار،
وراءها.

«نهارك سعيد أيها المحترم». تحرّكت بات قليلاً لكي تفسح له
مكاناً، دون أن تنظر إليه.

أجابها وهو يجفّف العرق عن عنقه بمنديله: «مساؤك سعيد،
يابات، أرى أنني أحسن حالاً في الخارج».

«وأنا أيضاً من هنا نرى كل شيء دون أن نمدّ عنقنا أو أن
نتطلّع بطرف أعيننا من بين قبّعتين».

أخذاً ينظران من فوق رؤوس الجمهور، عندما تحرّكت الستائر
المصنوعة من قماش البركال - المغسولة والمكوية بعناية - وخرج
صف من الأطفال بملابس كهنوتية بيضاء، ينتقص من كمال
وجوهم الجادة وشعرهم الملبد، جورب سقط حتى الكاحل أو ربطة
عنق «فراشة» مائلة إلى اليمين. وبعد إلقاء نظرة نحو كيت غولايتلي،
أخذوا معاً نفساً عميقاً، استعداداً لإنشاد: «أوه، أيتها الليلة المقدسة،
النجوم تتلألأ...».

ومع البيت الثاني، انحنى ريتشارد ميسنر نحو بات: «هل تمنعين أن أطلب منك شيئاً؟».

«لا، تقضل». اعتقدت أنه سيطلب منها تبرعاً لكونه وجد صعوبة في إيجاد النقود (بالقدر الذي تمناه) لكي يساهم بمصاريف الدعوى والدفاع أمام المحكمة عن أربعة مراقبين موقوفين في نورمان ومتهمين بحيازة أسلحة، ومقاومتهم رجال الأمن، وإشعالهم الحرائق، وإخلالهم بالنظام العام، وتحريضهم على أعمال العنف، وجميع الاتهامات التي أمكن العثور عليها في القوانين، ضد فتیان سود يقولون: لا، أو فكروا بذلك. كانوا في السجن - هذا ماقاله ريتشارد ميسنر لأتباعه المؤمنين - منذ مايقرب من سنتين. وعندما أحيلوا إلى القضاء، كانوا قد أمضوا عشرين شهراً خلف القضبان. وسيحذّر قريباً تاريخ المحاكمة، ويجب أن يُدفع للمحامين على ماقاموا به، وما بقي عليهم أن يقوموا به. وحتى ذلك الحين لم يكن ريتشارد قد جمع إلا النقود التي أعطته إياها النساء اللواتي يفكرن بالألم الذي تشعر به أمّهات الفتیان أكثر من تفكيرهن بالظلم الذي لحق بأبنائهن، ولكنّ الرجال من آل فلييتود، بوليام، سارجنت بيرسون ومورغان بدّوا متمسكين برفضهم. من الواضح أن ريتشارد لم يكن قد حَصّر مطالبه بعناية كافية. كان عليه أن ينشئ مؤسسة تعنى بمشاكل الأبناء المبذرين بدلاً من تشكيله مؤسسة سياسية. وعندها، بينما كان يقف أمام كنيسة كالفاري حيث مايزال يطلب النقود، لم يكن مضطراً لسماع عبارات مثل: «أنا أشجب العنف» يقولها رجال تعاملوا بالمسدسات طيلة حياتهم. أو: «إنّ صغار الزنوج الخارجيين على القانون، المسلحين، وبلا تربية، يجب وضعهم في السجن». هذه الجملة الأخيرة أتت بالطبع من ستوارد. ولكن عبثاً ألغى ريتشارد على أنّ الشبان لم يكن معهم سلاح، وأنّ التظاهرات ليست ممنوعة، فلم يفتح الرجال محافظ نقودهم رغم ذلك. قرّرت بات أن تعطيه كل ماتستطيع اعطائه، فيما لو طلب منها ذلك مباشرة. كان يحلو لها التفكير بأنه بحاجة لكرمها، ولذلك انزعجت عندما علمت أن هذا ليس مايفكر به ريتشارد ميسنر:

«إنني أحاول تهدئة الأمور لدى آل بول، وأظن أنه من المناسب أن أتحدث مع ببلي ديليا، إذا كنت لاترين مانعاً في ذلك. هل هي هنا هذا المساء؟».

ضمت بات ذراعيها إليها ونظرت إليه: «لاأستطيع مساعدتك أيها المحترم».

«هل أنت واثقة من ذلك؟».

«أنا على ثقة من أن كل مايمكن أن يحدث هناك ليس له علاقة بـ ببلي ديليا، وعلاوة على ذلك، فهي لم تعد تسكن هنا. فقد رحلت إلى دمبي». ودت أن تكف عن الظهور بمظهر العداء نحوه، ولكن بسبب ذكر علاقات ابنتها مع ابني بول، فإنها لم تستطع السيطرة على نفسها.

«لقد ذكر اسمها مرة أو مرتين. ولكنّ ويزدوم بول لن يقدم لي أي شيء أتابع به عملي. هناك شيء يمزق هذه الأسرة».

«لايحبون المتطفلين أيها المحترم. وهذا أمر يتعلّق بروبي».

«أفهم هذا جيداً، ولكنّ أمراً كهذا يمكن أن ينتشر، ويمس أكثر من عائلة. عندما وصلت إلى هنا بدت الأمور واضحة: إذا كان هناك مشكلة قد اختمرت فسوف تُشكل لجنة لدراساتها. لمنع الناس من أن ينفصلوا عن بعضهم، لقد رأيت ذلك بأمر عيني وساهمت فيه أيضاً».

«أعرف».

«لقد اعتاد هذا التجمع أن يتماسك كما يتماسك الشمع».

«ومايزال متماسكاً، ولكنه في أزمة، إلا أنهم متماسكون متماسكاً مختلفاً».

«تقضدين «نحن»؟ «نحن متماسكون»؟».

«لو قلتها، هل كنت ستطلب مني أن أشرح لك؟».

«بات، أرجوك، لاتأخذي كل ماأقوله على محمل سوء. فقد تذكرت لتوي أنه أثناء دروس التربية الدينية، يقول الأولاد أيضاً: «هم» عندما يتحدثون عن ذويهم».

«دروس التربية الدينية؟ إنها تشبه دروساً عن الحرب. تنظيم عسكري، حسب ما قيل لي».

«قد يكون مناضلاً لكنه ليس عسكرياً».

«أليس ثمة نمور تبرعم؟».

«أهذا ماتظنين؟».

«لأدري ماذا أظن».

«حسناً، اسمحي لي أن أقول لك شيئاً. فعلى النقيض من غالبية الناس هنا، نحن نقرأ الصحف ومختلف أنواع الكتب. نظل مطلعين. نعم نحن نناقش استراتيجيات الدفاع. ليس العدوان بل الدفاع».

«أيعرفون الفرق؟».

لم تتح له الإجابة في الحال لأنَّ للتصفيق تعالى واستمر طويلاً إلى أن اختفى آخر طفل من جوقة الأطفال وراء الستار.

أطفالاً أحدهم أضواء السقف. بعض السعال المتكتم رَوْض العتمة. أزيح الستار ببطء منسباً على بكراتٍ دهنت بالزيت بشكل جيد. وتحت أنوار متركزة في الأجنحة والتي تلقي ظلالاً واسعة خلفها، وقف أربعة أشخاص يضعون قبعات من اللباد، وبزات فضفاضة، أمام طاولة وأخذوا يعدّون دولارات كبيرة الحجم. وجه كل من هؤلاء الأشخاص يخفيه قناع أصفر وأبيض، بعينين لامعتين وشفيتين مزمرتين، حمراوين كالجرح. وفوق لوحة ثبتت على مقدمة الطاولة حيث تقرأ كلمة: «نزل»، أخذوا يعدّون الدولارات محدثين ضجيجاً بغمغمتهم ولايتوقفون حين يقترب منهم رتل من العائلات الثقيّة يرتدي أفرادها أسمالاً بالية ويسيروا بخطى متباعدة بطيئة. اصطف سبعة أزواج أمام طاولة النقود. الأولاد يحملون العصي، وتحتضن الفتيات دمي أطفال.

أخذ ميسر ينظر إليهم بانتباه، ولكي يتيح لنفسه مزيداً من الوقت لإيجاد الجواب المناسب عن سؤال بات حاول أن يتبين هوية

كل من الأطفال الذين يقفون على خشبة المسرح: الفتيات الأربع الأصغر سناً، من آل كاري: هوب، شيس، لوثلي وبيور، دينا بول، وإحدى بنات بيوس دوبريس - ليندا، ثم الفتيان الذين يضمون عصيهم بقوة وهم يتقدمون على إيقاع أولئك الذين يعدّون النقود. حفيدا بيس وسولارين جوري: أنسيل والآخر الذي أطلقوا عليه اسم فروت. وجو - توماس بول وقد انضم إلى أخته دينا. ابن درو وهارييت بيرسون: جيمس. وابن باين ساندز: لوركاس. وحفيدان - تيموتي سيراي: ستيفن وميكائيل. اثنان من الفتيان المقنعين، هما بالتاكيد من أسرة بوشامب: رويال، وديستري اللذان وهما في الخامسة عشرة والسادسة عشرة يزيد طولهما عن ستة أقدام - ولكن بالنسبة للآخرين المتبقين، فلم يكن متأكد من معرفتهما. فهو يحضر للمرة الأولى هذه المسرحية التي تُمثل عادةً قبل عيد الميلاد بخمسة عشر يوماً، عندما يعود إلى جورجيا لزيارة ذويه. ولكن سفره تأجل هذه السنة، لأنّ هناك اجتماعاً لجميع أفراد الأسرة تقرّر أن يُعقد يوم عيد رأس السنة. سيصطحب آنا، إذا وافقت على ذلك، لكي تتعرف عليها أسرته، ولإتاحة الفرصة لـ آنا للتعرف عليها، هذا مايفترضه. وألمح للأساقفة بأنه يرغب بالترشيح لأبرشية أخرى. وأن لاشيء ملح. لكنه لم يكن واثقاً من أنه قد أحسن استخداماً في روبي. ويظنّ أنّ أي مكان يناسبه طالما أنّ هناك شباناً يجب تعليمهم، ويقال لهم بأنّ السيد المسيح كان قاضياً، ومحارباً أيضاً. وأنّ البيض ليسوا فقط غير محتكرين للديانة المسيحية، بل ويشكلون عائقاً ضدها في معظم الأحيان. وأنّ يسوع قد تحرّر من الديانة البيضاء. ويريد أن يعرف هؤلاء الأولاد أنّه ليس عليهم استجداء الاحترام فهو متوافر فيهم وماعليهم سوى أن يظهره. لكنّ المقاومة التي لقيها في روبي أنهكتهم. وتلامذته أخذوا يتعرضون أكثر فأكثر للعقوبات بسبب المعتقدات التي يلقنهم إياها. والآن هاهي بات بيس - التي درّس معها «تاريخ الزوج» كل يوم خميس بعد الظهر - تخرب له دروسه المتعلقة بالتربية الدينية بخلطها بين

احترام الذات والغطرسة، بين الحذر والعصيان. فهل كانت تعتقد أنّ التعليم يقضي بمعرفة مايكفي فقط لإيجاد عمل؟ إنها لم تكن تبدو أكثر ثقة منه بهذه الرؤوس القوية في روبي فيما يتعلّق بالمستقبل، ولكنها لم تكن تشجع التغيير أيضاً. وجدت بات تاريخ الزنوج وقائمة الآثار الماضية كافية لها وليس لهذا الجيل الجديد. يجب أن يكون هناك من يتحدث إليهم، ومن يصغي إليهم. وإلا...

«تعلمين أكثر من الآخرين أنّ هؤلاء الفتيان حاذقون ومهرة، أكثر من غيرهم...» وضاع صوته في «الليلة الصامتة».

«هل ترى أنّ ما أعلمهم إياه ليس جيداً كفاية؟».

هل قرأت أفكاره؟ «إنّه جيد، بالطبع، ولكنه ليس كافياً. فالعالم عظيم الاتساع ونحن نشكل جزءاً من هذا الاتساع العظيم. إنهم يريدون معرفة مايتعلّق بأفريقيا...».

«أوه، من فضلك أيها المحترم، لاتكن عاطفياً معي».

«إذا انقطعت عن جذورك تنبلين».

«إنّ الجذور التي تتجاهل الأغصان تتحول إلى تراب للنمل».

قال وقد فوجئ بعض الشيء بما قالته: «كفى بات! إنك تحتقرين أفريقيا».

«لا. على الإطلاق، ببساطة هذا لايعني شيئاً بالنسبة لي».

«وماذا إذن يابات؟ ماهو الذي يعني شيئاً بالنسبة لك؟».

«الجدول الدّوري للعناصر والمتكافئات».

قال ريتشارد ميسنر وهو يغادر: «بارد، بارد وحزين».

غادر لوركاس ساندز جماعة العائلات وخاطب الأئمة بصوت قوي متقطع: «هل يوجد مكان؟».

التفت الأئمة بعضها نحو البعض الآخر، ثم نحو السائل، ومرة

أخرى التفت كل منها نحو الآخرين، وبعد ذلك زارت وهي تهز رؤوسها كالأسود: «انصرف من هنا! هيا! لا يوجد لك مكان هنا». «ولكن نساءنا حوامل!» وأشار لوركاس إليهنّ بعصاه. «أولادنا يكادون يموتون عطشاً» ورفعت بيور كاري دمية. هزت الأفتعة رؤوسها وزارت.

«لم يكن لطيفاً منك أن تقول لي ذلك ياريتشارد».

«أنا آسف؟».

«أنا لست حزينة ولا باردة».

«قلت ذلك عن الجدول وليس عنك. خضر إيمانك في جزئيات، كما لو أن...»

«أنا لأحصر شيئاً، وكل ما هناك أنني لاؤمن أن الولاء الأبله لبلد أجنبي - وأفريقيا بلد أجنبي، والحقيقة هي خمسون بلداً أجنبياً - حل لهؤلاء الأولاد».

«أفريقيا هي وطننا، يا بات سواء أعجبك هذا أم لا».

«هذا بالحقيقة لايهمني ياريتشارد، تريد أن تتوحد مع زنوج أجنب، لماذا لاتفعل ذلك مع أميركا الجنوبية؟ أو مع ألمانيا، فهناك يوجد أيضاً أطفال سود يمكنك أن تقيم صلات مديدة وجيدة معهم. أم أنك لاتبحث إلا عن نوع معين من الماضي لم تكتنفه العبودية؟».

«لماذا لأفعل ذلك؟ لقد كانت هناك حياة بكاملها قبل العبودية. ويجب علينا أن نعرف ماهي، هذا إذا أردنا التخلص من عقلية العبيد».

«إنك مخطئ، وإذا كان هذا حقلك فإنك تحرثه عبثاً، لأنه مغمور بالماء. العبودية ماضينا. ولا شيء يمكنه تغيير ذلك، وبالتأكيد ليست أفريقيا التي تستطيع ذلك».

«نحن نعيش في العالم يا بات، العالم بكامله. تفريقنا عن بعضنا

وعزلنا - كان هذا سلاحهم على الدوام. فالعزلة تقتل الذرية والأجيال. وتظل بلا مستقبل».

«هل تعتقد أنهم لا يحبون أولادهم؟».

داعب ميسز شفته العليا وأرسل تنهدة طويلة:

«أظن أنهم يحبونهم حتى الموت».

مدَّ المقنعون أيديهم تحت الطاولة وهم ينحنون، ويقدمون واجبات الاحترام، وأخرجوا مربعات كبيرة من الورق المقوى الطري، ألصقت عليها صور بعض المأكولات: «إليكم هذا، خذوه وانصرفوا من هنا». ألقوا صور الطعام على الأرض وأخذوا يضحكون ويرقصون. فتراجعت العائلات النقية كما لو ألقيت عليها أفاع. أشاروا بأصابعهم، لَوَّحوا بقبضاتهم وأخذوا ينشدون: «سوف يحقكم الله سوف يحقكم». أيد الجمهور ذلك مدندنا: «نعم، سيفعل ذلك. نعم، سيفعل ذلك».

«إلى غبارا» كانت هذه لون دوبريس.

«إياكم أن تخطئوا بحقه، إياكم».

«سوف يسحقكم أنعم من الطحين».

«قولها يا لون».

«سوف يضربكم في اللحظة التي يختارها».

وبالطبع ترنحت الأقنعة وانهارت على الأرض، بينما كانت العائلات السبع تتبعد. شيء ما في داخلي يطرد الأكم. شيء في قرارة نفسي لا أستطيع تفسيره. أصواتهم الخافتة ترافقها أصوات أقوى منها تنبعث من الجمهور، وعند النغمة الأخيرة كان عدد من الناس ليس بقليل يمسخون أعينهم. تجمعت العائلات إلى يمين المسرح، كأنها في مخيم حول النار. أخذت الفتيات تهدد الدمى. بعيداً هناك في المذود لم يكن هناك مهد من أجل «رأسه». وبكل هدوء دخل صبي إلى المسرح، وعلى رأسه قبعة واسعة ويحمل حقيبة من الجلد.

شكّلت العائلات نصف حلقة خلفه. جثا الصبي ذو القبعة على ركبتيه وأخرج من حقيبته بعض الزجاجات والعلب ورتّبها على الأرض. أراح الرب الصغير يسوع رأسه اللطيف.

تساءل ريتشارد: ما المشكلة؟ استمتع بالعرض وحسب، واترك بات وشأنها. كان يريد أن يناقش لا أن يجادل. تأمل حركات الأولاد، بشيء من العطف في البداية، ثم باهتمام متزايد. اعتقد أن الغاية هي إدخال السرور إلى نفس أكبر عدد ممكن من الأطفال، لذا كان هناك أربعة يؤدون دور صاحب المنزل، وسبعة يؤدون دور مريم وسبعة دور يوسف. ولكن ربما كانت هناك أسباب أخرى. سبع عائلات مقدسة؟ لمس ريتشارد كتف بات: «من الذي رتب هذا؟ أعتقد أنك قلت لي سابقاً إنَّ هناك في الأصل تسع عائلات، فأين العائلتان المتبقيتان؟ ولماذا حكيم واحد؟ ولماذا يعيد الهدايا إلى حقيبته؟

«أنت لا تدري أين أنت، أليس كذلك؟».

«حسناً، ساعديني على تصوّر هذا المكان. أعرف أنني غريب، ولكنني لستُ عدواً».

«لا، لستُ كذلك. ولكنّ هاتين الكلمتين لهما المعنى نفسه في هذه المدينة».

نعمة مذهلة، وصوت عذب. تحت مطر من النجوم المصنوعة من الورق الذهبي، أرقدت العائلات الدمي، وضعت العصي وشكّلت دائرة. أخذت أصوات الجمهور تدويّ مجتمعة. كنت تائهاً فيما مضى، ولكنني وجدت نفسي الآن.

شعر ريتشارد بالمرارة تحلّ محلّ الغثيان فجعلته يغادر مقعده. فكر بأنه بعد عشرين أو ثلاثين عاماً، جميع أصناف الناس سوف

يطالبون بمنصب مركزي، إداري، مسيطر في حركات حقوق الزوج. البعض منهم لديهم مبرر، ولكن معظمهم مخادعون. الشيء الذي لن يكون تكذيبه ممكناً ولكنه سيبقى غير مرئي في الصحف والكتب التي يشتريها لتلاميذه، هم الناس العاديون. البواب الذي أطفأ الأضواء كيلا يتمكن رجال الشرطة من الرؤية، الجدة التي أزدعت لديها الأطفال لكي تتمكن الأمهات من الاشتراك بالمسيرة، نساء الأماكن النائية اللواتي يمسكن منافش بيد وبندقية باليد الأخرى، الأطفال الصغار الذين يجلبون البطاريات الكهربائية والماكولات للاجتماعات السرية، القساوسة الذين يخبئون في الكنائس المتظاهرين الملاحقين إلى أن تأتي المساعدة، المسنون الذين يلتقطون أجساد الشبان المحطمة، والشبان الذين يواعدون بين سواعدهم لحماية المسنين من ضربات الهراوات التي لا يستطيعون مقاومتها. والأهل الذين يمسحون البصاق والدموع عن وجوه أولادهم ويقولون: «لا تهتم يا حبيبي، لا تهتم لهذا فلست زنجياً، ولن تصير هرة، أو nigger أو coon أو ajig^(*) أو أرنب الأدغال، ولا أي شيء من تلك الألقاب التي يعطها البيض لأبنائهم. فأنت ابن الله». نعم، بعد عشرين أو ثلاثين عاماً من الآن، سيكون هؤلاء الناس قد ماتوا أو نسيهم الآخرون، ولن تشكل قصصهم الصغيرة جزءاً من أية قصة كبيرة حتى ولا من هوامشها، رغم أنهم سيكونون المحور الذي يستند إليه أولئك الذين يظهرون على شاشة التلفزيون. والآن بعد سبع سنوات من اغتيال الرجل الذي كان سيسعده أن يحمل السيف بدلاً عن ذلك، فقد كان يقود قطعاً لا يعتقد فقط أنه أثبت المرعى الذي يرعى فيه، بل أن الأعشاب في أي مرج آخر مسمومة. وبالنسبة لهم فإن الحلول التي يقترحها بوكرت. واشنطن^(**) تحل في كل مرة المشاكل التي يطرحها «دوبوا»^(***). وفكر، أمّا من يكونون، أو اعتقادهم بأنهم مميزون فأمر قليل الأهمية، فالمجتمع الذي لا يتمتع برؤية سياسية

(*) ألفاظ شعبية تطلق على الزوج من باب التحقير.

(**) بوكرت. ت. واشنطن: مدرس وكاتب أسود أمريكي (1865 - 1915).

(***) ويليام. ي. ب. دوبوا: مؤرخ وقائد أسود أمريكي (1868 - 1963).

محكوم عليه بالتفجّر مثل حطب جورجيا. كنت أعمى ولكني الآن أصبحت أرى.

«هل هم هكذا؟» لفظت هذه العبارة كسؤال، ولكنها بالنسبة لبات كانت تشبه الخاتمة.

قالت: «إنهم أفضل مما تظن».

فصّح لها: «إنهم أفضل مما يظنون «هم» فلماذا يقنعون بهذا القدر القليل؟».

«هذا وطنهم. وطني أيضاً. والوطن ليس شيئاً قليلاً».

«أنا لا أقول هذا. ولكن ألا تستطيعين حتى أن تتخلي ما هو شعور المرء إذا كان له وطن حقيقي؟ لا أتكلّم عن السماوات. أتكلّم عن وطن حقيقي على الأرض. وليس عن حصنٍ اشتريناه أو بنيناه وعلينا أن نحفظ به مغلقاً على من في داخله أو من في خارجه. وطن حقيقي. وليس مكاناً ذهبنا إليه واحتلناه بعد أن ذبحنا من كانوا يقيمون فيه للمحافظة عليه. ليس مكاناً طالبنا به واستولينا عليه لأننا كنا نملك السلاح. ليس مكاناً سرقناه من الناس القاطنين فيه، بل مكاننا الخاص، إذا عدنا إلى ما قبل أجداد أجدادنا. وأجداد أجداد أجداد هؤلاء قبل كل تاريخ الغرب وقبل بداية المعرفة المنظّمة، قبل الأهرامات والسهام المسمومة، إلى الوقت الذي كان فيه المطر جديداً، قبل أن تنسى النباتات بأنها تستطيع الغناء وتفكر الطيور بأنها كانت أسماكاً، إلى حيث قال الله: هذا جيداً هذا جيد .. هناك، بالضبط هناك، حيث نعرف أنّ ذوبنا ولدوا. عاشوا وماتوا. تخيلي يابات، ذلك المكان. وإلى من كان يتحدّث الله إن لم يكن إلى شعبي الذي كان يعيش في وطني؟».

«أنت تلقي موعظة، أيتها المحترم».

«لا، أنا أتحدّث إليك، يابات، أتحدّث إليك».

دوى التصفيق الأخير عندما كسر الأطفال الحلقة واصطفوا

ليقدموا التحية. نهضت أنا فلود في الوقت الذي نهض فيه الجمهور، وشقت طريقها إلى المكان الذي تقف فيه بات وريتشارد مغممين بالحيوية بعيون مقفلة. وكانت المرأتان موضوع مساومات لمعرفة أيهما يفضل القسّ الجديد، الشاب، الوحيد والرجل الوسيم. وكانت أنا وبات المرأتين الوحيدتين، في سنّ متقدمة نوعاً ما دون زوج وجاهزتين للزواج. بدا القس الجديد مضطراً لأن يختار إحدى الاثنتين إلا إذا كان يفضل المرأة الأصغر سنّاً بكثير. قبل سنتين من ذلك كانت أنا هي الفائزة - بدت واثقة من ذلك حتى الآن. ولذلك فقد تقدمت نحو ريتشارد بابتسامة عريضة آملة تجميد ألسنة أولئك الذين ربما ظنوا بأن الأمر مختلف وهم يرونه يفضل مرافقة بات على مرافقتها أثناء مسرحية عيد الميلاد. كانا يتبادلان الغزل بروية وحذر ولا يلمس أحدهما الآخر علناً. وعندما كانت تُحضر له عشاءه، تتأكد من أن منزله تسطع جميع أنواره وكان يوصلها إلى منزلها بالسيارة في السابعة والنصف لكي يستطيع كل سكان روبي رؤيتهما. لكن لأنه لم يحدّد بعد أي تاريخ فإنّ الألسنة قد بدأت تصبح ضجرة. ومع ذلك، فهناك أمر يشغل بالها أكثر من سلوكهما اللائق: البريق في عين ريتشارد، إنه يبدو لها أقلّ توهجاً هذه الأيام. كما لو أنه خسر معركة تتوقّف عليها حياته.

وصلت قربه تماماً في الوقت الذي كان فيه الجمهور يتدافع متّجهاً نحو موائد الطعام، والجميع يثرثرون ويضحكون.

قالت أنا: «مرحباً يابات. ماذا حدث لك ياريتشارد؟»

أجاب: «كنت مريضاً مثل كلب لدقيقة، تعالي سنقوم بجولة قبل أن يعاودني ذلك».

ودعا بات وتركها تقرر فيما إذا كانت تريد التحدّث إلى الأهل السعداء، أم تنصرف إلى الاهتمام بموائد الطعام، أم تغادر المكان. وقد قررت تنفيذ الحل الأخير عندما لحق بها كارتر سيراييت وداس على قدمها.

«أوه، اعذريني آنسة بيست، أنا آسف».

«لابأس ياكارتر، ولكن اهدأ قليلاً».

«نعم ياسيدتي».

«ولانتس، بعد العطلة تماماً، أنت وأنا، لدينا درس في فن الماكياج. في السادس من كانون الثاني هل تسمع؟».

«ساكون هناك، ياآنسة بيست».

«هل فعلاً ستكون هناك؟».

«نعم ياسيدتي. آنسة بيست، ساكون هناك».

في المطبخ حيث كانت بات تسخّن الماء لتحضير الشاي، أغلقت باب الخزانة بعنف، فقعقت الفناجين. كان هذا عبارة عن قرعة. لمعرفة مَنْ هو الذي أغاظها سلوكه أكثر، أنا أم هي. على الأقل، إنها تفهم أنا التي تحمي مصالحها. ولكن لماذا دافعت هي عن أناس وأمور وأفكار بانفعال لم تكن تشعر به؟ جعلها السرور العميق المثير للانفعال الذي قابل به الجمهور المسرحية تشعر بالقرص. كل هذه الترهات التي نَمَتْ معها بَدَتْ لها ذريعة للكرهية. وريتشارد مصيب بطرحه هذا السؤال: لماذا سبع عائلات وليس تسع عائلات؟ ظلت بات ترى المسرحية طيلة حياتها، مع أنهم لم يختاروها أبداً إلا للجوقة. كان ذلك في الزمن الذي راحت فيه سوان تعلّم في المدرسة - حتى قبل أن تكون قد لاحظت فردانية العدد. وبعد ذلك ببعض الوقت لاحظت أن عدد الأسر لم يعد سوى ثمانية. وحين علمت أن عائلة كاتو قد حذفت، حدث أيضاً إلغاء آخر. مَنْ هناك عائلتان فقط لاتعتبران في عداد العائلات التسع الأصلية، ولكنهما وصلتا إلى هافن باكراً لتُصبحا في عداد الشركاء هما: آل جورى (وإن كان حفيدهم هاربر تزوج إحدى فتيات بلاكهورس بالأصل - وهذا حسن بالنسبة له) ووالد أبيها: فولتون بيست. لم تُعدّ من العائلات التي كانت موجودة في الأصل، إذن بمن يتعلق الأمر؟

بالتأكيد ليس بآل فلود إذا تزوجت آنا ريتشارد ميسنر. ألا يؤخذ هذا بعين الاعتبار؟ وهل يتمكن ريتشارد من إنقاذ ذرية آل فلود؟ أم المقصود هم آل بول بسبب بيلي ديليا؟ لا، كان يوجد حمولة سفن من الذكور في هذه العائلة. وسيكون هذا هو الدليل على مداعبات أبولو وبرود، ولكن إذا كان يقصد بذلك أن يكون رادعاً، فإن آل مورغان أنفسهم كانوا يتعرضون لخطرٍ جسيم حتى تزوج «K.D.» من آرنيت. وإذا أنجبت آرنيت ابناً وليس ابنة، فكم سيصبح وضعهم أكثر أمناً. كذلك وضع آل فليتيوود. ولأنّ جف وسويتي لم يبدوا في المستوى المطلوب، فقد وجهت آرنيت الانتقاد للأسرتين.

كان الشاي جاهزاً، انحنت بات فوقه مقطبةً حاجبيها، مستغرقةً بمشكلاتها لدرجة أنها لم تسمع روجر يدخل قبل أن يظهر بالباب.

قال: «لقد غادرت باكراً جداً. غنينا بعد انصرافك».

«نعم؟ أوه! حسناً». واستطاعت بات أن تبتسم.

«كان ينقص بعض الكعك اللذيذ» تثاءب. «جُمِعَ قَدْرٌ جيد من التبرعات من أجل «لون» بعد ذلك. يا إلهي، إنها مجنونة». هز روجر رأسه وابتسم لأنه أكثر تعباً من أن يستطيع الضحك. «ولكنها كانت جيدة في شبابها». التفت لينصرف قائلاً: «حسناً، ليلتك سعيدة يا طفليتي. عليّ أن أنطلق غداً في وقت مبكر».

قالت له بات وهو يهيم بالانصراف: «دادي!».

«أهاهه! ماذا؟».

«لماذا غيروا؟ كان يوجد في المسرحية تسع عائلات. ثم ثمانى خلال سنوات وسنوات. والآن سبع».

«عمّ تتحدثين؟».

«أنت تعرف».

«لا، لا أعرف».

«المسرحية. كيف تناقص عدد العائلات التقيّة؟».

«إنها كيت التي تفعل كل هذا. وناثان. أعني إنهما يختاران الأطفال. ربّما لم يكن هناك مايكفي من الأطفال لتمثيل العدد المعتاد».

«دادي». لابدّ أنه تبيّن الشك في صوتها.
«ماذا؟» وإن فهم ذلك، فإنه لم يُظهر مايدل عليه.
«كان الأمر يتعلق بلون البشرة، أليس كذلك؟».
«ماذا؟».

«الطريقة التي يُنتقى بها الناس ويُصنّفون في هذه المدينة؟».
«أوه، لا. حسناً، الواقع بأنّ البعض ربما اغتاظوا قليلاً... منذ زمن طويل. ولكن ليس هناك خطورة في هذا الأمر».
«لا؟ ماذا قال ستيوارد عندما تزوّجت؟».
«ستيوارد؟ أوه، حسناً، إنّ آل مورغان جديون جداً في الأمور التي تتعلق بهم. وأكثر مما ينبغي أحياناً».
نفخت بات على قنجانها.

نظر إليها روجر وهو صامت ثم عاد إلى موضوع أقلّ إزعاجاً:

«أنا وجدت المسرحية جميلة جداً، ولكن يجب عمل شيء ما لـ ناثان فهو لم يعد أفضل سكّين مشحوذة في الدرج». ثم بعد تفكير:
«ماذا أراد المحترم ميسنير أن يقول لك؟ بدا الأمر في الأساس جدياً بشكل غريب».

قالت دون أن ترفع نظرها: «لقد تحدّثنا... تحدّثنا فقط».
«هل حدث بينكما شيء، أنتما كلاكما؟».
«دادي، أرجوك».

«لاضير في السؤال، أليس كذلك؟» انتظر جواباً، وحين لم يحظَ به، انصرف متمتماً بشيء ما حول القرن.

بلى، هناك ضير في السؤال. شربت بات الشاي بالملعقة، وهي شديدة الانتباه. اسأل ريتشارد ميسنر أسأله عمّا فعلته له للتوّ، أو

مايفعله له الجميع. فعندما يطرح أسئلة، لايقال له إلا ما هو بديهي وسطحي. وأنا أعرف مايشعر به الناس أكثر من أي كان. فنحن لسنا في حالة جيدة بما يكفي حتى يمثلنا أطفال في الثامنة من العمر على المسرح.

بعد خمس عشرة دقيقة كانت بات تقف في الحديقة على مسافة سبعين ياردة من قبر ديليا. كان البرد قد حلّ مع المساء ولكنّ الطقس لم يكن طقس ثلج. كانت أوراق نعناع الليمون مجعّدة ولكن جُفّن الخزامى والمريمية ظلت سليمة ومعطرة. لارياح تقريبا واستطاعت السيطرة بسهولة على النار في برميل الزيت القديم. وألقت إضبارات الكرتون وبعض الأوراق - المربوطة أو المتطايرة - الواحدة بعد الأخرى في اللهب. كان عليها أن تقتلع أغلفة دفاتر الإنشاء وتضعها بشكل منحرف بوساطة عصا كيلا تطفئ النار. أخذ الدخان يلهب عينيها، فتراجعت وقطفت حزمة من الخزامى ألقتها أيضاً في النار. استغرق منها هذا العمل بعض الوقت، ولكنها أخيراً أدارت ظهرها إلى الرماد وعادت إلى البيت تاركة في الطريق خلفها رائحة خزامى محروقة. غسلت يديها على حوض جلي المطبخ وبلّكت وجهها. أحست أنها نظيفة. وربما لذلك أخذت تضحك بهدوء في البداية، ثم بصوت عالٍ وقد ردت رأسها إلى الوراء وهي تجلس أمام المنضدة. أيعتقدون حقاً أنهم يستطيعون الاستمرار هكذا؟ الأعداد، الذريّات، ومسألة منّ يضاجع منّ؟ ولتستمر جميع سلالات الـ (R-8) لكي تنتهي مشدودة إلى بعضها مثل كبة من الشريط الحديدي؟ حسناً، ربما استطاعوا أو كان عليهم البقاء على قيد الحياة لأنّ لأحد يموت في روبي.

مسحت عينيها وتناولت فنجانها. كانت أوراق الشاي ملتصقة في القاع. تضيف قليلاً من الماء المغلي. وتترك الأوراق السوداء تنتقع فربما تعطي مزيداً من نكهتها. أيضاً وأيضاً. حتى. حسناً الآن، ماذا تعرفين؟ كان الأمر واضحاً كالماء. ليس على الأجيال ألا تختلط عرقياً وحسب، بل لاينبغي أيضاً أن يمسّها الزنى. «فليبارك الله الطاهرين والقديسين». وفعلًا هكذا كانت طهارتهم قداستهم.

وهكذا كانت الصفقة التي عقدها زكريا عندما كان يدندن بصلاته. لم تكن «غضبة الله» هي التي يجب خشيتها، بل غضبة كل فرد منهم، غضبتهم التي يجب أن يخشوها. لهذا السبب جعلتهم عبارة «كونوا غضبة الله» يصابون بالجنون؟ ولكن الصفقة لابد أن تكون قد فُسخت أو عُذلت، لأنهم الآن لم يعودوا سوى سبع عائلات. من قبل من؟ على الأرجح آل مورغان. إنهم يديرون كل شيء ويتحكمون بكل شيء. وما هو الاتفاق الجديد الذي عقده التوأمان سيكون وستيوارد؟ أيعتقدون حقاً أن لأحد يموت في روبي؟ فجأة فكرت بات أنها أصبحت تعرف كل شيء. لن يحتفظ دم (R-8) النقي من التزاني والزنى بسحره إلا بقدر ما يبقى في روبي. تلك كانت وصفتهم، تلك كانت صفقتهم من أجل الخلود.

بدرت من بات ابتسامة محتالة، وفكرت: في هذه الحالة، كل ما يقلقهم لابد أن يأتي من النساء.

ثم تمت:

«أيها الرب العزيز، أيها العزيز، أيها الرب العزيز. لقد أحرقت كل الأوراق».

كونسولاتا

في الظلام النظيف الجيد للقبو، استيقظت كونسولاتا وهي تشعر بخيبة أمل تكاد تمرقها لأنها لم تمت في الليلة السابقة. وصباح كل يوم تتحطم جميع آمالها، فتظل مستلقية على سرير صغير في القبو الأرضي متقرزة من وجودها الشبيه بوجود البزاق، لاتستطيع أن تمضي كل ساعة منه إلا وهي تحتسي زجاجات سوداء تحمل أسماء أنيقة. ثم مساء كل يوم تستغرق في نوم عميق مصممة أن يكون الأخير، آملة أن تهبط قدم ضخمة فتسحقها كما تُسحق حشرة الحداثق المؤذية.

فبعد أن أصبحت محتجزة في حيز ضيق كالتابوت، منذورة للظلام، محرومة منذ زمن طويل من أية شهية، لاتأمل سوى النسيان، أخذت تبذل جهداً كبيراً لفهم هذا التأخير. «من أجل ماذا؟» كانت تسأل. ولم يكن صوتها سوى أحد الأصوات التي تملأ القبو من جسور السقف حتى الأرضية الحجرية. كانت تصعد إلى فوق عدة مرات في الأسبوع، أثناء الليل أو في الوقت الظليل من النهار، فتخرج إلى الحديقة، تقوم بجولة، ترفع نظرها نحو السماء لترى النور الوحيد الذي تستطيع أن تتحمله. كانت إحدى النساء، مافيس عادة، تلغ على مرافقتها. كانت تتكلم، تتكلم طيلة الوقت. أو تأتي اثنتان من النساء غيرها لاحتساء الزجاجات المغطاة بالغبار، ذات الأسماء الأنيقة - «جارناك»، «ميدوك»، «هوت بريون»، «سانت

إيميلون» - وهذا يسمح لها أن تصغي لهن، بل وتجيب على أسئلتهن في بعض الأحيان. وباستثناء ماقيس التي كانت أقدمهن هناك، أصبح تمييز البقية يزداد صعوبة. نسيت الجانب الأساسي مما كانت تعرفه عنهن، وبدا لها أن تذكر ذلك يصبح أقل أهمية باستمرار، لأن نبرة أصواتهن تروي القصة نفسها: فوضى، خداع والأمر الذي كانت الأخت روبرتا تحذر الفتيات الهنديات الصغيرات منه: التهور. وهي الحدود الثلاثة التي ترصف طريق الهلاك والتي أهمها التهور.

جنن خلال الثماني سنوات السابقة. الأولى: ماقيس جاءت أثناء مرض الأم الرئيسة الطويل، والثانية بعد موتها بالضبط. ثم جاءت اثنتان، وكل واحدة منهن طلبت الإذن بالإقامة بضعة أيام، ولكن في الحقيقة دون أن ترحل أبداً. ومن وقت لآخر كانت واحدة منهن تدس بعض الحاجيات في حقيبة صغيرة رثة وتقول وداعاً، وتغيب لبعض الوقت - لكن لبعض الوقت وحسب. كن يرجعن دائماً لكي يمكنن، وليعشن كالفئران في منزل لا يرغب فيه أحد، حتى ولاجاني الضرائب، مع امرأة عاشقة للمقبرة. كانت كونسولاتا تنتظر إليهن عبر عدسات نظاراتها الشمسية، البرونزية أو الرمادية أو الزرقاء، فترى فتيات محطمت، خائفات، ضعيفات وكاذبات. عندما كانت تحتسي مشروب الـ «سانت إيميلون» أو الـ «جارناك» بطعم الدخان، تستطيع عند ذلك التسامح معهن وتحملهن، ولكنها راحت تشعر برغبة متزايدة بأن تقصف لهن رقابهن، أو أي شيء آخر لكي تضع حداً لذلك الطعام السيئ الطبخ الذي يصعب هضمه، ولذلك الطزق المستمر لتلك الموسيقى، للمشاجرات، وللضحكات الجوفاء والمبحوحة، وللمطالبات، ولكن، بصفة خاصة، عمليات التهور. كان يمكن أن تسحق لهن الأخت روبرتا أيديهن. فهن لايقمن إلا بالعمل الضروري وحسب، وليس لديهن أي مشروع يفكرن به، وبدلاً من ذلك لديهن بعض الرغبات - رغبات بليدة لفتيات صغيرات. ولم تكن ماقيس تكف عن الحديث عن مشاريع يمكن أن تدرّ النقود بشكل مؤكد: خلايا نحل، مشروع يسمى: «سريير وإفطار»، تجارة تقديم الطعام، ملجأ للأيتام. أما إحداهن فتظن أنها وجدت صندوق كنز

طافحاً بالنقود أو بالمجوهرات أو بأشياء أخرى وتريد المساعدة لتغش الاخریات حول محتوياته. ثم هناك فتاة أخرى تشطب فخذیها وذراعیها سراً. وترغب أن تصبح ملكة الندبات فتحدث جروحاً صغيرة في بشرتها بأي شيء يقع في متناول یدها: موسى حلاقة، دبوس أمان، سكين تقليم. وفتاة أخرى تشعر بالحنين إلى مايشبه نوعاً من حياة الكباریيات، إلى مكان یغص بالرواد حيث تستطيع أن تغني الأغاني الحزينة وهي مغمضة العینین. كانت كونسولاتا تصغي لتلك الأحلام الطفولية للفتیات بانغماس في الخمر فهن لا یغظنها بمقدار ما تغیظها همسات حبهن التي تبقى طویلاً بعد ذهابهن. وكانت الوحدة بعد الأخری تتسلل إلى أسفل الدرج حاملة شمعة أو مصباح كیروسین، كعذراوات یدخلن إلى معبد أو إلى سرداب كنيسة، لیجلسن على الأرض ویتحدثن عن الحب، كما لو أنهن یعرفن عنه شیئاً. ویتحدثن عن رجال یأتون لمداعبتهن أثناء نومهن. رجال ینتظروهن في الصحراء أو قرب نبع ماء بارد، رجال أحیوهم فیما مضى دون أمل، أو رجال كان یفترض أن یحبوهم، وربما أحیوهم، أو كان یمكن أن یحبوهم.

وفي أسوأ أيامها، عندما یدنس الانحطاط الشدید نظافة الظلام، كانت تريد أن تقتلهن جميعاً. ربما لذلك كانت حیاتها كبراًقة تستمر طویلاً. مثل الهدوء البارد لغضب الرب. الموت دون الحصول على غفران الله یحكم على روحها بالعذاب. ولكن الموت دون مغفرة ماري ماغنا فذلك یدنسها إلى دهر الداهرين. ربما منحتها الغفران، لو أن كونسولاتا أخبرتها في الوقت المناسب، لو أنها اعترفت قبل أن تصبح روح المرأة العجوز متلاشیة رتیبة. في ذلك الیوم الأخير صعدت كونسولاتا إلى السریر خلفها وبعد أن ألقت الوسائد على الأرض، رفعت الجسم الخفیف كالریشة فوق ذراعیها و بین ساقیها. فاندس الرأس الصغیر الأبیض بین نهدي كونسولاتا ودخلت السیدة في الموت وكأنه ولادة، ترافقه هدهدات وصلوات للمرأة التي اختطفتها وهي ماتزال طفلة. الواقع أنها اختطفت ثلاثة أطفال، وهذا من أسهل الأشياء في العالم عام 1925 . لم تكن ماري ماغنا في ذلك

الوقت سوى راهبة، وليست رئيسة، وقد رفضت بإصرار أن تترك طفلين على كومة القمامة حيث هما جالسان. فالتقطتهما بكل بساطة وأخذتهما إلى المشفى الذي كانت تعمل فيه ونظفتهما، مستخدمة على التوالي بيكاربونات الصوديوم، مستحضر «Ordorno» ثم «Glovers Mango» ثم صابون فكهول ثم مرهم أزرق ثم صابون فكهول وبعده صبغة اليود التي وضعتها برفق على جراحهما. بعد ذلك ألبستهما الثياب، وبمساعدة بقية راهبات البعثة أعادتهما معها على السفينة. ست راهبات أميركيات عائدات إلى الولايات المتحدة بعد اثنتي عشرة سنة عوملن خلالها معاملة سيئة من قبل رهبانيات البرتغالية أكثر قديماً وقساوة. لم يطرح أحد أسئلة على الأخوات «المكرسات للهنود والملونين» اللواتي دفعن من جيبهن قيمة ثلاث بطاقات سفر بأسعار مخفضة لأطفال ليسوا من البيض الفقراء يقيناً موجودين في عهدتهم. لأنهن أصبحن ثلاثاً الآن، فقبول كونسولاتا جاء نتيجة قرار اتخذ في آخر لحظة لأنها كانت قد بلغت التاسعة من العمر. وبالنسبة للجميع كان الاختطاف يعتبر عملية إنقاذ، لأنه أياً كانت الحياة التي تدفعهن إليها الراهبة العنيدة الساخطة فإنها ستكون أفضل مما ينتظرهن في الأزقة التي تغطيها القاذورات في تلك المدينة. عندما وصلن إلى بويرتو ليمون وضعت الأخت ماري ماغنا اثنتين في أحد المياتم، لأنها في ذلك الوقت وقعت في حب كونسولاتا. العيانان الخضراوان؟ الشعر بلون الشاي؟ ربما وداعتهما ولين عريكتها؟ ربما بشرتها التي بلون الدخان وغروب الشمس؟ اصطحبتهما كيتيمة قاصر إلى المركز الذي عينت فيه الآن الراهبة المتشددة - ملجأ داخلي للفتيات الهنديات يقع في القسم المعزول من غرب أميركا الشمالية.

وعلى لوحة وضعت قرب الطريق المؤدي إلى المدخل، تقرأ هذه العبارة التي كتبت بحروف بيضاء على خلفية زرقاء: «مدرسة المسيح الملك للفتيات المحليات». ربما كان على جميع الناس أن يسئوا المكان بهذا الاسم، ولكن كما تتذكر كونسولاتا فإن الراهبات وحدهن كن يستعملن اسمه الحقيقي - وخاصة في صلواتهن. وعلى

نقيض كل منطق، كان التلاميذ وموظفو الدولة والناس في المدينة يسمونه: الدير.

عملت كونسولاتا طيلة ثلاثين سنة بجدٍ ونشاط، لكي تصبح وتظل موضع اعتزاز ماري ماغنا وهو أحد الانجازات الباهرة والفريدة في حياة تلك التي كرّست نفسها للتعليم، والتربية، والعناية الصحية في أماكن تحمل أسماء لم يسمع بها أهل الراهبة نفسها، وعجزوا عن ترديدها عندما لفظتها ابنتهم. كانت كونسولاتا تخصصها بنوع من العبادة. بعد أن سُرقت واقتيدت إلى المشفى، غرّزوا لها إبراً في ذراعها، ليحموها - كما قالوا - من الأوبئة. وهي تتذكر المرض الشديد الذي تبع ذلك كأنها تتذكر شيئاً مستحسباً لأنها وهي نائمة في قسم الأطفال، راح يسهر عليها وجه جميل محاط بإزار ذي عيينين زرقاوين ازرقاق بحيرة، ثابتتين، صافيتين، ولكن تشوبهما مسحة من الرعب والقلق الذي لم تر كونسولاتا مثله في حياتها أبداً. كان هذا يستحق أن تمرض لأجله، بل وأن تموت، لكي ترى هذا النوع من الاهتمام في عيني راشد. ومن وقت لآخر كانت المرأة ذات الوجه المحاط بإزار تمدّ يدها لكي تلمس جبين كونسولاتا بظاهر أصابعها أو لتجفّف شعرها المبلّل والمشعث. اللؤلؤات الزجاجية المعلقة على خصرها أو التي تحملها بيديها راحت تتلألأ. كونسولاتا كانت تعشق تلك اليدين: الأظافر المستوية وبشرة الراحتين الناعمة والمشدودة. وتعشق الفم الجذبي، والذي لم يكن بحاجة أبداً للكشف عن أسنانه ليشعّ بالسعادة أو بالرفق والتسامح. كانت كونسولاتا ترى نوراً بارداً وأزرق يلتمع بهدوء تحت ملابسها، فتظن أنّ ذلك يصدر عن قلبها.

ومن المشفى ذهبت كونسولاتا مباشرة، وهي ترتدي فستاناً نظيفاً بني اللون يصل حتى كاحليها، برفقة الراهبات على سفينة تدعى: «أتيناس». وبعد التوقف في بنما نزلن في نيو أورليانز، ومن هناك سافرن في سيارة، في قطار، في باص ثم في سيارة أخرى. والسحر الذي بدأ مع وخزات الإبر في المشفى أخذ يتكاثر: دورات مياه يجري فيها ماء نظيف إلى درجة أنه صالح للشرب، خبز طري

وأبيض قُطع شرائح وغُلف بعناية، حليب في زجاجات، وطيلة النهار وكل يوم اللغة الرائعة التي صنعت خصيصاً للتحدث إلى السماء: صلي لأجلنا يا ممثلة نعمة ليتقدس اسمك، لتكون مشيتك كما في السماء كذلك على الأرض لكن نجنا من الشرير، من الشرير، من الشرير. فقط عندما وصلنا إلى المدرسة تسال السحر إليهن. ومع أنه لا شيء في الأرض يدل عليه، كان البيت يشبه قصراً، يغص بالجمال الذي قالت عنه ماري ماغنا إنه يجب إزالته في الحال. كانت أولى مهام كونسولاتا تقضي بتحطيم التماثيل الرخامية المعادية والاهتمام بالنار الموقدة في الكتب، راسمة إشارة الصليب عندما تبرز من الموقد صور عشاق عاريين وكان عليها أن تعيدها إلى النار. كانت كونسولاتا تنام في غرفة المون، تنظف البلاط، تطعم الدجاج، تصلي، تقشر الخضار، تعتني بالحديقة، تهئ بعض المعليات وتغسل الملابس. وهي، لأحد غيرها، التي اكتشفت الدغل الكثيف من النبات البري المحمل بالفليفلة الحارة اللاذعة، فراحت تزرعه. ثم علمتها الأخت روبرتا بعض مبادئ فن الطبخ، فتعلمت منه مايكفي لكي تعمل في المطبخ والحديقة. كانت تواظب على الدروس مع الهندييات ولكنها لم ترتبط بعلاقة صداقة مع أيّ منهن.

لقد قدّمت جسدها وروحها كليّة طيلة ثلاثين سنة لـ ابن الرب ولـ أمه كما لو أنها هي نفسها قد ارتدت ثوب الرهبنة. لها هي ذات القلب النازف والحب الذي لا قرار له، والذي بلا دنس حبلى به الطوباوية البتول مريم العذراء. لها هي صاحبة الطريق الضيق ولكنه معطر بحلاوة الرياح والصغتر. له هو الذي كان كامل الحب فيصعق به الحكماء والملعونين. له هو الذي جعل من نفسه بشراً لكي يتمكن من معرفته ولمسه ورؤيته بأبسط السبل. جعل من نفسه بشراً لكي تعكس آلامه وآلامنا، ولكي تستطيع سكرات موته، شكوكه، يأشؤه، وإخفاقه، أن تشهد وتخفف ما نتعرض له أثناء مرورنا على هذه الأرض. وتلك الثلاثون سنة من تكريس النفس لله الحي طقطقت كبيضة دجاجة عندما التقت بالرجل الحي.

كان ذلك عام 1954 . حين راح الناس يبنون بيوتاً، ويسوّرون

الحقول، ويحرثون الأرض على بعد حوالي سبعة عشر ميلاً إلى الجنوب من مدرسة المسيح الملك. كانوا قد بدؤوا ببناء مخزن للأغذية وبقالية وصيدلية، فرحت بها كثيراً ماري ماغنا لأنها أقرب من تلك التي تقع على تسعين ميلاً. هناك سوف تستطيع أن تشتري منها لفافات القطن المعقم من أجل حيض الفتيات، والإبر الرفيعة والخيطان رقم 60 كي تشغل الفتيات في ترقيع الملابس مرة بعد مرة، ورتق «ليديا بنكهام»، وكذلك مسحوق «ستان باك» وكلوريد الألمنيوم الذي تصنع منه مادة مزيلة للروائح.

وفي إحدى هذه الرحلات التي رافقت فيها كونسولاتا ماري ماغنا، في سيارة المدرسة الميكروبي الستيشن قبل وصولهما إلى الطريق الذي شق حديثاً، بدا واضحاً أنه قد حدث شيء ما. شيء جامع يحدث تحت الشمس الالهية. سمعتا هتافات تنم عن الفرح، وبدلاً من الثلاثين شخصاً المزمكين بهدوء ببناء مدينة، رأتا خيولاً تعدو بسرعة وجمهوراً يصرخ ضاحكاً. فتيات صغيرات، رُنَّت شعورهن بزهور حمراء وأرجوانية يقفزن في المكان. وشاب تعلق بعنق حصانه، محمول على الأكتاف وقد اعتبر فائزاً. وبعض الشبان والفتيان يقذفون قبعاتهم في الهواء، ويطاردون الأحصنة وهم يمسحون عيونها الطافحة بالدموع. وبينما كانت كونسولاتا تراقب هذه الفرحة الالهية، سمعت صوتاً خافتاً ولكنه ملح، يردد: تشا تشا تشا، تشا تشا تشا. ثم مرّت بذهنها ذكرى بَشْرَةٍ ورجالٍ مثل هؤلاء تماماً يرقصون مع نساء في الشوارع على إيقاع موسيقا تتردد كوجيب قلب غاضب. الجذوع ثابتة، والأرداف تصنع دوائر صغيرة فوق سيقان تتحرك بسرعة كبيرة لدرجة يبدو معها أنه لا جدوى من محاولة أحد أن يفهم كيف تكون مثل هذه الرشاقة ممكنة. ولكن الرجال هنا لا يرقصون على أية حال، بل يضحكون، يركضون، يصيحون بأشياء فيما بينهم، ومع النساء اللواتي تمايلن من الضحك والفرح. وعلى الرغم من أنهم كانوا يسكنون هناك في قرية صغيرة وليس في مدينة صاخبة تغص بالسود ذوي البشرة اللامعة، فقد أدركت كونسولاتا أنها تعرفهم.

مضى بعض الوقت قبل أن يهتم الصيدلاني بماري ماغنا. خرج أخيراً من بين الجمهور وعاد معها إلى منزله، حيث كان جانب مغلق من الشرفة يستخدم كصيدلية. فتح الباب المنخلي، أحنى رأسه بتهديب داعياً ماري ماغنا للدخول. كانت كونسولاتا تنتظر على الدرج عندما رآته للمرة الأولى. تشا تشا تشا. شاباً نحيلاً يمتطي حصاناً ويجرّ آخر. قميصه الكاكي مبلل بالعرق، وفي إحدى اللحظات خلع قبعته الواسعة ليجفف عرق جبينه. كان رداه يتمايلان على السرج من الورا إلى الأمام، من الورا إلى الأمام. تشا تشا تشا. تشا تشا تشا. رأت كونسولاتا مظهره الجانبي، فأحسّت بجناح مكسٍ بالريش يُبعث حياً ويخفق في داخلها. تابع طريقه واختفى في مرتع الأبقار. خرجت ماري ماغنا ومعها مشترياتهما متذمرة بعض الشيء من أمر أو من آخر - السعر، النوعية - وأسرعت نحو السيارة. فتبعتهما كونسولاتا تحمل لفافات القطن الطبي مغلفة بورق أزرق. وفي اللحظة التي فتحت فيها باب السيارة مرّ ثانية. كان يركض مسرعاً ليلحق بالمجموعة التي كانت تحتفل في مكان غير بعيد من هناك. وبالمصادفة، ودون اهتمام، التفت نحوها. ونظرت كونسولاتا إليه أيضاً واعتقدت أنها لمحت تردداً في عينيه وربما في خطواته أيضاً. اندسّت بسرعة في الميركوري الساخنة وبدأت الحرارة كأنها تفسر صعوبة التنفس التي شعرت بها. لم تره بعد ذلك طيلة شهرين - وهي فترة جعلها شيء مكسٍ بالريش، راح يناضل ليفرد جناحيه، متقلبةً. شهران من الصلوات الحارة ومن الانتباه الخاص في أعمالها الكثيرة المرهقة. شهر من التوتر أيضاً، لأن الأمر صدر بإغلاق المدرسة. مع أن هبات المرأة الثرية جداً التي أسست ومولت هذه الأخوة الرهبانية، بقيت صامدة في الثلاثينات ولكنها نفذت في الخمسينات. والفتيات الهنديات اللطيفات والجميلات رَحَلْنَ منذ زمن طويل - بعد أن استعادتَهْنْ أمهاتَهْنْ أو أخوتَهْنْ أو أَنَهْنْ التحقن بالرهبة وحياة التقوى. فمُنذ ثلاث سنوات، والمدرسة تطلب الرعاية من الدولة: فتيات وقحات يعتقدن بشكل

واضح أنَّ الراهبات ينصرفن معظم الوقت إلى الهزل والمجون، والباقي في الشؤم. اثنتان سبق أن هربتا، ولم يبق منهن سوى أربع. وإذا لم تتوصل الراهبات إلى إقناع الولاية بأن ترسل لهنَّ (وتدفع من أجل) فتيات هنديات فاسدات ومنحرفات جدد، فإنَّ الأوامر كانت تقضي بالاستعداد للإغلاق أو التخصص بعمل آخر. ومن المؤكد أنَّ الولاية لديها مُعاقات، لأن كلمة إعاقة تعني كل شيء، بدءاً من تبليد الفراش، إلى الهرب من الدروس، والتأناة في الصف، ولكنها تفضل أن تهذب بهن إلى مدارس بروتستانتية حيث يستطعن فيها أن استيعاب ملابس المعلمات إذا لم يستوعبن سلوكهنَّ الديني. ففي أوكلاهوما كانت المدارس والكنائس الكاثوليكية نادرة الوجود كأجربة السمك. وهذا يفسر لماذا اشترت تلك المرأة المحسنة ذلك المنزل أصلاً. إنها فرصة للتدخل في لب المشكلة: تعريف سكان البلاد الأصليين بالله وباللغة، إذ يفترض أنهم محرومون منهما، وتغيير عادات طعامهم وملابسهم وطريقة تفكيرهم ومساعدتهم على احتقار كلِّ ماسبق أن أعطى قيمةً لحياتهم في الماضي، وبدلاً من ذلك مَنحهم ميزةً معرفة إله واحد ووحيد، وبالتالي إمكانية الحصول على المغفرة والخلاص. فكتبت ماري ماغنا رسالة بعد رسالة. ذهبت إلى أوكلاهوما سيتي بل وإلى أبعد من ذلك، أملتُ إنقاذ المدرسة. وفي هذا الجو الذي تسوده بعض الفوضى كانت رعونة كونسولاتا، الأشياء التي تُسقطها أو تحرقها وزياراتها السريعة والمفاجئة للمصلّي، تزجج الراهبات، ولكنها لم تُبدي مؤشرات قلقٍ مختلفة عن مؤشراتهن. فعندما كنَّ يسألنها عما يحدث، أو يوبخنها على خطأ لا يمكن التسامح بشأنه، كانت تخلق الأعداء أو تحرد. مستغرقة في حيرتها التي تنعش يومياً تقواها الجامعة. وكانت تخشى أن يطلبن منها مغادرة الدير والعودة إلى القيام بمشاوير في المدينة. لذلك تقوم بالأعمال الخارجية مع أول ضوء في الفجر، وتُضي بقية الوقت في الداخل وهي تقوم بعملها بشكل سيئ جداً. والتي لم يكن أي منها مفيداً في النهاية. إذ أتى هوليراها.

في يوم صافٍ من أيام الصيف، بينما كانت جاثية في الحديقة
تنتزع الأعشاب الضارة مع فتاتين من الولاية تلوح عليهما علامات
الحزن والكآبة، إذ بها تسمع صوت ذكوري من خلفها:
«اعذريني يا آنسة».

لم يكن يريد سوى القليلة السوداء.
كان في التاسعة والعشرين. وهي في التاسعة والثلاثين. ففقدت
عقلها تماماً.

لم تكن كونسولاتا عذراء. فالمويفات التي خضعت لها عبر
سنواتها التسع هي أحد الأسباب التي جعلتها تُقبل بكثير من الامتنان
يد ماري ماغنا الممدودة فوق الأقدار كجناح حمامة. ولكن بعد أن
أطبقت اليد البيضاء على كفها القذرة، لم تعرف ولم تشأ أن تعرف
ذُكرًا على الإطلاق، الأمر الذي لا بد أنه يفسر لماذا تعتبر أمر وقوعها
في صدمة الحب بعد ثلاثين سنة من العزوبية ميزة مستساغة.

ماذا قال؟ تعالي معي؟ ما اسمك؟ ماقيمة نصف «البك»؟ أم أنه
عاد في اليوم التالي ليشتري كمية أخرى من القليلة السوداء؟ هل
اقتربت منه لتراه بشكل أفضل؟ أم أنه هو الذي اقترب منها؟ على أية
حال، لقد قال وهو في حالة تشبه الذهول: «عيناك كأوراق النعناع»
فأجابت: «وعيناك كبداية العالم» بصوت مرتفع أم أن هذه الكلمات
ظلت مدفونة في رأسها؟ هل ركعت حقاً على ركبتيه وطوقت ساقيه،
أم أن هذا فقط ما أرادت أن تفعله؟

«أريد أن أعيد لك سلتك، ولكن ربّما يكون الوقت متأخراً عندما
أعود، فهل هذا يزعجك؟».

إنها لا تتذكر هل أجابت بشيء أم لا، لكن وجهها قال له دون
شك ما يحتاج لمعرفة، لأنه أتى ليلاً إلى هناك، وكانت هي موجودة
أيضاً، فأمسك يدها بيده. ليس معه سلة بحجم «البك» على مرأى
منها. تشا تشا تشا.

وفي شاحنته، وهو يتجّه نزولاً ببطء في الممشى المغطى
بالحصى وعلى الطريق الترابي الضيق، ثم أسرع على الطريق

العريض المفروش بالإسفلت، لم يتبدل الكلام. كان يبدو عليه أنه يقود السيارة من أجل متعة القيادة - الهدير المستمر تحت الغطاء الفولاذي. الطريقة الرائعة التي تشق بها الشاحنة الظلام القريب، وتوغل على الفور في قبّة الظلام البعيدة في الوقت عينه - إلى أبعد مما يمكن تخيله. تابعت الشاحنة سيرها خلال وقت، خيّل لـ كونسولاتا أنه ساعات، دون أن يتبدل كلمة واحدة. يبدو أنّ الخطر وضرورته أجبراهما على التركيز وعلى أن يظلا هادئين. لم تعرف ولم تهتم إلى أين يذهبان ولماذا سيحدث عند ما يصلان. مندفعة نحو المجهول، جالسة بجانبه، وهو أكثر غموضاً من الظلام الذي يشقّاه. فتركت كونسولاتا الريش ينفرد وينفك عن جدران رحم بارد كالحجر. هنا لم تعد الريح عوناً أو تهديداً لأزهار عبّاد الشمس، ولم يعد القمر لغةً لمعرفة الزمن أو الطقس أو موعد البذار والمحصول، بل عنصراً من العالم الأصلي مخصّصاً لهما كليهما.

أخيراً أبطا في سيره واتجه إلى طريق ضيق، بالكاد يسمح بمرور الشاحنة، حيث تتكسر أعشاب الذئب على رفايف السيارة. وسط هذا الطريق توقّف وكاد يأخذها بين ذراعيه لو لم تسبقه هي إلى الارتماء بينهما.

في طريق العودة ظلّا صامتتين من جديد. ما همسا به وهما يمارسان الحب يشبه اللغة، ويشير إلى الحميمية، ولكنه كان بالواقع شيئاً لا يمكن تذكره أو التحكم به أو ترجمته. وقبل الفجر ابتعد كل منهما عن الآخر وكانهما، بعد أن تم توقيفهما، يواجهان عقوبة السجن دون وعدٍ بإخلاء سبيل مشروط. عندما فتحت باب السيارة ونزلت، قال: «الجمعة، ظهراً». ظلّت كونسولاتا واقفة هناك بينما كان ينصرف بشاحنته إلى الخلف. لم تكن قد رآته جيداً، حتى ولو مرة واحدة أثناء الليل. ولكن الجمعة ظهراً. سيفعلان ذلك، ويفعلان ذلك ويفعلان ذلك، في وضع النهار. ضمت ذراعيها حول جسدها، ركعت على ركبتيهما وانحنّت إلى الأرض. واصطدم جبينها فعلاً بالأرض بينما كانت تتمايل في أرجوحة من المتعة.

تتسلّكت إلى المطبخ وأكدت للأخت روبرتا أنها عائدة من قنّ الدجاج.

«حسنأ إذن! أين البيض؟».

«أوه، نسيت السلة».

«لااعتبريني بلهاء، من فضلك!».

«كلأ أيتها الأخت. لن أفعل».

«هناك فوضى في كل شيء».

«نعم أيتها الأخت».

«حسنأ، هيا تحركي إذن».

«نعم أيتها الأخت، اعذريني، أيتها الأخت».

«مالضحك في الأمر؟».

«لاشيء أيتها الأخت. ولكن...».

«ولكن؟».

«أنا... نحن في أي يوم؟».

«عيد القديسة مارتا».

«أقصد أي يوم من أيام الأسبوع؟».

«الثلاثاء لماذا؟».

«لاشيء، أيتها الأخت».

«نحتاج إلى عقلك ياسيديتي وليس إلى تشوشه».

«نعم، أيتها الأخت».

تناولت كونسولاتا سلة وخرجت مسرعة من المطبخ.

الجمعة، ظهراً. طردت الشمس جميع الناس إلى ماوراء الجدران الحجرية، لكي يجدوا ملجأ هناك. جميع الناس ماعدا كونسولاتا والرجل الحي، كما تأمل. فليس لها خيار آخر، غير أن

تتحمل الحرارة بقية قش تحميها من الشمس التي جعلتها سداً.
فهي تقف في منعطف الممشى ولكن أمام المشهد الكامل للبيت فهذه
الأرض كحافر حصان، مفتوح كقم طفل رضيع. ولا مكان فيه لإخفاء
فضيحتها. وإذا نادتها الأخت روبرتا أو ماري ماغنا أو طلبتا منها
تفسيراً، فستختلق شيئاً ما - أو لا شيء. تسمع صوت شاحنته قبل أن
تراها وعندما وصل بقربها، لم يلتفت ولكنه وجه لها إشارة: رفع
إصبعه فوق المقود وأشار بعيداً إلى الأمام. استدارت كونسولاتا إلى
اليمين وتبعت صوت العجلات، ثم صمتها عندما بلغت الطريق
المغطى بالإسفلت. راح ينتظرها على جانب الطريق.
وفي الشاحنة راحا ينظران إلى بعضهما طويلاً بجديّة وحذر،
ثم ابتسما.

ذهب إلى منزل مزرعة محترق يتربع على مرتفع من أرض غير
مزروعة. عبر النباتات الطويلة والأعشاب التي تعيش عليها الطيور،
ثم ركن السيارة خلف هيكل مدخنة محطمة. سارا يداً بيد وهما
يبعدان الشجيرات والعليق إلى أن وصلا قرب منخفض من الأرض،
فلمحت كونسولاتا في الحال ما يريد أن يريها إياه: شجرتي تين
نبتتا متشابكتين. وعندما استطاع تركيب جمل تامة، نظر إليها
بإمعان قائلاً:

«لاتطلبي مني شرحاً، فأنا لا أستطيع».

«لا شيء يستوجب الشرح».

«أحاول متابعة حياتي. أنا مسؤول عن كثير من الناس».

«أعرف أنك متزوج».

«وأنوي أن أظل هكذا».

«وأعرف هذا».

«وماذا تعرفين أيضاً؟» قال ذلك ووضع إصبعه على سرة
كونسولاتا.

«أني أكبر منك سناً».

رفع نظره من سرتها إلى عينيها، وابتسم: «لا يوجد أحد أكبر مني سناً».

ضحكت كونسولاتا.

قال: «بالتأكيد ليس أنت، متى كان ذلك آخر مرة؟».

«قبل أن تولد».

«إذن أنت لي».

«أوه، نعم».

قبلها برفق، ثم انحنى مستنداً على مرفقه: «لقد سافرت، وقمت برحلات عديدة، إلى كل مكان. لم أر مثلك أبداً. هل من شيء يقارن بك؟ أتعلمين كم أنت جميلة؟ هل نظرت إلى نفسك؟».

«أنظر الآن».

لم تنبت أية ثمرة تين على هاتين الشجرتين طيلة الفترة التي التقيا فيها هناك، ولكنهما كانا ممتئين من ظل أوراقهما المغبرة، وحماية جذوعهما المحتضرة. كانا يرقدان قدر ما يستطيعان على الأغصان التي جاء بها. وفيما بعد رأى كل منهما الخدوش والكدمات الزرقاء التي تركها النهير الجاف.

ألقيت أسئلة كثيرة على كونسولاتا. رفضت الإجابة عنها، وحولت التحقيقات إلى شكوى: «ماذا سأصبح، وماذا سيحدث لي عندما تغلق المدرسة نهائياً؟ هل فكر أحد بحالتي، وقال ماذا سيحل بي».

«لا تكرني سخيفة. أنت تعلمين جيداً أننا سنهتم بك. على الدوام».

حردت كونسولاتا مدعية أنها تكاد تجن من شدة القلق، وأنه من المستحيل الاعتماد عليها. وكلما زادوا بإعطائها التطمينات، كانت تزداد إلحاحاً للذهاب للتنزه، قائلة: «أريد أن أكون وحدي»، وهي

حاجة كانت تشعر بها بشكل خاص يوم الجمعة، قرابة الظهر.
وعندما توقفت ماري ماغنا والأخت روبرتا عن العمل، اعتباراً من شهر أيلول، استمرت الأخت ماري أليزابيث وثلاث تلميذات لامباليات، في توضيب الرزم، والتنظيف وإقامة الصلاة. وكان هناك تلميذتان: كلاريسا وبينني. بدأتا تبتسمان عندما تريان كونسولاتا. كانتا في الرابعة عشرة من العمر، نحيلتين، عيناها جميلتان تشعان خبثاً وتستطيعان إخفاء ذلك فجأة. وماكانتا تنتظران سوى الخلاص من هذا المكان، والآن وقد اقتربت النهاية فإنهما على أتم الاستعداد. وقد بدأتا، مجدداً، تعتبران كونسولاتا متعاونة معهما بدلاً من اعتبارها عدوة هدفها تحطيم حياتهما. وتتكلمان بصوت خافت بلغة منعهما الراهبات من استخدامهما، وتغطيان غيابها بقيامهما بجمع البيض، وهو العمل الذي كانت كونسولاتا مسؤولة عنه. وتغسلان الملابس وتقتلعان الحشائش الضارة. أحياناً كانتا تقومان بالمراقبة من نوافذ غرف الصف، بعينين براقيتين ورأسين ملتصقين، بينما وقفت المرأة التي تعتقدان أنها بلغت سن جدتهما تنتظر تحت ثقلبات الجو الشاحنة الشفروليه.

«هل يعلم أحد بأمرنا؟» أخذت كونسولاتا تداعب بظفر إبهامها حلمة الرجل الحي.

أجاب: «لن يكون ذلك مفاجئاً».

«زوجتك؟»

«لا».

«هل تحدثت لأحد؟»

«لا».

«هل رأنا أحد؟»

«لا أعقد».

«إذن كيف يمكن أن يعرف أحد بهذا؟»

«لي أخ توأم».

جلست كونسولاتا: «أنتما اثنان؟»

«لا». أغمض عينيه. عندما فتحهما ثانية، أخذ ينظر بعيداً:
«لا يوجد أحد سواي».

انقضى شهر أيلول مُلْطَخاً كل شيء بالأكوان الزيتية: مساحات بالبرتقال المحروق، أميال بلون تراب سيبينا، جداول ووديان من زرقة الليل، مع سماوات من الليل الليلكي الذي يحطم القلب. وعندما حل تشرين الأول وتضخم القرع حيث نَبَتَ الفجل سابقاً، عادت ماري ماغنا والأخت روبرتا وقد أغضبهما الكهنة والمحامون ورجال الأكليروس والقسس. والأخبار التي جاءت بها لم تكن أخباراً أبداً. ومصير كل منهما تَقَرَّرَ في «سان بير» المقر البابوي، ماعدا مصيرها هي. فالقرار سيصدر فيما بعد، ولا بد أن يكون سنّ ماري ماغنا وهي في الثانية والسبعين قد أخذ بعين الاعتبار، ولكنها ترفض الإقامة في بيت هادئ. هناك أيضاً العناية بالممتلكات. إذ أن المؤسسة التي أنشأتها المرأة المحسنة (الواقعة الآن تحت تصرف مديرها) كانت هي المالكة، وهذا يجعل ملكية البيت والأرض لاتعود حقيقةً إلى الكنيسة، وبالتالي فإنّ المسألة هي في معرفة فيما إذا كان مجمل الملكية خاضعاً للضرائب الحالية، بالإضافة إلى المتأخرة التي لم تُدفع، أمّا بالنسبة لمخمن الضرائب فإنّ المسألة الحقيقية هي في معرفة لماذا تتمتع زمرة من النساء الكاثوليكيات الغريبات الأطوار ببعض الشيء، دون بعثة من الذكور تشرف عليهن، في منطقة بروتستانتية، بمعاملة خاصة. ولحسن الحظ أو لسوئه فإنهم لم يجدوا حتى ذلك الحين أي مورد طبيعي لتلك الأراضي، مما أجبر المؤسسين على الإنفاق عليها وعدم التخلي عن ذلك. فهم لا يستطيعون أن يغسلوا أيديهم منها هكذا، أليس كذلك؟ فجمعت ماري ماغنا كل جماعتها لكي تشرح لهم المسألة. هربت فتاة أخرى ولكنّ الاثنتين الباقيتين: بيني وكلاريسا أصغيتا بانتباه عميق، بينما يُعَرِّضُ أمامهما شكل مستقبلهما - السنوات الأربع التالية منه على أية حال - الذي اتخذ شكل رجل مسن يرتدي برّة رسمية. أحسنا

رأسيهما الجميلين كدليل على موافقتهما الرسمية، واثقتين من أن المساعدة التي تحتاجان إليها للخلاص من الخضوع للراهبات لم تعد بعيدة المنال.

ومع ذلك فإن كونسولاتا لم تكذ تصغي إلى مآقالتة ماري ماغنا. فلم يكن وارداً أن تذهب إلى مكان آخر، يمكنها أن تعيش في الحقل إذا تطلب الأمر ذلك، بل وأكثر من هذا، بإمكانها الإقامة في البيت الخرب المحروق الذي ترسخ في ذهنها. فقد تبعته إلى هناك ثلاث مرات، وهي توازن مشيتها على أرضية خشبية ملتوية عبر رائحة دخان قديمة تعود إلى اثنتي عشرة سنة. هناك مايشبه البيت المبني فوق أمواج الرمال في عزلة الصحراء دون حتى شجرة واحدة ودون أن يكون هناك أي شخص أو أي عائق، فقد لحترق البيت طوعاً مع هبوب الرياح وإحساسه بجماله. فهل اشتعلت النار في الليل، أثناء نوم الأطفال؟ أم أنه لم يكن في البيت أحد عندما بدأ اللهب يضطرم؟ وهل كان الزوج بعيداً ستين أكراً، يحزم، يسي، يقلع الأشجار اليابسة ويذر؟ والزوجة هل كانت منحنية على طشت الغسيل في الباحة، وخصلات الشعر تُضايق جبينها؟ في هذه الحالة ربما رشقت سطلاً أو سطلين من الماء، وصرخت لتنادي الأطفال، وأسرعت لتأخذ كل ماتستطيع أخذه. ثم كدست في الباحة كل ماتمكنت من جلبه وإنقاذه. لاشك أنه كان هناك جرس، قطعة حديد صلبة على شكل مثلث - أو أي شيء يمكن أن يرن لتحذير الآخرين من الخطر. وعند وصول الزوج كان الدخان سيرغمه على البكاء. الدخان وحسب، إنهم أناس لايبكون بسهولة. كان سيشعر بالقلق أولاً على الماشية فيضعها في مكان آمن أو يطلق سراحها وقد تذكر بأنه لم يؤمن عليها. وفيما عدا ما هو موجود في الباحة فكل شيء قد تلف. حتى أزهار عبّاد الشمس في زاوية الدار الشمالية الغربية قرب المطبخ، حيث كانت المرأة تستطيع أن تراها وهي تحرك حساء الذرة.

فتشت كونسولاتا في بعض الدروج حيث قرضت فئران الحقل إيصالات غاز البروبان. ورأت كيف أن قطع الأثاث المتفحمة

صقلتها الرياح فأصبحت ناعمة كالحرير. وقد احتلت المكان كائنات دنيا بعد أن هربت منه الكائنات البشرية. نوع من المنحوتات والتمائيل لشعب من رماد. ورجل طوله ثمانية أقدام يتسكع قرب المدفأة. ساقاه ساقا راعي بقر قويتان، وقد أجاب شكل فكه حين واجههما عن الأسئلة المباشرة عن المكان. إصبعه في طرف ذراعه الطويل الأسود مصوب إلى اليسار، نحو السماء، هناك حيث يوجد جدار منهار، ويطلب من الموجودين الخروج سريعاً من بيته. قرب الرجل الذي كان يصوب إصبعه، على الجدار البني اللون، رُسمت فتاة لها جناحا فراشة طولهما ثلاثة أقدام. أما الجدار المقابل فكان مزداناً بمن ظننتهم كونسولاتا صيادي سمك، ولكن الرجل الحي قال: لا، هي بالأحرى عيون أسكيمو.

فسألته وهي تردّ شعرها عن عنقها: «أسكيمو؟ وما هو الأسكيمو؟».

ضحك، منساقاً بطباع راعي البقر، جذبها إلى الخارج فوق أنقاض الجدار المنهار، ورجعا إلى المنخفض حيث تباريا مع شجرتي التين بإمساك واحدتهما بالآخر.

في منتصف تشرين الأول تخلف أسبوعاً: حلّ يوم الجمعة وظلت كونسولاتا تنتظره ساعتين ونصف عند نقطة التقاء الطريق الترابي مع الطريق الإسفلتي. وكان من الممكن أن تنتظر أكثر من ذلك، لكنّ بيبي وكلايسا حضرتا تطلبانها.

فكرت أنه لا بد قد مات، وليس هناك من يخبرها بذلك. فتقلبت طوال الليل على فراشها في غرفة المؤن أو جلست في المطبخ محنية أمام الطاولة. أتى الصباح وهي تتأمل عالم الأشياء الحية ينهار بعيداً مع غياب الرجل الحي. أخذ قلبها يضعف وقد حطمه الخبر المخيف، وبدت أوردتها كأنها أصبحت أنابيب مدعوكة صنعت من السيلوفان. وازدادت بسرعة وطأة الثقل في صدرها حتى استحال

عليها أن تتنفس بصورة طبيعية. أخيراً قررت أن تكتشف الحقيقة، أو أن تعثر عليه هو.

السبت كان يوماً حافلاً بالنشاط في تلك المنطقة. عندما كانت تمشي بخطى واسعة وسط الطريق العام زمر لها الباص الذي يمر كل أسبوع لكي تبعد. أسرعت كونسولتا إلى جانب الطريق، وبدخان أنبوب العادم في السيارة يرفع شعرها غير المجدول. وبعد بضعة دقائق مرّت بها شاحنة نفط، ووجه لها السائق كلاماً من النافذة. ثم بعد نصف ساعة على وجه التقريب ظهر بريق من بعيد. سيارة؟ شاحنة؟ هو؟ خفق قلبها ودفع قليلاً من الدم في أوردتها السيلوفانية. لم تجرؤ على ترك الابتسامة التي بدت على فمها تنتشر على وجهها، كما لم تجرؤ أيضاً على التوقف بينما المركبة تظهر ببطء: نعم، أيها الرب العزيز، إنها شاحنة. وفيها شخص واحد بمفرده على المقود. يا يسوع! هاهي تبطئ في سيرها. التفتت كونسولتا لتراها وقد توقفت تماماً، ولتتمتع بوجه الرجل الحي.

انحنى على باب السيارة مبتسماً:

«أتريدين توصيلة؟».

اجتازت كونسولتا الطريق مسرعةً واستدارت نحو باب السيارة. وعندما وصلت قربه وجدته مفتوحاً. فصعدت، ودفعها سبب ما - رغبة امرأة لتوبيخه، ومحو أربعة وعشرين ساعة من اليأس، والتظاهر على الأقل بأن الألم الذي جعلها تعانيه يتطلب اعتذاراً، وتفسيراً لكي تصفح عنه - وقد منعها من ذلك شعور غريزي، فلم تدس يدها بين فخذه كما كانت تريد أن تفعل.

التزم الصمت بالتأكيد، ولكنه لم يكن صمت الجمعة ظهراً، عندما كان يأتي ليصطحبها. في ذلك الحين كان غياب الكلام مثقلاً بالعودة واضحاً، ضاجاً. أمّا صمت اليوم فهو عقيم، إنه خرس مبطن بالأسيد. عند ذلك شعرت بالرائحة، لم تكن كريهة أبداً، ولكنها ليست رائحته. بهتت كونسولتا وتجمدت، ثم دون أن تجرؤ على النظر إلى وجهه ألقت نظرة جانبية نحو قدميه. لم يكن ينتعل حذاء

الأسود العالي بل جزمة راعي بقر، وهذا ما أقنعها أن غريباً يمسك بمقود السيارة، يسكن جسده، لكنه ليس هو.

فكرت أن تصرخ، أن تلقي بنفسها على الطريق، أن تقاقله إذا لمسها. لم يتح لها الوقت لتتصور شيئاً آخر، لأنهما اقتربا من الطريق الترابي المؤدي إلى الدير. كانت تستعد لفتح باب السيارة عندما أوقف الغريب السيارة بهدوء. انحنى، لمس نهديهما بذراعه ورفع مقبض الباب. نزلت في الحال والتفتت مستطلعة.

لمس حافة قبعته الستتسون وابتسم، وقال: «في أي وقت، في أي وقت كان».

مشت القهقري وهي تحديق في دقائق وجهه، وهي تشعر بالقرص منه ولكنها مشدودة إلى عينيها الخجلتين اللتين وسعتهما الكراهية.

لم يضع هذا الحادث حداً للقاءات شجرتي التين. فقد أتى يوم الجمعة التالي بحذائه وعطره الصحيح، وتشاجرا قليلاً. «ماذا فعل؟»

«لا شيء. حتى لم يسألني إلى أين ذاهبة. فقد عاد بي وحسب».

«صافعله شيء جيد».

«لماذا؟»

«لأن ذلك في صالحنا نحن الاثنين».

«لا، بالتأكيد. فقد كان...».

«ماذا؟»

«لأدري».

«ماذا قال لك؟»

«قال: «أتريدين توصيلة؟» وقال: «في أي وقت». كما لو أنه يريد أن يكرر ذلك. أستطيع القول إنه لم يحببني».

«ربما لا. ولكن لماذا يجب أن يحبك؟ أتريدون أن يحبك؟ مثل حبك؟».

«لا. أوه، لا ولكن».

«ولكن ماذا؟».

اعتدلت كونسولاتا في جلستها وأخذت تحقق بخلفية المنزل المحروق. هناك شيء ذو فروٍ بني يركض داخلاً فيما تبقى من برميل لمياه المطر.

سألته: «هل حدثتُه عني؟».

«أبدأ، لم أقل أي كلمة عنك».

«إذن كيف عرف أنني كنت ذاهبة لأبحث عنك؟».

«ربما لم يعرف ذلك، ربما لم يفكر أنك ذاهبة إلى المدينة سيراً على الأقدام».

«إنه لم يرجع بشاحنته. كان ذاهباً إلى الشمال. وهذا ماجعلني أعتقد أنه أنت».

فقال بعد أن ألقى وأخذ يقذف الحصى: «اصغي إلي، يجب أن نتفق فيما بيننا على علامة. فانا لا أستطيع الحضور كل يوم جمعة. فلنرتب كل شيء ونضع إشارة بيننا، وهكذا ستعرفين».

لم يجدا شيئاً يناسب الأمر. وأخيراً قالت له إنها ستنتظره يوم الجمعة ولكن لمدة ساعة وحسب. فقال: إذا لم أحضر في الموعد، فمعنى ذلك أنني لن أحضر أبداً.

كان انتظام اللقاءات بينهما، قبل قدوم أخيه التوأم، قد أشبع جوع كونسولاتا حتى أصبحت كشفرة كليلة. والآن عدم الانتظام كان يجرحها. ورغم ذلك، فقد اصطحبها مرتين أيضاً إلى قرب التينتين اللتين تصران في البقاء على قيد الحياة. لم تعرف وقتها أن المرة الثانية هي الأخيرة.

حدث ذلك في أواخر تشرين الأول. أغلق جانباً من البيت المحروق بغطاء حصان كبير، واستلقيا على فراش نوم عسكري

يمكن لفه. كانت السماء الشاحبة فوقهما محاطة بظلام متصاعد، ولم يكن باستطاعتهم رؤيتها حتى ولو نظرا. كما فاجأهما الثلج الذي أخذ يتلألأ على شعر كونسولاتا ويبعث البرد في ظهر الرجل الحي. بعد ذلك أخذا يتحدثان عن وضعهما. عندما أعاقهما الجو والظروف، تكلما بشكل خاص ليعرفا أين يمكن أن يلتقيا. ذكر هو مدينة تبعد تسعين ميلاً إلى الشمال، ولكنه تراجع في الحال، لأن ليس هناك أي موتيل أو فندق يمكن أن يقبل إيواءهما. فاقترحت الدير بسبب وجود أماكن كثيرة فيه يمكن الاختباء فيها. فنخر معبراً عن رفضه لهذا الاقتراح.

فوشوشته: «أصغ إلي: هناك غرفة صغيرة في القبو. لا، انتظر، اسمع. سوف أرتبها، ستكون جميلة جداً، منارة بالشموع. في الصيف باردة ومعتمة، وفي الشتاء دافئة كالقهوة. سيكون لدينا مصباح ليرى واحدنا الآخر، ولكن لن يستطيع أحد رؤيتنا. نستطيع أن نصرخ بأقوى ما نريد دون أن يسمعا أحد. يوجد كثير من الإحاص تحت، والجدران مغطاة بزجاجات النبيذ، وهي ترقد على جنبها هناك ولكل منها اسم خاص، مثل «فوف كليكو» أو «ميدوك» ورقم مثل: 5، 1، 9، 1، أو 6، 2، 9، 1 كالسجناء الذين ينتظرون إخلاء سبيلهم». وأخذت تلح قائلة: «هيا، أرجوك، تعال إلى بيتي».

بينما كان يفكر أخذت كونسولاتا تضع الخطط. خططاً لوضع أكليل الجبل في أغطية المخدات، لتنظيف أغطية الكتان بالماء الحار المعطر بالقرفة. وسيرويان عطشهما بالنبيذ السجين المعنق، كما قالت له. عند ذلك ضحك ضحكة خفيفة تنم عن الرضى فعضت له شفته، الأمر الذي اعتبرته غلظتها الكبرى عندما فكرت به ثانية.

نفذت كونسولاتا كل ما وعدت به وزيادةً أيضاً. فغرفة القبو أخذت تتلألأ بانوار شمعدان هولندي بثمانية فروع ويفوح منها عطر الأعشاب الجافة. وثمار الإحاص تملأ وعاء كبيراً أبيض. لم يعجبه شيء من كل هذا لأنه لم يحضر أبداً. ولم يشعر مطلقاً باحتكاك الغطاء الكتاني على بشرته، كما أنه لم ينزع قطع قضبان القرفة من شعر كونسولاتا. أما كأسا النبيذ، اللذان جلبتهما من

الصناديق المليئة بالقش وغسلتهما ونشفتهما حتى أصبحا لامعين بشكل استثنائي فقد بدأ الغبار يغطيها، ثم في شهر تشرين الثاني، قبل عيد الشكر بالضبط استوطن فيهما عنكبوت مجتهد.

بعد أن غسلت بيني وكلا ريسا شعريهما، جلستا قرب الموقد وأخذتا تجففانه وتتخللانه بأصابعهما. ومن وقت لآخر كانت إحداهما تحرك خصلة سوداء منه. بعد أن تنحني لتقربها من الحرارة. كانتا ترددان الأغاني الممنوعة للأغونكوين، وهما تراقبان كونسولاتا كما كانتا تفعلان دائماً: إبان فترات إثارتها القصوى وطاقتها الجنونية، وتغيّرها البطيء إلى حد قضم أظافرهما. كانتا تحبانها كثيراً لأنها سرقت مثلهما، وتشعران بالحزن عليها. كما تعتبران سلوكها بمثابة تحذير جدي بشأن حدود واحتمالات الحب والسجن، وقد حفظتا الدرس للمحافظة على التوازن في حياتهما. على أية حال، بدأ الآن مستقبلهما الفوري يطالب بالأولوية: حقائبهما جاهزة. مخططاتهما موضوعة ولم تعودا تحتاجان إلا للنقود.

«أين تحتفظين بالنقود يا كونسولاتا؟ من فضلك يا كونسولاتا. الأربعاء سيقتادوننا إلى الإصلاحية. لانتاج إلا للقليل من النقود، يا كونسولاتا. في غرفة المؤن أليس كذلك؟ حسناً، أين؟ هناك دولار وعشرون سنتاً من يوم الاثنين وحده».

تجاهلتها كونسولاتا: «كفّا عن ازعاجي».

«لقد ساعدناك يا كونسولاتا والآن يجب أن تساعدنا. فهذا ليس سرقة - لقد عملنا كثيراً هنا وبشكل شاق. من فضلك؟ تذكرني كيف كنّا نشغل».

صدحتا بصوت هادئ، وراحتا تهزان شعريهما وتنظران إليها بعيون تشع بريقاً كعيون العذارى عندما يتعرّضن للخطر.

لم تكن الدقات على باب المطبخ قوية جداً، ولكنها تنم عن ثقة واضحة. ثلاث دقات وليس أكثر. كفت الفتاتان عن هزّ شعريهما. نهضت كونسولاتا عن كرسيها كما لو أنّ عمدة المدينة «الشريف»،

أو أحد الملائكة قد ناداها. وبصورة ما كان الطارق هو الاثنين معاً في ملامح امرأة شابة، منهكة، تتنفس بصعوبة، ولكنها تقف منتصبه كقصبة البندقية.

قالت: «لقد قطعت شطراً من الطريق، أريد الجلوس، من فضلكم».

اختفت بيني وكلايسا كالدخان.

جلست المرأة الشابة على الكرسي الذي غادرته بيني.

سألتها كونسولاتا: «أيمكنني تقديم شيء لك؟».

«ماء، أرجوك».

«ليس شاياً؟ تبدين متجمدة».

«نعم. ولكن الماء أولاً. ثم القليل من الشاي».

سكبت كونسولاتا بعض الماء من إبريق، وانحنى لتتفقد النار في الموقد.

سألتها الزائرة: «ما هذه الرائحة؟ هل هي رائحة المريمية؟».

أومأت كونسولاتا برأسها أن نعم. فرفعت المرأة أصابعها إلى شفثيها.

«هل تزعجك؟».

«لابأس ستزول، شكرًا لك». شربت الماء ببطء حتى فرغ الكأس تماماً».

كانت كونسولاتا تعرف أو تعتقد أنها تعرف، ومع ذلك فقد ألفت السؤال: «ما الذي تريدينه؟».

«أن تساعديني». كان صوتها ناعماً، متحفظاً. فلا حجج ولاتوسلات.

«أنا لا أستطيع مساعدتك».

«تستطيعين ذلك لو أردت».

«عن أي نوع من المساعدة أنت تبحثين؟».

«لا أستطيع الحصول على هذا الطفل».

انسكب بعض الماء الحار في الصحن. وضعت كونسولاتا الغلاية وجففت الماء بخرقه. لم تكن قد رأت هذه المرأة قبل هذه المرة أبداً - فتاة بالحقيقة، في العشرين من عمرها - ولكن منذ أن دخلت عرفت بمن يتعلق الأمر. إذ أن عطر الرجل الحي يلفها. أو أن عطرها هي يلفه كله. كانا قد عاشا بما يكفي من القرب ومن الزمن - حتى يستطيعا استنشاق عطر القبس وصابون كامي والتبغ، وليزفراه أثناء صحوهما. هذا وعدد من أمور أخرى: رائحة الأطفال الصغار، والعبير اللطيف للزيت الحلو، وبودرة الأطفال الرضع، والطعام الخالي من اللحم. كانت أمًا، تقول شيئاً فظاً لا يليق بأُمّ اندفعت نحو كونسولاتا كلسان مشطور إلى نصفين. فتحاشت اللسان ولكن السم أصابها بما عرفته دون أن تتصوره مطلقاً: إنها تشارك فيه زوجته. والآن تُشاهد الصُور التي تُمثل ماتعنيه كلمة «تشارك» تمثيلاً دقيقاً.

«لأستطيع مساعدتك في هذا الأمر! هل هناك شيء ليس على مايرام؟»

«لقد أنجبت طفلين خلال سنتين. إن أنجبت طفلاً آخر...»

«لماذا تأتين لمقابلتي؟ ولماذا تطلين هذا مني؟»

فسألتها المرأة بصوتها الواضح، العادي: «وممن أطلبه إذن؟»

أخذ السم ينتشر، لقد فقدته كونسولاتا. تماماً. وإلى الأبد. قد لا تعرفه زوجته، ولكن كونسولاتا تذكرت وجهه. ليس عندما عضت له شفته، لكن عندما هممت وهي تلحس الدم الذي سال منها. عندها تنفّس بحدة وقال: «لاتفعلي هذا مرة ثانية أبداً». لكن عينيه، وقد بدا فيهما القلق في بداية الأمر، ثم تحوّل إلى تمرد، قالتا لها بقية ماكان عليها أن تعرفه في الحال. النقل، القرفة، الكتان القديم والناعم - من الذي يمكن أن يخاطر من أجل الإحساس وجدار من النبيذ السجين مع امرأة مستعدة لأن تأكله كوجبة؟

«انصرفي عني. أنت لم تأتي إلى هنا من أجل هذا. أتيت لتقولي

لي، ولتريني ماذا تشبهين، وتعتقدين أنني سأتوقّف فأنا أعرف ماذا تريدين. حسناً، أنا لن أتوقّف».

«لا، ولكنه هو سيتوقّف».

«ماكنت لتأتين لو أن الأمر مثلما تظنين. تريدين أن تري ماذا أشبه، وفيما إذا كنت حبلى أيضاً».

«اصغي إلي. لايمكن أن يفشل فيما يفعله. لا أحد منا يمكن أن يفشل. نحن نبنّي شيئاً ما».

«وماذا تعنيني مدينتكم الصغيرة البائسة؟ هيا انصرفي. اذهبي عني، لديّ عمل».

هل عادت إلى بيتها سيراً على الأقدام؟ أم كانت هذه كذبة أيضاً؟ هل كانت سيارتها متوقفة في مكان قريب؟ وإذا عادت سيراً على الأقدام، ألم يتوقف أحد لياخذها؟ أمن أجل هذا فقدت الطفل؟

كانت تدعى سوان، وعندما أصبحت هي وكونسولاتا صديقتين وفيتتين، قالت لها سوان بأنها لاتعتقد ذلك. فالشر الذي أحسّت به في قلبها هو السبب. وقالت إنه الغرور الممتزج باستقامتها الذاتية زاعمة أنها بتضحيتها لا تنوي تعليمها مخادعة طرائق الرب. والحياة التي قدّمتها كصفقة سقطت بين ساقها في مستنقع من السوائل الحمراء وفي أغطية دفعتها الريح. استغرقت صداقتهما بعض الوقت. وفي هذه الأثناء، بعد رحيل المرأة، ألقت كونسولاتا كيساً صغيراً من القماش مليئاً بالقطع النقدية إلى بيني وكلاريسا وصرخت بهما: «هيا، اغربا عن وجهي».

وبينما راح الضوء يتغيّر وكذلك وجبات الطعام، أصبحت الأيام التالية سياجاً طويلاً من الحزن. تفتش فيها كونسولاتا عن فتات حبيها المفترس، ووصلت القصة إلى النقطة المحطمة فكشفت عن تحول بسيط عديم العقلانية عن المسيح، الذي يستسلم إليه المرء بكليته قبل أن يتمثل فكرة تجسده في رجل حي. العار. العار من دون ملامة. عادت كونسولاتا زحفاً تقريباً نحو المصلّى الصغير (راغبة رغبة جامحة بأن تجده هناك، يتلون بالأحمر عبر الضوء الخافت).

عادت مسرعة، كما تفعل النساء، كثرَ يعود إلى ذراعين يُدركان
الموضع الذي لايمك فيه الجسد، أية ذكرى عن خوفه شأنه شأن
التشنج العضلي. لم ترتفع أية صلاة تسؤل، ولاأي: ياسيد أنا لست
مستحقاً. ركعت فقط على ركبتيها اللتين كانت سعيدة جداً عندما
ثُباعُ مابينهما، وقالت: «أيها الرب العزيز، لم أكن أريد أكله، أردت
الذهاب إلى المنزل وحسب».

دخلت ماري ماغنا إلى المصلّى، وركعت بجانب كونسولاتا
ووضعت ذراعيها على كتفيها وقالت: «أخيراً».

أجابت كونسولاتا: «أنت لاتعرفين».

«لا حاجة إلى ذلك ياطفتي».

«ولكن هو، ولكن هو». تشا تشا تشا. تشا تشا تشا، وأرادت أن
تقول أنا وإياه واحد.

قالت ماري ماغنا: «ش ش ش، ش ش ش، لاتتكلّمي ثانية عنه
أبدأ».

كان من الممكن ألا تقبل بمثل هذه السرعة، ولكن بينما كانت
ماري ماغنا تقودها من المصلّى إلى غرفة الدرس، اخترق عينها
اليمنى بريق من شعاع الشمس كعلامة تنذر بأنها ستري كما يرى
الخفاش، وبدأت ترى بشكل أفضل في الظلام. وبذلك كانت
كونسولاتا قد خوطبت.

أنفقت ماري ماغنا كل ما استطاعت إنفاقه لكي تصطحب جميع
من في البيت إلى ميدلتون، حيث كل واحدة منهم، وبخاصة
كونسولاتا أتيح لها أن تعترف وتحضر القداس. أمّا كلاريسا وبيني
وكانتا مثلاً للتوبة، فقد ألحّتا دون جدوى بطلب زيارة «المتحف
الغربي» المعلن عنه بلافتة على الطريق. قالت الأخت ماري أليزابيت
بأنه ليس من الحكمة القيام بذلك بعد الاعتراف. أثناء رحلة العودة،
الطويلة لم يعكر صفو الصمت سوى حفيف صفحات كتب الصلاة التي
كنّ يقلّبنها والوشوشات النادرة لآخر زبائن المدرسة.

وحالاً، لم يبق سوى الأم الرئيسة والأخت روبرتا فقط. فقد

قَبِلَتْ الأخت ماري اليزابيت وظيفة معلمة في ولاية أنديانا. واقتيدت بيني وكلاريسا نحو الشرق، وكما عُلِّمَ فيما بعد، فقد هربتا في إحدى الليالي من الباص، في مدينة فايتفيل بولاية أركنساس. وفيما عدا حوالة مرسلّة إلى كونسولاتا وموقعة باسم كتاب حكايات للأطفال، فإنَّ أحداً لم يسمع عنهنَّ أي شيء بعد ذلك أبداً.

أمضت النساء الثلاثة الشتاء وهنَّ ينتظرن، ثم دون أن ينتظرن بديلاً عن التقاعد أو «منزلاً». والاستقلال الذي أعدت البعثة لتعيشه، بدأ يشبه التخلي. فأتخذن قرارات معينة ليحتفظن بالملكية دون استدانة أموال لم تعد المؤسسة تستطيع سدادها. قَبِلَ سارجنت بيرسون أن يستأجر قطعة أرض منهن ليزرع فيها الذرة الصفراء والبرسيم. هيأن الصلصات والجيلييه والخبز الأوروبي، وبعض البيض والفليفلة وأنواع التوابل، بالإضافة إلى صلصة الشواء. وقد أعلن عن ذلك على قطعة كرتون كبيرة غطت اسم المدرسة المكتوب بلون أزرق وأبيض حائل قليلاً. وفي عام 1955، كان معظم زبائنهم يقودون شاحنات بين ولايتي أركنساس وتكساس. أمّا مواطنو روبي فنادرأ ماكانوا يتوقفون ليشتروا شيئاً آخر سوى الفليفلة، لأنهم هم أنفسهم كانوا يطبخون طعاماً ممتازاً، ويحضرون ويزرعون كل مايريدون. في الستينات فقط، عندما تحسنت الأحوال، انضموا إلى سائقي الشاحنات وأخذوا يعتبرون أنَّ ماسمي الفراريج التي يرببها الدير أفضل بكثير من فراريجهم بحيث تستحق الانتقال للحصول عليها. ثم تذوقوا أيضاً جيلييه الجالابينو ونكهة الذرة. أما شجيرات جوز البيكاني التي غُرست في الأربعينات فقد أصبحت تعطي ثماراً وافرة عام 1960. وباع الدير الجوز، وعندما استعملته النسوة في صنع الفطائر، أصبحت هذه الفطائر تباع بسرعة كبيرة. ثم صنعن فطائر بالراوند، كانت لذيفة لدرجة أن كل من أكل منها تحدث عنها لجميع الناس. واكتسبت صلصة الشواء شهرة إلهية بفضل النار الجهنمية التي امتلكتها الفليفلة.

كانت حياة جيدة بالنسبة لـ كونسولاتا. بل وأفضل من جيدة، لأنَّ ماري ماغنا علمتها الصبر كفضيلة أولى في التجارة. فبعد أن

اتخذت الاجراءات اللازمة لتثبيتها أخذت كونسولاتا جانباً وراحتا تراقبان معاً القهوة تتخمر، أو تجلسان صامتتين عند طرف الحديقة. وكثيراً ماكانت تقول: إننا لانتلمس كرم الله إلّا في هبة الصبر. وهذا الدرس جعل كونسولاتا في حالة جيدة، فهي لم تكد تلاحظ كل مافقدته. وأول شيء ذهب كانت بقايا مبادئ لغتها الخاصة. تنتبه من وقت لآخر بأنها تتكلم وتفكر في ذلك المكان الوسيط، في الوادي الكائن بين قواعد لغتها الأولى ومفردات اللغة الثانية. بعد ذلك تبدد ارتباكها. وأخيراً فقدت القدرة على تحمل الضوء. وفي الفترة التي وصلت فيها مافيس كانت الأخت روبرتا قد ذهبت تعمل ممرضة منزلية، ولم يكن لدى كونسولاتا سوى عمل واحد، هو العناية بـ ماري ماغنا.

ولكن قبل ذلك، قيل أن تأتي المرأة المتغضنة بصندل له سيور، وتصرخ بجانب الحديقة، وقبل مرض ماري ماغنا التي بقيت في حالة من التكريس والعمى الضوئي، وبعد عشر سنوات من ذلك الصيف الذي اختبأ فيه داخل حفرة خلف منزل يغص بكائنات رمادية غير مضيافة، راحت كونسولاتا نفسها تتخذ ببعث الأموات.

كانت سنوات خضوع، وقد لجأت إلى الكفارة لكنها لم تشمل كل شيء. بقي بعض الوقت للاهتمام بالأشياء اليومية. وقد تعلّمت كونسولاتا أن تتحمل مسؤولية كل مالا يحتاج إلى الورق: فقد أتقنت صنع الصلصة التي أولع بها سكان تلك المنطقة الذين يعملون بتربية الماشية. وكانت تتشاجر مع الدجاجات وتقوم بدورة كبيرة لكي تتحاشى الإوزات الشريرات وتعتني بالحديقة. وقررت، هي والأخت روبرتا أن تحصلا على بقرة من جديد، وأخذت كونسولاتا وهي تقف في الحديقة، تتساءل أين يمكنها أن تقيم لها حظيرة، عندما بدأ العرق يتصبّب على عنقها ومنبت شعرها كالمطر الغزير، حتى أنه أحدث غشاوة على نظارتها الشمسية السوداء. فزعتها لكي تجفّ العرق الذي يسيل على عينيها. فرأت عبر الماء المالح ظلاً يتقدم نحوها. وحين صار قريباً جداً، تحول إلى امرأة قصيرة القامة.

تغلّبت كونسولاتا على الدوار محاولة الاستعانة بالقضيب الذي تعرضت عليه الفاصولياء فما أفلحت ووقعت أرضاً. عندما عادت إلى وعيها كانت جالسة على الكرسي الأحمر، والمرأة القصيرة تدندن وهي تمسح لها جبينها.

ابتسمت وهي تمضغ علكة، «تحدثي عن الخط».

نظرت كونسولاتا نحو المنزل «ماذا يحدث لي؟».

«تغيير، على ما أظن. إليك نظارتك، ولكنها ملتوية».

قالت إنها تدعى لون دوبريس ولو أنها لم تأتي لتأخذ فليفل فمّن يدرى كم من الوقت كانت كونسولاتا ستظل ممددة بين الفاصولياء.

أدركت كونسولاتا أنها أضعف من أن تستطيع النهوض، ولذلك دفعت رأسها إلى أعلى الكرسي وطلبت ماءً.

أجابتها لون: «أهاهه! لقد عانيت الكثير من ذلك، كم عمرك؟».

«تسعة وأربعون عاماً. وعما قريب أكون في الخمسين».

«حسناً، إنّ عمري يزيد على السبعين، أعرف ذلك ولديّ الخبرة الكافية. افعلي ما أقوله لك، تصبح هذه الهبات أكثر يسراً وسهولة».

«أنت لا تعرفين ماذا يكون هذا».

«أتراهنين؟ ليس الأمرُ التعرّق وحسب. فأنت تشعرين، علاوة

على ذلك، بشيء آخر، أليس كذلك؟».

«مثل ماذا؟».

«كنت عرفتية لو أنك شعرت به».

«وكيف يكون هذا؟».

«قولي لي أنت. فهناك نساء لا يتحملن ذلك، وهناك غيرهن يقلن إنّ هذا يذكرهن بـ .. حسناً، فأنت تعرفين».

قالت كونسولاتا: «حلقي جاف».

بحثت لون في حقيبتها: «سأحضّر لك مغلياً يفيدك».

«لا، الأخوات. أعني أنهنَّ لن يوافقن على ذلك. ولن يسمحن لك بالدخول وعمل أي شيء على الموقد».

«أوه، كل شيء سيكون على مايرام».

وقد وافقن بالفعل. فقدّمت لون إلى كونسولاتا شراباً ساخناً طعمه مالح. وعندما وصفت لـ ماري ماغنا الانهيار الذي أصابها ودواء لون، ضحكت ماري وقالت: «حسناً، أنا كمعلمة أظن أن هذا شعوزة، وكامرأة أظن أن كل مايساعد، يساعد فعلاً. ولكن انتبهي جيداً». خفّضت ماري ماغنا صوتها: «أعتقد أنها تمارس...».

لم تكن لون تأتي كثيراً، ولكنها في كل مرّة كانت تعطي كونسولاتا معلومات تسبب لها الانزعاج. وشكت كونسولاتا من عدم إيمانها بالسحر الذي تمنع الكنيسة وجميع المقدّسات الاعتراف به وممارسته. لم تكن لون تبدو عدوانية. فهي تقول فقط: «يحدث أن الناس يحتاجون لشيء إضافي».

أما كونسولاتا فكانت تؤكّد قائلة:

«أبدأ، وباعتقادي إن الإيمان هو كل ما أحتاجه».

«أنت تحتاجين لما يحتاجه الجميع: التراب والهواء والماء. لاتبعدي الله عن عناصره. لقد خلق كل شيء. وأنتِ تبدلين جهداً كبيراً لفضله عن خلقه. فلا تُخلّي بتوازن عالمه».

أصغت إليها كونسولاتا وهي شبه متعاطفة معها. لم يكن لديها فضول كبير، وعاداتها الدينية كانت متينة. ولاتكمن سلامتها في سقوط مكنسة أو في روث الذئب. لم تكن سعادتها تزيد أو تنقص بسبب رؤية حيوان مشوه. ولاتشعر برغبة في التحدث إلى الماء. ولاتصدق أيضاً أن الناس العاديين يستطيعون أو أنه يجب عليهم أن يتدخلوا للتأثير في النتائج الطبيعية. أثناء ذلك كان طريق بمبي مستقيماً تماماً، والمراهق الذي يسير عليه بالسيارة للمرّة الأولى يعتقد، ليس فقط بأنه يستطيع أن يقود السيارة عليه وهو معصوب العينين، بل وهو نائم أيضاً. وهذا ماكان يفعله بانتظام سكوت مورغان في هذا الاتجاه وفي الاتجاه الآخر، كما فعل ذات يوم عند

المساء على الطريق الذي يمرّ قرب الدير. كان في الخامسة عشرة من العمر، ويقود شاحنة والد أعزّ أصدقائه، (التي لم تكن شيئاً يذكر إذا قورنت بالشاحنة ليتل دير التي علّته عُثُ قِيادَتُها) بينما كان أخوه إيستر نائماً في مقطورة الشاحنة وبجانبه صديقهما العزيز. ذهبوا بهدوء إلى ريد فورك لمشاهدة الـ بلاك روديو الذي منعهم ذووهم من مشاهدته، وشربوا كثيراً من بيرة فالستاف. وأثناء إحدى غفوات سكوت على المقود خرجت الشاحنة قليلاً عن الطريق، الأمر الذي بدا من الممكن ألا يكون له نتائج خطيرة لولا أعمدة الكهرباء التي كانت مكدّسة على جانب الطريق وجاهزة للتركيب، حالما يتلقى العمال المكلفون بتثبيتها في أماكنها الأمر بذلك. اصطدمت بها الشاحنة وانقلبت، فانقذف جولي بيرسون، وإيستر إلى الخارج. وظلّ سكوت محصوراً في الداخل، وخطوط حمراء ومتعرجة تلوّن بشرة صدغه السوداء.

شعرت لون بالحادث، أكثر من سماعها للأصوات، وهي تجلس إلى مائدة كونسولاتا: لأنّ صراخ جولي وإيستر لا يمكن أن يصل إلى بعيد. نهضت وأمسكت كونسولاتا من ذراعها:

«تعالَي».

«إلى أين؟».

«المكان قريب، على ما أظنّ».

عندما وصلت، كان إيستر وجولي قد سحباً جسد سكوت من كابينة قيادة الشاحنة، وأخذا يطلقان الصيحات فوق رأس صديقهما المتوفي. قالت لون لـ كونسولاتا: «أصبح الآن عجوزاً أكثر مما ينبغي، ولم أعد أستطيع فعل ذلك، أما أنت فتستطيعين القيام به. أن أرفعه؟».

«لا، ادخلي فيه. أيقظيه».

«أدخل فيه؟ كيف؟».

«ادخلي. ادخلي أكثر تماماً وساعديه، يا فتاة!».

تأملت كونسولاتا الجثمان، ودون تردد نزعتهما نظارتها وحذقت بالخيوط الحمراء التي كانت تغير لون شعره. ودخلت. رأت الطريق الذي خُلم فوقه. أحسّت بالشاحنة وهي تنقلب، وبألم في رأسها، وبصدرها وهو ينسحق، وتتفّسها وهو يتوقّف. وسمعت إيستر. وجولي كما لو أنّ صوتيهما يأتیان من بعيد وهما يوجّهان الركلات إلى الشاحنة، وهما يئنّان. ورأت في داخل الشاب نقطة نور تبتعد. جمّعت طاقتها التي كانت تشبه الخوف وأخذت تحقّق فيها حتى أخذت تكبر. ثم شيئاً فشيئاً حتى يمكن للهواء أن يتسرّب في البداية، ثم يدخل بقوة. كان النظر إلى نقطة النور تلك كأنه النظر إلى الشر، ومع ذلك فقد ركّزت قواها كما لو أنّ الرتتين اللتين تحتاجان للهواء هما رتتاها.

فتح سكوت عينيه، أرسل أنيناً خافتاً وجلس. فقالت النسوة للولدين اللذين لم يصابا بالجروح أن ينقلاه إلى الدير. تردّدا قليلاً وتبادلا النظرات. فصرخت لون: «هيا ماذا بكم جميعاً بحق الجحيم؟».

شعر الاثنان بالانفراج تماماً لشفاء سكوت وقالوا: «كلّا أيتها السيدة، يا آنسة دوبريس يجب أن نعود». قال إيستر: «ليزّ هلّ تسير الشاحنة». أجلسوها على عجلاتها ووجدوا أنها مائزلة صالحة للسير. ذهب لون معهم وتركت كونسولاتا نصف مبتهجة ونصف حُجّلة بسبب ما فعلته. فقد مارست السحر.

انقضت بضعة أسابيع قبل أن تعود لون التي طمأننتها بشأن شفاء الصبي.

«أنتِ موهوبة، كنت أعرف ذلك على الدوام».

قلبت كونسولاتا شفتيها منزعة ورسمت إشارة الصليب وتمتمت بالصلاة: «السلام عليك يا مريم، يا ممثلة نعمة» تبدّد ابتهاجها وبدا لها كل شيء يبعث على القرف. كالسحر. كعمل الشيطان. أمر يمكن أن يعذبها ويذلّها أن تعترف به إلى ماري ماغنا أو إلى يسوع أو إلى العذراء. لم تكن تعرف ماذا تفعل في ذلك الوقت، كانت مسكونة، مسحورة، إنه سحر لون وقد قالت لها ذلك.

«لاتكوني حمقاء، فالله لا يخطئ. واحتقار الموهبة التي منحك إياها خطأ. أنت تدعيه بالأحمق، مثلك؟».

ردت كونسولاتا قائلة: «إنني لأفهم شيئاً مما تقولين». «بلى، إنك تفهمين. دعي عقلك ينمو واستعلمي ماوهيك إياه الله».

«أظن أنه يريدني أن أتجاهلك».

قالت لون: «إنك عنيدة». ثم تناولت حقيبتها ونزلت الممشى كي تنتظر في الشمس السيارة التي ستأخذها. بعد ذلك أتت سوان: «لقد حدثتني لون دوبريس عن كل مافعلته. فأتيت لأشكرك من كل قلبي».

لم تجدها كونسولاتا مختلفة في شيء أبداً، سوى أنها قصت شعرها اللزج الكثيب الذي كان لها عام 1954 ، كانت تحمل سلة وضعتها على المائدة: «سأذكرك إلى الأبد في صلواتي».

أزاحت كونسولاتا المنشفة التي تغطي السلة: قطع حلويات مستديرة موضوعة بين أوراق مشمعة. قالت: «الأم الرئيسة ستحبها مع الشاي» ثم نظرت إلى سوان وأضافت: «وهي جيدة مع القهوة أيضاً».

«أتناول فنجاناً منها. فانا أحبها أكثر من أي شيء».

وضعت كونسولاتا قطع الحلويات على طبق. «لون تظن....».

«الأمر سيان بالنسبة لي. لقد أرجعته لي».

صاح ذكر إوز في الباحة فهربت الإوزات أمامه.

«لم أكن أعرف أنه اينك».

«أعرف ذلك».

«كان أمراً لم أستطع الامتناع عن القيام به. أعني إنه خارج قدرتي، إذا صح القول».

«أعرف هذا أيضاً».

«وماذا يعتقد هو؟».

«إنه يعتقد أنه أنقذ نفسه».

«ربما كان مصيباً في ذلك».

«ربما».

«وماذا تعتقد أنت؟».

«إنه محظوظ أن نكون له نحن الاثنين».

نفضت كونسولاتا الفئات المتبقية في السلة وأعادت إليها المنشقة بعد أن طوتها بعناية. وعلى مدى سنين طويلة ظلتا تتبادلان هذه السلة.

«الدخول» مع شخص آخر غير ماري ماغنا كان بلا جدوى. فلم تكن هناك كلمة للتعبير عن ذلك. والنور الذي لم تكن كونسولاتا تستطيع تقريبه من عينيها، تحلته من أجل الأم المحترمة عندما أصيبت بالمرض. وقد جرّبت في بداية الأمر التقوى التي تحولت إلى زعر بسبب الضعف - لاشيء يبدو أنه يروّح عن المرأة المريضة - ثم بعد أن استولى عليها الغضب بسبب عجزها تولت إدارة الأحداث. أوغلت أكثر حتى تجد نقطة النور. عالجتها بيدها، كبرتها، قوتها. أعادت إليها الحياة، بل وأخذت ترفعها من وقت لآخر. وأخذت تدخل فيها بقوة لدرجة جعلت ماري ماغنا تسطع كالمصباح حتى نفّسها الأخير بين ذراعي كونسولاتا. لذلك مارست السحر، وإن حدث ذلك لمصلحة المرأة التي تحبها، فهي تعلم أنه كان لعنة، وأن ماري ماغنا كانت ستترجع من القرف والغضب لو أنها علمت أن الشر هو الذي يمدّ في عمرها. وأن مباركة الدخول الأخير سوف تؤجل عن عمد من قبل شخص كان يجدر به أن يعرف ما حدث. ولذلك فإن كونسولاتا لم تحدثها عنه أبداً. ومع ذلك، لم تتلاش موهبتها، رغم أنها كريهة، وقد أزعجها أن تقرر خطيئة الغرور وأعمال السحر إلا أن الأمر انتهى بكونسولاتا إلى التحالف مع الله وأقنعت نفسها أنها هكذا لن تأثم بحقه، كما لن تعرّض روحها

للتهلكة. إنها مسألة لغة: لون تسمى ذلك: «النفاذ إلى الداخل». وكونسولاتا تقول: «رؤية داخلية»، لذلك فإن الموهبة كانت «بصيرة». شيء يجعله الله في متناول من يريدون تنميته. كان ذلك متعرجاً بعض الشيء، ولكنه وضع حداً للنقاش بينها وبين لون وسمح لها أن تتقبل أدوية لون من أجل معالجة كل أنواع الأمراض، وتجربة أدوية أخرى، عندما تبهرها «البصيرة». وكلما ازداد العالم المنظور ظلاماً أصبحت «بصيرتها» مذهلة.

عندما توفيت ماري ماغنا شعرت كونسولاتا وهي في الرابعة والخمسين أنها أصبحت يتيمة على نحو ما، ليس كطفلة شوارع وليس كخادمة أبدأ. كانت الكنيسة محقة بتحذيرها من الحب البشري المبالغ فيه، فحين فارقتها ماري ماغنا، قُبلت كونسولاتا تعاطف صديقتها، والمساعدة وشوشات مافيس التشجيعية، وجهود غريس لإدخال البهجة إلى نفسها، ولكن الحب الذي يربطها بالعالم انزلق من بين أصابعها. لم يكن لها هوية، ولا ضمان، ولا أسرة، ولا عمل. تواجه الهلاك متوقعة أن تُطرد، تغشاها الريبة حيال الله، وتشعر أنها لفافة ورق - لم يكتب عليها شيء - ملقاة في زاوية خزانة فارغة. لقد وعدوها بأنهم، دائماً، سوف يهتمون بها، ولكنهم لم يقولوا لها بأن «دائماً» تختلف عن «بكل الطرق» كما تختلف عن «إلى الأبد». ولم يساعدها النبيذ السجين المعتقد إلا لبعض الوقت واكتشفت، وهي مشبعة بفضاظة المدمن، أنها تتمنى أن تتمتع بالقوة الكافية لتضرب النسوة اللواتي يعشن في المنزل كطفليات حتى الموت. لقد قالت لها لون بأعلى صوتها: «الله لا يقع في الخطأ». ربما كان الأمر كذلك، ولكنه، من وقت لآخر، يبدو وكأنه مفرط بكرمه: كمنحه قدرات شيطانية لسكينة جاهلة لإتمالك قرشاً، تعيش في الظلام، عاجزة عن النهوض من سريرها لتقوم بعمل مفيد، أو أن تموت فيه وتخلص العالم من نتائنها. شعرها أشيب، عيناها مُفْرِغَتَانِ مِمَّا خُلِقَتِ العيون من أجله. وكانت تتخيل المنظر الذي لا يدُ أنها تبدو عليه. فعيناها فاقدتا اللون لاتريان بوضوح سوى ماهو موجود في أذهان الآخرين. على النقيض تماماً من ذلك الفصل

الأعمى الذي كانت تضاجع فيه الرجل الحي في التراب وتعتقد أنها رأت للمرة الأولى لأنها كانت تنظر بإمعان. ولكنها كانت قد خوطبت، ولُعنت نصف لعنة، وبوركت نصف مباركة. لقد أخزقَ خضرة عينها ووضع بدلاً منها بصيرة خالصة تجلب لها اللعنة إذا استخدمتها.

وقع خطى ودقات على الباب قطعت سلسلة أفكارها الحزينة التي لامخرج لها.

فتحت الفتاة الباب.

«كوني؟»

«ومن غيرها؟»

«هذا أنا، بالاس. لقد هاتفت أبي مرة أخرى. هذا ماهناك أنت تعرفين. سألتقي به في تولسا. وقد جئت أودّعك».

«أدرك ذلك».

«كان الأمر رائعاً. وكنت بحاجة إليه. حسناً، وقد انقضى دهر منذ أن رأيته لآخر مرة».

«كل هذا الزمن الطويل؟»

«هل تصدقين ذلك؟»

«هذا صعب. لقد سمعت».

«نعم، أعرف هذا».

«ماذا ستفعلن من أجل ذلك؟»

«جمية، كما هي العادة دائماً».

«لأعني هذا، أعني الطفل. فأنت حامل».

«لست حاملاً».

«لا؟»

«لا».

«لم لا؟»

«أنا في السادسة عشرة وحسب».

«أوه!» قالت كونسولاتا وهي تنظر إلى الرأس المدور كقمر عالق فوق عمود فقري، وإلى الزوائد الصغيرة الأربعة - قوائم أم أيدي، حوافر أم أقدام. يصعب التحديد عند هذه المرحلة. قد تكون بالاس أم حبلَى بِحَمَلٍ، أو طفل، أو نمر. وقالت بينما كانت بالاس تهرب: «يالشفقة»، و«يالشفقة» مرة ثانية، عندما تصوّرت الحياة التي يُحتمل أن يعيشها الطفل مع أمه الشابة البلهاء. تذكرت فتاة أخرى، في السن نفسه تقريباً، كانت قد أتت قبل ذلك ببضع سنوات - في وقت سيئ للغاية. كانت كونسولاتا موجودة في الداخل منذ سبعة عشر يوماً بمفردها، وقد أخذت تحافظ على تنفس ماري ماغنا، وراح الضوء الأزرق والبارد يهتز إلى أن طلبت ماري ماغنا الإذن بالرحيل، وإن حُرمت من تناول القربان المقدس الأخير. كانت الفتاة الثانية: غريس قد وصلت في الوقت المناسب تماماً لتنتهي الوحدة المخيفة التي خُيِّمت عندما نُقل الجثمان وهذا ماسمح لكونسولاتا بأن تنام. كانت مافيس قد عادت للتو وجلبت معها ماء لوردس (Lourdes) المقدس، وبعض المسكنات غير المشروعة. رحبت كونسولاتا بالرفقة التي ألقتها عن أفكار الإخلاء والتجويع والموت دون ندم المثيرة للشفقة الذاتية. دون أوراق ولاحمية. كانت تشعر بأنها ضعيفة بالقدر الذي كانت عليه وهي تتعلّق بيد ماري ماغنا في التاسعة من عمرها، بالقرب من درابزين السفينة «أتيناس». وأياً كانت المساعدة التي تستطيع لون دوبريس أو سوان تقديمها لها فإنها لاتشمل المأوى. ليس في هذه المدينة.

ثم أتت فتاة روبي. عيناها مثقلتان بالدموع. وبشيء آخر. لم تكن قلقة، كما هو متوقع بل كانت متمردة بسبب مافي رحمة. انقباض بلغ من العنف درجة تدفعها إلى فصل عقلها عن جسدها وإلى اعتبار هذا الجسد منتجاً لجسد آخر باعتباره غريباً ومتمرداً وغير طبيعي ومريضاً. لم تكن كونسولاتا تفهم سبب هذا الاشمئزاز، ولكنه موجود بالفعل. وظهر من جديد في الـ «لا!» التي صرخت بها واحدة أخرى: رعب لايشوبه شيء. مع الأولى، فعلت كونسولاتا

ماتعرف أنَّ ماري ماغنا يمكن أن تفعله: هذأت من روع الفتاة ونصححتها بأن تنتظر موعدها. قالت لها إنَّ بإمكانها انتظار الولادة في الدير إذا رغبت بذلك. تهللت مافيس، وفرحت غريس. استلمن ريع الحقل وذهبن لشراء كل مايلزم للمولود الجديد. ورجعن حاملات مايكفي من ثياب المولود، والحفاضات والدمى لافتتاح حضانة. والفتاة التي كانت ترفض بإصرار أن تعتنى بها القابلة، أخذت تنتظر، هادئة ومقطبة، قرابة أسبوع. حسب ما اعتقدته كونسولاتا. ولكنها حتى بدء الطلق لم تكن تعلم أنَّ الأم الشابة قد ضربت بطنها بكل قسوة. ولو أن كونسولاتا تتمتع بقدرة أفضل على الرؤية ولو لم تكن بشرة الفتاة سوداء مثل ليل عاشق المحيط لكانت رأت الآثار في الحال. لكنها لم تر سوى بعض التورم ومساحات كبيرة تلونت تحت الجلد بالبنفسجي بدلاً من الفضي. ولكن الأضرار الحقيقية، هي التي سيبتها قبضة المكنسة، التي غرست بمهارة المغتصب - دون أية شفقة ولعدة مرات - بين فخذيها. وبتلذذ وإرادة ذكر سريع حاول انتزاع الحياة خارج حياتها. بطريقة ما نجحت في ذلك بشكل مدهش. فالوليد، وهو ابن خمسة أو ستة أشهر انتفض، قوياً، حائفاً، متصلياً من الخوف، حاول النجاة من السفينة الخربة والمعطلة التي تحمله، من الضربات على جمجمته الهشة، وعلى مؤخرته. ولولا الارتعاشات في عموده الفقري، لكان بلا أمل. لو لم يحاول النجاة بجلده لتحطم قطعاً أو غرق في طعام أمه. لذلك ولد، إذا أمكن القول، قبل الأوان وقد أنهكه هروبه. لكنه كان يتنفس نوعاً ما. اهتمت به مافيس. أما غريس فذهبت إلى السرير. كونسولاتا ومافيس نظفتا له عينيه، أنخلتا أصابعهما في حلقه لتمرير الهواء إلى صدره وحاولتا إطعامه. وسارت الأمور هكذا بضعة أيام، ثم أسلم نفسه لرفقة ميرل وبييرل. عند ذلك رحلت أمه دون أن تنظر إليه أو تلمسه أبداً. ودون أن تسأل عنه أو تطلق عليه اسماً. فسَمته غريس تشي ولم تدب كونسولاتا أين دُفن. كل ما فعلته، هي أنها تتممت: «ياحمل الله، يارافع خطايا العالم، ارحمنا» فوق الباوندات الثلاثة من الحياة الشجاعة وإنما المهزومة وذلك قبل أن تحمل مافيس وتذهب به وهي تبسم وتناغي.

فَكَرَّت كونسولاتا بأنَّ هذا حسن. فحياة تشي مع هذه الأم كان لها أن تصبح جحيماً. والآن شخص آخر يصرخ: لا كما لو أنَّ هذا يحل المشكلة. فيا للشفقة.

تناولت كونسولاتا زجاجة فلاحظت أنها فارغة، تنهدت واسترخت على مسند الكرسي. فهي تعرف أن أفكارها بلا نبيذ، لاتطاق إذ تتحول إلى انطواء واستدرار للشفقة على نفسها وغضب صامت، قرف، وعار يتلأل كالجمر في نار ميتة. وعندما حاولت أن تنهض لشبع نقيصتها استولى عليها إرهاق شديد أرغمها على الوقوع ثانية على الكرسي، وقد أسندت نكفها على صدرها. فنامت إلى أن صحت من سكرها، ثم استيقظت وهي تشعر بصداع وجفاف في فمها، وبحاجة ملحة لدخول المرحاض. ومن الطابق الثاني سمعت شهقات وراء أحد الأبواب، وغناء وراء باب آخر. نزلت الدرج وعزمت على الذهاب لشم الهواء قليلاً. عبرت المطبخ وهي تجرجر قدميها، وخرجت. كانت الشمس قد غربت تاركة وراءها نوراً أقل شدة. تأملت كونسولاتا الحديقة وقد اجتاحتها فصل الشتاء. غراس البندورة مدلاة باسترخاء فوق الثمار المتساقطة على الأرض، سوداء ومتفسخة في التراب. غراس الخردل مصفرة شاحبة بسبب العفونة والإهمال. ومحصول كامل من البطيخ متساقط فوق بعضه قرب زهور الأقحوان البنية بلون الوحل. وبعض ريش الدجاج مازال عالقاً بشريط الحاجز المنخفض الذي يحمي بعض الشيء الحديقة من أي ضرر كان. كانت دون عناية بشرية مع وجود جحور القوارض وقلاع النمل الأبيض وآثار غزوات الأرانب والغربان الكثيرة الراسخة العزم، وماوراء ذلك بدت أكوام الذرة التي جُمعت بعناية في الحقول مهمة، وبقايات غراس الفليفلة التي تتدلى منها أصابع الفليفلة الجعداء متيبسة من البرد. ورغم حبيبات التراب التي تحملها الرياح وتلفح ساقي كونسولاتا فإنها جلست على الكرسي الأحمر الباهت.

مهمته: «أنا لست مستحقاً، ولكن قل لي. أين راحة الأيام، وما وعدت به من أحواض الصعتر وعطر الفيرونيكة؟ القشدة والعسل

للذين قلت إنني أستحقهما؟ السعادة التي تأتي من المهمات التي نؤديها والسكينة التي يؤمنها القيام بالواجب، وأين البركة التي تمنحها الأعمال الجيدة؟ وماقت به حباً بك هل كان رهيباً إلى هذه الدرجة؟».

لم يكن لدى ماري ماغنا شيء تقوله. فاصغت كونسولاتا إلى الصمت الراض متسائلة أكثر من كونها مُغتاظة من السماء التي اصطبغت الآن بالوان الريش الذهبي والأخضر المائل إلى الزرقة الذي يتبختر كحب مُتبادل على الأفق. شعرت بالخوف من أن تموت وحيدة دون أن يكون هناك أحد يبكّيها، في أرض غير مقدسة، وكانت تعلم أن هذا هو بالضبط ما ينتظرها. لكم كانت تتمنى الموت الجيد! وخاطبت الله قائلة: «سأفتقدك. حقاً» فارتجف نور السماء.

اقترب أحد الرجال. قامته متوسطة، مشيته خفيفة، واتجه صعوداً في الممشى مباشرة. كان يضع قبعة رعاة البقر التي تخفي ملامحه. ولكن كونسولاتا، على أية حال، ماكانت تستطيع أن تراها، فحيث جلس على درج المطبخ، في إطار الباب، كان مثلث من الظل يخفي وجهه دون ملابسه: صدارة خضراء فوق قميص أبيض، حمالات حمراء معلقة على جانبي بنطاله الكستنائي، حذاء عمل أسود لماع.

سألت: «من هذا؟».

«هيا، أيتها الفتاة. أنت تعرفيني». انحنى إلى الأمام فرأت أنه يضع نظارة شمسية تتألاً عدستها كالمرايا.

قالت: «لا، لأستطيع القول إنني أعرفك».

«حسناً، هذا ليس مهماً. كنت ماراً من هنا» عشر ياردات كانت تفصل بينهما، ولكن كلماته لامست خد كونسولاتا.

«هل أنت قادم من المدينة؟».

«أهاهه، أنا قادم من بعيد. هل هناك ما يُشرب؟».

«انظر بنفesk في البيت». بدأت كونسولاتا تنساب نحو لسان الرجل كالعسل الذي يسيل من قرص الشهد.
قال، وكأن هذا يسوي المسألة وأنه يفضل البقاء عطشان:
«أوه، حسناً».

فقال كونسولاتا: «ماعليك إلا أن تنادي والبنات سيجلبن لك شيئاً تشربه». شعرت بأنها خفيفة، لا وزن لها، كما لو أنها تستطيع الانتقال لو أرادت، دون أن تنهض.

سألها الرجل: «ألا تعرفيني أفضل من ذلك؟ ليست فتياتك اللواتي أريد رؤيتهن. بل أنت».

قهقهت كونسولاتا ضاحكة. «لديك نظارة أفضل من نظارتي». فجأة، أصبح بجانبها دون أن يكون قد تحرك - كان يبتسم، كما لو أنه أمضى (أو يتوقع أن يمضي) لحظة سعيدة. ضحكت كونسولاتا مرة أخرى. بدت الطريقة التي طار بها نحوها من الدرع والطريقة التي نظر بها إليها ذلك الغاوي كثير المزاح طريفة جداً بل مضحكة. وعلى مسافة أقل من ست بوصات من وجهها، نزع قبعته الكبيرة. شعر فاتح بلون الشاي انسدل على كتفيه وعلى ظهره. ثم رفع نظارته وغمز بعينه، خفقة بطيئة مغوية في هدب واحد. لاحظت أن عينيه مستديرتان وخضراوان كتفاحتين يانعتين.

على ضوء شمعة ذات مساء بارد من كانون الثاني أخذت كونسولاتا تنظف، تغسل وتعيد أيضاً غسل دجاجتين ذبحتا للتو. كانتا صغيرتين، لاتبيضان كثيراً، وريشهما حديث النمو يصعب نتفه. كان القلبان، العنقان، الحوصلتان، الكبدان والأجنحة تتقلب ببطء في الماء الذي يغلي. شدت الجلد لتغرز فيه إصبعها أكثر مما تستطيع. وأخذت تبحث عن جيب تحت الصدر قرب الجناح. ثم أمسكت الصدر بيدها اليسرى وغرزت أصابع يدها اليمنى تحت الجلد الأسود حتى وصلت برفق إلى العمق الفقري. وفي كل هذه

الأماكن - حيث أبعدت الجلد وفصلت الغشاء عن اللحم الذي يحميه - وضعت زبدةً. كثيفةً. شاحبةً. لزجةً.

مسحت بالاس عينيها بظاهر يدها وتمخّطت. والآن ماذا؟

لم يكن آخر اتصال هاتفى تحدثت عنه إلى كوني يختلف كثيراً عن الأول. كان أقصر قليلاً وحسب. ولكنه أحدث الخيبة نفسها التي أحدثتها المحادثة مع والدها في الصيف السابق.

يايسوع المسيح، ولكن أين كنت بحق الجحيم؟ لقد ظننت أنك مُت. الحمد لله. لقد وجدوا السيارة ولكنها كانت مهشمة، من إحدى جهاتها، وقد سلب أحدهم كل ما بداخلها إلى الجحيم. هل أنت بخير؟ أوه، ياطفلتي الصغيرة. «دادي». أين هو؟ - سينال جزاءه على كل مؤخرته. قل لي ما الذي حدث. فالعاهرة أمك تقول أي شيء، كما هي عادت. هل أملك أو سبب لك سوءاً؟ «دادي، لا». حسناً، ماذا إذن؟ أكان وحده؟ أقمنا دعوى على المدرسة يا صغيرتي. إننا نمسك بهم. «لم يكن هو. عدة شبان لاحقوني». ماذا؟ «في شاحنتهم. لقد صدموا سيارتي وأرغموني على الخروج عن الطريق. فركضت و...» هل اغتصبوك؟ «دادي!». تشجعي يا عزيزتي. استدعي لي يا جو أن الشرطي المحقق. قل لي إن بالاس معي على الخط. لا، هي بخير، اتصلي به، هل تفعلين ذلك؟ هيا يا حبيبتي. «أنا هنا» أين أنت؟ «هل ستأتي لتأخذني يا دادي؟» بالتأكيد سأتي، وحالاً. هل أنت بحاجة لنقود؟ أيمكنك الذهاب إلى أحد المطارات أو إلى إحدى المحطات؟ قل لي فقط إلى أين ستصلين. انتظري. ربما تستطيعين الاتصال بالشرطة، أعني الشرطة المحلية. يمكنهم إيصالك إلى أحد المطارات. قل لي لهم أن يتصلوا بي. اهتفي لي من المحطة. أين أنت؟ بالاس؟ من أين تكلمينني؟ بالاس، أنت هناك؟ «مينيسوتا» مينيسوتا؟ يايسوع. كنت أعتقد أنك في نيومكسيكو. ماذا هناك بحق الجحيم؟ بلومنغتون؟ لا، سان بول. هل أنت بالقرب من سان بول

ياحبيبتني؟ «أنا لست بالقرب من شيء، يادادي. أنا في مكان يشب
الريف». اتصلي بالشرطة، يابالاس. اطلبي منهم أن يأتوا ليأخذوك.
هل تسمعينني؟ «نعم، اتفقنا يادادي». بعد ذلك، اتصلي بي من
المحطة. «نعم». هل فهمت؟ أأست مجروحة، لاشيء؟ «لا، يادادي،
حسناً، جيد. سأكون أنا أو جو آن هنا إذا خرجت. يا طفلي أي
اختبار تخضعيني له، ولكن ستسير الأمور بشكل حسن الآن. وسنتكلم
عن ذلك الحقيق عندما تعودين. أتوافقين؟ اهتفي لي. يجب أن
نتحدث. أحبك. ياطفلي.

حديث، أكيد. ولكن بالاس لم تهتف لأحد - لا للشرطة، ولا لدي
دي ولا له - حتى شهر آب. فغضب كثيراً ولكنه مع ذلك أرسل لها
نقوداً من أجل نفقات السفر.

وإذا ضحكوا من وراء ظهرها قبل كارلوس، وإذا كانوا قد
سخرُوا منها. وألقوا النكات على حسابها فإن ذلك لم يصل إليها إلا
كإحساس باهت: إشارة مقطعة عندما تدخل إلى قاعة الصف
ونظرة تنسل عندما تلتفت أمام خزانة وابتسامة مترددة مع
اقترابها من مائدة مكتظة. فهي لم تكن بالحقيقة في يوم من الأيام
ذات شعبية كبيرة، ولكن كياستها ونقود أبيها يخفيان الأمر. أما الآن
فقد أصبحت نكتة مكشوفة (بالاس ترولاف هربت مع البوا...ب، ألا
ترى أن هذا شيء خارق؟) ولأحد يحاول أن يخفيها. كانت قد
رجعت إلى ذلك المكان الذي تدور فيه الحروب المميتة، خنادق
المدرسة المنظمة، حيث العار هو الزمن الذي يتطلبه عبور البهو لنقل
الأطباق، والفشل هو العبث بقفل مركب، والقرف هو واق رقيق يسد
نافورة. حيث فيما عدا تبادل الملابس والدمى، لا يوجد نوايا حسنة.
حيث يسود الاعتداد بالنفس والأحكام الفورية وعمليات الطرد
الدائمة. والبالغون لا يعرفون شيئاً عن ذلك. فالسجن وحده يمكن أن
يكون فظاً ومخيفاً إلى هذا الحد، لأن وراء القواعد والشعائر تدور
حياة عنف مضمّن. والذين يأتون من عائلات هادئة ومترنة يفاخرون
بقسوة تنقض عليهم حالما يدخلون البوابات. إنها قسوة متكررة
بهينة الفرح الشيببي.

لقد حاولت بالاس ولكن المذلة أنهكتها. وميلتون أرغمها على الاعتراف بكل ما يتعلق بأمها. كان قد حُذِر من نتائج زواج يتم خارج وسطه. وكل تحذير ثبتت صحته: دي دي عديمة الشعور بالمسؤولية، لأخلاقية. والحق، إنها مومس حقيقية. وظلت بالاس غامضة، وردت بأجوبة مراوغة. قاضى المدرسة الثانوية بسبب إهمالها والخطورة التي تشكلها على المحيط، علاوة على ميول المستخدمين الإجرامية. ولكن «ضحية» «الاختطاف» سافرت بملء رضاها، وغاية الرحلة «خارج حدود الولاية» هو الوصول إلى منزل أم «الضحية». فكيف يمكن أن يكون كل هذا إجرامياً؟ أكان يحدث لدى الأب شيء يجب أن يُبلغ عنه للعدالة؟ شيء يجعل الفتاة تريد حتماً أن تهرب لتلتقي بأمها؟ وبالإضافة إلى ذلك، فإن أي أمر مزعج لم يحدث في إطار المدرسة - باستثناء إصلاح سيارة «الضحية» ومرافقتها إلى بيتها. حدث «الاختطاف» أثناء العطلة عندما كانت المدرسة مغلقة. وأخيراً فإن «الضحية» لم تذهب بملء رضاها وحسب، بل تعاونت وخدعت الجميع لكي ترافق رجلاً (فناناً، حتى) ليس له أية سوابق وسلوكه وعمله في المدرسة لا غبار عليهما. هل اعتدى جنسياً على «الضحية»؟ هي تقول: لا، لا، لا، لا. هل أعطاه مخدراً؟ هل أعطاه شيئاً محظوراً قانونياً لتدخنه؟ بالاس كانت تجيب بالنفي بإيماءة من رأسها متذكّرة أنّ أمها هي التي فعلت ذلك. من الذي هشم سيارتك؟ لأدري. لم أر وجوههم. فقد هربت. إلى أين؟ ذهبك بالأوتوستوب مع أناس. من هم؟ أناس في مكان كالكنيسة. في مينيسوتا؟ لا، في أوكلاهوما. وما هو العنوان ورقم الهاتف؟ دادي، كف عن ذلك. لقد رجعت إلى البيت أليس كذلك؟ نعم. ولكني لم أعد أريد أن أقلق عليك. لاتفعلي. لاتفعلي.

لم تكن حالة بالاس على مايرام: فأقل شيء تأكله يرفع وزنها عدة باوندات، مع أنها كانت تتقيأ تقريباً كل شيء. وأمضت عيد الشكر بمفردها، تاكل مما تهيئه لها العناية الإلهية. وبمناسبة عيد الميلاد أرادت أن تسافر. ميلتون قال لا. ستبقين هنا. قالت إلى

شيكافو وحسب لتزور أخته. وأخيراً وافق. واهتمت سكرتيرته بتدابير السفر. بقيت بالاس مع شقيقة ميلتون حتى الثلاثين من شهر كانون الأول، ثم ذهبت دون أن تُعلم أحداً (بعد أن تركت كلمة مطمئنة، ولكنها مضللة). في مطار تولسا احتاجت لساعتين ونصف حتى استطاعت استئجار سيارة مع سائق لإيصالها إلى الدير. كانت تقول بأنها مجرد زيارة، لترى كيف كان الجميع. ولكن من الذي ستمكن من خداعه سوى نفسها؟ لأحد على ما يبدو. ألفت كوني نظرة خاطفة إليها. والآن ماذا؟

أخذت كونسولاتا تحني الدجاجات وتنظر في تجويف مؤخراتهن، الوردية والفضي. تذرو فيه ملحاً وتُزيل ماسقط حوله ثم تدهن السطح الخارجي بمزيج من الزبدة والقرفة. تضيف بصلًا إلى قطع العنق والقلوب والقوانص على سطح المرق الذي يغلي، وحالما أصبحت الدجاجتان بنيّتي اللون وطريّيتين نتيجة القلي، وضعتهما جانباً لكي تسترجع سوائلهما.

الماء فاتر في حوض الحمام وقليل العمق، ولا يصل إلا إلى خصرها. ويجيج تحبّ الحمام حاراً، عميقاً، وله فقاقيع. كانت التمديدات في المنزل خربة: يصل فيها الماء ملوناً ويصعد بصعوبة ولا يصل أحياناً حتى الطابق الثاني. وكان ماء البئر يمر عبر رجل على الحطب لم يكن أحد سواها يفكر بصيانتته. بدا الحصول على غالونات من الماء الساخن من جهاز معطل عملاً مرهقاً حقيقياً، وأسوأ من ذلك أيضاً في فصل الشتاء. لقد ساعدتها سينيكا بالتأكد، بأن حملت لها عدة دلاء ملأى بالماء الساخن من موقد المطبخ إلى الحمام. ومن أجل الفقاقيع سكبت لها قليلاً من «إيفوري سنو»

وحزكت الماء بأفضل ما استطاعت، لكنّ ذلك لم يعط سوى نوع من الحمأ المخيب للأمال. كانت قد طلبت من سينيكا أن تأتي معها إلى الحمام وتحملت رفضها المعتاد، ولكن حتى وإن فهمت لماذا تُفضّل صديقها ألا تظهر عارية، لم تكن جيحي تستطيع منع نفسها من مشاكستها بشأن قلة استحمامها. لقد رأت ورق التواليت المدمى، أما الآثار على بشرة سينيكا فقد أحست بها تحت الغطاء وحسب. ورغم أن جيحي بغیضة وفظة، فإنها لم تكن تستطيع أن تسألها عن هذا الموضوع. فربما كان للجواب علاقة وثيقة مع مشهد الصبي الأسود الصغير النازف.

مدّت ساقها وأخرجت قدميها من الماء لكي تتألمها مثلما فعلت في معظم الأحيان عندما كانت تضعهما على ظهر «K.D.» وهي مستلقية في المستودع، بينما هو جالس وقد أدار ظهره للعاري نحوها. إنها تفتقده من وقت لآخر. رغم إخلاصه الفوضوي، المليء بالاندفاعات المزاجية والجراح والتوق والكثير الكثير من الهجر. صحيح أنها لاحقته قليلاً. فجاهزيته وعشقه قد أعجباها لأنّ خبرتها بهذا الشأن محدودة جداً. ميكي. لا يمكن تسمية ذاك حباً. ولكنّ الحب على طريقة «K.D.» لم يبق ممتعاً لأمد طويل. فقد شاكسته أو شتمته أو رفضته أكثر من مرة وطاردها حول المنزل وأمسك بها ثم صفعها. فأوقفته مافيس وسينيكا وضربتاه بأدوات المطبخ وطردتاه - وردّت الثلاثة على شتائمه بأعنف ما استطعن ابتكاره من شتائم.

فكرت، آه، حسناً. هاهو عام جديد. إنه عام ألف وتسعمئة وخمسة وسبعين. مشاريع جديدة، لأنّ القديمة ثبت أنها لم تكن إلّا هراء. وعندما نجحت أخيراً بإخراج العلبة من تحت بلاط الحمام صاحت فرحة عندما وجدتها مليئة بالشهادات الدراسية. وقد سرّ بها موظف المصرف ودفع لها خمسة وعشرين دولاراً لكي يضعها في إطارات، أو في إحدى الواجهات لتسلية الزبائن. إذ أنّ الناس لا يستطيعون أن يروا كل يوم بعض الوثائق المتعلقة بإحدى أكبر

عمليات النصب والسرقة التي حصلت في الغرب. طلبت خمسين دولاراً، خرجت من المصرف بخطي متناقلة، وقالت لماثيس: انطلقني من فضلكا.

ستجعل سينيكاف تغازر معها. للخير هذه المرة. وستعود إلى الشجار. بشكل ما، ومكان ما. فمن المستحيل تحديد مكان إقامة أمها، وأبوها أصبح في طابور الموت. ولم يبق لها سوى جدّ، يعيش في بيت متنقل أنيق في ألكورن بولاية الميسيسيبي، لم تكن قد فكرت بذلك بدقة، ولكنها أخذت تتساءل الآن لماذا غادرت. الشجار هو السبب. ليس فقط بسبب الصبي الصغير النازف، ولا بسبب خدعة ميكي بشأن الزوجين اللذين يتضاجعان في الصحراء، ولا بسبب نصيحة ذلك الشخص القصير بخصوص الماء الصافي والشجرتين المتشابكتين. قبل مجيء ميكي، كان هدف حياتها يضيع في التسلية والمغامرة. المظاهرات الاستفزازية، المناشير، المشاجرات، الشرطة، والجلوس القرفصاء، المسؤولون والمناقشات والمناقشات، الكثير من الكلام والجدالات دون أن يكون هناك شيء جدّي. شدّت جيحي بيد مغطاة بالصابون لفافة في شعرها. لم تكن طالبة ثانوية ولا طالبة كلية، لأحد، ولا حتى الفتيات الأخريات كن يقدرن جدّيتها بشكل جدّي. ولو لم تكن قادرة على الطباخة لما عرف أحد أنها موجودة. ماعدا ميكي. صرخت بأعلى صوتها: «قدرون». ثم دون أن تدري أيّ من القدرين هم الأكثر إثارة لغضبها، أخذت تضرب بباطن يدها ماء حوض الحمام المقرف وتقول في كل مرة: «اللعة!» حتى هدأت بعد وقت قصير، فاستلقت في حوض الحمام، غطت وجهها بيديها المبللتين، وأخذت تهمس في راحتَي يديها المخضلتين: «لا، أنتِ هي الغبية، عاهرة غبية. لأنك لم تكوني قاسية ولا نكبة بما فيه الكفاية. مثلاً هو حالك مع بقية الأشياء اللعينة، ليس لديك قوة مثابرة. ظننت أن الأمر سيكون مسلياً وأنه سينجح. خلال فصل أو فصلين. ظننت أننا حمام حارة وعندما حولونا إلى رمال، هربت».

لم تكن جيحي من النوع الذي يبكي، وحتى الآن عندما تبينَ لها أنها ليست راضية عن نفسها منذ زمن طويل، طويل جداً، فقد ظَلَّت عيناها جافتين، مثل جمجمة في صحراء.

تقشّر كونسولاتا بعض حبات البطاطا الصغيرة بنية اللون، وتقسمها إلى أربع قطع، ثم تغليها في ماء حار مثيل بعضير التنبول، والغار والمريمية، قبل أن ترتبها في مقلاة حتى تصبح ذهبية داكنة اللون. ثم ترش عليها مسحوق البابريكا والفليفلة السوداء، وتقول: «أوه، نعم، أوه، نعم».

قال إنها أفضل شيء لعين يسير على عجلات. وأمَلَتْ مافيس بأن الحب الذي يَكُنْه لـ الكاديلاك التي بلغت عشر سنوات من القدم يعني أنه سيعطيها استراحة. ولن تعرف قط إذا كان قد فعل ذلك، ولكن قبل أن يفلق الميكانيكي دكانه بالضبط أنجز العمل وتقاضى خمسين دولاراً أجرته، اثنين وثلاثين ثمن القطع، ثلاثة عشر ثمن زيت وبنززين، وهكذا اختفت تقريباً جميع النقود التي أتنها من ريع حقل الذرة الصفراء. ولادفعات يمكن أن تتوقعها من السيد بيرسون قبل ثلاثة أشهر. لكن بقي مايكفي للتسوق، وللذهان الذي تريده كوني كما فكرت هي (من أجل الكرسي الأحمر، ودهان أبيض أيضاً من أجل قنّ الدجاج) وكذلك من أجل قضبان البوظة. فالتوأمان يحبّانها كثيراً ويلتزمانها بسرعة كبيرة. ولكنهما لم يمسا دمي عيد الميلاد، وكان على مافيس أن تنتظر خمس ساعات لضبط وإصلاح السيارة وهي تبدل شاحنة فيشربرايس بشاحنة من نوع تونكا ودمية تايني تينا بأخرى تتكلم. وبيرل ستصبح كبيرة بعد فترة وجيزة لتحصل على باربي. إنه لأمر مذهل كيف يتغيران وينموان. كانا لا يستطيعان تثبيت رأسيهما بعد عندما سافرا، ولكنها عندما

سمعتهما في الدير للمرة الأولى، كانا قد أخذنا يمشيان في السنة الثانية من العمر، تستطيع تحديد ذلك بدقة بناءً على ضحكتيهما، وعلى الطريقة التي اندمجا بها تماماً مع الأطفال الآخرين الذين يتراكضون في الغرف، كانت تعرف كم نموا. والآن، أصبحوا في سن الدخول إلى المدرسة: ست سنوات ونصف، ويجب على مافيس أن تفكر بهدايا تناسب أعمارهم لذكرى ميلادهم ولعيد الميلاد.

لقد كانت تشعر بالوحدة الشديدة عندما عادت إلى مريالاند عام 1970 . وبينما كانت تنتظر إلى موضع المدرسة حيث سجلت فيها سال وفرانكي وبيلي جيمس، تبين لها وقد شعرت بصدمة أن سال يجب أن تكون في السنة الأخيرة في المدرسة الثانوية، وبيلي جيمس في الثالث الابتدائي، وفرانكي في الخامس. ومع ذلك، كان في ذهنها أن التعرف عليهم لا يطرح أية مشكلة حتى ولو لم تكن واثقة من التعرف على نفسها. ربما أصابها المتشبهة بحاجز الباحة، أو لمحة غريبة في وجهها، أو أي شيء كان، لا بد أنه قد أخاف التلاميذ، لأن رجلاً أتى وألقى عليها بعض الأسئلة - دون أن تستطيع الإجابة على أي منها. فهربت محاولة أن تخبئي وتنتظر في آن معاً. أرادت الذهاب إلى بيت بيغ ولكن دون أن تدع فرانك يراها أو الجيران. وعندما وجدته - كانت الفتاة الصغيرة ذات القبعة ماتزال تشوق البطاط - بكت. شجرة ورد شارون البرية والقوية والجميلة جداً، قُطعت على مستوى الأرض. والخوف من أن تُعرف وحده، الذي منعها من أن تعبر الشارع ركضاً. وبوضوح مفاجئ وشديد، أدركت أنها ليست في أمان هنا ولا في أي مكان لا يتواجد فيه ميرل وبيرل. كان ذلك قبل أن تتصل بـ بيردي وتعلم بوجود المذكرة.

رفعت مافيس شعرها في قلنسوة صوفية كبيرة خضراء غامقة، واشترت نظارة من النوع الرخيص، ثم استقلت الباص إلى واشنطن (D.C.)، ومن هناك إلى شيكاغو، حيث اشترت الأشياء التي تريدها كوني من أجل الأم للرئيسة، واستقلت باصاً آخر، ثم آخر إلى أن وصلت إلى موقف الباصات في محطة ميدلتون حيث تركت

الكاديلاك. وذهبت لتعطي كوني الأشياء التي اشترتها لها وتعود إلى توأميها بسرعة في سيرها طيلة مسافة الرحلة. صعدت مافيس الممشى، وهي في حالة عصبية، لاهثة. وتوقفت قرب جيبي العارية، التي سبق لها أن اختارت مسكناً في ملجئها. لقد تشاجرتا وتقاتلتا طيلة ثلاث سنوات، ولحسن حظ كوني نجحتا بتحاشي ارتكاب جريمة القتل. كانت مافيس تعتقد أنَّ جنون جيبي بِرَجُلٍ روبي هو الذي منعهما من تناول سكين. لأنَّ مافيس كان يمكن أن تفعل ذلك، وأن تقاتل حتى النهاية ضدَّ أيِّ كان، بمن فيهم تلك العاهرة التي تربت في الشوارع، وتهذِّد بقتلها وترك أطفالها دون حماية. لذلك استقبلت سينيكا اللطيفة، بصدق، بل بإسراف، استقبالاً تقاسمته «جيجي» معها تماماً، لأنَّ سينيكا عندما وصلت، طردت «K.D.» كما تُلفظ بذرة العنب. كانت كبرياء مافيس بالمكان مؤكدة. حتى الفتاة الصغيرة الغنية والحزينة، ذات الوجه الجميل الحزين لم تجعلها موضع شك. كان التوأمين سعيدين، وكانت مافيس أقرب إلى كوني من أيِّ من البقية وبسبب قربيهما الشديد من بعضهما وتفاهمهما الشديد بدأ القلق يساور مافيس. ليس بسبب عادات كوني الليلية، ولا بسبب ميلها للشراب - أو غياب ميلها، إنما لأنَّ الاحتياجات المعتادة اختفت مؤخراً. هناك شيء آخر، الطريقة التي تهزُّ بها كوني رأسها كما لو أنها تصغي لشخص قريبها، وكيف تقول «أهاهه»، أو «هل ترى ذلك» وتجيب على أسئلة لم يطرحها أحد. ومن جهة أخرى، فإنها لم تكفَّ عن وضع نظارة شمسية على عينيها وحسب، ولكنها أخذت تتجمل كل يوم، لو استطعنا قول هذا، بارتدائها أحد الفساتين التي تعطيها إياها سوان مورغان عندما لاتعود بحاجة إليها. وكانت تضع في قدميها حذاء الراهبات اللامع الذي كان سابقاً على منضدة زينتها. ولكن هي نفسها، مع الضحكات المرحية التي ترون في أذنيها، وقضبان البوظة التي تذوب في عزِّ الشتاء، لم تكن في وضع يسمح لها بالحكم على أمور كهذه. ولم تكن كوني تطرح أسئلة حول حقيقة التوأمين قط، وبالنسبة لمافيس التي

لم يكن لديها النية بأن تشرح ماتعرف أنه حقيقي أو تدافع عنه، كان ذلك القبول مركزياً. وقد أصبحت مرات ظهور الزائر الليلي أكثر فأكثر ندرة، ومابدأ يعنيها ويشغل بالها الآن هو السرعة التي ينمو بها ميرل وبيرل. وفيما إذا كانت تستطيع مجاراتهما.

ست تفاحات صفراء أذبلها تخزين الشتاء، وقد انتزع لبّها، تطفو على الماء. وكمية من الزبيب تُسخّن في مقلاة من النيذ. ملأت كونسولاتا كل تفاحة بمزيج قشديّ مكوّن من صفار البيض، العسل، جوز البيكان والزبدة، وأضافت إليها واحدة واحدة الزبيب المنتفخ بالنيذ، ثم سكبت النيذ المنكه في مقلاة وألقت فيه التفاحات. أخذ السائل الحار والحلو يتحرك.

كانت الأزقة ضيقة ومستقيمة ولكنها تفيض حالما تُشقّها، أحياناً تأخذ مناديلاً ورقية لكي تمسح الدم، ولكنها كانت تحب أن تتركه يسيل أيضاً. كانت اللعبة تقضي بإحداث الجرح في العمق المناسب تماماً، ليس سطحياً أكثر مما ينبغي وإلا فإنّ الخدش لا يحدث سوى خط ضعيف أحمر. وليس عميقاً وإلا فإنّ الدم يصعد وينبثق بسرعة بحيث لا يعود الشارع يُرى. ورغم أنها انتقلت من ذراعها إلى ساقها لكي ترسم الخارطة، فقد كانت تتعرّف بسرور على آثار الطرقات والجادات القديمة، التي حتى نورما وجدتها تثير الاشتزاز. كانت واحدة تكفي أحياناً لعدة أشهر. ثم تشق في أوقات أخرى اثنتين منها في اليوم، تاركة الوقت الكافي بالكاد لأحد الشوارع بأن ينغلق قبل أن تفتح شارعاً آخر. ولكنها لم تكن متهورة. فهي تستعمل أدوات نظيفة مع الكثير من صبغة اليود (فهي أفضل من الميركروكروم). وقد أضافت مرهم الصبر إلى مايلزها من معذات.

بدأت العادة التي أخذتها من أحد بيوت التبني، كحادثة. قبل أن يعمد أخوها بالتبني - طفل آخر يربى في منزل الأم غريز - إلى نزع ملابسها الداخلية للمرة الأولى، انفتح دبوس الأمان الذي يمسك بحزامها بدلاً من الزر المستخدم لذلك، فخدش لها بطنها في الوقت الذي شد فيه هاري بنطالها الجينز. وعندما ألقاه بعيداً، ووصل إلى سروالها، أثارتة أكثر رؤية خيط الدم. لم تبتك، لم يؤلمها ذلك. وعندما حممتها الأم غريز، فرقعت بلسانها: «يا طفلي المسكين، لماذا لم تقول لي؟» ووضعت قليلاً من الميركوروكروم على الخدش. لم تكن تدري تماماً عما كان عليها أن تتحدث: عن دبوس الأمان أم عن تصرف هاري. عند ذلك خدشت نفسها بالدبوس وأرت ذلك إلى الأم غريز. ولأنّ تعاطفها قل، فقد حدثتها عن هاري. «لا تكرري هذا أبداً مرة أخرى. أسمعيني؟ أسمعيني؟ أمور كهذه لا تحدث هنا». وبعد وجبة مكوّنة من أطباقها المفضلة، وضعت لدى أسرة أخرى. لم يحدث شيء طيلة سنوات عديدة. حتى دخلت المدرسة الثانوية في الصف الحادي عشر. في ذلك الوقت عرفت أنّ شيئاً فيها يدفع الفتیان إلى الإمساك بها والرجال يلّمحون لها. وإذا شربت زجاجة كوكا مع خمس فتیات أخريات عند نضد مخزن الأشياء الرخيصة يأتي إليها أحد الفتیان إثر رهانٍ مع رفاقه، الضاحكين الهازئين، ليقرص حلمة ثديها. بوسع أربع فتیات أو واحدة فقط النزول إلى الشارع، ولكنها عندما تمرّ أمام الرجل الجالس مع طفله على مقعد في إحدى الساحات العامة فإنه في تلك اللحظة يرفع قضيبه ويرسل أصوات القبلات. والبحث عن ملجأ لدى الأصدقاء الذكور ليس أفضل. كانوا يعتبرون تعلقها بهم أمراً مؤكداً. لكنها إذا اشتكت لهم بأنّ رفاقهم أو بعض الغرباء قد لمسوها ينقلب غضبهم ضدها، لذلك عرفت أنّ المشكلة هي شيء ما في داخلها.

دخلت في الخطيئة كشاعر مُراقِب، كلماته أكثر طراوة وأكثر إباحية من أن تنشر. لقد أثارها ذلك، جعلها تتوازن. وولوج تلك الحياة تحت ملابسها كان يترك عينيها جافّتين ويولد فيها سكينه لم

يكن يعكّرهما سوى النساء اللواتي كنّ يبكين ويفجّر منظرهنّ فيها
 ألماً مُفجماً بوحشية شديدة إلى درجة أنها يمكن أن تعمل أي شيء
 كي تقضي عليه. في العاشرة من عمرها لم تكن تقطع أرصفة عندما
 اغتيل كيندي وبكاه العالم كله علناً. ولكنها كانت في الخامسة عشرة
 عندما اغتيل كينغ في الربيع وكيندي آخر في الصيف ذاته. وفي كل
 مرة كانت تحصل على إجازة مرضية من عملها كجليسة أطفال
 وتحبس نفسها في البيت لكي تفتح شوارع قصيرة، طرقات وأزقة
 في ذراعيها. كان من السهل إخفاء عملها الدموي. ومثل ايدي تورتل
 فإن أغلب أصدقائها الذكور كانوا يفعلون ذلك في الظلام. أما
 بالنسبة لأولئك الذين يصرون في الحصول على جواب كانت تختلق
 مرضاً. ويحصل التعاطف بصورة فورية، لأنّ الندبات كانت تبدو
 أنها جراحية فعلاً.

والأمان الذي وجدته في منزل كوني صار أقل سلامة مما كان
 عليه عندما وصلت بالاس. فقد أمضت كثيراً من الوقت تعمل على
 رفع معنوياتها وتغذيتها، لأنّ بالاس عندما لا تأكل كانت تبكي أو
 تحاول ألا تبكي. والارتياح الذي رافق رحيلها في أواخر آب تبدّد مع
 عودتها في كانون الأول - أكثر جمالاً، أكثر بدانة، مدّعية أنها لم
 تتوقّف إلا للزيارة. في سيارة ليموزين، ليس أقلّ من ذلك، مع ثلاث
 حقائب. الوقت الآن كانون الثاني وكل ليلة يمكن سماع شهيقها في
 كل أرجاء البيت.

شقت سينيكا طريقاً آخر. نقطة تقاطع، بالواقع، لأنه يتقاطع مع
 الطريق الذي كانت قد شقته قبل لحظات.

مُدّت المائدة والأطعمة في مكانها. تنزع كونسولاتا مزيلتها.
 وبظنرة العميان الأرستقراطية، مسحت وجوه النساء وقالت: «اسمي
 كونسولاتا سوسا. إذا أردتَ البقاء هنا يجب أن تفعلن ما أقوله.
 تاكلن كما أقول. تنمن عندما أقول. وسأخبركنّ إلى أي شيء تشعرن
 بالجوع».

تنظر النسوة إلى بعضهن البعض ثم يلتفتن نحو شخص لم يميزنه. له ملامح كوني العريضة. ولكنها منحوتة على نحو ما: وجنتاها أعلى وذقنها أقوى. هل كان حاجباها بهذه الكثافة، وأسنانها بهذا البياض كاللؤلؤ؟ شعرها لم يعد أشيب. بشرتها بنعومة الدراق. لماذا تتكلم هكذا؟ وعمّ تتكلم؟ هذا ماتساءلت عنه النسوة. هذه السيدة المسنة الوديدة، غير المتوعدة، التي يبدو أنها تحب كل واحدة منهن على أفضل وجه، التي لم توبّخ أحداً قط وتتقاسم معهن كل شيء، ولكنها تحتاج القليل، ولا تحتاج إلى عناية، ولا تطلب أي مشاركة عاطفية، التي تصغي، ولا تغلق أبواباً وتقبل كل واحدة كما هي. فعمّ يمكن أن تتكلم هذه الأم، هذه الصديقة والرفيقة المثالية، التي يشعرن معها أنهن في مأمن من الأذى؟ وبماذا تفكر هذه المالكة الرائعة التي لا تطلب من أحد أن يدفع شيئاً وترحب بالجميع. هذه الجدّة الإوزة التي يعهدن إليها بمكنونات قلوبهن أو يتجاهلنها، يكذبن عليها أو يخدعنها، هذه الأم الدمية التي يمكن معانقتها أو تركها، تبعاً لنزوات الابنة؟

وتابعت: «إذا كان لديك مكان عليك الذهاب إليه، أو إذا كان أحد ما يحبك وينتظرك فيه، إذن، اذهبن. وإلا، فابقين هنا واتبعنني. ربما يكون هناك من يريد اللقاء بكن».

لم تغادر أية واحدة منهن. كانت هناك أسئلة عصبية وانفجار واحد لفقهة مرتدة، بعض الانزعاج ومحاولات الغضب المصطنع. ولكنهن لم يرين في أي وقت أنهن يمكن أن يغادرن المكان الذي لهن الحرية في أي يغادرنه.

وبالتدريج ضاعت منهن الأيام.

كان أهم شيء، في البداية، هو القالب. أولاً وقبل كل شيء كان عليهن أن ينظفن أرض القيو تماماً إلى أن تصبح ججارت بنظافة

صخور الشاطئ، ثم وضعن شموعاً بشكل دائري على الجوانب. طلبت كونسولاتا من كل واحدة منهن أن تتعزى وتستلقي على الأرض. وقعلن كما طلب منهن في الضوء الخافت، وتحت نظرات كونسولاتا الواهنة. كيف يجب أن نستلقي؟ كما يحلو لكنّ. حاولن إسدال أذرعهن على الجانبين، أو بسطها فوق رؤوسهن، مصالبتها على صدورهنّ أو على بطونهنّ. في البداية، استلقت سينيكا على بطنها، ثم على ظهرها، وقد شدّت يديها على كتفيها. استلقت بالاس على جانبها وقد طوت ركبتيها. وباعدت جيبي مابين ذراعيها وساقيهما، بينما اتخذت مافيس وضعية السباحة، الذراعان مطويتان والركبتان مرفوعتان. وعندما وجدت كل واحدة منهن الوضعية التي تستطيع تحملها على الأرض الباردة والقاسية قامت كونسولاتا بجولة عليهن ورسمت شكل كل جسد من أجسادهن. وبعد أن اكتملت الخطوط الخارجية تلتقت كل واحدة منهن الأمر بأن تبقى في مكانها. لانتكلم. عارية تحت ضوء الشموع.

أخذن يتلوّين وقد استبدّ بهن قلق شديد ولكنهن رفضن التحرك خارج القالب الذي اخترنه. وفكرن عدة مرّات بأنهن لن يستطعن الاحتمال ثانية واحدة زيادة على ذلك، لكن أياً منهن لم ترغب بأن تكون البائدة بالانسحاب أمام تينك العينين الشاحبتين اللتين كانتا تراقبانهم. وكانت كونسولاتا هي أول من تكلم:

«جسدي الطفل، جرحٌ وقذارة، يتقلب بين ذراعي امرأة تُعلّمني أنّ جسدي هو لاشيء، وروحي كل شيء. وقد وافقتنا الرأي إلى أن التقيت بأخرى. كان لحمي جائعاً لنفسه بحيث ألتهمه. وعندما هرب أنقذتني المرأة من جسدي ثانية. أنقذته مرتين. عندما أصيب جسدها بالمرض سهرت عليه بكل طرق العناية باللحم. أمسك به بين ذراعي وبين ساقي. أنظفه، أهدهه، أدخل فيه لكي يستمر بالتنفّس. وبعد أن ماتت لاأستطيع الذهاب إلى أبعد من ذلك. عظامي فوق عظامها هو الشيء الوحيد الجيد. ليس الروح بل العظام. ليست مختلفة عند الرجل. عظامي فوق عظام الرجل هو الشيء الوحيد الحقيقي. ولذلك أتساءل أين تضع الروح في هذا؟ فهي حقيقية

كالعظام. وهي جيدة كالعظام. واحدة حلوة، وواحدة مُرّة. أين ضاعت؟ اسمعني واصغين إلي. يجب ألا تُكسر أبداً إلى اثنتين. وألا توضع الواحدة فوق الأخرى. حواء هي أم مريم. ومريم هي بنت حواء».

ثم بعبارات أكثر وضوحاً من خطابها الافتتاحي (الذي لم تفهمه أية واحدة منهن) حدثتهن عن مكان فيه أرصفة بيضاء تقابل البحر، وأسمك ذات لون درّاقى تسبح بين الأطفال. تكلمت عن فواكه لها طعم الزمرد، وصبيان يستخدمون أحجار الياقوت كنرد. وكاتدرائيات معطرة صنعت من الذهب، يجلس فيها الآلهة والآلهات على المقاعد مع المؤمنين. وأزهار قرنفل طويلة كالأشجار. وأقزام لهم أسنان من الماس. وأفاع أيقظها الشعر والأجراس. ثم حدثتهم عن امرأة تدعى بيداد كانت تُغني ولكنها لاتقول كلمة على الإطلاق.

هكذا بدأ الحلم بصوت مرتفع. كيف ظهرت القصص في ذلك المكان. أنصاف الحكايا والحكايات التي لم يحلم بها أحد أبداً كانت تفلت من بين شفاهن لترتفع عالياً جداً، فوق شموع تذوب، وتنقل الغبار عن الصناديق والزجاجات. ولم يكن مهماً على الإطلاق معرفة من كان يروي الحلم أو إذا كان له معنى. ورغم أو بسبب أجسامهن التي تؤلمهن، يدخلن بسهولة في حكاية تلك التي ترى الحلم. ويدخلن في حرارة الكاديلاك فيشعرن بصفعة الهواء البارد حيث تختلط الأمور. يعرفن أنّ أحذيتهم الخاصة بالتنس قد فُكت أربطتها، وأنّ شريط حمالة النهدين يزعهن كلما انزلن عن الكتف. رزمة أرمور لزجة. إنهنّ يستنشقن عطر الأطفال النائمين الذين يشعرون بالاطمئنان الأبوي، وإن كنّ يلاحظن أن هناك رأساً قد أدير بشكل أخرق. يُعدن وضع رأس الطفل النائم ويرفضن، يرفضن بكل صراحة ما يعرفنه ويقدن السيارة إلى البيت. يصعدن درج المدخل حاملات نقانق فرانكفورت والأطفال الرضع والحقيبة على أذرعهن. ويقولن: «يبدو أنهم لا يريدون أن يستيقظوا، سال. سال؟ انظري. كأنهم لا يريدون». يرفسن بسيقانهن تحت الماء، ولكن ليس بقوة كيلا يوقظن الزعانف أو الحراشف الموجودة في الأسفل أيضاً.

أصوات الذكور التي تقول، تقول إلى الأبد، تقول ادفع ما يخصهم في حلوقهن. فيَقُلْنَ وَيَقُلْنَ حتى لا يبقى نَفْسٌ للصراخ أو للمعارضة. كل واحدة منهن ترف بجفניה وتشعر بالغثيان بسبب الغازات المسيلة للدموع، تمذ يدها ببطء نحو ساقها المكشوفة، والضماد الممزق. تركض صعوداً وهبوطاً عبر القاعات في وضخ النهار، وتنام في كرة تظل أنوارها تشع طيلة الليل، تطوي الخمسمئة دولار في كعب جوربها، ترسل صراخ الأكم بسبب قضيب رجل غريب ومنافسة أم - فتان ومزعج كالكوكايين.

في الحلم الذي يتم بصوت مرتفع، لا يختلف المونولوج عن الصراخ، والاتهامات التي توجه إلى الأموات وإلى من رحلوا منذ زمن طويل، فسدت بوشوشات الحب. لذلك، بعد أن أصبح منهكات وغاضبات، نهضن وذهبن إلى أسرتهن وهنّ يُقسمن بأنهنّ لن يخضعن أبداً لهذا مرة ثانية، لكن مع علمهنّ التام بأنهنّ سيفعلن ذلك مرة أخرى. وقد فعلته.

الحياة الحقيقية والمكثفة، انتقلت لتنزل إلى هناك في الأسفل، في بقع ضيقة من الضوء، والهواء مثقل بدخان مصابيح الكيروسين والشموع. كانت القوالب تجذبهنّ كالمغناطيس. بالاس هي التي ألحت عليهنّ كي يشترين مواسير الأكوان والطباشير الملونة. مواد حالة وجلود شاموا. وقد فهمن وباشرن بالعمل. أولاً بالعناصر الطبيعية: النهود، القروج، أصابع القدمين وشعر الرأس. ضاعفت سينيكاً أحد ندباتها الأكثر أناقة باللون الأزرق الذي يشبه لون بيضة أبي الحناء، مع نقطة واحدة بالأحمر على طرفها المستدق. وفيما بعد، عندما جاعت لتخدش داخل فخذيها، اختارت بدلاً من ذلك أن تخدش الجسد المفتوح المستلقي على أرض القبو. أخذن يتحدثن فيما بينهنّ عما حلمن به وعما رُسم. أمتأكدة أنت أنها كانت أختك؟ ربما كانت أمك. لماذا؟ لأن الأم يمكن أن تفعل شيئاً كهذا، ولكن الأخت لاتفعله أبداً. أغلقت سينيكاً ماسورة ألوانها. رسمت جيبي ميدالية على شكل قلب حول حنجرة جسدها، وعندما سألتهما ماقيس ماهذا. قالت لها إنها هدية من أبيها كانت قد ألقته في خليج

المكسيك. هل كان فيها صور؟ هذا مأسألتها عنه بالاس. نعم. اثنتان. لمن؟ لم تجب جيحي فقط حددت النقاط التي تمثل سلسلة الميدالية بشكل أوضح. وضعت بالاس جنيناً في بطن الشكل الذي يُمثل قلبها. وعندما سئلت من هو أبوه، لم تقل شيئاً ولكنها رسمت بجانب الجنين وجه امرأة أهدابها طويلة وفمها زغبى وملتي. ضغطوا عليها ولكن برفق وبلا سخرية ولا احتقار. كارلوس؟ الشبان الذين أسقطوها في الماء؟ أضافت بالاس نابين طويلين إلى الفم الملتوي.

انقضى كانون الثاني وكذلك شباط. وفي آذار توالى الأيام غير مقطوعة عن الليالي، بينما كان يشغلهم رسوم معتنى بها لأجزاء من أجسادهن والأحداث الهامة. مشابك صفراء في الشعر، زهور عود الصليب الحمراء، وصليب أخضر في حقل أبيض، قضيب مهيب يخترقه سهم كيوييد: بتلات ورود شارون، ولورنادونز. زوجان برتقاليان لامعان يمارسان حباً راسخاً تحت شمس طفولية.

مع قيام كونسولتا بعبء المسؤولية مثل أم رئيسة جديدة ومنقحة، راحت تطعمهن طعاماً خالياً من الدم وتقدم لهن ماءً فقط لإرواء عطشهن، فقد تغيرن. كان عليهن أن يتذكرن الجسد المتحرك الذي يحملنه، طالما أن الأجساد الحية تحتها مُغرية جداً.

أي زبون عابر كان سيلاحظ تغيراً صغيراً. ربّما سيتساءل لماذا لم تُعزّق أرض حديقة الخضار، أو من الذي كتب كلمة «أسف» على صندوق الكاديلاك، بل ربما سيتساءل أيضاً لماذا لم تكن المرأة العجوز التي تفتح الباب تخفي عينيها الفظيعتين وراء نظارة سوداء، أو ماذا فعلت الشابات بشعورهن. أحد الجيران لاحظ أكثر من ذلك - إحساس بالإفراط، جو البيت الذي أصبح ثقيلًا، والذي يعطي انطباعاً بالغربة والنظرة المختلفة بوضوح في أعين شاغلات المكان -: اجتماعيات ومتراپطات عندما يتحدثن إليك، ساكنات لايتحركن ويقيمنك بقية الوقت. ولكن إذا أتت إحدى الصديقات، فقد يصمت المنبه الداخلي عند رؤية النساء الشابات يتصرفن كراشادات، وكم يظهرن هادئات. وكم كانت كوني مستقيمة القوام وأنيقة. وكم

أصبح هذا الفستان المألوف يناسبها. وعندما تجلس هذه الصديقة في مقعد السائق وبجانبيها سلة وضعت فوقها علبة، كان يمكنها أن تشعر بادی الأمر بالغیظ من عجزها عن تحديد ما ينقص بالضبط. وعند اقترابها من المنزل، وسيرها نزولاً في الشارع المركزي، قد يقع نظرها على بيت سويتي فليقوود وعلى بيت بات بيست، أو ربما تلاحظ أحد أبناء بول أو مینوس ذاهباً إلى مخزن إیس، ربما تترك عند ذلك ما كان مفقوداً: فعلى النقيض من بعض سكان روبي، لم تعد نسوة الدير مسكونات. وربما أضافت، ولا مطاردات أيضاً. لكنها ربما أخطأت في تقديرها هذا.

لون

كانت الطريق ضيقة، والمنعطف حاداً، ولكنها استطاعت الخروج بـ الأولدزموبيل من الطريق الترابي، والدخول بها إلى الطريق الإسفلتي دون أن تقلب اللافتة إلى الأرض تماماً. في وقت مبكر، على الطريق إلى هناك، عندما وصلت مع الظلام، وبمصباح أمامي وحيد، لم تستطع لون أن تمنع واقية الصدمات من كشطها، والآن وهي تغادر الدير أصبح العمود مائلاً ولافتة - بطيخ باكوري^(٥) - تكاد تسقط. تمتعت: «إنهم لا يجيدون التهجئة!» تلك التي لفت نفسها بالملاءة، على الأغلب. لا يعني كثيراً بالتعليم هنا. ولكن كلمة «باكوري» صحيحة، وليس طريقة كتابتها وحسب. لم يكن شهر تموز قد انقضى وأصبح في حديقة الدير بطيخ ناضج حان وقت قطافه. مثل رؤوسهن، ملساء من الخارج، حلوة في الداخل، ولكن يا إلهي كم هي سميكة، لم يردن الإصغاء. قلن إن كوني مشغولة ورفضن استدعاءها ولم يصنقن كلمة مما قالته لون. فقد أتت إلى هناك في منتصف الليل، لتخبرهن وتحذرن، ونظرت إليهن، عاجزة وغاضبة، بينما أخذن يتساءبن ويبتسمن. والآن يجب عليها أن تتصور شيئاً آخر تفعله. وإلا فإن البطيخات التي ستفزع ستكون رؤوسهن الحليقة.

(٥) EARLY MELONES هكذا كتب على اللافتة وهناك E زائد في آخر كلمة MELONE. لذلك نعتهم بانهم لا يجيدون الكتابة.

كان الهواء في تلك الليلة حاراً والمطر الذي أحست به مايزال بعيداً ولكنه أخذ يقترب، هذا ماظنته قبل ساعتين، عندما كانت تأمل أن تجد بعض جذور «البيروج»^(هـ) الذي كان جافاً. ذهبت بهدوء إلى ضفة المسيل قرب القرن. ولو لم تذهب إلى هناك لما سمعت الرجال أبداً، ولما اكتشفت المخطط الشيطاني الذي كانوا يدبرونه.

الغيوم تغطي أحلى جواهر السماء الليلية، لكنها كانت تعرف طريق روبي كمعرفتها لصينية جمع التبرعات. على أية حال كانت ما تزال متنبهة في حال عبور شيء ما أو شخص ما من أمامها - أمام المصباح الأمامي الوحيد في الأولدزموبيل: الألبوسوم أو الراكون أو أيل أبيض الذيل، أو حتى امرأة غاضبة، لأن النساء هن اللواتي يمشين على ذلك الطريق. نساء فقط، وليس رجالاً أبداً. وقد رأتهن لون طيلة أكثر من عشرين سنة: في الذهاب والإياب، في الذهاب والإياب: نساء باكيات، نساء محنقات، نساء مقطبات أو عاضات على شفاهن، نساء تائهاث وحسب. هنا، على هذه الأرض الحمراء والذهبية التي تتخللها أحياناً صخور سوداء أو رقعة خضراء، هنا تحت سماء مزينة النجوم لدرجة شنيعة، هنا، حيث تعاملك الريح كرجل، نسوة يجرجرن ندمهن على هذا الطريق بين روبي والدير. هنّ وحدهن ينتقلن سيراً على الأقدام. فقد سارت عليه سويتي فليتوود، وكذلك بيلي ديليا، والفتاة التي تدعى سينيكا، وأخرى تدعى مافيس، وآرنيت أيضاً، وحدث ذلك أكثر من مرة. ليس في هذه الأيام وحسب، فقد ذرعن هذا الطريق جيئة وذهاباً منذ اليوم الأول. سوان مورغان مثلاً، وكوني أيضاً عندما كانت شابة. وقد سبق أن رأت لون بام عيناها الكثير من هؤلاء النسوة وهنّ يمشين على هذا الطريق وعلمت بذلك بشأن البقية. ولكن الرجال لا يمشون على هذه الطريق أبداً بل يقودون عليه السيارات، رغم أن وجهتهن هي وجهته النساء ذاتها: سارجنت، «K.D.»، روجر،

(هـ) نبات من مناطق جنوب آسيا وحوض المتوسط، جذوره درنية ومتفرعة، تشبه بشكل غريب الجسم البشري، له خواص طبية، منها توسيع حدة العين، وتعزى إليه مزايا تتمثل بالسحر.

مينوس، وديكون الطيب بالذات، قبل ذلك بعقدين. حسناً، فإذا لم تجد من يصلح لها قشاط المروحة ويشدّ سداة تفريغ الزيت، سينتهي بها الأمر هي أيضاً إلى السير مشياً على الأقدام، شريطة أن يكون قد بقي مكان جدير بأن تسافر إليه.

إذا كان هناك وقت يجب أن تسرع فيه فهو الآن، ولكنّ حالة السيارة منعت ذلك. في عام 1965 كانت ماسحات الزجاج، جهاز تكييف الهواء، الراديو، كلها تسير بشكل جيد. أما الآن فإنّ التدفئة القوية ماتزال تذكر بالقوة الأصلية السابقة لسيارة الأولدنزموبييل. ففي العام 1968، بعد أن انتقلت بين مالكين، ديك ثم سوان مورغان، سألتها سوان إذا كانت تستطيع استخدامها. فصاحت لون من شدة فرحها. هاهي أخيراً، بعد أن بلغت التاسعة والسبعين، وبدون رخصة قيادة وإن كانت حادة الطبع، سوف تتعلم القيادة وتحصل على سيارة خاصة بها أيضاً. لم تعد بحاجة للوقوف على الطريق وانتظار من يوصلها مجاناً، ولن تسمع بعد الآن أصوات المكابح في باحتها في كل الساعات، كما كان يحدث سابقاً، تستدعيها لحالات طارئة، ليست بالحقيقة هكذا، ولافترات انتظار طويلة تتحول إلى أزمات. أما الآن، فيمكنها أن تعمل حسب رأيها، وتذهب لزيارة الأمهات عندما تريد، فهي تذهب إليهنّ بسيارتها الخاصة، وأهم مافي الأمر أنها تغادر عندما ترغب بذلك. ولكنّ الهدية أتت متأخرة أكثر مما يجب: ففي الوقت الذي أصبحت تستطيع فيه حقاً للتنقل بالسيارة، ماعاد أحد يرغب بالاستفادة من مهارتها. وبعد أن أغضبت الحيوانات ذات الحافر وأخافت ذوات المخالب، وبعد أن أثارت عواصف من الغبار الأحمر على الطرقات الزراعية طيلة أسابيع عديدة، لم يعد لديها أي مكان تذهب إليه. كانت مريضاتها يسمحن لها بجسّهنّ والنظر إليهنّ، ولكن عند الولادة، كنّ يسافرن لعدة ساعات (إذا استطعن ذلك) إلى مشفى دمبي، حتى يضعن أنفسهن بين أيدي الرجال البيض الباردة. والآن، وهي في السادسة والثمانين، رغم سمعتها التي لم تصبها أية لوثة (أي أنها لم تفقد أي أمّ أبداً، كما حدث ذلك مرة - فيري) فهنّ يرفضن أن يعهدن إليها

ببطونهن المنتفخة، بصراخهن وبأيديهن التي تتشبّث بالأشياء. كن يهزأن بضمادات البطن النظيفة خاصتها ومن النقاط التي تسقط من بول الأم. ويلقيان الشاي المففل في دورة المياه. ولا يُحسب استلقاؤها متكومة على نفسها فوق كنبه في بيوتهن لكي تهدد أطفالاً مهتاجين، وترنح رأسها نعاساً في مطابخهن بعد جدل شعور بناتهن، وغرس النباتات في حدائقهن وتقديم النصائح الجيدة لهن خلال الخمس وعشرين سنة الأخيرة، وطيلة الخمسين سنة السابقة في هافن، قبل أن يرسلوا في طلبها. لا يُحسب أنها علّمتُهنّ تدليك أذنائهن لاستدرار الحليب، وماذا يفعلن بالمشيمة، وإلى أية جهة يجب توجيه رأس السكين تحت الفراش. ولا يُحسب أنها جابت كل أرجاء الولاية لكي تجلب لهنّ جميع القذارات التي يشتهين أكلها، ولا يُحسب أنها كانت ترقد معهنّ في السرير واضعة باطن قدميها على باطن أقدامهنّ لمساعدتهن على الدفع والدفع في الولادة أو لتدليك بطونهن بالزيت طيلة ساعات. هذا لا يُحسب له أيّ حساب قطعاً. كانت طيبة بما فيه الكفاية عند ولادتهنّ، وعندما طلب منها هي وفيري الاستمرار في عملهما في المكان الجديد: روبي، جلست الأمهات على أرائكهنّ، وباعدن ما بين ركبهنّ وتتفلسن الصعداء. والآن وقد ماتت فيري، دون أن تترك سوى قابلة واحدة لجماعة من السكان تحتاج إلى وجود قابلات وتفخر بأنّها ذات أسر كبيرة كالجماعات المحيطة بها، مع ذلك أصبحت الأمهات يحملن أرحامهن بعيداً عنها. لكنّ لون كانت تظنّ أن هناك أكثر من موضة أجنحة الأمومة. لقد ولدت أطفال فليتوود، ولوّث كل وليد غير طبيعي سمعتها كما لو أنّها هي التي صنعتّه ولم تولّده. اجتمعت الشوك بأنّها سيئة الطالع مع وسائل الراحة المتوافرة في مشفى دمبي لكي تحرمها من العمل الذي تعلمته. قالت لها إحدى الأمهات بأنّها لاتستطيع إلّا أن تُسرّ بأسبوع الراحة، وبالوجبة التي تقدم لها على صينية، بميزان الحرارة، وبقياس الضغط، وأنّها مولة بالقليل في وضح النهار وبالأقراص المسكّنة للألم، وأضافت أنّها فوق كل هذا، يسرّها أن يظلّ هناك من يسألها عن حالها طيلة الوقت. وأنّها لن تحظى بشيء من كل هذا إذا ولدت في المنزل. فهناك، ومنذ اليوم

الثاني أو الثالث، ستحضر طعام الإفطار لكل العائلة وتندشغل بنوعية حليب البقرة وحليبها هي. ولا بد أن نساء غيرها شعرن بالشيء نفسه - ترف النوم، والابتعاد عن منازلهن، والمولود الجديد وهو يحمل كل ليلة ويوضع تحت رعاية شخص آخر. والآباء - حسناً ترتاب لون بانهم، هم أيضاً، يصبحون أكثر سعادة عندما ينتظرون في الرواق عند أبواب مغلقة، في مكان يتكفل بمسؤوليته رجال آخرون، وليس امرأة عجوز درداء تمضغ علكة لتقوية لثتها. لقد حذرتها فيري: «لانتخدعي بما يقدمه لك الرجال من شكر. فقد خاف الرجال منا، وسيظل الأمر هكذا. نحن بالنسبة لهم وصيقات الموت بينهم وبين الأطفال في بطون نسايتهم». وكانت فيري تقول بأن القابلة في تلك الظروف، هي التي تتدخل وتصدر الأوامر، وكثير من الأمور تتعلق بمعلوماتها السرية، وهذه السلطة تغيظ الرجال. وخاصة هنا، في هذه المدينة، التي أتوا إليها لكي يتكاثروا بأمن وسلام. وكالعادة كانت فيري على صواب، لكن لون كان لديها مسؤولية أخرى. يقال إنها كانت تجيد قراءة الأفكار، وهي موهبة أنتها من شيء ما كائنات ماكان وليس من الله، وأنها قد استخدمتها منذ السنة الثانية من عمرها، عندما جلست هي نفسها في الباحة حتى يعثر عليها الآخرون بينما كانت أمها ميتة في سريرها. وقد أنكرت لون هذا لأنها تعتقد أن الجميع يعرفون مايفكر به الآخرون. وكل ماهناك أنهم لا يريدون رؤية ماهو ظاهر للعيان. ومع ذلك فهي كانت تعرف أموراً أكثر عمقاً من مذكرات مورغان أو كتاب تاريخ بات بيسست. وكانت تعرف مالاتستطيع المذكرات أو التاريخ قوله أو تسجيله: «حيلة» الحياة و«منطقها».

وعلى أية حال، فبعد أن فقدت لون وسيلة معيشتها (لم تستدع سوى مرتين طيلة ثماني السنوات الأخيرة) أصبحت تعتمد على كرم جيرانها وكرم رواد الكنيسة. كانت تمضي وقتها في قطف النباتات الطبية والذهب من كنيسة إلى أخرى لتلقي حاصل التبرعات التي جمعتها لها رابطة «يد المعونة» ولمسح الحقول التي استهوتها لأنها منكشفة، بل لأنها طافحة بالأسرار، مثل حمولة سيارة من

الهياكل العظمية، عثرت عليها قبل بضعة أشهر. ولو أنها أعارت انتباهاً لأفكارها وليس للشائعات، لكانت استقصت أمر حوائم الصوم الكبير، فور ظهورها - كان قد مرَّ على هذا عامان، عند نوبان ثلوج الربيع، في شهر آذار عام 1974. ولكن بما أن الناس رأوا تلك الحوام في الوقت الذي أعلن فيه آل مورغان وآل فليتيود عن الزواج بالضببط، فإنهم لم يعودوا يعرفون فيما إذا كان هذا الزواج هو الذي جُلِبَ الحوام أم أنه زواج يحمي المدينة منها. والآن كان الجميع يعلمون أنَّ ما اجتذبهم هو وليمة عائلية لأناس فُقدوا أثناء عاصفة ثلجية. أطباق أركنساس. لصاقة «هاربر جوري» على أدوية مضادة للسعال. كانوا متحابين في تلك الأسرة. حتى مع الفوضى التي أحدثتها الطيور الجارحة، يمكنك القول إنهم يتعاقون كلما ناموا أعمق فأعمق في ذلك البرد العميق.

في البداية ظنَّت أنَّ سارجنت لابدَّ أن يكون قد اطَّلَعَ على الموضوع كله. لقد زرع ذرة صفراء في الحقول المجاورة. لكنَّ الدهشة التي بدت علي وجهه وعلى وجوه الآخرين عندما علموا بالخبر لم تترك مجالاً لأي خطأ. والمشكلة كانت في معرفة فيما إذا كان يجب إعلام رجال القانون أم لا. تقرَّر أنه لا ينبغي القيام بذلك. حتى أنَّ دفنهم يمكن أن يعتبر اعترافاً بأمرٍ لا يعنيهم. عندما ذهب عدد من الرجال ليلقوا نظرة، لم ينصبَّ انتباههم الأساسي على المشهد الذي كان تحت أنظارهم ولكن على الدير الذي كانوا يرونه من بعيد، في الغرب. كان عليها أن تفهم في تلك اللحظة. فلو انتبهت أولاً إلى الحوام، وبعد ذلك إلى أفكار الرجال، لما بدَّت كل جهودها وجهود ريغلي والبنزين للقيام بمهمة كانت تأمل أن تكون الأخيرة. نظر ضعيف جداً، مفاصل متصلبة أكثر مما ينبغي - لم يكن هذا عمل قابلة موهوبة. ولكنَّ الله قد عهد لها بهذه المهمة، فليتيبارك قلبه المقدس، وبسرعة ثلاثين ميلاً في الساعة، في إحدى ليالي تموز الحارَّة، كانت تعرف أنها تسافر في زمن الله وليس خارجه. إنه هو الذي وضعها هناك، وشجَّعها على الذهاب للبحث عن نباتات طبية يُفضل أن تُقطف وهي جافَّة، في الليل.

كان مجرى السيل جافاً، ولكنَّ المطر الذي يوشك أن ينهمر سيعوّضه، كما أنه سيُلينُّ الساق المزدوجة لنبات اليبروح. سمعت من جهة الفرن ضحكات وموسيقا منبعثة من راديو. أزواج من الشبان يتغازلون. فكرت، إنهم في الخارج على الأقل، لا يتكلمون في مستودع للخبز ولا تحت غطاء في مؤخرة شاحنة. ثم توقفت الضحكات والموسيقا. وأصوات نكورية عميقة حازمة، أخذت تصدر الأوامر، وأضاءت أشعة مصابيح يدوية أجساداً، ووجوهاً وأيدياً وماتحمل. ودون همسة انصرف الأزواج، ولكنَّ الرجال لم ينصرفوا. تجمّعوا في الظلام مستندين إلى جدران الفرن أو مقرقصين. حجبت لون ضوء مصباحها الكهربائي بمريلتها، وكانت ستذهب دون أن يروها إلى خلف كنيسة «هولي ريديمر» حيث أوقفت سيارتها، لو أنها لم تتذكّر الأحداث الأخرى التي تجاهلتها أو أساءت فهمها: حوائم الصوم الكبير، ومسدّس أبولو الجديد. عادت عبر الظلام الدامس وجلست على العشب العطشان. كان عليها أن تكفّ عن إنكاء حقدّها على مستوطني المدينة لأنهم رفضوا خدماتها، وتتوقّف عن اهتبال الانتقام الرخيص بالآلة تسعى لمعرفة ما يحاك في الخفاء، وتترك الشر يأخذ مجراه. أن تلعب بطريقة «التعامي» قد يسمح لها بالآلة تسمع ما يقوله لها الله. فهو لا يعطي تعليماته رعداً ولا يهمس برسائله في الأذن. أوه، كلا. إنه رب محرّر. معلّم يعلمك كيف تتعلّم، وكيف تنظر إلى نفسك. إشارات كانت واضحة تماماً وغزيرة، إذا توقّف المرء عن التمرّغ في عصير غروره الخاص الحامض، وإذا أعار انتباهه إلى عالم الله. أرادها أن تسمع الرجال المجتمعين قرب الفرن وهم يقررون ويخططون كيف يطردون النساء من الدير، وإذا أرادها أن تكون الشاهد على ذلك، فلا بدّ أنه أراد أيضاً أن تقوم بعمل ما. لم تعرف في بداية الأمر ماذا يحدث، وماذا يجب أن تفعل. ولكن كما في الماضي عندما تكون حائرة، فقد أغضت عينيها وتمتمت: «مشيئك، لتكن مشيئك». عند ذلك ارتفعت الأصوات، وسمعت بوضوح، ما يقول واحداهم للآخر وما يفكرون به كما لو أنها بينهم. سمعت ماعبروا عنه، ومالم يعبروا عنه.

كانوا تسعة. البعض منهم يدخنون، والبعض الآخر يقتهدون، وأخذوا يتكلمون الواحد بعد الآخر. الكثير مما قالوه سمعته لون من قبل، لكن دون الحراشف الخشنة التي تنبت للكلمات المتلوثة كالثعابين عبر هواء الليل. لم يكن الموضوع جديداً، ولكن لم يكن فيه شيء من المتعة المعتادة التي تظهر عندما يُعالج من فوق أحد المنابر. فقد تطرق إليه المحترم كاري في موعظة قوبلت باستحسان جعله يعيد نسخة عنها كل يوم أحد.

«عمّ تخلّيتم حتى تعيشوا هنا؟» سال وهو يشدّ على «ثم» مثل مغنية سوبرانو: «ما التضحية التي تقدّمون «كلّ» يوم لكي تعيشوا هنا في جمال الله. في جوده وفي سلامه؟».

«قل لنا ذلك أيها المحترم. قلّه».

قهقه المحترم: «سأقوله لكم».

«نعم يا سيدي».

«هيا تابع، الآن».

رفع المحترم كاري يده اليمنى عالياً في الهواء وأغلق قبضته، وغرّض قائمة الأشياء التي خرّم حشد المؤمنون أنفسهم منها، وهو يرفع إصبعاً في كل مرة:

«التلفزيون».

قهقه الجميع ضاحكين.

«الديسكو».

ضحكوا بمزيد من القوة وهم يهزّون رؤوسهم.

«الشرطة».

هدروا ضاحكين.

«السينما، والموسيقا القذرة»، وتابع معدداً على أصابع يده اليسرى: «الفساد في الشوارع، السرقة في الليل، القتل في الصباح. الكحول كغداء، والمخدّرات كعشاء. هذا هو ماتخلّيتم عنه».

كل مفردة من هذه كانت تثير تنهدات وأنات حزن. وكل واحد منهم كان شديد الامتنان لأنه رقص ونجا من جميع الشرور القذرة، القاسية، والإلحادية، المتكررة بزيّ الملذات. كل عضو أو عضوة من الجماعة قد يشعر أنّ قلبه أو قلبها يطفح بالشفقة على أولئك الذين يتصارعون مع تلك «التضحيات».

ولكن هناك، لم يكن يوجد أثر للشفقة. هنا، عندما يتحدث الرجال عن الدمار الذي نزل بهم - الطريقة التي تتغير بها روبي علي نحو لا يطاق - فهم لا يفكرون بمعالجة هذا الأمر بمدّ أيديهم عربونا للصدقة أو المحبة. بل بدلاً من ذلك ينظمون الدفاع ويشحذون الأدلة الضرورية، حتى يتطابق كل عنصر مع ثلم صقيل جاهز سلفاً. كان بعضهم يتكلم كثيراً، وآخرون قليلاً، واثنان لم يقولوا شيئاً على الإطلاق. لكن رغم صمتهما كانت لون تعرف أن القيادة موّحدة في توأمين.

أتذكر الفضيحة التي أحدثتها في حفل الزفاف؟ ماذا تقول؟ وهو اليوم نفسه الذي رأيتهن فيه تقبل الواحدة الأخرى في المقعد الخلفي بالكاديلاك الخربة. في اليوم نفسه، وكان ذلك ليس كافياً لإرضاء الشيطان، كانت هناك أيضاً اثنتان تتمرغان في القذارة. في القذارة تماماً. يارب، إنني أكره المرأة القذرة. سويتي تقول بأنهن عملن كل ما بوسعهن لكي يسمّنها. وقد سمعت بذلك أيضاً. داهمتها عاصفة ثلجية في تلك الجهة ويحثت عن ملجأ عندهن. كان عليها أن تنتبه. أخيراً أنت تعرف سويتي. على أية حال، فقد قالت بأنها سمعت ضجيجاً منبعثاً من جهة ما في البيت. وقد هيء لها أنّ هناك أطفالاً صغاراً سيكونون. ولكن، بحق الله، ماذا يفعل الأطفال الصغار هناك؟ أتسألني أنا؟ مهما كان الأمر فهو غير طبيعي. حسناً، كان هناك فتيات صغيرات يقمن فيه، أليس كذلك؟ حسناً أنكر هذا. كنّ يقلن بأنها مدرسة. أية مدرسة؟ وماذا يعلّمن فيها؟ سارجنت ألم تعثر على الماريجوانا تنمو بين برسيمك؟ نعم، بالتأكيد، وهذا لا يدهشني. كل ما أعرفه بأنهن ضربن آرنيت عندما ذهبت هناك لتواجههن بالأكاذيب التي روينها لها. إنها تعتقد بأنهن احتفظن بوليدها

وقلن لها إنه وُلِدَ ميتاً. زوجتي تقول بأنهن قد أجهضنها. أتصدق هذا؟ لأدري، ولكني أتهمهن به. وما أعرفه أنا، هو كيف كان وجهها خبيصة. أوه، يارجال لايمكن أن يستمر هذا بعد الآن. فقد قال لي روجر بأن الأم الرئيسة - تعرفها، العجوز البيضاء التي كانت تأتي للثسوق هنا، من وقت لآخر؟ - حسناً، قال لي إنها عندما فارقت الحياة كانت تزن أقل من خمسين باونداً، وكانت تلمع كالكبريت. ياييسوع! وقال إن الفتاة التي أوصلها إلى هناك راحت تغازله علناً. أهي تلك التي تظل طيلة الوقت نصف عارية؟ أعرف أنه كان لديها شيء ليس على مايرام عندما نزلت من الباص. على أية حال كيف نجحت في استقدام باص إلى هنا؟ خمنوا، ولماذا تُخمنون؟ أعتقد أن لديهن قوى خفية؟ أنا «أعرف» أن لديهن قوى خفية. أما قوة مَنْ هي الأقوى، فهذا هو السؤال. لماذا لا يغادرن، هكذا بكل بساطة؟ هل نادر أنت، إذا كان عندك بيت قديم، كبير جداً، تعيش فيه دون أن طر للعمل من أجله؟ تحدث بعض الأمور هناك، ولا أحب شيئاً من لا يارجال. يقبلن بعضهن البعض ومواليد تُخبأ. يا يسوع، ضّ النظر عن بقية الأمور. انظر إلى ماحدث - ببلي ديليا مذ بدأت نسك هناك. فقد رمت أمها أسفل الدرج وهربت إلى هناك كخنوص يلاحق حلمة الثدي. وسمعت بأنهن يشربن مثل السمك أيضاً. والمرأة العجوز كانت ثملة على الدوام في كل مرة رأيتها فيها، وهل تتذكر الكلمات الأولى التي تفوهن بها حين أتين إلى حفل الزفاف؟ أي شيء نشربه، هذا ماطلبته، وعندما قدم لهن كأس من شراب الليمون، تصرّفن كأن أحداً بصق عليهن وخرجن من الباب. أذكر ذلك. عاهرات، أكثر شبهاً بالساحرات، ولكن يا أخي، العظام تفوقت على كل شيء. لاأستطيع أن أصدق أن أسرة بكاملها ماتت هناك دون أن يعرف أحد بذلك. لم يكونوا بعيدين إلى ذلك الحد، هل فهمت ماأعني؟ ولن يستطيع أحد أن يقول لي بأنهم غادروا الطريق وضاعوا في حفل، مع وجود منزل ضخم على مسافة تقلّ عن ميلين. لايدُّ أنهم رأوه، لايدُّ. ولايدُّ أن الرجل نزل من السيارة وذهب إليه، هل تفهم

ما أقصد؟ كان يستطيع التفكير، أليس كذلك؟ وحتى إن لم يكن يستطيع التفكير، كان يمكنه أن يرى. كيف يمكنك ألا ترى منزلاً بذلك الحجم في وضع النهار في منطقة مستوية كطيلة المسمار؟ أتقول أنْ لهن علاقة ما بالأمر؟ اسمع، لم يحدث أي شيء أبداً في محيطنا كالذي يحدث الآن. قبل أن تأتي تلك البقرات الصغيرة إلى المدينة، كانت مملكة يملؤها السلام. والأخريات اللواتي سبقنهن كان لديهن شيء من التدبّر. أما هؤلاء النسوة القذرات، اللواتي يعشن وحدهن هناك، فلا يظن الكنيسة أبداً، وأراهنك على دولار مقابل خمسة سنتات، أنهن لا يفكرن بذلك حتى مجرد تفكير، ولنس حاجة للرجال ولا لله. ولا يستطيعن الزعم بأنهن لم يُحذرن. سئلن أولاً ثم حُذرن. لو بقين بمفردهن فهذا شيء. لكنهن لا يفعلن ذلك. إنهن يتطفلن، ويجتذبن الناس كما يجذب الغائط الذباب، ومن يقترب منهم يشوه وتتسرب الفوضى إلى بيوتنا وإلى أسرنا. ولم يعد أحد يتحمل هذا. أنتم جميعكم، لا يمكنكم أن تتحملوا هذا أبداً.

وهكذا، فكرت لون أن البرائن والذيل في مكان آخر. هناك بعيداً، كل ماهو زلق موجود في بيت يغصّ بالنساء. لنس نساء آمنات بعيداً عن الرجال، بل أسوأ من ذلك، نساء اخترن رفقة بعضهن بعضاً. أي أنه لم يعد ديراً بل جمعية ساحرات. هُزّت لون رأسها وضبطت ثانياً نعناعها الحاد. وكانت تصغي للكلمات بفتور، محاولة اكتشاف الأفكار الكامنة خلفها. فتدرك بعضها في الحال. أمّا سارجنت، وهي تعرف ذلك، فكان يهزّ رأسه عند كل جملة من الإشاعة آخذاً بأطراف الحقيقة البالية متسائلاً بصوت مرتفع لماذا لا تستطيع هذه المدينة المتعمدة الجمال التي يديرها رجال مسؤولون، أن تبقى مستقرة، مزدهرة، دون شبان يتواقحون. لماذا يريدون الرحيل وتشكيل عائلات (زبائن) في مكان آخر؟ ولكنه يظنّ أيضاً أن نفقاته ستكون أقل بكثير إذا امتلك أراضى الدير، وكيف إذا رحلت النساء، سيكون في وضع أفضل للحصول عليها. والجميع يعلمون أنه سيق له أن زار الدير - «لتحذيرهن»، وهذا يعني أنه قد عرض عليهن شراءه، وحيال التحذيرة غير المفهومة التي

حصل عليها كجواب، قال للمرأة العجوز أن «تفكر بذلك بروية واهتمام» وأن «أموراً أخرى يمكن أن تحصل وتخفّض الثمن». ثم كان على ويزدوم بول أن يبحث عن سبب يفسّر لماذا لم تعد له أية سيطرة على أخوته وأخواته. ولكي يفسّر كيف حدث أن أولئك الذين كانوا فيما مضى يحترمونه ويصغون إليه أصبحوا الآن ضائعين ويسعون إلى الاستقلال بأنفسهم. ففي العام الماضي، تبادل برود وأبولو إطلاق النار بسبب بيلي ديليا، فقدّمت له هذه الحادثة مبرراً كافياً ليتسكع وراء متعة إلقاء بعض النساء في الطريق. بيلي ديليا، صديقة لهؤلاء النسوة، وطلبت من أحد أخوة ويزدوم الأصغر سناً أن يوصلها إلى هناك، وذلك بعد أن اتّخذت المشاكل بين أبولو وبرود منحى خطيراً. ولم يطع أيّ منهما أمر ويزدوم بعدم التكلّم مع هذه الفتاة أو النظر إليها أبداً. فكانت النتيجة توراتية - رجل يكمن ليقّتل أخاه. أمّا بشأن آل فلييتود، حسناً، فقد أراد أن نولد وجّف منذ زمن طويل لوم أحد ما من أجل أبناء سويتتي. ربّما كان ذلك خطأ القابلة، أو خطأ الحكومة، أمّا القابلة، فلم يكن ممكناً إلا حرمانها من وظيفتها والحكومة ليست مسؤولة. ورغم أن لون ولدت بعض أبناء جف المرضي، قبل وصول أول امرأة إلى الدير بكثير، فإنهما لن يتركا تفصيلاً من هذا النوع يمنعهما من العثور على عيب ما خارج نطاق دم أسرتهما ذاته. أو دم سويتتي. أمّا مينوس، حسناً، فقد كان جاهزاً للإغارة ضدّ أيّ كان. فبعد أن أمضى كل تلك الأسابيع هناك لا يفعل شيئاً، يجعلك تعتقد أنه مقرّ بالجميل، فلا بدّ أن هؤلاء النسوة قد شهدن بعض الأمور، رأين بعض الأشياء، التي لا يريد هو أن تخطر لذهن أي شخص فيما إذا خرجت من أفواههن. ربما لم يكن ذلك إلا لإزالة العار الذي يشعر به لأنه سمح له هاربر والآخرين برّده عن الزواج بالمرأة التي اصطحبها معه. قالوا له إن هذه الفتاة التي تشبه كلب الصيد لاثليق به كفاية. قالوا له إنها تشبه امرأة ماجنة أكثر مما تشبه العروس. تظاهر أنه كان يشرب بسبب مافعلته به فبيتنام، ولكن لون تظن أن خسارته للفتاة التي تشبه كلب الصيد هي المشكلة الحقيقية. فلم يكن يملك الشجاعة الكافية ليرحل ويذهب ويعيش معها في مكان آخر. واختار بدلاً من ذلك الخضوع

لقانون أبيه وجعله يدفع ثمناً جيداً لذلك: تقبّل مصيبيته دون نقاش. تخلّصه من نساء مستقلات سبق لهنّ أن نظفن أوساخه، وغسلن سراويله، وأزلن قيئه، وأصغين إلى لعناته ونحيبه، ربما كان قد أقنعه لبعض الوقت أنه رجل غير ملوث يضعف أمه، جدير بصبر أبيه، وأنه محقّ بترك الفتاة التي تشبه كلب الصيد ترحل. لم تعد لون تستطيع إحصاء عدد المرات التي سمعت فيها، وهي جالسة في كنيسة «صهيون الجديدة»، والده هاربر يبدأ بالادلاء بشهادته، مبتدئاً بتعداد خطاياها الخاصة، ومنتهاً بالنساء الخليعات اللواتي يستطعن منعك من معرفة من هم أطفالك. كان قد تزوج من إحدى بنات أسرة بلاكهورس: كاترين التي أصيبت في النهاية بمرض عصبي في جهاز الهضم لأنه راح يضايقها حتى يعرف ماذا تفعل. ومن تقابل، ومن ومن ومن. وهل تربّي ابنتهما كيت بصورة صحيحة. تزوّجت كيت بأسرع ما استطاعت فقط لكي تتخلص منه. وزوجته الأولى، والدّة مينوس: مارثا، لابد أنها قد أزعجته كثيراً. إلى حدّ أنه لم يدع ابنه الوحيد ينسى ذلك أبداً. ثم كان هناك «K.D.»، رب الأسرة. راح يروي إلى أي حد كانت إحدى بنات الدير غريبة الأطوار، وكيف أنه أدرك ذلك منذ أن رآها تنزل من الباص، ها، ها، إنه الآن أب لطفل عمره أربعة أشهر بكامل أصابع يديه وقدميه، ومن يعلم، بدماغ كامل أيضاً، بفضل الطبيب الذي كان يقبل القيام بالعناية بـ السود في دمبي. لقد كان هو وآرنيت يحتقران لون، ومهما كانت آرنيت سعيدة الآن، وتريد إلقاء وزر «خطيئتها» الأولى على نساء الدير اللواتي خدعنّها، فإنّ ذلك لم يخفّف من حقد «K.D.» عليهنّ. والفتاة، التي أصبح مجرد ذكر اسمها اليوم يؤذيه، كان قد جرى وراءها طيلة سنين عديدة قبل أن ترميه خارج الباب. ويلزمه العديد من الأطفال الأصحاء لكي ينسى ذلك. إنه من آل مورغان بعد كل شيء، وهم لم ينسوا شيئاً منذ 1755.

فهمت لون تلك الأفكار الخاصة وبعضاً مما يمكن أن تكون دوافع ستيوارد وديكون: لأحد منهما يتحمّل ما لا يستطيع السيطرة عليه. ولكنها لم تكن تتصور ضغينة ستيوارد - والمرارة من فكرة أن

حفيد أخته (ربما؟) كان دون أي شك قد جرح أو قُتل في ذلك المكان. كان ذلك بثرة تطفو في مجرى دمه، دون أن تزول أو يصبح لها رأس قيجي. كما أنها لا تستطيع أن تتصور أيضاً في أي حيز من أعماق دماغه توجد ذكرى أخيه الذي كاد أن يفسخ زواجه بـ سوان. وإلى أية درجة ابتعد ديك عن الطريق المستقيم عندما نظر في هذا السم وفي عينيها السامتين. وظل الاثنان يلتقيان سراً طيلة عدة شهور، ولشهور بحالها بدا ديك يلهو ويرتكب الأخطاء، وماذا لو حملت منه تلك العاهرة؟ أصبح لديها طفل هجين؟ كان ستيفارد يتميز غضباً عندما يفكر بأنهما أوشكا تماماً أن يخونا كل ماعليهما من واجبات وماوعدا به الآباء القدامى. لكن الأمر الذي يهدد بصورة دائمة رؤيته لنفسه ولأخيه العزيزة عليه، يتجاوز كثيراً هذه الخيانة التي أمكن بالكاد تحاشيها، لقانون الآباء القدامى وهو قانون الديمومة والتكاثر. وبالنسبة له كانت نسوة الدير حكاية ساخرة للتسع عشرة سيدة الزنجيات اللواتي يحتفظ بهنّ هو وأخوه في ذاكرتهما وتقمهما بالكامل. إنهنّ يمثلن انحطاط تلك اللحظة التي تشاركها فيها، بين بشرة مشبعة بأشعة الشمس وزهور «رعي الحمام». وبضحكهنّ وهزلهنّ البليد خرقن النغمات العذبة، ورنين الضحكات المرحية والخفية المرحب بها لتلك التسع عشرة سيدة، المرصودات للعيش إلى الأبد في أحلام زاهية ملونة بـ الباستيل، وقد أصبحن الآن معرضات للانقراض بسبب هذه الطغمة من النساء الفاحشات. لم يكن يستطيع أن يتحمل منهنّ تلويث تاريخه الشخصي بثيابهن الخليعة ونزوعهن إلى العهر، وتحقير وتدنيس الرؤيا التي مكنته هو وأخيه من تجاوز الحرب، وصبغت زواجهما ودغمت جهودهما في بناء مدينة يمكن للرؤيا أن تزدهر فيها. إنه لن يغفر لهنّ ذلك أبداً كما أنه لا يستطيع أن يتسامح إزاء ضياع الشعور بالمحبة هذا.

لم تكن لون تعرف أيضاً النهر الجليدي الذي كان يفخر به ليكون مورغان. لم تكن تعرف حجمه الخفي، تعاظمه وسكونه. كانت مطلعة على علاقته القديمة مع كونسولاتا. لكنّها لم تستطع سبر

عاره الشخصي ولا أن تفهم إلى أي حد كان مهماً بالنسبة له القضاء على هذا العار وهذا النوع من النساء، إذ يعتقد أنها مصدره. امرأة منفلة قارضة لم تعض له شفته إلا لكي تلحق الدم الذي سال منها، امرأة جميلة من حيث مظهرها الخارجي، ذات بشرة ذهبية، وعينين خضراوين كالعشب، حاولت الإيقاع برجل في الفخ، واحتجازه في قبو مع الكحول لإضعافه حتى يستطيع ممارسة أعمال شهوانية وشاذة في الظلام. إنها سالومي وقد نجا منها تماماً في الوقت المناسب، وإلا لقدّمت رأسه على طبق العشاء. امرأة نهمة، مستعدة للمضاجعة على الأرض، لم تغادر حياته بل تسلّت إلى عواطف سوان التي كان يشك بأنها قد سقتها شرباً شريراً حتى تصبح أقل استعداداً من السابق للحب. فلم يكن الحزن الأبدي على ولديها هو ماجمدها، بل تلك القذارات التي تبتلعها والتي تعطيها لها المرأة التي حولت اسمها نفسه إلى نكتة، وإلى محاكاة ساخرة لما يجب أن تكون عليه المرأة.

لم تكن لون تعرف، ولا تستطيع أن تعرف كل هذا، لكنها كانت تعرف منه مايكفي، وقد كشف لها ضوء المصابيح الكهربائية اليدوية التجهيزات التي يحملها الرجال: أصفاد براقّة، لفّة من الحبال، ولم تكن بحاجة لأن تحزر ماذا معهم أيضاً غير ذلك. سارت بمحاذاة ضفة المسيل وهي تمشي دون أن تحدث أي صوت، إلى مكان سيارتها. وهمست: «مشيئك، لتكن مشيئك» مقتنعة بأنّ ماسمعه وما استشفته ليس كلاماً تافهاً. فالرجال لم يأتوا إلى هنا لمجرد القيام بالتدريب. كانوا هناك مثل مجندي معسكر، مثل غزاة يستعدون للقتال، كانوا هناك للهذيان، لتسخين الدم أو تبريده لإنجاز المهمة انجازاً أفضل. كان هناك أمر فهمته بشكل خاص على الفور: الصوت الوحيد الذي لم يكن يغني هو صوت الشخص الذي يقود الجوقة.

«أين ريتشارد ميسنر؟» لم تكلف لون نفسها عناء إلقاء التحية

وقرع باب بيت ميسنر، بل دخلت فوجدت البيت فارغاً يكتنفه الظلام.
لقد انتزعتُ جارتُـهُ فرانسيس يول دوبريس للتو من نومها. فقالت
فرانسيس متذمرة:

«ماذا يحدث معك يالون؟»

«قولي لي أين ميسنر.»

«لقد ذهبنا إلى موسكوغي. لماذا؟»

«ذهبنا؟ مَنْ هما؟»

«المحترم ميسنر وأنا، إلى أحد المؤتمرات. لماذا تحتاجيني
في مثل هذه الساعة من الليل؟»

قالت لون: «دعيني أدخل». ومرت من أمام فرانسيس وذهبت
إلى غرفة الجلوس.

قالت فرانسيس: «تعالى إلى المطبخ».

«لاوقت لدي. اسمعي». وصفت لون الاجتماع قائلة: «زمرة
كاملة من الرجال يخططون لشيء ضد الدير. كان هناك أيضاً آل
مورغان، آل فليتوود وويزدوم سيلاحقون أولئك النسوة هناك».

«يارب، أي نوع من الفوضى هذه؟ إنهم سيروعونهم في
منتصف الليل؟»

«يا امرأة، اسمعيني، معهم بنادق عليها مناظير تسديد مقرّبة.»

«هذا لايعني شيئاً، فأنا لم أر أخي يذهب إلى أي مكان دون
بندقيته إلا عندما يذهب إلى الكنيسة، وحتى في تلك الحالة فهو
يضعها في السيارة.»

«ومعهم حبل أيضاً يافراني.»

«حبل؟»

«ثخانتـه بوصتان.»

«ماذا تظنين؟»

«إننا نخضع الوقت. أين سوت؟».

«نائم».

«أيقظيه».

«لن أزعج زوجي من أجل جماعة من الهمج...».

«أيقظيه يافراني. فأنا لست مجنونة، وأنت تعرفين ذلك».

كانت القطرات الأولى دافئة منبسطة، تحمل رائحة نبتة المجنون البيضاء والصبار من المناطق الشمالية والغربية. تهبمت تلك النقاط على زهور الجنطايانا وزهور البوق الصحراوية وانزلقت على أوراق الهندباء البرية. ولأنها ثقيلة ومنزقة تدحرجت كأنها كرات من الزئبق على الأرض المتشقة بين صفوف خضروات الحديقة. كانت لون، فرانسيس وسوت دوبريس يجلسون في ضوء المطبخ يرون وحتى يشمّون رائحة المطر، لكنهم لا يسمعون له صوتاً، لأنّ النقاط كانت ناعمة وملساء جداً.

لم يكن سوت مقتنعاً بأنه يجب الإسراع لإيقافهم كما تطلب لون، ولكنه وافق على التحدث إلى المحترم بوليام وكاري في صباح اليوم التالي. قالت لون: في الصباح سيكون قد تأخر كثيراً. وانصرفت مسرعة، لكي تحاول أن تجد أحداً لا يخاطبها كما لو أنها طفلة عاجزة عن الاستيقاظ من كابوس. أنّا فلور رحلت، ولاتستطيع الذهاب لمقابلة سوان بسبب ديك، وبما أنّ «K.D.» وآرنت قد استعادا منزل مينوس الذي اعتاد أن يمتلكه، فمعنى ذلك أن دوشي مورغان لن تكون في المدينة. فكّرت بـ كيت ولكنها تعرف أنها لن تعارض أباهما. وتذكرت بينيلوب ولكنها نبذت الفكرة ليس لأنها متزوجة من ويزدوم وحسب، بل لأنها أيضاً أخت سارجنت. أدركت لون بأنّ عليها الذهاب إلى المزارع، لتقابل أناساً كانت تعتقد أنّ عليها ألا تدع العلاقات العائلية تسيطر على عقولهم. ماسحات زجاج تعمل بصورة جيدة، تمثل ترفاً لا يمكن أن تحصل عليه، ولون التي

راحت تمضغ علكتها ببطء، تبذل جهدها لكي تتصرف بحذر. وعند مرورها من أمام القرن المهجور وهي مسرورة لأنها جمعت بعض جذور البيروج في الوقت المناسب، لاحظت أنه لا يوجد أي ضوء في بيت أنا ولاخلفه، في منزل ديك مورغان. سارت لون بحذر شديد لتقطع الأميال القليلة من الطريق الترابي بين طريق روبي وطريق الولاية الرئيسي. كان السير عليه غير آمن، لأن الأرض الآن تمتص المطر الذي يضخم جذور النباتات الضمائي، ويشكل جداول صغيرة في كل مكان. راحت تقود ببطء، متفكرة أنه إذا كانت هذه المهمة هي حقاً إرادة الله، فلا شيء يمكن أن يعيقها. وفي منتصف الطريق إلى منزل آرون بول توقفت الأولدموبيل في حفرة جانب الطريق.

في الوقت الذي كانت لون دوبريس تحاول أن تتحاشى فيه لوحة البطيخ الباكوري، كان الرجال يرتبون التفاصيل الأخيرة وهم يحتسون القهوة وشرباً آخر أكثر قوة لمن يرغب بذلك. لم يكن بينهم أي سكير، باستثناء مينوس. ولكنهم في تلك الليلة، لم يكونوا يعارضون إضافة الخمر إلى قهوتهم. خلف بناية سارجنت التي تشبه مبنى ضخماً حيث أقام تجارتة، وفي طرف الحظيرة التي كان يحتجز فيها الخيول - يوجد مرآب، كان يعمل فيه بإصلاح عدة الخيل - عملاً أصبح اليوم هواية أكثر منه عملاً مأجوراً - فهو يجلس هناك ليتأمل ويجتر أفكاره، وليهرب من نساء أسرته، وقد أقام فيه بعض وسائل الراحة الخاصة بالذكر: موقد صغير، براد، طاولة عمل وبعض الكراسي، كل ذلك وضع على أرض غير خربة. بالكاد بدأ الرجال ينفخون على قهوتهم عندما بدأ المطر يتساقط. وبعد تناولهم بعض الرشقات لحقوا ب سارجنت في الباحة لكي يغطوا بعض الأكياس والمعدات بمشمع لاينفذ منه الماء. وعندما عادوا مبليين إلى المرآب شعروا أنهم مرتاحون، وأحسوا فجأة بالجوع. عرض عليهم سارجنت أن يقدم لهم شرائح لحم العجل وذهب إلى البيت ليجلب ما يحتاجه ليقدم للرجال ما ياكلونه. سمعته زوجته

بريسيلًا فعرضت عليه المساعدة، ولكنه صرفها بحزم لتنام. راح المطر المعطر يقرع كالطبل. وساد في السقيفة جو رفاقي زاد من شجاعتهم، بينما راحوا ياكلون الشرائح السمكية المحضرة على الطريقة القديمة والمقليّة في مقلاة شديدة السخونة.

كانت رائحة المطر العطرية أشدّ قوة في شمال روبي وبخاصّة عند الدير، حيث اجتاح النفل الأبيض والوزال الاسكوتلندي كل شيء، عدا حديقة الخضار. اندفعت مافيس وبالاس وقد أيقظتهما هذه الروائح من نومهما، لتقولاً لـ كونسولتا وغريس وسينيكاً بأنّ المطر الذي ينتظره الناس كثيراً قد أتى أخيراً. اجتمعن على باب المطبخ، أخذن ينظرن أولاً، ثم مدّت كل منهما يدها لكي تتلقّف قليلاً منه وتتحمّسه. كان مثل السائل المنظف على أصابعهنّ، عند ذلك دخلن فيه وتركته يسيل كبلسم على رؤوسهن الحليقة ووجوههنّ المرفوعة إلى أعلى. كونسولتا هي التي بدأت ولم تتأخّر البقية عن اللحاق بها. هناك أنهار كبيرة في العالم، على ضفافها وعلى شواطئ المحيطات، أطفال يشعرون بالإثارة تحت تأثير نداء المياه. في الأماكن التي تكون فيها الأمطار خفيفة تكاد هذه الإثارة تصبح شهوانية. ولكنّ هذين الإحساسين استسلما لنشوة نساء قدسيات يرقصن تحت المطر الدافئ والعذب. ربّما كنّ ضحكن من ذلك، لو لم يكن السحر بهذا العمق. ولو احتفظن بأقل ذكرى للتهديدات والتحذيرات التي تلقينها مؤخراً، لكان المطر الذي لايقاوم قد غسلها نهائياً. استقبلت سينيكاً ثم ودّعت أخيراً صبيحة قاتمة في أحد المساكن الحكومية. غريس رأت التنظيف الناجح لقميص أبيض ماكان يجب أن يلوّثه شيء أبداً. ومافيس مشّت عبر ارتعاشات بتلات ورود شارون التي تدغدغ لها بشرتها. أمّا بالاس التي أنجبت ابناً رقيقاً، كانت تضمّه بين ذراعيها بينما يغسل المطر امرأة مخيفة على درج متحرك، والخوف شديد من المياه السوداء. وكونسولتا

المسكونة تماماً بالرب الذي ناشدها في الحديقة، كانت الراقصة الأكثر هياجاً، وماقيس الأكثر أناقة. سينيكا وغريس رقصتا معاً، ثم انفصلتا عن بعضهما لكي تتمرّغا في الوحل الطري. وبالاس التي تمسّ قطرات المطر عن رأس طفلها أخذت تتمايل كورقة السرخس.

أخيراً، بعد أن خرجت لون من الحفرة، بحثت بشكل عفوي عن أحد أفراد أسرة دوبريس. فقد أنشأتها هذه الأسرة وأنقذتها، وقامت إحدى الأخوات بتأهيلها. وأكثر من ذلك، فهي تعرف معدنهم وأحوالهم. اختارت في بداية الأمر بيوس دوبريس ابن بوكر دوبريس وابن أخي جوفينال دوبريس الشهير. وكانوا سعداء مثلهم في ذلك مثل أسرتي مورغان وبلاكهورس بمعرفتهم أنهم منحدرون من رجال سبق لهم أن تولوا رئاسة مجالس الولاية، ولكنهم على النقيض منهم، كانوا أكثر فخراً بالأجيال الأولى: حرفيون، صانعو أسلحة، خياطات، صانعات دانتيل، إسكافيون، حدادون، بنّاءون سرّق منهم غمّلهم الجدّي بعض المهاجرين البيض. ويكون احتراماً أعمق للأجيال التي رأت دكاكينها تحرق وبضائعها تلقى من فوق متون المراكب. لأنّ المهاجرين البيض لا يؤمنون أو يحافظون على المنافسة الشريفة. وقد أوقفت جماعتهم، وهُدّوا، طُردوا ونُبدوا من العمل المؤهّل والجِرَف. لكن العائلات تشبّثت بكل ما استطاعت، بما كسبته عام 1755، عندما حمل أول أفراد أسرة دوبريس منشقة بيضاء فوق زراعته، وكتاب صلاة في جيبه. وما كان الإيمان الذي أعطاهم القوة كنيياً، والفضيلة والطيبة غير المتوقعة جعلتهم يبتسمون. أشياء قليلة كانت تُثّر قلوبهم كالاستقامة المتعمّدة. دون أن يعرفوا دائماً ماذا كان يعني ذلك، ولكنهم أمضوا وقتاً طويلاً في محاولة اكتشافه. وقبل أن يُنتخب جوفينال لمجلس الولاية بكثير كان حديث العشاء حول مائدة آل دوبريس يتركز على مشاكل كل منهم، ويبحثون كيف يستطيع كل منهم حل تلك المشاكل أو المساعدة على حلها. ودائماً يرجعون إلى الحديث عن أخلاق العمل ونقاء الدوافع، وفيما إذا كان السلوك يزيد مجد الرب ويحافظ على ثقته.

ولم يكن آل دوبريس الحاليون يحيون أو يستحسنون نساء الدير. ذلك كان بعيداً عن تلك المسألة. فقد اعتبروا تصرف برود وأبولو بمثابة إهانة. ويزدوم بول كان شقيق زوجة أخيهما ومساهمتها مع مجموعة تريد إلحاق الأذى بالنساء - أياً كان مير ذلك - سيعتبرونها بسرعة عملاً وحشياً. وهذا ماحدث. إذ عندما روت لهم لون كل ماسمعه وماعرفته، لم يُضغ بيوس الوقت. فقد كلف ميلندا امرأته أن تذهب إلى بيت آل بوشامب لكي تطلب من رين ولوثر أن يحضرا لمقابلته. وسيذهب هو ولون للبحث عن ديد ساندز وآرون بول. قالت ميلندا إنَّ عليهما أن يُعلما دوقي، ولكنهما لم يتوصلا إلى الاتفاق على طريقة القيام بذلك إذا كان ستيوارد هناك. ولم تكن لون تعرف فيما إذا كانوا قد توجهوا إلى الدير أو أنهم ينتظرون شروق الشمس، بل قالت بأن أحداً ما، يجب أن يجازف بإعلام دوقي التي لو أرادت تستطيع أن تخبر سوان بكل مايجري.

عادت النساء إلى البيت تعبات من تلك الليلة الراقصة، لكنهن سعيدات، وبينما كنَّ يجففن أجسادهن، طلبن من كونسولاتا أن تحدثهن من جديد عن بيداك بينما يذهبن شعورهن بعطر شجرة الغلطيرة.

«جلسنا على ممشى الشاطئ، حممتني في مياه زمردية. وكان صوتها يُكيكي النساء المزهوات في الشوارع. كانت تتساقط قطع نقود معدنية من أصابع الفنانين ورجال الشرطة، وتوسلنا أكبر طهاة البلد أن نأكل طعامهم. كان لدى بيداك أغان تستطيع تهدئة موجة، إيقافها في عطفة سقوطها لتصغي إلى لغة لم يسبق لها أن سمعتها قط منذ أن انفتح البحر. كان هناك رعاة، على أكتافهم طيور ملونة، نزلوا من الجبال ليتذكروا حياتهم في أغانيها. ومسافرون رفضوا الصعود إلى بواخر متجهة إلى الوطن أثناء غنائها. وفي

الليل أمسكت بالنجوم من شعرها الصوفي وغطتني به. كان
لأنفاسها رائحة الأناناس والكاجو...».

تنام النساء، ويستيقظن ويغدُن إلى النوم وهنَّ يرين صوراً
لببغاوات وأصداف البحر الكريستالية وصورة امرأة تغني ولاتتكلم
أبدأ. وعند الرابعة صباحاً، يستيقظن للاستعداد لعملهن اليومي،
إحداهن تخطط العجين، بينما تشعل أخرى الموقد. بعضهن يقطعن
خضاراً من أجل وجبة الغداء، ثم يهيئن المائدة للإفطار. ويقطع
العجين إلى كرات صغيرة توضع في صوان من تنك لتختمر فيها.

كان نور الشمس على وشك أن يسطع عندما وصل الرجال. إذ
يصعب عليه اختراق زُرقة السماء الموشحة بالغيوم، ولكنَّ خلال
الوقت الذي كَمَن الرجال فيه خلف شجيرات السنديان، وانطلقوا نحو
الدير نفذت الشمس عبر الشقوق. زُرقة بهية. تصاعدت مياه الليل
على شكل ضباب من الحفر والبريكات الطافحة بالماء على كتف
الطريق. عندما وصلوا إلى الدير تحاشوا السير على الحصى الذي
يحدث أصواتاً قوية وتسللوا عبر الحشائش الطويلة وأقواس قزح
العرضية نحو المدخل الرئيسي. المخالب، ربما تنتزع ستيوارد
خارج هذا العالم. فهي تمسك بالدرجات وتبدو مرقشة وتتلألأ من
مياه المطر. وعندما صعد بينها، رفع نقره ثم بندقيته وأطلق النار
على القفل ليفتح باباً لم يقفل أبداً. انفتحت إلى الداخل وهو ينحني على
مفضلاته. تبعته أشعة الشمس وقد لمّخت جدران مدخل البهو حيث
يلعب أطفال جنسانيون، الواحد مع الآخر برسوم على الدهان
المكشوح. وفجأة ظهرت امرأة لها البشرة البيضاء ذاتها، وكل
ماكان ستيوارد بحاجة لرؤيته، هما عيناها الشهوانيتان لكي يضغط
الزناد ثانية. يجفل الرجال الآخرون ولكن ذلك لم يمنعهم من

عبورها. وأخذوا يتلثمسون أسلحتهم وقد شعروا فجأة بأنهم شبان وطيبون إلى حد تذكروا معه أنَّ هذه البنادق ليست سوى زينة أو تهويل أو سلوان. وأنهم معنيون.

يعطي ديك الأوامر.

يتفرق الرجال.

ثلاث نساء يحضرن الطعام في المطبخ سمعن طلقاً نارياً. وقفة. طلق آخر. أخذن ينظرن بحذر عبر الباب الصفاق. وبمعكس الضوء، عبر النور الآتي من الباب المكسور بدت ظلال رجال مسلحين في مدخل القاعة، اندفعت النسوة إلى غرفة الألعاب وأغلقت الباب قبل أن يتخذ الرجال مواقعهم في القاعة ببضعة ثوان. سمعن وقع خطى تمرّ وتدخل إلى المطبخ الذي غادرته للتو. لانوافذ في غرفة الألعاب - فقد وقعت النسوة في المصيدة وهنّ يعرفن ذلك. مرّت الدقائق. خرج أرنولد وجف فليتوود من المطبخ وشما أثر رائحة الفلطيرة في الهواء. فتحا باب غرفة الألعاب. أصابت أرنولد منفضة سجائر من المرمر على صدغه، مما يبهج المرأة التي تلوح بها. واستمرت بالضرب إلى أن انهيار على أربع، وصوب جف وقد أخذ على حين غرة بندقيته بعد فوات الأوان بثانية. طارت من يديه عندما حطم له رسغه قضيب البلياردو، ولما نهض بخل في فكه. رفع ذراعه في بداية الأمر ليحمي نفسه وليمسك طرف قضيب البلياردو. عندها تحطم إطار صورة «كاترين السييناوية» على رأسه.

اندفعت النسوة في القاعة، ولكنهنّ تجمّدن في أماكنهنّ عندما رأيّن شخصين يخرجان من المصلّى. رجعت زاكضات إلى المطبخ ووراءهن هاربر ومينوس. هاربر أمسك بخضر وذراع إحداهن. إنها ضئيلة الحجم، لذلك لم يز المقلاة التي دقت جمجمته بشدة. وقع على الأرض مغلّتا بندقيته. أما مينوس الذي كان يحاول وضع القيد في يدي امرأة أخرى فقد التفت عندما سقط أبوه. والسائل الذي غمر وجهه كان شديد الحرارة لدرجة أنه لم يستطع الصراخ. وضع إحدى

ركبتيه على الأرض، وامتدت يد إحدى النساء نحو البندقية التي تدور على الأرض. ورغم الألم، وبعد أن صار نصف أعمى، فقد شَدها من كاحلها الأيسر، فرفسته على رأسه بقدمها اليمنى. ومن خلفه رفعت امرأة أخرى سكين جَزَّار وأغمدها بعمق شديد بين عظام كتفه، بحيث لم تستطع إخراجها لتضرب مرة أخرى. تركته في مكانه وهربت إلى الباحة مع رفيقتيها الأخريين، يذعرن الديك حيثما تذهبن.

ولم يَزْ ويزدوم بول وسارجنت بيرسون أحداً، عندما نزلا من الطابق الثاني. فدخلوا إلى غرفة الدرس التي يغمرها الضوء الذي يدخل من النوافذ، وأخذوا ينظران خلف المقاعد التي ألصقت بالجدران وإن كان من البديهي ألا أحد، حتى لو كان طفلاً يمكن أن يختبئ هناك.

وفي الأسفل، هناك حزم ضوئية طويلة وبطيئة مع مصابيح «بلاك أند ديك»، ستيوارد وديك و «K.D.» يتأملون شيئاً نفيساً يمثل تدنيساً وغنفاً وانحرافات تتجاوز الخيال. قذارات رُسمت بعناية وغطت الأرض كأنها بساط. لمس «K.D.» بأصابعه صليبه المصنوع من سعف النخيل. وربّت ديك على جيب قميصه الذي وُضع فيه نظارته الشمسية. لقد فكّر أن يستخدمها لغايات أخرى ولكنه أخذ يتساءل إن كان يحتاج إليها الآن ليحمي نظره من هذا البحر من المفاسد الذي يومئ في الأسفل. لم يجرؤ أحد على المشي فوقها. وإذا وجدوا ما يبرر توقعاتهم، استداروا وصعدوا الدرج ثانية. كان باب غرفة الدرس مفتوحاً على مصراعيه، أشار إليهم سارجنت ويزدوم أن يدخلوا. اصطفّ الخمسة أمام النوافذ، وقد أدركوا أنَّ النساء لسن مختبئات هناك، بل إنهن طليقات.

بعد وقت قصير من مغادرة الرجال لمرآب سارجنت وصل مواطنو روبي إلى القرن. تباطأ المطر. وراحت بعض بقايا الأوساخ

تطفو على سطح حاوية القمامة. امتلاً المسيل ولكنه لم يفيض. تسرب الماء إلى الأرض، وسال المطر الذي انهمر كالشلال من الفرن إلى الوحل الذي انتشرت عليه شظايا جص انتزعت من القرميد. مال الفرن قليلاً على جنبه لأن الأرض المرصوفة التي بُني عليها قد تقوضت. وانطلق مواطنو روبي في شاحنات وسيارات ليقابلوا الرجال.

لم تكن أي واحدة من الأختين بحاجة لمن يقنعها، لأنهما تعرفان أن هناك أمراً قظلياً يدبّر في الخفاء. طلبت دوفي من سوان أن تقود السيارة. وظلت كلتاهما صامتتين، بينما أفكارهما تدوي كالصواريخ. طيلة ثلاثين سنة نظرت دوفي إلى زوجها وهو يحطم شيئاً ما في داخله. كلما جنى أكثر أصبح هو أقل. وربما هو الآن منهمك بتدمير كل شيء. هل شوشت له ذهنه خمسة وعشرون سنة من النجاحات الباهرة؟ هل ظن أنهم لكونهم يعيشون خارج نطاق قوانين البيض قد أصبحوا فوقها؟ طبعاً إن أحداً لا يمكنه أن يتمني زوجاً أكثر وداً، وطالماً تجاهلت الأجزاء التي لا يمكن معرفتها، ظل زواجهما رائعاً. ومع ذلك فهي تفتقد البيت الصغير المرهون حيث كان صديقها يزورها. لم يأت لزيارتها سوى مرة واحدة، منذ أن استعاده «K.D.»، كان ذلك في حلم، وقد أخذ يتحرك مبتعداً عنها: راحت تناديه فيلتفت. الشيء التالي الذي تعرفه أنها كانت تغسل له شعره. استيقظت حائرة، ولكنها سعيدة لرؤية يديها مبللتين بالرغوة.

تعاقب سوان نفسها لأنها لم تكلم ديك مجرد كلام وحسب، ولأنها لم تقل له بأنها تعرف كل شيء عن كوني، وأن فقدان طفلها الثالث عقوبة لها - وليس له. بعد أن أنقذت كوني حياة سكوت تبخر كل حقد سوان عليها، ولأنهما أصبحتا صديقتين حميمتين اعتقدت أنها غفرت لديك أيضاً. والآن راحت تتساءل فيما إذا كان خوفها من الاختناق في هواء أرق من أن تتنفس فيه، وحداها الذي لا يقبل عزاء على ولديها، وطريقتها في إبقاء آلامها حية برفضها قراءة رسائلها الأخيرة، ليست سوى وسائل لمعاقبته دون أن تبدو كذلك.

وعلى أية حال، فهي تعرف أن طرد نسوة الدير له علاقة بزواجهما. لأن هاربر وسارجنت وبالتأكيد أرنولد، ماكانوا ليرفعوا أيديهم على هؤلاء النسوة، لو لم يكن ديك وستيوارد قد فوّضاهم وتلاعبا بعقولهم. لو أنها تكلمت قبل هذا الوقت باثنتين وعشرين سنة، لو أنها تكلمت وحسب.

حطمت دوفي الصمت: «بماذا تفكرين؟».

«لا أستطيع».

«لن يؤذونهنّ، أليس كذلك؟».

أوقفت سوان ماسحات الزجاج. لم يعد هناك حاجة لها الآن. وأجابته: «لا، يريدون إخافتهنّ وحسب. أعني حتى يرحلن». «ومع ذلك فالناس يتحدثون عنهنّ طيلة الوقت. كما لو كنّ... قذارة».

«إنهنّ مختلفات، وهذا كل مافي الأمر».

«أعرف، ولكن فيما مضى كان هذا يكفي».

«إنهن نساء يا دوفي، مجرد نساء».

«عاهرات، على أية حال، وغريبات الأطوار أيضاً».

«دوفي!».

«هذا مايقوله ستيوارد وإذا صدق ذلك...».

«سيّان عندي إن كنّ كذلك...» لم تكن سوان تستطيع أن تتخيل شيئاً أسوأ من هذا. لزمت الاثنتان الصمت.

«تقول لون أنّ «K.D.» ذهب إلى هناك».

«سيكون هناك».

سألتها دوفي: «أتعتقدين أنّ مايل مطلّعة على الموضوع؟ أو بريسيلا؟».

«أشك بذلك، فلولا لون لما عرفنا نحن؟».

«أعتقد أن الأمور ستكون على مايرام. لأنَّ آرون وبيوس سيوقفانهم عند حدهم. وآل يوشامب وحتى ستوارد لن ينجرّف مع لوثر».

انفجرت الأختان ضاحكتين ضحكات خفيفة طافحة بالأمل لتهدئة مخاوفهما وهما تسرعان السير، عبر هواء الفجر الرائع.

تستيقظ كونسولاتا. وهي تعتقد أنها سمعت قبل بضعة ثوانٍ وقع أقدام تنزل. افترضت أن بالاس قادمة لتطعم الطفل المستلقي بجانبها. دسّت حقاًصته لترى إذا كان بحاجة لتغييرها. شيء ما، شيء ما. انتابت كونسولاتا قشعريرة. فتحت الباب وسمعت وقع الخطى وهي تبتعد، خطى أثقل وأكثر غدداً من أن تكون لامرأة. وتساءلت فيما إذا كان عليها أن تزعج الطفل النائم أم لا. ثم لبست بسرعة فستاناً أزرق، ياقته بيضاء وقرّرت أن تترك الطفل في مهده. صعدت الدرج فرأت في الحال جسماً ممدداً على الأرض، في المدخل. أسرعت فاحتضنت المرأة بين ذراعيها، وقد تلطخ خدها والجانب الأيسر من فستانها بالدم. نبضها يدق في عنقها، لكنه ليس محسوساً جداً وتنقّسها ضعيف. فركت كونسولاتا اللزغ على رأس المرأة وبدأت تدخل فيها، بعمق، وأكثر عمقاً لكي تجد نقطة الضوء. دوّت طلقات نارية في الغرفة المجاورة.

الرجال يطلقون النار عبر النافذة على ثلاث نساء يركضن فوق النفل والوزال الاسكوتلندي. دخلت كونسولاتا وهي تصرخ: «لا!». التفت الرجال.

أغمضت كونسولاتا جفنيها نصف إغماضة بسبب أشعة الشمس، ثم رفعت نظرها كما لو أنّ شيئاً استرعى انتباهها فوق رؤوس الرجال فقالت: «عُدّت» وابتسمت.

ديكون مورغان بحاجة للنظارة الشمسية ولكنها محشورة في جيب قميصه. نظر إلى كونسولاتا ورأى في عينيها الشيء الذي جف

منهما ومن نفسه أيضاً. هناك دم قرب شفيتها. وهذا جعل أنفاسه تنحبس في صدره. رفع يده ليوقف يد أخيه، وليكتشف أيّ منهما هو الأقوى. اخترقت الرصاصة جبين كونسولاتا.

صرخت دوفي. وسوان تنظر محنقة.

«هذا الاحتضار قد يستغرق بعض الوقت»، لون بحاجة ملحة لـ
النعناع الحاد بينما راحت تُوقِف الدم الذي يسيل من جرح المرأة
البيضاء. نقلتها هي ورين إلى الأريكة في غرفة الألعاب. لاتستطيع
لون سماع دقات قلبها، رغم انطباعها بأنها مازال تشعر بدقات
النبض في عنقها. فقد غادر دم غزير جسد هذه المرأة ذات الرّسغين
الصغيرين كرسغي طفل.

صاحت: «هل ذهب أحد لبحث عن روجر؟».

جاءها الجواب بصوت مرتفع: «نعم».

سببت لها الضجة في الخارج صداعاً، ورغبة لاتقاوم
بالحصول على شيء تمضغه. تركت لون المرأة لتري ماذا يحدث
وتنقذ حياة أو حياتين عبر تلك الفوضى.

دوفي على الدرج تبكي.

اقتادتها لون نحو المطبخ الموجودة فيه سوان: «عليك أن
تسكتي الآن يا دوفي، وأنا بحاجة إلى امرأة تفكر. هيّا، تعالى
انظري هنا، اذهبي واجلبي ماءً، وحاولي أن تسقي الفتاة الموجودة
في الداخل».

في وقت مبكر كان ديكون مورغان قد نقل كونسولاتا إلى
المطبخ، وحملها بين ذراعيه طيلة الوقت الذي قضته النساء بإزالة
الأشياء عن الطاولة، ثم وضعها عليها برفق، كما لو أن حركة عنيفة
يمكن أن تسبب لها ألماً. عندما وضع كونسولاتا بوضع مريح - بعد

أن طوي معطف سوان المطري تحت رأسها - حينئذٍ فقط أخذت يداها ترتجفان. ثم غادر ليساعد الرجال الجرحى. مينوس الذي عجز عن نزع السكين الذي عُزّز في كتفه كان يئنّ من الألم. رأس هاربر أخذ يتورّم، ولكن أرنولد فليتوود هو الذي بدا أنه يعاني من صدمة وارتجاج. وكان يجب العناية بفكّ جف ورسغه المسكورين. وصلت جماعة أخرى من سكان روبي بعد أن أثارتهم للقافلة الأولى، فزادوا من حجم الفوضى والضجيج. نزع المحترم بوليام السكين من كتف مينوس ووجد صعوبة كبيرة في إقناع هاربر ومينوس جوربي وآل فليتوود بقبول الذهاب إلى مشفى دمبي. وصلت رسالة من ابن بيد ساندز تعلن أن روجر سيعود من ميلتون، صباح ذلك اليوم، وأنه حالما يصل سوف ترسله ابنته إلى الدير. أخيراً توصل بوليام إلى إقناع الرجال، وقاد الجرحى بالسيارة بعيداً عن المكان.

كانت أصوات ذكورية ما تزال تدوي. وبين الاتهامات الصاخبة والدفاعات المحزنة الهادئة ولكن الأكثر هدوءاً وأمام عدوانية الأسئلة والتنبؤات بالقدر المشؤوم احتاج الأمر نصف ساعة على الأقل، قبل أن يفكر أحد بالسؤال عما حدث لبقية النساء. وعندما ألقى بيوس السؤال، أشار سارجنت برأسه: «هناك في الخارج».

«هل هربن؟ إلى «الشريف»؟».

«أشك بذلك».

«ها الأمر يارجل؟».

«لقد سقطن بين الحشائش والأعشاب».

«هل نبحتم كل هؤلاء النساء؟ ولأي سبب؟».

«الآن سيتعقبنا القانون الأبيض واللجنة».

«لم نأتِ إلى هنا لنقتل أحداً. انظر ماذا فعلن بـ مينوس وفليت
لقد قمنا بالدفاع المشروع عن النفس».

نظر آرون بول إلى «K.D.» الذي أعطى هذا التفسير: «لقد

دخلتم عليهنّ في بيتهنّ، ولم تتوقعوا المقاومة؟» كان الاحتقار واضحاً في نظراته، لكنه ليس بارداً مثل احتقار لوثر الذي سأل: «من الذي كان يحمل السلاح؟».

«نحن، ولكن الخال ستيوارد هو الذي...».

صفعه ستيوارد على فمه، ولولا سيمون كاري لكان من الممكن أن تحدث مذبحة أخرى. صاح المحترم كاري: «امسكوا به!» وأشار بإصبعه إلى «K.D.» قائلاً: «أنت في مأزق، يابني!».

ضرب بيوس الجدار بقبضته وقال له: «لقد سبق لك أن أسأت إلى سمعتنا. والآن تريد تدميرنا؟ أي نوع من الشرور يكمن تحت جلدك؟» نظر في بادئ الأمر إلى ستيوارد ولكنه بعد ذلك أخذ يحدق به ويزدوم به سارجنت والاثنين الآخرين.

قال ستيوارد: «الشرّ في هذا البيت. انزل إلى القبو كي ترى أنت بأف عينيك».

«أخي يكذب. فنحن الذين فعلنا ذلك. نحن وحدنا. ونحن نتخمل المسؤولية».

وللمرة الأولى منذ إحدى وعشرين سنة تبادل الأخوان التوأمان النظرات بعينين جامدتين.

أثناء هذا الوقت أغلقت سوان ولون دوپريس العينين الضعيفتين ولكنهما لم تستطعا أن تفعل شيئاً للعين الثالثة الرطبة الموجودة في الوسط، والتي لأجفان لها.

همست سوان: «لقد قالت ديفايين».

«ماذا؟» حاولت لون أن تغطي الجثمان بملاءة.

«عندما ذهب لأراها. تماماً بعد أن كان ستيوارد... أمسكت برأسها، فقالت «ديفاين». ثم شيئاً آخر مثل: «إنه إلهي، ويناام بصورة إلهية». كانت تحلم على ما أعتقد».

«حسناً، لقد قُتلت برصاصة في رأسها يا سوان».

«وماذا تظنين أنها رأت؟».

«لأدري، ولكنها فكرة جميلة، حتى لو كانت الأخيرة».

دخلت دوشي وقالت: «لقد ماتت».

سألتها لون: «أمتأكدة أنت من ذلك؟».

«اذهبي وانظري بنفسك».

«سأفعل».

غطت الأختان كونسولاتا بالملاءة.

قالت دوشي: «لم أكن أعرفها بقدر ماتعرفينها».

«كنت أحبها كثيراً. والله شاهدي على ذلك، كنت أحبها، ولكن أحداً لم يكن يعرفها حق المعرفة».

«لماذا فعلوا هذا؟».

«فعلوا «هم» تعنيته هو أليس كذلك؟ ستيوارد هو الذي قتلها، وليس ديك».

«إن من يسمعك يقول بأن كل شيء كان بسببه».

«ليس هذا ماقصدت قوله».

«ماذا إذن؟ ماذا تريد أن تقول؟».

لاتدري سوان ماذا تقصد، باستثناء أن تعرف كيف تجد قطعة صابون لإزالة أصغر بقعة تستطيع تنظيفها. ولكن هذا التبادل غير علاقتهما بصورة نهائية.

الناس الذين كانوا مضطربين، غاضبين، حزينين، خائفين، تكسوا في السيارات، وعادوا نحو الأولاد، والمواشي، والحقول والأعمال المنزلية والحيرة. كم عملوا بحمية من أجل هذه المدينة، وكم كانوا بعيدين ذات مرة عن الفظاعة التي شهدوها للتو، كم تستطيع مهمة نظيفة ومباركة لهذا الحد أن تلتهم نفسها وتصبح العالم الذي هربوا منه؟

قالت لون إنها تريد البقاء مع الموتى إلى أن يصل روجر. سألته ميلندا: «وكيف ستعودين؟ سيارتك عندنا».

تنهدت لون: «حسناً، الأموات لا يتحركون. ولدى روجر الكثير من الأعمال التي تنتظره». وفي السيارة التي تبتعد، التفتت لون وألقت نظرة على المنزل. «الكثير من الأعمال».

لم يكن لديه الكثير. وعندما عاد روجر بيست إلى روبي لم يبق حتى بتغيير ملابسه. فقد أدار محرك سيارة الاسعاف/ ودفن الموتى وانطلق بها نحو الدير. لقد قيل له إن ثلاث نساء سقطن بين الحشائش، وواحدة في المطبخ، وأخرى في المدخل. فتش في كل مكان. كل بوصة من الحشائش، وكل رقعة من الزوال الاسكوتلندي. قرن الدجاج. حديقة الخضار. وفي خطوط الذرة الصفراء في الحقل الخلفي. ثم في غرفة المصلّى وغرفة الدرس. غرفة الألعاب كانت فارغة وكذلك المطبخ - كان هناك غطاء ومعطف مطري مطوي على الطاولة، كدليلين وحيدين على أن جسداً كان موجوداً هناك. وفي الطابق الأعلى بحث في الحمامين، وفي كل من الغرف الثماني. ومرة أخرى فتش في المطبخ وفي غرفة المؤمن. ثم نزل إلى القبو ومشى على اللوحات المرسومة على الأرض. فتح باباً يؤدي إلى مستودع للفحم. وخلف باب آخر رأى سريراً صغيراً وزوجاً من الأحذية الملمّعة على منضدة الزينة. لم يكن هناك أحد. لاشيء. حتى الكاديلاك كانت قد مضت.

سيف - ماري

«هاكم سبب وجودنا هنا: في هذه اللحظة الفريدة التي يكتنفها الحزن والألم - ونحن نتأمل الحياة القصيرة والموت غير المقبول وغير المفهوم لطفلة - نؤكد أو نرجئ أو نفقد إيماننا. هنا، في دقائق هذه اللحظة، في هذا المكان تبدو جميع أسئلتنا، وجميع مخاوفنا، غضبنا واضطرابنا وأsanنا، وكأنها تندمج، وتنتزع الأرض من تحت أقدامنا، ونحس كأننا نسقط. هنا، ربما نستطيع القول بأنه قد حان الوقت لنتوقف، أن نطيل هذه اللحظة ونرفض التفاهات حول العصافير التي تسقط تحت عين الله، حول جدوى الموت في سن الشباب (لم يكن لهذه الطفلة خيار بأن تكون صالحة) أو حول الموت كونه الديمقراطية الوحيدة، هذا هو زمن إلقاء الأسئلة التي في أذهاننا. من يمكن أن يفعل هذا بطفلة؟ من يمكن أن يسمح بحدوث هذا لطفلة؟ ولماذا؟»

لم تكن سويتي فليتود ترغب بمناقشة هذا الأمر. لن ترقد طفلتها لترتاح في أرض ستيوارد مورغان. كانت هذه مشكلة جديدة تماماً: مسألة مكان الدفن لم تُطرح في روبي منذ عشرين سنة، وقد حدثت دهشة وحزن عندما أصبح ذلك ضرورياً. وعندما توفيت سيف - ماري أصغر أبناء سويتي وجف ظن الناس أن الآخرين: نوح، إستير ومينغ سيتبعونها بسرعة. أعطى الأول اسماً قوياً لأنه ابن قوي وكذلك لأنه اسم والد جدّه. وسميت الثانية إستير تخليداً

لذكرى أم جدتها التي أحبّت الأول واعتنت به بكثير من الغيرية. وأعطوا للثالثة اسماً، كان جُف يتمسك به - لأمر له علاقة بالحرب. وأخيراً كان اسم الطفلة الأخيرة عبارةً عن التماس (أو تفجع): سيف - ماري^(*) ومن يستطيع القول بأنّ هذا الطلب لم يلق جواباً. لذلك فإنّ النقاش الحادّ بشأن اختيار مقبرة رسمية لم يحصل فقط بسبب رغبات سويتي وانتظار عمليات دفن جديدة، بل لأنه لأسباب معقّدة، لم تعد الحصادة ممنوعة في روبي. وبالتالي فإنّ ريتشارد ميسنر أصبح يشرف على قطعة أرض نذرت للكنيسة ويقوم مؤسسة جديدة. ولكن بالنسبة لـ سويتي فإنّ مسألة معرفة فيما إذا كان يجب استخدام المقبرة لهذا الغرض بالذات في مزرعة ستوارد - حيث ترقد روبي سميث - كانت مستحيلة. وتحت تأثير أخيها لوثر فقد لامت ستوارد لأنه وضع زوجها ووالده في مأزق وقالت بأنها تفضل أن تعمل مثل روجر بيست (الذي حفر قبراً في أرضه) وأنّ الأمر سيان تماماً لديها أن تكون ثلاثة وعشرون عاماً قد مرّت على عملية الدفن السريعة تلك، التي شهدا قليل جداً من الناس في الباحة الخلفية.

فهم معظم سكان روبي لماذا كانت تُحدث كل ذلك الاهتياج (ماكان يختمر في رأسها هو الحزن والماملة). ولكن بات بيست تظن أنّ عناد سويتي كان محسوباً أكثر من ذلك. إذ أنّ رفضها لعرض آل مورغان، وتركها الشك يساور الناس بشأن استقامة مورغان قد يتحان لها الاستيلاء على بعض المكاسب من جيوب مورغان. وإذا كانت نظرية بات المتعلقة بجماعة الـ (R-8) صحيحة، فإنّ حقد سويتي وضع جماعة (R-8) في موقف محرج إذ يجب عليهم أن يقرروا الحصول على مقبرة حقيقية رسمية في مدينة تفص بالخالدين. وقد حدث أمر زلزالي منذ شهر تموز. إذ كانوا موجودين هناك، تحت سماء غائمة، في يوم من أيام تشرين الثاني اللطيفة، وقد اجتمعوا على مسافة تقرب من الميل خلف آخر منزل في

(*) Save - Marie، وتعني أنقذ ماري.

روبي، في أرض تعود بالطبع إلى آل مورغان، ولكن أحداً لم يتجرأ على إبلاغ سويتي بذلك. استعادت بات وهي واقفة بين الجمهور المحيط بآل فليتوود الحزاني، حالة الاستقرار. وقبل ذلك بقليل، أثناء تشييع الجنازة، راحت تكيي لأنهم لو يؤبنوا الموتى. والآن عادت إلى شخصيتها المألوفة اللاهية كالعادة دون انفعالات. تأمل على الأقل أن تكون دون انفعالات وتأمل أن ماتشعر به هو اللهو تماماً. وكانت تعرف أن لدى آخرين أحكاماً مختلفة على موقفها. وقد ذكر لها ريتشارد ميسنر بعضها: («حزين، حزين وبارد»). لكنها كانت واسعة الثقافة وليست رومانسية، وقد حصنت نفسها ضد كلام ريتشارد ميسنر الذي قاله بجانب القبر ليلفت نظرها بدلاً من ذلك إلى الحزاني.

لقد رجع هو وآنا فلود بعد يومين من الاعتداء على نسوة الدير، وقد أمضى أربعة أيام حتى أطلع على ما حدث. أعطته بات نسختي القصة الرسمية: أولاً أن تسعة رجال ذهبوا ليتحدثوا مع النساء في الدير لإقناعهن بالرحيل أو بإصلاح سلوكهن، وحدث شجار، فاتخذت النسوة أشكالاً أخرى واختفين في الهواء الرقيق. ثانياً (رواية فليتوود - جوري): أن خمسة رجال ذهبوا لطردهن النساء، وأن أربعة آخرين - هم مؤلفو القصة - ذهبوا لمنعهن أو إيقانهم، فهاجمت النساء هؤلاء الأربعة، ولكن الرجال تمكنوا من خنلهن على الفرار، فهربن في سيارة الكاديلاك. ولسوء الحظ، كان بعض الرجال الخمسة قد فقدوا رشدهم وقتلوا المرأة العجوز. وتركت بات لريتشارد ميسنر الحرية لأن يختار الرواية التي يفضلها. ولم تعطه نسختها هي: أن تسعة من جماعة (R-8) قد قتلوا خمس نساء مسلمات، (أ) لأن هؤلاء النسوة كن مدنسات (لكن من جماعة (R-8)، (ب) لأنهن كن ملعونات (في أفضل الأحوال زانيات وفي أسوأها يعملن على الإجهاض) و (ج) لأنهن يملكن القدرة - وهذا ما هدفت إليه جماعة (R-8) وما تتطلبه «الصفقة» أيضاً.

لم يصدق ريتشارد هذه القصص التي تحولت بسرعة إلى كلام مقدس، وتحدث عنها اللقنين الآخرين، سيمون كاري وسنيور

بوليام اللذين أوضحا جوانب أخرى من الحكاية. ولكن بما أن أياً منهما لم يجزم بمغزى نهايتها، وبالتالي عجزا عن صياغة بيان عنها يتصف بالمصادقية وجدير بأن يصبح أساساً لإحدى المواعظ، ولذلك لم يستطيعا تخفيف استياء ريتشارد. كانت لون هي التي زوّدت بالتفاصيل المأساوية التي أسرع عدة أشخاص لمناقضتها، لأن لون، كما قالوا، لا يمكن أن يوثق بها. باستثناءها، لم يسمع أحد الرجال عند القرن، ومن يعرف ماذا قالوا فيما بينهم حقاً؟ وكبقية الشهود وصلت بعد أن أطلقت العيارات النارية، وعلاوة على ذلك، فإنها هي ودوغي يمكن أن تُخطئ، حول ما إذا كانت امرأتا الدير قد قتلتا أم جرحتا وحسب، أخيراً، فإنها لم تر أحدًا خارج المنزل، حيّاً كان أو ميتاً.

أما بالنسبة إلى لون فقد تشوشت من الطريقة التي راحوا يعيدون بها القصة، كيف كان الناس يغيرونها لجعل أنفسهم يظهرون بشكل طيب. وفيما عدا ديكون مورغان الذي لم يكن لديه مايقوله، كان لكل واحد من الرجال الذين اشتركوا في الهجوم حكاية مختلفة، وراح أفراد عائلاتهم وأصدقاؤهم (الذين لم يكونوا قريبين من الدير أبداً) يؤيدونهم ويدعمون ويعززون ويخلقون معلومات مغلوبة. ورغم أن آل دوبريس، آل بوشامب، آل ساندز وآل بول يؤيدون رواية لون. ولكن ما عُرِف عنهم من دقة ونزاهة بالذات لم يستطع أن يمنع حقيقة محرّفة من أن تفرض نفسها في أحياء أخرى. ولو لم يكن هناك ضحايا لغدت قصة الجريمة مجالاً لعبث أي لسان. ولذلك فإن لون أغلقت فمها واحتفظت بما تشعر به كأمر مؤكد مطوياً في رأسها: لقد منح الله روبي فرصة ثانية. وقد جعل حضوره مرثياً جداً، وغير قابل للجدال أبداً، إلى حد أن أشد المتكبرين (من أمثال ستيوارد) والبلهاء الذين لا يمكن إصلاحهم (كابن أخته الكذاب) كان لابد أن يكونوا قادرين على رؤيته. لقد التقط واستقبل «خادمات الله» في وضع النهار حقاً حباً بالخير! تحت أعينهم بالذات حباً بالمسيح! وبما أنهم كانوا يتهمونها بالكذب، قرّرت أن تلزم الصمت وتراقب كيف تعامل يدُ الله الشكاكين وشهود

الزور. هل سيعرفون أنهم خوطبوا؟ أم أنهم سيبتعدون أكثر عن طريق الله؟ هناك أمر مؤكد: كانوا قادرين على رؤية الفرن ولا يستطيعون قراءة ذلك أو التحدث عنه بشكل سيء، لذا من الأفضل أن يسرعوا ويثبتوا انزلاقه قبل فوات الأوان - وربما هذا ما حدث، لأن الشبان غيروا الكلمات من جديد. لم يعودوا يدعون أنفسهم «كونوا غضبة الله». أصبح النقش الأثري على غطاء الفرن يقول الآن: «نحن غضبة الله».

ومهما كانت حدة الانقسامات التي حدثت حول ما قد حصل بالفعل، فإن بات تعرف أن الحدث الضخم والذي كان الجميع متفقين عليه هو أن جميع من وجدوا هناك قد غادروا المكان، وهم متأكدون أن رجال القانون سيكونون سعداء جداً بانتشار الجميع في المدينة (فقد قتلوا امرأة بيضاء على أية حال) وليلقوا القبض على جميع رجال الأعمال في روبي. وعندما علموا بعدم وجود موتى يجب الإبلاغ عنهم أو نقلهم أو دفنهم، شعروا بارتياح عظيم جعلهم يبدوون بنسيان ما فعلوه أو رأوه حقاً. ولولا لوثر بوشامب - الذي كان يروي القصة الأكثر تفاهةً - وبيوس وديد ساندز وآرون - الذين أخذوا يؤيدون العناصر الأساسية في رواية لون - ربما كانت القضية برمتها قد أزيلت من الوجود. ومع ذلك، فحتى هؤلاء لم يكن بإمكانهم أن يقرروا الكلام عن ميتات غير طبيعية في منزل ليس فيه جثث، مما قد يؤدي إلى اكتشاف ميتات طبيعية في سيارة ملأى بالجثث. ورغم أن بات لم تكن حائزة على ثقة أناس كثيرين، فقد جمعت من أحاديثها مع أبيها ومع كيت، ومن مناقشات استرققتها عمداً رغم أنها لم تطلع كثيراً من الناس على ذلك، ما جعل الناس، بعد أربعة أشهر يرددون الأحاديث عن المشكلة ويطلبون من الله أن يرشدهم إن كانوا مخطئين: إن كان قانون البيض يستطيع، على نقيض كل ما يعرفونه ويؤمنون به، معالجة قضايا كانوا في الماضي يقومون بتسويتها فيما بينهم. راحت الصعوبات تخض كل الناس وتبليبلهم: الشكاوى والإتهامات، للصلوات من أجل التفاهم والصفح،

التباهي بالدفاع عن النفس، الأكاذيب المباشرة، وحشد من الأسئلة التي لا يكف ريتشارد ميسنر عن طرحها عليهم. ولذلك فإن عملية الدفن كانت عبارة عن فترة توقف ولم تكن النتيجة.

ربما كانوا على صواب فيما يتعلق بهذه المدينة، كما فكرت بات وهي تعاین سكان المدينة. ربما روبي محظوظة. ثم تراجعت قائلة: لا، صححت لنفسها. حتى لو كانت الأدلة على الهجوم غير مرئية، فإن النتائج لم تكن كذلك. فهناك جف وذراعه حول خصر زوجته، والاثنتان يبدوان حزينين مع شيء من الجلال الاستخفاقي أيضاً، لأن جف أصبح الآن المالك الوحيد لمخزن والده بأثاثه وعمله. أصبح أرنولد بشكل مفاجئ عجوزاً جداً يشكو من صداع دائم، له غرفته الخاصة به الآن منذ أن رحلت آرنيت. وقف منكس الرأس عيناه تقع على كل شيء عدا التابوت. بينما كان سارجنت بيرسون مرتاحاً كما لم يكن أبداً: فليس هناك أي مالك ينتظر أجراً عن أراضيه، إلا إذا كان هناك مفتش مالي للمقاطعة يولي اهتماماً (وإلى أن يفعل ذلك) لقرية صغيرة يسكنها سود لامشاكل لهم، يعيشون في خشية الله، فإن جسعه لن يعرف حدوداً. كان هاربر جوري دون ندم يرتدي بزة زرقاء غامقة، ويحمل في رأسه جرحاً كأنه وسام، يسمح بأن يتخذ وضعية المحارب الجريح الذي لم ينحن إزاء الشر. مينوس صار أكثرهم بؤساً، لم يعد لديه عملاء في مخزن آنا، من جهة لأن كتفه المكسور كان يحد من قدرته على استعمال أدوات الحلاقة، ومن جهة أخرى لأن ميله للمشروب قد امتد إلى أكبر عدد من أيام الأسبوع. وقد سار انغماسه في الملذات بسرعة نحو نهايته. وتعود أسوأ حصّة إلى ويزدوم بول. حمّله سبعون من أفراد الأسرة مسؤولية (كما حمّلوا أخويه برود وأبولو) تدنيس سمعة أجدادهم، دون أن يتركوا له السلام أو المنصب، وقاموا بتوبيخه كل يوم إلى أن ركع على ركبتيه وبكى أمام جميع المؤمنين في «هولي ريديمر». وبعد أن اعترف علناً، وتاب، وشعر بمزيد من الندم، أخذ يجري محادثات عابرة مع برود وأبولو. كانت آرنيت و«K.D.» بينيان بيتا جديداً على أرض لـ ستوارد. إنها حامل من جديد والاثنتان يأملان أن يصبحا

في وضع يتيح لهما أن يجعلوا الحياة بغيضة بالنسبة إلى آل بول، آل دوبريس، آل ساندز وآل بوشامب، وبخاصة إلى لوثر الذي كان يستغل كل مناسبة لإهانة «K.D.». وكانت التطورات الأكثر أهمية تعني الأخوين مورغان. فالسمات التي تميزهما راحت تتآكل : اختيار التبغ (فقد تخلى الاثنان في وقت واحد عن تدخين السيجار ومضغ التبغ)، الأحذية، الملابس وشعر الوجه. كانت بات تظن أنهما يشبهان بعضهما، دون شك، أكثر من وقت ولادتهما. ولكن الاختلاف الداخلي كان عميقاً جداً لا يمكن لأحد أن يخطئه. ضم ستيوارد الوقح الذي لا يعتذر «K.D.» تحت جناحيه، وعمل جهده لكي يحقق الثراء لابن أخته وطفله البالغ من العمر ستة عشر شهراً (والمنزل الجديد ضمناً)، ومسهلاً دخول «K.D.» إلى المصرف، بينما راح ينتظر دوفي أن توافق ويبدو أنها ستوافق، فعلى ما يبدو كان هناك برود واضح في العلاقة بينها وبين سوان. لم تكن الأختان متفقتين بشأن ما حدث في الدير. فدوفي رأت كونسولتا عندما وقعت ولكنها تؤكد أنها لم تر من هو الذي ضغط على الزناد. أما سوان فتعرف، وهي بحاجة لأن تعرف شيئاً واحداً: أنه لم يكن زوجها. لقد رأت يده تنتقل فوق يد ستيوارد بإيماءة محذرة وممانعة. فقد رآته وتقول ذلك مرة بعد أخرى لكل من يريد سماع ذلك.

كان ديكون مورغان أعظمهم تغيراً. كما لو أنه نظر إلى وجه أخيه ولم يعد يحب نفسه. والأمر الذي أدهش الجميع أنه عقد صداقة (حسناً، علاقة على أية حال) مع شخص آخر غير أخيه، يشكل سببها ومبررها وأساسها أعجوبة خفية. لم يكن ريتشارد ميسنر يتكلم، ولم تُعرف بشكل مؤكد سوى مسألة السير بقدمين حافيتين التي حدثت بصورة علنية.

كان ذلك في أيلول والجو مازال حاراً عندما سار ديكون مورغان نحو الشارع المركزي. أقحوان على يمين الممشى المحاط بالأجر الذي يؤدي إلى منزله الأبيض الفخم، أقحوان على يساره. كان يضع قبعته ويرتدي بزته وصدريته وقميصاً أبيض نظيفاً. بلا حذاء وبلا جوارب. دخل شارع سان جون حيث غرس أشجاراً تبعد

الواحدة عن الأخرى خمسين قدماً، فقد كان تفاؤله عظيماً قبل ذلك بعشرين سنة. انعطف يميناً إلى الشارع المركزي. كان قد مرَّ عقد من الزمن لم يمش فيه نعلًا حذائه، ناهيك عن قدميه الحافيتين على تلك المسافة من الإسمنت الكثير. وبعد منزل أرنولد فليتيوود بالضبط، قرب زاوية شارع سان لوك قال زوجان: «صباح الخير يا ديك». فردَّ لهما التحية بإشارة من يده وعيناه مستقيمتان قدماً. وحيثه ليلي كاري من شرفة منزلها، بالقرب من تقاطع شارع سان مارك ولكنه لم يلتفت برأسه. فسألته وهي تحديق إلى قدميه: «هل سيارتك معطلة؟». وأمام مخزن أدوية هاربر جوري، عند زاوية الشارع المركزي وشارع سان ماتيو، شعر بعينين منتبھتين تتبعانه. لم يحوّل رأسه ولم يلق نظرة عبر نافذة «مصرف مورغان للتوفير والقروض» عندما اقترب من شارع سان بيتر. اجتاز الشارع عند التقاطع واتَّجه نحو منزل ريتشارد ميسنر. آخر مرة أتى إليه، قبل ست سنوات، كان غاضباً، تساوره الشكوك ولكنه واثق أنه هو وأخوه سيسيطران. وماشعر به الآن بدا غريباً بعض الشيء بالنسبة لتوأم - الاحساس بالتفكك والعزلة الكظيمة التي أودت بشهيته ونومه وصوته. ومنذ شهر تموز أصبح لديه انطباع أنَّ الناس يتكلمون بصوت خافت أو يصرخون من مكان بعيد جداً. كانت سوان تراقبه، لكنها، رافئةً به، لم تندفع في محادثة خطيرة. أدركت بأنها لو فعلت ذلك، فإنَّ ماسيقوله سينتزع الحياة من حياتهما. قد يخبر زوجته بأنَّ خضرة الربيع قد استنزفت، وفيما عدا هذه الخسارة، فإنَّها جميلة أكثر من أي امرأة يظن أنها جميلة، وأنَّ شعرها المتمرد يحيط بوجه ذي ملامح حادة لدرجة أنه شعر بالرغبة في لمسه، وأنها عندما تكلمت، ابتسامتها جعلت الشمس تبدو بلهاء. وربما يقول لزوجته بأنه ظن في بداية الأمر أنها قد تكلمت معه: - «لقد عدت» - ولكنه يعرف الآن أنَّ الحال ليس هكذا. وأنه رغب على الفور معرفة ما الذي رأيته، ولكنَّ ستيوارد الذي لم ير شيئاً أو رأى كل شيء، أوقفهما خوفاً من أن يعرفا عالماً آخر.

وفي وقت مبكر من ذلك الصباح من شهر أيلول استحمَّ وارتدى

ملابسه بعناية، ولكن لم تطاوعه نفسه على تغطية قدميه. قلب جواربه الداكنة وحذاءه الأسود اللصاع خلال برهة طويلة، ثم وضعهما جانباً.

قرع الباب، ورفع قبعته عندما فتح الباب الرجل الأكثر شبهاً: «يجب أن أتحدث إليك أيها المحترم».

«ادخل».

لم يسبق له ديكور مورغان أن استشار أحداً أو وثق بأي رجل . كانت كل حواراته الحميمة بلا كلمات مع أخيه ومُتوَعِدَة مع رفاقه الذكور. كان يتكلم مع زوجته بطريقة مبهمّة يعتقد أنها لائقة. ولم يطلب منه أحد أن يترجم القضية الخام التي عرضها على المحترم ميسنر إلى خطاب. راحت كلماته تخرج كالحقائب الحديدية التي ينتزعها الحداد المتدرب من النار، حارقة، مشوهة، لاتشبه بعضها إلا بتأججها، تحدث عن جدار أبيض تحت شمس الأصيل في «راقينيا» في إيطاليا، وعلى جوانبه ظلال بلون النبيذ. وعن طفلين يجلسان على شاطئ، قدما له محارة على شكل S - كم بدا وجههما مفتوحين، وكم كان رنين الأجراس مدوياً. وعن الماء المالح الذي كان يحرق له وجهه على سفينة حربية. وعن فتيات ملونات بالبنتال، أشرن لهما من باب معمل للتعليب. ثم تحدث عن جدّه الذي مشى حافي القدمين مسافة مئتي ميل، بدلاً من أن يرقص.

كان ريتشارد يصغي إليه بانتباه شديد ولم يقاطعه سوى مرة واحدة لكي يقدم له ماءً بارداً. ورغم أنه لم يفهم عمّ يتحدث ديكور فإنه استطاع أن يرى أن حياة هذا الرجل لا تطاق. ثم أخذ ديكور يتحدث عن امرأة حظي بها، وكيف أنه ازدها لأن أساليبها المنحلة والسهلة أعطته الحرية بأن يهجرها ويحتقرها. وأنه بينما كان فريسةً للزنى، أثناء فترة قصيرة (قصيرة جداً) فإن تبكيت ضميره الطويل الأمد يأتي من كونه أصبح مايلعنه الآباء القدامى، النوع من الرجال الذي يُنصب نفسه قاضياً، يطرد بل ويدمر أولئك المختلفين عنه والمغلوبين على أمرهم والذين يعانون من الفاقة.

سأله ريتشارد: «من هي تلك المرأة؟».

لم يجبه ديكون. أدخل إصبعه في ياقة قميصه، ثم بدأ قصة أخرى. على ما يبدو، كان جدّه زكريا هدفاً لشتائم شخصية ولمقالات صحفية تصف أعماله السيئة في منصبه. كان يشكل أداة مضايقة وإزعاجاً بالنسبة للسود وأداة تهديد وسخرية بالنسبة للبيض. ولم يشأ أحد أن يساعده على إيجاد عمل آخر، لا البيض ولا السود. حتى أنهم رفضوا إعطائه وظيفة معلم في مدرسة ابتدائية بائسة في الريف. والزنوج الذين كانوا في وضع يستطيعون فيه مساعدته كانوا قليلي العدد: (أزمة 73 كانت قاسية)، ولكنهم اعتبروا تمسك زكريا بكرامته نوعاً من البرود وكلامه المتكلف عجرفة، أو سخرية، وربما كليهما معاً. وفقدت الأسرة بيتها الجميل وذهب التسعة ليعيشوا مع أسرة إحدى أخواته. وجدت زوجته ميندي عملاً بالخياطة في المنزل، واشتغل الأولاد ببعض الأعمال الصغيرة. وقليل من الناس عرفوا وقليل منهم تذكروا أنه كان لزكريا أخ توأم، وقبل أن يغيّر اسمه كان اسمهما: «كوفي وتي»^(٥) وعندما حصل كوفي على مقعده في مجلس الولاية، بدا تي مسروراً كالجميع. وعندما طرد أخوه، شعر هو أيضاً بالإهانة والتحدي. وذات يوم، بعد سنوات، كان يمر هو وأخوه التوأم أمام إحدى الحانات، فضحك بعض الرجال البيض من وجههما المزدوج، استحثّوهما على الرقص. وعندما أصبح التشجيع بالمسدّس، انصاع تي بحق للبيض وإن كان رجلاً راشداً وأكبر سنّاً منهم. أمّا كوفي فقد تلقى رصاصة في قدمه. ومنذ تلك اللحظة ما عادا أخوين. فبدأ كوفي يخطط لحياة جديدة في مكان آخر، اتّصل برجال آخرين ومشّرعين آخرين سابقين من الذين صادفهم سوء الحظ مثله - جوفينال دوبريس ودروم بلاكهورس. فشكل الثلاثة نواة الآباء القدامى. ولا جدوى من القول بأنّ كوفي لم يطلب من تي أن ينضم إليهم في رحلتهم إلى أوكلاهوما.

قال ديكون مورغان: «كنت دائماً أفكر أن كوفي - بيبغ بابا - قد

(٥) القهوة والشاي.

أخطأ، أخطأ بما فعله بأخيه. فعلى أية حال، كان تي أخاه التوأم. أنا أقل ثقة الآن. وأظن أن كوفي كان مصيباً لأنه رأى لدى تي شيئاً ليس فقط مراعاة تصرف بعض الشبان البيض السكارى وحسب، رأى شيئاً أخجله. الأسلوب الذي يقدّر به أخوه الأمور، الخيارات التي يقوم بها عندما يجابه تلك الأمور. لم يتحملة كوفي. ليس لأنه خجل من توأمه، بل لأن العار كان في داخله. وكان يخيفه. ولذلك رحل ولم يوجّه بعد ذلك الكلام إلى أخيه أبداً. حتى ولا كلمة. أتعرف ما أعني؟»

قال ريتشارد: «لا بد أن في ذلك قسوة شديدة».

«أقول إنه لم يوجّه له كلمة واحدة أبداً، ولم يدع أحداً يلفظ اسمه».

قال ريتشارد: «نقص في الكلام، نقص في الصفع. ونقص في المحبة. وفقدان أخ أمر صعب. أما اختيار فقدانه، حسناً، فهو أسوأ من العار الأصلي، أليس كذلك؟».

نظر ديكون إلى قدميه برهة طويلة. وظل ريتشارد هادئاً معه بجانبه. أخيراً رفع رأسه وقال:

«أمامي طريق طويل يجب أن أقطعه، أيها المحترم».

قال ريتشارد ميسنر «ستقطعه، ليس هناك أدنى شك».

كان ريتشارد وآنا يشكان باختفاء الضحايا الجماعي المناسب، وما أن عادا حتى ذهبا ليريا كل شيء بنفسيهما. وفيما عدا مهد أبيض، في إحدى الغرف التي غلقت على بابها كلمة «ديفاين» وبعض الطعام، لم يكن هناك شيء يدل على أن أحداً قد عاش منذ وقت قريب في المكان. كانت الدجاجات تتسكع هنا وهناك، وقد التهمت الحيوانات الشاردة ذوات الأربع نصفها. شتلات

الفليفة بدت مزهرة، لكنّ بقية الحديقة صارت مهملة. وبدا حقل الذرة الصفراء العائد إلى سارجنت كأنه اللمسة البشرية الوحيدة. نظر ريتشارد بالكاد إلى أرض القبو. ولكنّ آنّا تفكّصتها بالدقة التي أتاحها لها مصباحها ورأت الأشياء المخيفة التي وصفها «K.D.»، ولكنها ليست بالإباحية التي رآها، ولاخريشات الشيطان. لقد رأت بدلاً من ذلك، اضطراب نساء وهنّ يحاولن السيطرة على الوحوش التي تستعبدن متجنّبات أن تدوسهن تلك الأقدام.

غادرا المنزل ووقفا في الباحة.

قالت له آنّا: «اسمع، واحدة منهن لم تمت أو ربما أكثر من واحدة. إن أحداً لم يتحقق بنظرة - لقد افترضوا ذلك وحسب. ثم، بين الزمن الذي انصرف فيه الناس ووصول روجر، هربن من هناك مسرعات. وأخذن معهن اللواتي متن. الأمر بمنتهى البساطة، أليس صحيحاً؟»

قال ميسز: «صحيح».

ولكنه لم يبدُ مقتنعاً.

«لقد مضى على ذلك عدة أسابيع الآن، ولم يأتِ أحدٌ إلى هنا ليلقي أيّ سؤال. فلابدّ أنهم لم يبلغن عن الموضوع، فلماذا علينا أن نفعل ذلك؟»

«لمن الطفل الذي كان هناك؟ فالمهد جديد».

«لأدري، ولكنه بالتأكيد ليس طفل آرنيث».

وكرّر قوله: «صحيح» ونبرة الشك نفسها في صوته، ثم أضاف: «أنا لأحب الأشياء الغامضة».

«أنت قسّ. إيمان حياتك كلها سرغامض».

«الإيمان سر غامض، الاعتقاد سر غامض. لكنّ الله ليس سرّاً غامضاً. أمّا نحن، فنعم».

قالت كما لو أنَّ الأمر زاد عمّا ينبغي: «أوه، ريتشارد».

كان قد طلب منها الزواج: «هل تتزوجيني يا أنا؟».

«أوه، لأدري».

«لم لا؟».

«نارك لازعة بشدة».

«ليس عندما يكون الأمر هاماً».

لم تتوقع أبداً أن تكون سعيدة إلى هذه الدرجة وعائدة إلى روبي، بدلاً من الإعلان عن الحدث الكبير، نظماً ما يبدو كأنه الانهيار الكامل لمدينة.

«هل نأخذ قراح الدجاج؟ سوف تؤكل، على أية حال».

أجابها: «إذا أردت».

«لا، لأريد. سأرى فقط إذا كان هناك بيض». دخلت أنا إلى القنّ مجعدة أنفها ومشّت على سماكة نصف بوصة من فضلات الدجاج. طردت اثنتين من الدجاجات لتحصل على البيضات الخمس التي اعتقدت أنها طازجة على الأغلب، دون شك. عندما خرجت ويدها مالتان نادى: «ريتشارد؟ أمك شيء أضع فيه البيضات؟». عند مدخل الحديقة كان هناك كرسي أحمر باهت، انقلب على جنبه. وما وراء ذلك التبرعم والموت. بعض شتلات البندورة اليابسة، ونباتات صغيرة خضراء بُذرت من تلقاء نفسها وعليها أزهار ذهبية، وبعض زهور الختمية الوردية الطويلة السيقان، لدرجة أن رؤوسها قد انحنت على خط من براعم القرع اللامعة. وأوراق الجزر الشبيهة بالدانتيلا، داكنة وجافة وبلا حياة بجانب قصبات البصل الخضراء المنتصبة. بعض البطيخات أبدت نضجها كاشفة عن لثة مليئة بالعصير الأحمر. تنهّدت أنا حيال هذا الخليط من الإهمال والنمو الذي لا يمكن ترويضه، وهي تحمل بيديها البيضات الخمس السمراء التي ماتزال دافئة.

اقترب ريتشارد: «هل هذا كبير بما يكفي؟» وبسط منديله.

«ربما. هاك، أمسكها، بينما أذهب لأرى إذا كانت نباتات الفليفلة قد أثمرت».

أجابها: «لا، سأذهب أنا». وطوى زوايا المنديل على البيضات.

لقد رأيا ذلك عندما عاد، وكانا واقفين قرب الكرسي، هي تؤرجح البيضات السمر في المنديل الأبيض، وبينما تبدو أصابعه كأنها تضاعفت بسبب قرون الفليفلة الطويلة - الخضراء، الحمراء والسوداء - أو بالأحرى شعرا به، لأنه لم يكن هناك شيء يُرى. قالت فيما بعد، إنه باب. فقال وهو يضحك: «لا، إنها نافذة. هذا هو الفرق بيننا: أنتِ رأيت باباً، أما أنا فرأيت نافذة».

ضحكت أنا هي أيضاً. تَوَسَّعا في الموضوع: ماذا يعني باب؟ نافذة؟ ركزا اهتمامهما على الإشارة أكثر منه على الحدث. وأثارتهما الدعوة وليس الحفلة، كانا يعرفان أنه كان هناك. ويعرفانه جيداً لدرجة أنهما ظلّا منذهلين لبرهة طويلة، قبل أن يتراجعا ويركضا نحو السيارة. وضعوا البيض والفليفلة على المقعد الخلفي. رفع هواء المكيف ياقة أنا. ضحكا قليلاً بينما كانت السيارة منطلقة بهما، وتبادلا بعض الإهانات اللطيفة لمعرفة من هو المتشائم ومن هو المتفائل. من الذي رأى باباً يغلق، ومن الذي رأى نافذة تُفتح. أي شيء ليجنبا الإحساس بالارتعاش نفسها، أو يقولا بصوت عالٍ ما كانا يتساءلان عنه. ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنهما اجتازا باباً كان بحاجة لأن يفتح، أو نافذة سبق أن فتحت وأخذت تعطي إشارة؟ ماذا يمكن أن يكون هناك في الجانب الآخر؟ ماذا يمكن أن يكون ذلك؟ ماذا يمكن أن يكون؟

كان المحترم ميسنر يسترعي انتباه الجميع ولم يكن قد بقي لديه سوى بضع كلمات يقولها. راح يركز نظره على الرجال المذنبين الذين اصطف سبعة منهم بعيداً على ما يبدو عن بقية الجماعة بنوع

من الغريزة البدائية لحب البقاء، سارجنت، هاربر، مينوس، أرنولد، جف، «K.D.»، ستيوارد. ويزدوم كان الأقرب إلى أسرته. وديكون لم يكن هناك أبداً. ليس لدى ريتشارد أفكار حسنة عن هؤلاء الرجال. سواء كانوا الأولين أو الآخرين. سواء كانوا يمثلون أَقْدَمَ العائلات السوداء أو أحدثها، أفضل ما في التقاليد أو أكثرها إثارة للأسى، فقد أدى بهم الأمر أخيراً إلى خيانة كل شيء. يظنون أنهم أكثر خبثاً من الرجل الأبيض بينما هم في الحقيقة يقلّدونه. ويعتقدون أنهم يحمون نساءهم وأطفالهم، في حين أنهم في الحقيقة يشوهونهم. وعندما يطلب الأولاد المشوهون الغوث، يسعون إلى مكان آخر بحثاً عن السبب. فقد ولدوا من خلال حقد قديم، حقد بدأ عندما احتقر نوع من الرجال السود نوعاً آخر، وعندما نقل هذا النوع الكراهية إلى مستوى آخر، حولت أناثيتهم منّي عام من الآلام والانتصارات إلى لحظة من العنجهية والخطأ والتصلب، إلى حدّ يجمد العقل. بدت له روبي التي لا تخفيها الكتب المقدسة والتي يصمّ أنبيها صخب تاريخها الخاص، إخفاقاً لاجدوى منه. كم كانت أمنية السعادة الدائمة إنسانية على نحو رائع، وكم أصبحت المخيلة الإنسانية هزيلة وهي تحاول تحقيق ذلك. وقريباً ستصبح روبي كأيّة قرية ريفية: الشبان يفكرون في مكان آخر، والعجائز يملوهم الندم. والمواظ ستكون بليغة، ولكن شيئاً فشيئاً سيتناقص عدد الناس الذين يولونها اهتمامهم أو الذين يجدون فيها صلة بالحياة اليومية. وتساءل: كيف يمكنهم المحافظة على كل ذلك معاً، على هذا الفردوس الذي تمّ الحصول عليه بمشقة كبيرة والذي يتّصف فقط بغياب المدانين وعديمي الجدارة والغرباء؟ من الذي سيحميهم من قادتهم؟

أدرك ريتشارد ميسنر فجأة أنه سيبقى. ليس لأنّنا تريد ذلك وحسب، ولا لأنّ ديك مورغان أتى لمقابلته من أجل نوع من الاعتراف، بل لأنه ليس هناك معركة أفضل من هذه ليخوضها، ولا مكان أحسن من هذا يوجد فيه إلّا وسط هؤلاء الناس الذين يتصفون بالجمال على نحو قاضح، الناس القاصرين والمزهوين.

وبالإضافة إلى ذلك ربما كان حدوث الموت أمراً جديداً بالنسبة إليهم، أما الولادة فلا. فالمستقبل ينتظر لاهثاً أمام الباب. وروجر سيحصل على محطة محروقاته، وستقام الوصلة بين الطريقتين. ولن ينقطع الغرباء عن الذهاب والإياب، ولا بد أن بعضهم يرغبون بالحصول على سندويش وعلبة بييرة عيار 3,2. إذن، فمن يدري، ربما يكون هناك مطعم. وسيكون «K.D.» وستيوارد مستعدين للحديث عن إحضار جهاز تلفزيون. ولم يكن من الملائم الابتسام خلال عملية دفن، ولذلك تصوّر ميسز الفتاة الصغيرة التي سمح له ذات مرة أن يمسك يديها المشوهتين، مما ساعده على استعادة سلسلة أفكاره. والأسئلة التي طرحها بدلاً عن المشاركين في الحداد كانت تحتاج إلى إجابة.

«هل لي أن أشير إلى أنها ليست الأسئلة الهامة. أو بالأحرى إنها أسئلة الأكم وليس الذكاء. وبما أن الله هو الذكاء نفسه والكرم ذاته، فقد وهبنا العقل لكي نعرف لطافته. ونعرف أناقته ونقاءه. ولكي نعرف أن ما يبذر لا يحيا قبل أن يموت».

اشتدت الرياح قليلاً ولكن ليس إلى الحد الذي يزعج الحاضرين. كان ميسز يفقدهم، إذ وقفوا أمام القبر المفتوح، منغلقيين أمام كل شيء عدا تأملاتهم الخاصة. وامتزجت أفكارهم المأتمية بخططهم لعيد الشكر وتقييمهم لجيرانهم وثرثرات الحياة اليومية. منع ميسز نفسه من التنهّد قبل أن يختم ملاحظاته بالصلاة. ولكنه عندما أحنى رأسه وحقق في غطاء النعش رأى النافذة في الحديقة، وشعر أنها تشير إلى مكان آخر - ليس الحياة ولا الموت - لكن إلى هناك، هناك تماماً، مجسدة أفكاراً لا يعرف أنها لديه.

«انتظروا. انتظروا». كان يصرخ: «أنظنّون أنها كانت حياة قصيرة، مثيرة للشفقة، لاقيمة لها لأنها لم تتواز مع حياتكم؟ دعوني أقل لكم شيئاً: الحب الذي حظيت به كان واسعاً وعميقاً، والاهتمام الذي أحيطت به كان لطيفاً لا يعتريه الملل، وذلك الحب وهذا الاهتمام قد غمراها لدرجة أن أحلامها ورؤاها، والرحلات التي قامت بها جعلت حياتها مرغمة، غنية، وثمانية كاية حياة من حيواتنا، وبدون

شك أكثر بركة. ومصيبتنا هي عدم معرفتنا خلال حياتنا الطويلة ما عرفته في كل يوم من حياتها القصيرة جداً؛ ورغم أن الحياة في الحياة محدودة والحياة بعد الحياة أبدية، فإن الله معنا على الدوام، في الحياة وبعد الحياة وبخاصة بين الاثنين، وهو ينتظر أن نعرف الروعة». توقّف وقد اعتراه الاضطراب بسبب محتوى وشكل ما قاله للتو، ثم وكأنه يعتذر من الفتاة الصغيرة، تحدث إليها مباشرة بلطف:

«آوه، يا سيف - ماري لقد ظلّ اسمك يشبه على الدوام عبارة «نَجْنِي». «نَجْنِي». فهل يوجد رسائل أخرى مخبأة في اسمك؟ أنا أعرف واحدة منها تسطع لكي تُرى: لم يكن هناك أبداً أيّ وقت لم تكوني فيه مخلصّة يا مريم. آمين».

كانت كلماته تخرجه قليلاً، ولكن في ذلك اليوم لم يكن هناك من شيء أوضح.

مشّت بيلي ديليا ببطء مبتعدة عن المشاركين في موكب الدفن. لقد وقفت مع أمها وجدّها وابتسمت مشجعة أرنيّت ولكنها الآن ترغب في البقاء وحدها. كانت تلك أول عملية دفن تشهدها، وفكرت فيها من خلال كم كان مكلفاً لجدها حتى أصبحت مهاراته مطلوبة. ولكنها كانت تفكر بشكل خاص بغياب النساء اللواتي أحبّتهنّ. لقد عاملنها بشكل طيب جداً، دون إرباكها بتعاطفهنّ، ولم يبدن لها سوى اللطف الدافئ. فقد تفحصنّ وجهها المليء بالكدمات وعينيهما المتورمتين، وشرّحن الخيار لوضعه على جفنيها، بعد أن قدّمن لها كأساً من النبيذ لتشربه. لم تلح أيّ منهنّ أن تعرف ما الذي قادها إلى هناك، لكنها تستطيع أن تتحدّث لهنّ عن ذلك وكنّ سيفغين لها إذا أرادت. كانت المدعوّة مافيس ألطفهنّ، أما أُمرحهن فتدعى جيجي. ربما بيلي ديليا هي الوحيدة في كل المدينة التي لم يربكها السؤال عن مكان وجود النساء وغير معنية بكيفية اختفائهنّ. ولكن كان

لديها سؤال آخر: متى سيرجعن؟ متى سيظهرن ثانيةً بعيونهن المتقدة وطلاء الحرب، وبأيديهن الهائلة ليمزقن ويهدمن هذا السجن الذي يطلق على نفسه اسم مدينة؟ مدينة حاولت أن تدمر جدها، ونجحت في ابتلاع أمها، وحطمتها هي تقريباً. مكان مجهول ومتخلف يحكمه رجال تخرج قدرتهم على السيطرة عن نطاق أية سيطرة، ولديهم الوقاحة الكافية ليقرروا من يستطيع أن يعيش ومن لا يستطيع وأين، والذين رأوا في تلك الإناث الحيويات، الحرات، والعزلاوات، تمرد المهرات، فتخلصوا منهن. راحت تتمنى من كل قلبها أن تكون النساء بعيدات عن ذلك، لامعات بذكرتهن، ينتظرن ساعتهم، يلعلن أظافرهن ويشحذن أنيابهن - ولكن بعيداً عن ذلك. أي أنها كانت تأمل حدوث معجزة. وهي أمنية ليست غير معقولة إلى حد كبير، لأن معجزة صغيرة قد حدثت للتو: فقد تصالح برود وأبولو واتفقا على انتظارها إلى أن تقر. وهي تعرف مثلها أنها لن تستطيع أن تفعل ذلك أبداً وأن هذا الثلاثي سينتهي فقط مع نهايتهم. ستقهقه نساء الدير على هذا، حتى أنها تستطيع رؤية أسنانهن المذبذبة.

تطلب إرجاء تنفيذ حكم الإعدام، عدّة سنوات، لكنه جاء أخيراً. وكان يمكن لمانلي جيبسون أن يموت في إحدى الزنزانات مع آخرين مثله، وليس مربوطاً إلى كرسي لا ينظر إليه أحد من أقربائه. كان ذلك أمراً جيداً. أمراً عظيماً. فقد حصل على الإذن بالخروج وأصبح الآن أحد أفراد الفريق الذي يعمل على طريق البحيرة. والبحيرة كانت شديدة الزرقة. ووجبة غداء «كنتاكي فرايد تشيكن» شهية جداً. وربما استطاع الهرب. ولكنّ هذه نكته، محكوم بالسجن المؤبد، وهو في الثانية والخمسين ويهرب. ليذهب إلى أين؟ ليلتقي بمن؟ إنه في السجن منذ العام 1961 ، وقد ترك وراءه بنتاً في الحادية عشرة من العمر، لم تعد تكتب له، وفي الصورة الوحيدة لها التي في حوزته، كان عمرها ثلاثة عشر عاماً.

كانت فترة الغداء خاصة. وهم يجلسون على ضفة البحيرة، يراهم الحراس جيداً ولكن بجانب الماء على أية حال. جفّف مانلي يديه بالمناديل الورقية الصغيرة. وإلى يساره قرب مجموعة من الأشجار، مدت امرأة شابة غطاءين على العشب ووضعت جهاز راديو بين الاثنين. التفت مانلي ليري كيف يكون ردّ الفعل لدى الفريق: امرأة مدنيّة وسطهم تماماً. أخذ الحراس المسلّحون يذرعون الطريق فوقهم. لم يعط أي منهم إشارة تدل على أنهم رأوها.

أدارت الراديو ونهضت، كاشفة عن وجه كان سيعرفه في أي مكان. وما كان في كل الأحوال قادراً على ضبط نفسه، همس: «جيجي!».

نظرت الفتاة ناحيته. حاول مانلي أن يتمالك نفسه ومشى الهوينى نحو الأشجار، وهو يأمل أن يظنّ الحراس أنه ذاهب ليتبول.

«هل أنا على صواب؟ أهذه أنت؟».

«دادى مان؟» أخيراً بدت مسرورة برؤيته.

«أهذه أنت! اللعنة... كنت أعرف ذلك! وماذا تفعلين هنا؟ أكنت تعرفين أنني حصلت على إرجاء تنفيذ الحكم؟».

«لا، لم أعرف شيئاً عن ذلك أبداً».

«حسناً، انظري هنا، أنا لم يطلق سراحي، أو أي شيء، ولكني لم أعد على الدور». التفت مانلي ليرى إذا كان الآخرون قد لاحظاهما. وهمس: «فليبق صوتك منخفضاً». «إذن ماذا تفعلين هنا؟» وللمرة الأولى لاحظ ملابسها: «هل أنت في الجيش؟».

ابتسمت جيجي: «نوعاً ما».

«نوعاً ما؟ تعنين أنك انضمت إليه؟».

«أوه، دادى مان، يمكن لأي كان شراء هذه الملابس». وضحكت جيجي.

«أعطني عنوانك يا حبيبتي. أريد أن أكتب لك لأخبرك عن كل شيء. هل سمعت شيئاً عن أمك؟ أمايزال والدها على قيد الحياة؟». كان يبدو في عجلة من أمره، قصفارة الغداء قد تنطلق بين لحظة وأخرى.

رفعت جيجي قبعتها وأعادتها: «ليس لي عنوان بعد».

«لا؟ حسناً، اكتب لي، أتوافقين؟: بوساطة رقابة السجن، سأضع اسمك على اللائحة غداً. يمكنني استقبال اثنتين في الشهر....».

صفرت الصافرة. كرّر مانلي: «اثنتان»، ثم أضاف: «أخبريني، أما زالت لديك تلك الميدالية التي أعطيتكِ إياها؟».

«نعم».

«أوه، يا حبيبتي، أوه يا حبيبتي، يا ابنتي الصغيرة». ومدّ يده لكي يلمسها ولكنه توقف عن ذلك وقال: «يجب أن أذهب. وإلا فإنهم سيعطونني علامة سلوك سيئة. بوساطة رقابة السجن، هل سمعت، ستذكرين ذلك؟ رسالتان في الشهر». تراجع دون أن يكفّ عن النظر إليها. «هل ستصلني أخبارك، أليس كذلك؟».

أصلحت جي جي وضع قبعتهما: «ستصلك يا دادي مان، ستصلك». وفيما بعد، بينما كان مانلي جالساً في الباص، استعرض بالتفصيل كل مارآه من ابنته، قبعتهما العسكرية وبنطال السخرة بألوانه المموّهة. حذاؤها العسكري الثقيل، الـ «تي شيرت» الأسود. والآن، وهو يفكر بذلك، كان يمكن أن يقسم أنها تنصرف الآن. نظر نحو البحيرة التي بدت داكنة تحت أشعة الشمس التي مالت للمغيب، ولكنها كانت أكثر جمالاً.

خلعت جي جي ملابسها. الليالي تجعل البحيرة باردة، والشمس تجد صعوبة أكثر فأكثر لتدفئتها في اليوم التالي. في هذا الجزء من البحيرة يمكن للمرء أن يسبح عارياً دون أية مشاكل. كانت هذه بحيرة البلدة: مياه خضراء تشويها زرقاء، أشجار منتصبة و - الأماكن التي لا تصلها المراكب ولا الصيادون - عزلة يتمناها الملوك. تناولت منشفة وجففت شعرها. لقد نما أقل من نصف بوصة، لكنها كانت تحب الطريقة التي تموّجه بها الريح، الماء،

أصابع اليدين أو القدمين. فتحت زجاجة من مستحضر الصبر وأخذت تفرك بها بشرتها. ثم عدلت المنشفة قريبا وألقت نظرة على البحيرة، حيث كان رفيقها قادماً للتو.

اللوحة الخامسة عشرة كانت كالأولى، بحاجة إلى المزيد. وحين بذلت يدي جهدها لتتذكر شكل الذقن أحبطت في محاولتها الأولى، ولكنها عندما قررت تجاوز خط الفك والاكتفاء بتظليل القسم الأسفل من وجه ابنتها، لاحظت خطأ في رسم العينين. كانتا أفضل في اللوحة الخامسة عشرة، لكن شيئاً ما بقي ناقصاً. كان الرأس جميلاً ولكن الجسم يبدو بارداً لاثير الاهتمام، وبحاجة لشكل آخر - عند الورك أو عند المرفق. ولأنها لم يسبق لها أن عانت أبداً من دافع غير حسي، فقد حيرتها تلك الطاقة التي شعرت أنها قادرة على اغترافها من نفسها حين تشاء من أجل تجديد رسم القامة بكاملها أو أن تبدأ من جديد. ظلت العينان تتهمانها. أخطأت في تحديد لون البشرة، وبدأ الشعر مثل القبعة تماماً.

جلست دي دي على الأرض، وتفحصت العمل الذي أنجزته وهي تذكّر مقبض الفرشاة بين أصابعها. نهضت وهي ترسل زفرة طويلة وزهبت إلى الردهة. رأتها في اللحظة التي تناولت فيها أول جرعة من شراب الـ مرغريتا وهي تجتاز الباحة، وقد ربطت على صدرها كيساً أو شيئاً من هذا النوع. ولكن لم يكن قد بقي على رأسها شعر، لوجود الشعر أبداً، ورأس طفل وليد ملتصق بها تحت ذقنها تماماً. اقتربت أكثر فلمحت دي دي ساقين ممثنتين، مستديرتين ككعكة «الدونات» تخرجان من ذلك الشيء الذي يشبه الكيس المعلق على صدر الأم. وضعت كأس المرغريتا وضغطت وجهها على زجاج النافذة. لامجال للخطأ: إنها بالاس. إحدى يديها أسفل الكيس، وفي الأخرى سيف. سيف؟ وعلى وجه بالاس بدت ابتسامة مشرقة. أما فستانها ذو اللونين الوردي والعنبري، فكان يلتف حول كاحليها عند كل خطوة. أشارت لها دي دي بيدها

وصاحت باسمها. أو أنها حاولت ذلك. وبينما هي تفكر بـ «بالاس»، وتصوغ الاسم في ذهنها، خرج اللفظ من فمها مختلفاً، شيئاً يشبه: «urg» و«neh, neh». شيء ما غير صحيح في لسانها. بالاس تسير بسرعة ولكنها لا تتوجه نحو باب الدخول. دارت حول المنزل. ركضت دي دي وقد استولى عليها الذعر إلى المرسى، تناولت اللوحة الخامسة عشرة وانطلقت إلى باحة الدار، رفعتها في الهواء وأخذت تصرخ: «urg, urg, neh». التفتت بالاس. ضيقت عينيها وتوقفت كما لو أنها تحاول معرفة مصدر الصوت، وعندما لم تتوصل إلى ذلك، تابعت طريقها. تجمّدت دي دي في مكانها ظانّة أنها ربما كانت فتاة أخرى. ولكن سواء كانت بشعر أو بلا شعر، فلنّ الوجه هو وجهها بالتأكيد، أليس كذلك؟ فهي تعرف بالطبع وجه ابنتها أكثر من أي شخص، كمعرفتها وجهها، أليس كذلك؟

رأت دي دي بالاس مرة أخرى. كانت بالاس في غرفة الضيوف (حيث اعتاد كارلوس، الذي يضاجع أمها، أن ينام)، تبحث تحت السرير. بينما دي دي تنظر إليها، دون أن تجرؤ على الكلام خوفاً من ألا يخرج من فمها سوى القرقرة. نهضت بالاس وهي ترسل غمغمة تنمّ عن الرضا، وتناولت زوجاً من الأحذية كانت قد تركته هناك في زيارتها الأولى والأخيرة. صندل، لكنه غال جداً، لأنه مصنوع من الجلد الطبيعي وليس من البلاستيك أو ليف الحبال. لم تلتفت بالاس بل انصرفت مارةً بالأبواب الزجاجية المتحركة. لحقت بها دي دي ورأتها تصعد إلى سيارة عتيقة متوقفة جانب الطريق. كان في السيارة أشخاص آخرون، والوقت عند غروب الشمس فلم تستطع دي دي أن تتبين الأشخاص لتعرف إن كانوا رجالاً أم نساء. وانطلقت بهم السيارة في لون فوق بنفسي إلى درجة جعلتها تشعر بأن قلبها قد تحطم.

سالي أولبرايت التي كانت تسير نحو الشمال، باتجاه كالوميت توقفت فجأة أمام واجهة لنزل «جني كانتري إن». كانت متأكدة، شبه

متأكدة بأن المرأة الجالسة بمفردها على إحدى الموائد المخصصة لأربعة هي أمها. اقتربت سالي لتتنظر تحت قبعة القش التي تضعها المرأة على رأسها. لم تستطع رؤية الوجه جيداً، ولكن الأظافر، اليدين اللتين تتناولان الطعام، كانت لها دون جدال. دخلت إلى المطعم. قالت لها السيدة الجالسة جانب الصندوق: «هل أستطيع مساعدتك؟» فهي الآن وكل مرة تدخل فيها مكاناً، يتوقف الناس بسبب لون شعرها. ردت على السيدة قائلة: «لا، إني أبحث... أوه، هاهي هنا». تظاهرت بالثقة بنفسها، واتجهت بهدوء نحو مائدة الأربعة. فلو أنها مخطئة، يمكنها أن تقول: «عذراً، كنت أعتقد أنك شخص آخر». جلست على كرسي، وتأملت بانتباه شديد وجه المرأة.

«أمي؟»

رفعت مافيس نظرها، وقالت وهي تبتسم: «أوه، يا إلهي، انظري إلى نفسك!».

«لم أكن متأكدة، القبعة وكل هذا، ولكن يا إلهي، هذه أنت». ضحكت مافيس.

«إيه، حسناً، كنت أعرف ذلك. يا إلهي، أمي. لقد انقضت... سنون!».

«أعرف، هل أكلت؟».

«نعم. لقد انتهيت الآن بالضبط. لدي فرصة من أجل الغداء. وأنا أشغل في...».

رفعت النادلة دفتر الطلبات: «هل اخترتما ما تريدان؟».

أجابت مافيس:

«نعم، عصير برتقال، جريش مزدوج مع بيضتين مقليتين فوق الوسط».

سألتها النادلة:

«لحم خنزير مقدد؟».

«لا، شكراً».

«لدينا نقائق طيبة جداً، متصلة ببعضها أو منفصلة».

«لا، شكرًا. وهل تقدمون الصلصة مع البسكويت؟».

«بالتأكيد، أتريدنها مسكوبة فوقه أم موضوعة إلى جانبه؟».

«إلى جانبه من فضلك».

«بالتأكيد». وقالت مخاطبةً سالي «وأنت؟».

«قهوة فقط».

«قالت مافيس: «أوه، هيّا، اطلبي شيئًا. على حسابي».

«لا أريد شيئًا».

«هل أنت متأكدة؟».

«نعم، أنا متأكدة».

انصرفت النادلة. صحت مافيس وضع الأغطية الصغيرة فوق المائدة وصحنها، ثم قالت: «هذا هو ما أحبه هنا، إنهم يتركون لك حرية الاختيار. الصلصة فوق البسكويت أم إلى جانبه، أرايت؟».

«أمي! لا أريد التحدّث عن الطعام!».

كان لدى سالي انطباع بأنّ أمها تتهرّب، متظاهرة بأنّ لقاءهما ليس له أهمية.

«حسنًا، دائماً لم يكن لديك شهية قوية للطعام».

«أين كنت؟».

«حسنًا، لم أكن أستطيع العودة، أليس كذلك؟».

«تعنين تلك القصة المتعلقة بمذكّرة التوقيف؟».

«أعني كل شيء. ماذا عنك، هل أنت بخير؟».

«إجمالاً. فرانكي بخير. يحصل على أفضل العلامات في كل دروسه. ولكنّ الأمور لاتسير تماماً بهذا الشكل بالنسبة لـ بيلى جيمس».

«أوه، لماذا؟».

«إنه يتسكّع مع بعض القذرين الحقيقيين، الفظيعين».

«أوه لا».

«كان عليك أن تذهبي لتريه يأمي، وتتكلمي معه».

«سأفعل».

«ستفعلين؟».

«هل أستطيع أن أتناول غدائي أولاً؟» ضحكت مافيس وخلعت قبعتها.

«أمي. قصصت شعرك». أيضاً - ذلك الاحساس بالتهرب. «إنه جميل، لاحظي. هل يعجبك شعري؟».

«إنه جذاب».

«لا. ليس جذاباً. ظننت أنني أفضل أن يكون لي صفائر شقراء، ولكنني مللت. وربما قصصته أيضاً».

أتت النادلة ووضعت أطباق الطعام بعناية. رشت مافيس ملحاً على الجريش وحرّكت قطعة الزبدة الموضوعة فوقها. وأخذت ترشف عصير البرتقال، وقالت: «أوه، إنه طازج».

سار كل شيء دفعة واحدة، لأنها كانت تشعر بوجوب الإسراع. وإذا كان عليها أن تقول شيئاً فيجب أن تسرع. «كنت خائفة طيلة الوقت يا أمي، طيلة الوقت. حتى قبل التوأمين. ولكن عندما غادرت أصبح الحال أسوأ. لا يمكن أن تعرفي، أعني كنت أخشى أن أنام».

قدّمت لها مافيس كأس عصير البرتقال:

«تذوقي هذا، يا حبيبتي».

رشفّت سالي جرعة سريعة: «أبي كان... ياللسفالة، لأدري كيف استطعت تحمله، كان يسكر ويحاول إزعاجي يا أمي».

«أوه، ياطفلتي».

«لكنني كنت أتعارك معه. وأقول له بأنه في المرة القادمة التي يدوخ فيها، سأقطع عنقه. وكان من الممكن أن أفعل ذلك أيضاً».

قالت مافيس: «أنا آسفة، لم أكن أدري ماذا أفعل سوى ذلك.
أنت كنت على الدوام أقوى مني».
«ألم تفكري بنا أبداً؟».

«طيلة الوقت، حتى أنني رجعت لألقي نظرة عليكم جميعاً».
ابتسمت سالي: «لا، اللعنة؟ أين؟».
«إلى المدرسة على الأغلب. كنت أخاف كثيراً الاقتراب من
البيت».

«لو ذهبت إليه لما عرفته الآن. أبي تزوج من امرأة تركله على
قفاه إذا لم يسلك سلوكاً قوياً ويحافظ على الباحة نظيفة ومرتبّة.
كما أن لديها مسدساً أيضاً».

أخذت مافيس تضحك: «جيد بالنسبة لها».
«ولكنني انتقلت أنا وشيرمين ووجدنا مكاناً لنا نحن الاثنين
في أوبرن. فهي...».

«أواثق أنك لاتريدين شيئاً؟ الطعام هنا جيد حقاً
ياسال».

تناولت سالي شوكة. غرستها في صحن أمها، والتقطعت كتلة من
الجريش الدسم. عندما وصلت الشوكة إلى قمها التقت عيونهما.
أحسّت سالي بأجمل شعور عندها. كان طويلاً، عميقاً، بطيئاً
وساطعاً.

«هل ستغادرين ثانية يا أمي؟».

«يجب أن أغادر ياسال».

«وستعودين؟».

«بالتأكيد».

«ولكنك ستحاولين التحدث إلى بيلي جيمس، أليس كذلك؟
وفرانكي سيحب ذلك. أتريدين عنواني؟».

«سأتحدث إلى بيلي جيمس وسأقول لفرانكي بأنني أح

«أنا منزعة وآسفة من كل شيء يأمي، وكنت خائفة طيلة الوقت».

«وأنا أيضاً».

كانتا وافقتين في الخارج. ازدادت زحمة الغداء واختلعت بأولئك الذين يتسوقون مع أطفالهم.

«عانقيني ياطفتي».

أحاطت سالي خصر أمها بذراعيها وأجهشت بالبكاء.

قالت مافيس: «أهاهه. لاتفعلي هذا الآن».

عصرتها سالي.

قالت مافيس ضاحكة: «آخ!».

«ماذا؟».

«لاشيء. هذا الجانب يؤلمني قليلاً، هذا كل ما في الأمر».

«أنت بخير؟».

«تماماً ياسال».

«لأندري ماالذي تظنينه بي، ولكني أحببتك على الدوام، على الدوام، حتى عندما...».

«أعرف هذا ياسال. أعرفه الآن على أية حال».

دفعت مافيس خصلة شعر أسود وأصفر وراء اذن ابنتها، وقبلتها على خدها:

«اعتمدي علي ياسال».

«سأراك ثانية، أليس كذلك؟».

«وداعاً ياسال... وداعاً».

راقبت سالي أمها وهي تختفي بين الجمهور. مرّت بإصبعها

تحت أنفها، ثم وضعت يدها على خدها الذي قُبِل. هل أعطتها عنوانها؟ إلى أين ذهبت؟ هل دفعنا الحساب؟ متى دفعنا لأمانة الصندوق؟ لمست سالي جفنيها. منذ دقيقة كانتا تاكلان البسكويت، الدقيقة التي تلتها كانتا تتبادلان القُبِل في الشارع.

قبل ذلك بعدة سنوات، ذهبت لتتفقد بيت التبني، فرأت الأم - امرأة مرحة وليست غبية، ويبدو أنَّ الأطفال أحبُّوها. إذن، فالأمور على مايرام. وهذا كل شيء. رائع. يمكنها متابعة حياتها. وهذا ما فعلته حتى عام 1966 ، عندما لفتت نظرها فتيات بعيونهنَّ الكبيرة بلون الشوكولا. لابد أن سينيكا أكبر سنًّا: في الثالثة عشرة من عمرها، ولكنها تحققت من السيدة غرير لتتأكد إن كانت قد بقيت على اتصال معها.

«من أنت ثانية؟»

«ابنة عمها جين».

«حسنًا، لقد بقيت هنا فترة وجيزة فقط... بضعة أشهر، بالحقيقة».

«هل تعرفين أين...».

«لا يا حبيبتي. لا أعرف شيئاً على الإطلاق».

بعد ذلك كانت تشرّد بشكل غير متوقع في المراكز التجارية، وصفوف الانتظار أمام المسارح وفي الباصات. وفي العام 1968 كانت متأكدة أنها لمحتها في إحدى حفلات «ليتل ريتشارد» الموسيقية، لكنَّ الازدحام منعها من الذهاب لتراها عن قرب. ظلت جين متحفظة بشأن بحثها المزعج. لم يكن جاك يعرف أنها قد أنجبت في السابق (في سن الرابعة عشرة) ولم تبدأ ذلك البحث عن تلك العينين، إلَّا بعد أن تزوجا وأنجبت له طفلاً. وكان ذلك الظهور

يحدث في أوقات غير متوقعة أبداً وفي أماكن غريبة - فقد اعتقدت مرة أن الفتاة التي قفزت من مؤخرة إحدى الشاحنات هي ابنتها - وأنها عندما اصطدمت بها أخيراً، في العام 1976 ، أرادت أن تطلب سيارة الإسعاف. كان جاك وجين يجتازان موقف سيارات الملعب تحت الأنوار المبهرة. لمحا فتاة تقف أمام سيارة والدم ينزف من يديها. رأت جين الدم أولاً ثم العينين بلون الشوكولا.

صاحت بأعلى صوتها: «سينيكا!» وانطلقت نحوها. عندما اقتربت، أوقفها فتاة أخرى تحمل زجاجة بيرة وخرقة، وقد بدأت تمسح الدم.

صرخت جين ثانية من فوق رأس الفتاة الأخرى: «سينيكا؟»
«نعم».

«ماذا حدث؟ هذه أنا».

قالت الفتاة الثانية: «بعض الزجاج، لقد سقطت فوق قطع زجاج. أنا أعطني بها».

كان جاك على مسافة بضع سيارات منهن:

«جين! ألا تاتين؟ أين أنت بحق الشيطان؟».

«إنني قادمة. دقيقة واحدة، حسناً؟».

كانت الفتاة التي تمسح يدي سينيكا ترفع نظرها من وقت لآخر لتعبس في وجه جين، وسألت سينيكا: «هل بقيت قطع زجاج؟».

فركت سينيكا باطن يديها الواحدة بعد الأخرى: «لا. لا أعتقد ذلك».

«جين! سيصبح ازدحام السير كالجحيم يا حبيبتي».

«ألا تتذكريني؟».

رفعت سينيكا نظرها، جعل النور عينيها تبدوان سوداوين. «هل يفترض بي؟ من أين؟».

«في وودلاون كنا نعيش في إحدى الشقق شمال وودلاون».

هزّت سينيكاً رأسها: «كنت أعيش في بيكون قرب الملعب».
«ولكن اسمك سينيكاً أليس كذلك؟».

«نعم».

«حسناً أنا جين».

«سيدتي، والدك يناديك». عصرت الصديقة الخرقه وسكبت بقية
البيرة على يدي سينيكاً. لوحت هذه بيديها، وقالت لصديقتها:
«أوه! إنها تحرقني».

قالت جين: «يبدو أنني ارتكبت خطأ، كنت أظن أنك شخص
عرفته في وودلاون».

ابتسمت سينيكاً: «لابأس، الجميع يرتكبون الأخطاء».

قالت الصديقة: «الحال على مايرام الآن. لنظري».

نظرت سينيكاً وجين معاً. كانت يداها نظيفتين، لا أثر للدم
عليهما، بضعة خطوط فقط، ربما لن تترك أي أثر.

«عظيم!».

«هيا بنا».

«حسناً، وداعاً».

«جين!».

«وداعاً».

ضغط جاك على دواسة البنزين وهو ينظر في المرأة العاكسة،
وسأل: «من هذه؟».

«فتاة طننت إنني عرفتُها سابقاً. عندما كنت أعيش في إحدى
الشقق شمال وودلاون في المساكن الحكومية».

«أية مساكن حكومية؟».

«في وودلاون».

قال جاك: «لا توجد أية مساكن حكومية في وودلاون أبداً. لقد

كانت في بيكون وقد هُدمت اليوم، ولم تكن في وودلاون أبداً.
وبيكون ماتزال في المكان نفسه قرب الملعب القديم».

«أمتأكد أنت من ذلك؟».

«طبعاً أنا متأكد من ذلك. هل فقدت ذاكرتك يا امرأة؟».

في صمت المحيط تغنى امرأة سوداء كالبحر. وبجانبيها امرأة
أفتى منها تلقي برأسها في حضن المرأة. أصابع تالفة تنزلق في
شعر بلون الشاي الغامق. تمتزج جميع ألوان الصدفيات - الحنطي،
الوردي، واللؤلؤي - في وجه المرأة الفتية. عيناها الزمرديتان
تعبدان الوجه الأسود المحاط باللون الأزرق السماوي. وحولهما
على الشاطئ تتلألأ بقايا البحر. أغشية زجاجات مرمية، تلمع بجانب
صندل ممزق. وجهاز راديو صغير ميت يطفو بشكل هادئ.

لا شيء يعادل السلوى التي تجلبها أغنية بيداد، رغم أن الكلمات
تثير ذكريات لم تعيشها أي منهما: عن تقدم السن برفقة الأخرى وعن
أحاديث مشتركة، وتقسيم الخبز المحمص فوق النار، وعن السعادة
البسيطة بالعودة إلى الوطن ليكون المرء في بيته - إنها طمأنينة
العودة إلى حيث نشأ الحب.

عندما يصطخب المحيط ويقذف بإيقاعات الماء نحو الشاطئ،
تنظر بيداد لترى ما الذي أتى. سفينة أخرى، ربما ولكنها مختلفة،
تتجه نحو الميناء، الطاقم والمسافرون، المفقودون والناجون،
جميعهم يرتجفون لأنهم أمضوا بعض الوقت مكسوري الخاطر.
والآن، سيرتاحون قبل أن يستأنفوا العمل اللانهائي الذي خلقوا
لأدائه، هنا في الأسفل، في الفردوس.



فردوس

إنها رواية مجموعات ضاغطة لا رواية فرد بطل.
إنها رواية من هذا العصر، ولهذا العصر، الذي
يمنح الفرد «كامل» حريته، من جهة، ويسلبها منه
بما أفرز من ضغوط المجموعات، من جهة
أخرى. فشركة واحدة يمكن أن تستلب كامل هذه
الحرية الموهومة: إنه عصر التجمعات الضخمة،
أو التي تتضخم، وكلما فعلت ذلك ادعت أنها تمنح
الفرد «كامل» حريته والبيض والسود مجموعتان
ضاغطتان، من جملة المجموعات الكبرى في
العالم.

ولكن ماذا لو عالج السود حياتهم؟ إنهم يذكروننا
بتلك الأقطار التي عانت من استغلال المستعمرين
وقمعهم واضطهادهم، فلما استقلت لم تتحسن
أحوالها ولا انتظمت لها شروط الرقي، وكالعادة:
يقوم الآباء بالتأسيس والكدح لنيل الاستقلال، أما
الأبناء فهم كالأبن الضال الذي يتمتع بثروة أبيه...
ولكنه هنا لا يتوب ولا يؤوب.

لم يستطع السود، في المناطق التي خلت من
البيض، أن يبنو فردوساً.

الفردوس ليس أسود، ولا أبيض... إنه علاقة نقية
تقيمها المجموعات البشرية... وهذا ما حاولت
الرواية أن تقنعنا به... ونحن به مقتنعون...
فعندما ننتصر على علاقة مغلوطة نقيم مكانها
علاقة مغلوطة أخرى، فنداوي الغلط بالغلط...
وهذه هي الحماقة البشرية المتأصلة التي تطوف
الكاتبة أرجاءها... والتي تجعل الفردوس حلمًا.

الناشر